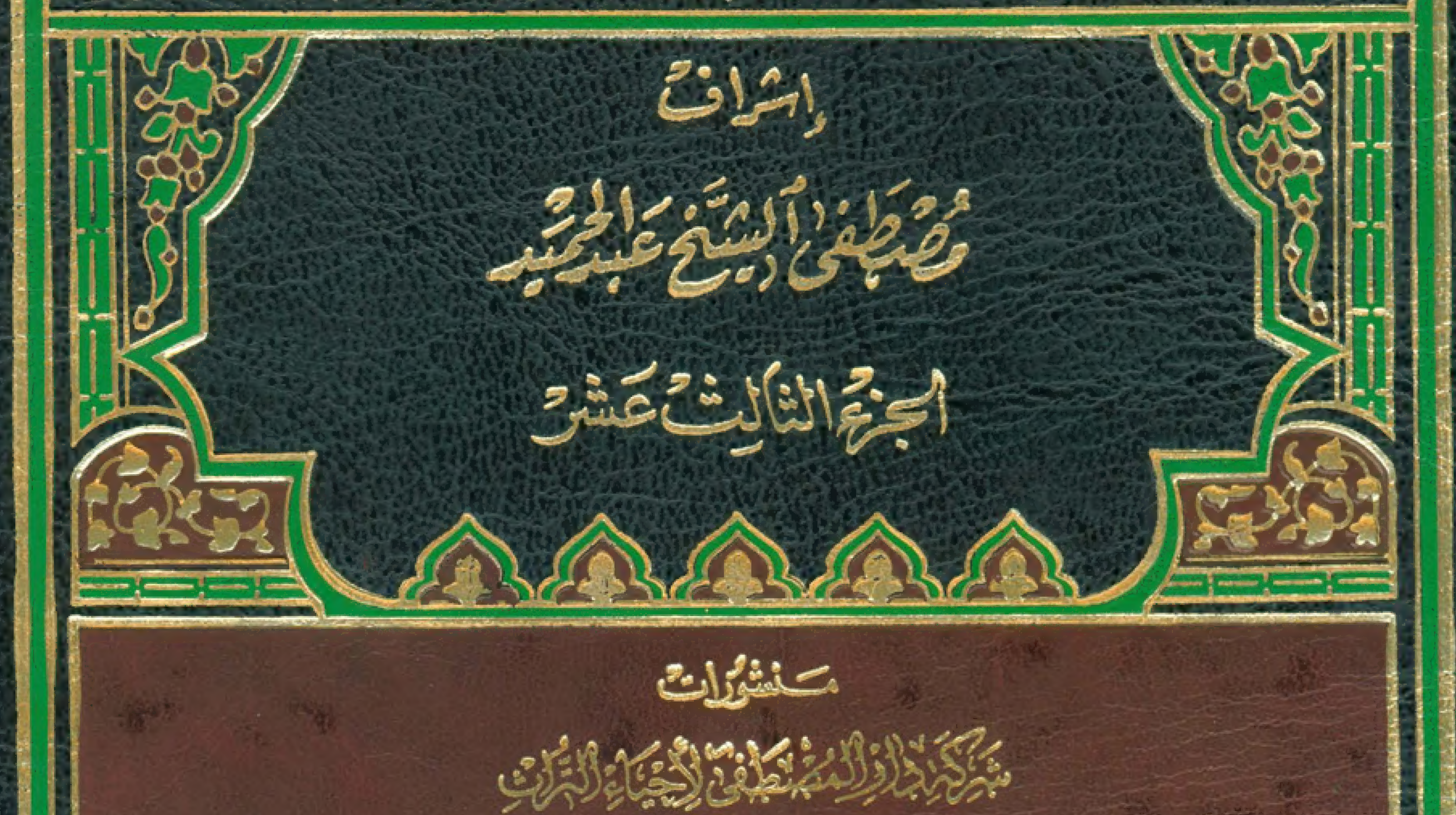
محاضرات الوائلي



إشراف

مصطفى الشيخ عبد الحميد

الجزء الثالث عشر

منشورات

شركة دار المصطفى لإحياء التراث

مُحاضرات الوائلي

رحمه الله

إشراف

مصطفى آل الشيخ عبد الحميد

الجزء الثالث عشر

منشورات
شركة دار المصطفى لإحياء التراث

مصطفى الشيخ عبد الحميد آل مرهون

الطبعة الأولى
١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩ م

يطلب من:
لبنان ـ بيروت ـ جادة السيد هادي ـ مفرق الرويس ـ بناية اللؤلؤة ط١ ـ هاتف: ٠٠٩٦١١٥٤٠٦٧٢
سوريا ـ ص.ب: ٧٣٣ ـ السيدة زينب محمول: ٠٠٩٦٣٩٤٤٣٥٦٥٨٤ و٠٩٩٤٠٧٣٥٥٤
مؤسسة المصطفى: إيران ـ قم ـ خ سمية ـ ١٦ مترى عباس آباد بلاك ٢٤
تلفاكس: ٧٧٣٨٨٥٥ ـ ٠٠٩٨٢٥١
البريد الإلكتروني: E-mail: mnmnmn3@hotmail.com



﴿٢١٦﴾

الله معكم أينما كنتم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَـذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنْ الشَّاكِرِينَ * قُلْ اللهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴾[1].

مباحث النصّ الشريف

ينطوي هذا الحوار الذي أشارت إليه هذه الآية الكريمة، والذي افتتحه القرآن مخاطباً به المجموعة التي عاصرت النبي الأكرم ﷺ على مضامين عدّة سنمرّ بها إن شاء الله واحداً واحداً كلاً في مبحث مستقل:

المبحث الأول: الإيمان في السرّاء والضرّاء

إن آية المقام الكريمة تتساءل، أو هي بالأحرى تـقرّر هـؤلاء المـخاطبين، فتقول لهم: ألم تكونوا تتساءلون دائماً فيما بينكم وبين أنفسكم: من هـذا الذي ينجينا من ظلمات البر والبحر حينما نقع فيها؟

ومن خلال هذا المبحث سنبيّن إن شاء الله تبارك وتعالى المراد من الظلمات. وإجمالاً فإن المعنى الذي ينصبّ عليه هذا المقطع الشريف من هذه الآية الكريمة

---

(١) الأنعام: ٦٣ ـ ٦٤.

هو أن الإنسان ما إن يقع في شدّة حتى يبدأ بالتضرّع إلى الله عز وجلّ والانقطاع بالدعاء إليه طالباً منه أن يخلصه وأن ينجيه ممّا وقع فيه. ثم يروح يرتّب في نفسه وعليها آثاراً فيما لو أنجاه الله سبحانه وتعالى من هذه الشدّة؛ فينذر النـذور، أو يعاهد ربّه في نفسه بأنه إن تمكّن من الخلاص من هذه المصيبة التي هو فيها فإنه سوف يخلص العبادة لله تبارك وتعالى، وسوف يصحّح من سلوكه ويـعدّل مـن مساره في هذه الحياة، وسوف يلتزم طريق الحق والصواب مبتعداً عن كل ما فيه معصية لله تبارك وتعالى وعن كل ما نهى عنه.

ومن هذا ما لو أنه مرض أو افتقر أو تأزّم (أصابته أزمة)، فإنه يفكّر في نفسه حال مرضه: هل إنه سيقوم منه أم لا؟ وهكذا فإنه يبدأ بالتفكير بالكيفية التي سوف يعتمدها وهو ينظم أُموره ويرتب ما بعثر منها، ومنها أن يكتب وصيته ليبيّن فيها ما عليه من التزامات وتعهّدات، وما في ذمّته من ديون وحقوق لله تبارك وتـعالى ولخلقه. لكنه بمجرد أن يبرأ من هذا المرض فإن الحال يتغير معه، فينسى كل ما كان قد فكر فيه وخطط له على صعيد إصلاح أُموره في الدنيا والآخرة وعلى كلتا الجبهتين؛ مع الله تبارك وتعالى، ومع نظرائه من الناس، وهو يعتقد بأنه راحل إلى العالم الآخر؛ ففي لحظة برئه من مرضه ينسى جميع تلك الالتزامات، وينسى كل تلك الأُمور التي خطط لها كافّة.

ثمّ إن الأدهى من ذلك والأمرّ أنه يتطوّر الأمر عنده إلى أن يصل إلى حدّ أنه يلتمس المبررات ويختلق الأعذار؛ كي يبرّر ذلك الانقلاب على المـبادئ الذي حصل عنده والنكوص عنها، والتغيير الذي هو فيه نتيجة ذلك الوضع الذي حصل له بعد أن برؤ من مرضه، وبعد أن ذاق طعم العافية. وبهذا فإنه يترك جميع ما خطر بباله من تعهدات ووصايا وأُمور كان قد وضع لها نظاماً معيناً قرّر أن يمشي عليه

بعد أن يبرأ من ذلك المرض أو بعد أن يخرج من تلك الشدة التي هو فيها، فيوصله ذلك اللون من التقهقر والنكوص إلى أن يمتنع عن أداء ما عليه من حقوق؛ سواء كانت لله تبارك وتعالى، أو لنظرائه من الخلق. وهذا لا يعني إلّا شيئاً واحداً هو أن الإنسان غالباً لا يعرف ربّه إلّا في حالات الضيق والشدّة والضرّاء حتى إذا ما خرج من تلك الظروف التي قاساها وعاناها فإنه سوف يتحوّل في تفكيره إلى حالة مضادّة لما كان عليه لحظة مرضه أو لحظة شدّته، فينسى كلّ ذلك، وهو ما أشار إليه الله تبارك وتعالى[1].

وبذا فإن هذه الآية الكريمة منصبّة على معالجة هذا الجانب المعنوي عند الإنسان، وما ذلك إلّا لما هو عليه من حالة بُعد حقيقي عن الله تبارك وتعالى، وعن إهمال لأوامره ونواهيه عز وجلّ، وعدم إطاعته في أداء فرائضه وسننه التي أمره بها، أو التي فرضها عليه وجوباً أو ندباً.

المبحث الثاني: المراد من ﴿ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾

تقول الآية الكريمة: ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾، والمراد بالظلمات في هذا المقطع الشريف يتّضح من خلال ما يمكن أن تُحمل عليه، وهذا الحمل يمكن أن يتصوّر على نحوين:

النحو الأول: حمل المعنى على ظاهره

وبهذا فإن المراد من الظلمات هنا هو ما يتعرّض له الإنسان من أخطار ومصاعب في البر أو في البحر، أي ما يمكن أن يكون ناتجاً عن اختلاف الجو، أو هبوب الرياح أو ارتفاع الموج فيهما. وهذه الأخطار إنما يعبّر عنها القرآن

---

(١) قال عزّ من قائل: ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يونس: ١٢.

الكريم بأنها ظلمات؛ لأنها تأتي نتيجة تجارب قاسية أو مريرة يمرّ بها الإنسان في حياته. وبما أنها تجارب يمرّ بها كل إنسان، فإننا نجد أن الخطاب القرآني الشريف يتوجّه إليه؛ ليعالج عنده هذه الجنبة، ولينبّهه إلى أنه حينما يمرّ بها فهل يحدث في نفسه شيء من قبيل أن هناك قوة خفية يُمكن أن تنقذه من هذه الوهدة التي هو عليها أم لا؟ وبطبيعة الحال فإن كل إنسان حينما يمرّ بشدّة ما أو مصيبة فإنه ينتابه شعور بأن هناك مثل هذه القوة موجودة في الكون، وهي قوّة قادرة على أن تأخذ بيده، وتسلك به طريق النجاة إلى شاطئ الأمان؛ لتنجيه مما هو فيه من كرب وتنجده مما هو فيه من همّ أو من غمّ وضيق.

وحتى يصح التمسّك بمثل هذه القوة فإنه لابدّ أن يقرّر بأنها أقوى منه أو من جنس الإنسان كافّة، وهذه هي الفطرة التي زُرعت في قرارة كلّ فرد؛ وهي فطرة تقرّر له بأنه إذا ما أصابته شدّة فإن عليه أن يلجأ إلى تلك القوّة الخفيّة العظمى التي لا يمكن لأحد في الكون أن ينجيه سواها. وهكذا فإنها ترغمه أن يلتجئ إليها؛ كي تنقذه ممّا هو فيه من وهدة المشاكل والضرّاء، ويتذرّع بشتّى الوسائل إليها كي تشده من عالم المصائب إلى عالم الأمن والدعة والسلام، وإلى برّ الأمن وساحل الأمان. ولهذا فإننا نجد أن كل إنسان ينزع في أعماقه إلى الإيمان بشدّة وبقوّة لا متناهيتين حينها بتلك القوّة الخفيّة.

فكرة الإله عند إنجلز

وتلك القوّة هي التي يعبّر عنها علماء الأخلاق بأنها الفطرة وإن كان إنجلز وأمثاله من الملحدين قد استغلّوا هذه الظاهرة، فراحوا يشيعون بأنّ الله تبارك وتعالى لا وجود له في الخارج؛ لأن هذا الإحساس عينه الذي ينشأ عند الإنسان حينما يقع في شدّة هو أدلّ دليل وأحسن برهان على أن فكرة الله هي غير

موجودة واقعاً، وأنها مجرد فكرة تعيش في أذهان الناس. وهكذا راحوا يستغلّون هذه الفطرة السليمة، وهذا الإحساس النزيه الذي يقع عند كلّ إنسان لتدعيم نظريتهم ولصالح أفكارهم، فهم يقولون بأن الله تعالى غير موجود خارج أذهان الناس وعقولهم ومشاعرهم؛ لأن الإنسان لا يلجأ إلى التمسك بهذه الفكرة حتى يقع في مصيبة، فيقع في خلده أن هناك قوّة خفية عظيمة قادرة على أن تنتشله من الحضيض وأن تنجيه.

إذن ففي مفهومهم أن وجود الله وجود ذهني فقط وليس وجوداً خارجياً وبمعنى آخر فإنه إحساس يتغلغل في نفس كل إنسان عندما يرى أنه قد وقع في شدة أو في ضراء، فهي مشاعر وأحاسيس تتملّك كيان الإنسان يخلقها كيانه هو نفسه، وليس هناك من أثر واقعي خارجي لها حتى يُقال: إن الله موجود في الخارج فعلاً.

فالإنسان بما أنه ضعيف بطبعه ـ والكلام لا زال تقريراً لكلام إنجلز وأشباهه ـ فإنه حتماً سوف يلجأ بحكم الضعف الذي هو فيه إلى أن يخلق داخله شعوراً بأن هناك قوة أعظم وأضخم منه تستطيع أن تنجيه مما هو فيه من بلاء، ثم بعد ذلك يتطور هذا الشعور أو الإحساس عنده ليصبح عبارة عن إله يتجوهر إليه هذا الإنسان كلما دهمته صروف الدهر أو ظروف قاهرة لا يقوى على ردها أو على التعامل معها أو على معالجتها بنفسه وبقوته الطبيعية[1].

وبهذا التوجه فإنه يُخضع نفسه لهذه القوة ويُصبح خاضعاً وخانعاً لها ويعبدها في كل حيثيات حياته وجزئياتها[2].

---

(١) وهذا ما أشرنا إليه سابقاً بما يسمى محاولة إيجاد المعادل الموضوعي في نفس الإنسان.

(٢) أي أن الأمر يتطوّر عنده ليصل حدّ التطوطم أخيراً.

الردّ على نظرية انجلز

وهذه النظرية بطبيعة الحال لا تصمد أمام النقد والنقاش ذلك أنها تنطوي على مغالطة؛ لأن الثابت في علم المنطق أن التصوّر حادث، وكل حادث لابدّ له من محدث. ولتوضيح هذا الأمر نقول: إننا حينما نفكر في أمر فهذا التفكير لا يختلف بشيء من الأشياء عن أي خطوة يمكن أن يخطوها الإنسان؛ فالتفكير والخطو الذي يخطوه الإنسان كلاهما لا فرق بينهما من جهة أن كل منهما يحتاج إلى محرك يحركهما. فكما أن الخطوة التي يخطوها الإنسان تحتاج إلى محرك يحدثها فكذلك الفكرة التي يفكر فيها الإنسان تحتاج إلى محرك يحركها.

فالخطوة إذن هي عبارة عن حركة مكانية تستلزم إزاحة من مكان إلى آخر، وكذلك الفكرة هي عبارة عن حركة ذهنية تستلزم ازاحة ذهنية من منطقة عقلية إلى أُخرى ينتقل عبرها الإنسان من المقدمات إلى النتائج، أو من الفرض إلى النتيجة. ثم إنه كما أن الخطوة يبدؤها الإنسان ثم ينهيها. فكذلك الفكرة يبدؤها الإنسان ثم ينهيها. وبطبيعة الحال فإن الإنسان ما إن يفكر أو يخطو خطوة ذهنية فكرية حتى يتساءل عن المحرك الأساس الذي من أجله انطلقت هذه الفكرة أو الذي منه انطلقت هذه الفكرة. وغاية ما في الفرق بين الأمرين أن الخطوة الفكرية ذات محرك فكري والخطوة المادية ذات محرك مادي. وبهذا التقريب فإننا نقول: إن كل خطوة ذهنية ما لم يصحبها تحرك ومحرك فإنها لا يمكن أن تكون ولا يمكن أن تولد ولا يمكن أن تنشأ.

وهنا تبرز عظمة الإمام أمير المؤمنين﵇ حيث يقول: «**عرَفت الله سبحانه بفسخ العزائم وحلّ العقود**»[1]، بمعنى أنه﵇ يقول: إن لي عزماً، وهذا العزم يتغيّر

---

(١) نهج البلاغة / الحكمة: ٢٥٠.

إلى عزم آخر من حين إلى آخر، فما الذي غيّر هذا العزم إلى غيره؟ إن الذي غيره طبعاً شيء حادث، وكل شيء حادث كما ذكرنا يحتاج إلى محرّك موجد له. أو بعبارة أُخرى: يحتاج إلى محدث له؛ إذ لابدّ له من ذلك.

إذن فالآية الكريمة من هذا النوع؛ ذلك أنها تقول لهم: أيها الناس إنكم حينما يحدث في نفوسكم أن هناك قوة يمكنها أن تنقذكم وتخلصكم مما أنتم فيه، أو حينما تصيبكم مصيبة أو شدة فإن هذا التحرك هو تحرك نفسي وهو بحاجة إلى محرك ومحدث وهذا المحرك والمحدث هو الله تبارك وتعالى. وعليه فيكون في هذا الكلام دليل على وجوده تبارك وتعالى وليس على عدمه كما يذهب إليه إنجلز وأتباعه وأمثاله، وهذه هي الفطرة ليس غير.

إذن فالتحرك النفسي يعتبر دليلاً واضحاً وثابتاً لا يقبل النقاش والجدال على وجود الله تبارك وتعالى بطيّ المقدمات، وهو ما يعبّر عنه بالفطرة كما أسلفنا.

وعلى أية حال فإن فكرة إنجلز أن الإنسان يخلق في مشاعره وأحاسيسه فكرة يستوحيها من الوضع الذي يعيش فيه أو من الجوّ العسير أو الصعب الذي هو فيه حتى يُقنع نفسه بأنه سوف يتخلص من هذه المشكلة. وباختراع هذه القوة فإنه يكون قد وضع نفسه داخل مطب العبودية؛ حيث إنه يقنعها بفكرة الإله وأنه ما هو إلّا عبد لذلك الإله يجب عليه أن يطيعه وأن ينفّذ أوامره، وأن ينتهي عن نواهيه.

وكل هذا هو نمط يلجأ إليه الإنسان كي يخلق حوله جواً من الراحة النفسية التي يطمئن معها إلى أنه سوف لن يبقى حبيس هذه الحال الصعبة أو هذه الأزمة الخانقة التي هو فيها ما دام قد تعلق بتلك الخيوط التي يعبّر عنها بأنها إله. فاحتياج الإنسان إلى فكرة الإله هو الذي دفعه دفعاً إلى أن يخلقها وإلى أن يصبح بعد ذلك أسيراً لها وعبداً لأوامرها التي يتصور أنها قد أمرته بها. فبتوجه الإنسان إلى تلك

القوة الخفية يستشعر نوعاً من الراحة النفسية والدعة والسلام، وهذا هو كل ما يريده الإنسان دون أن يكون هناك وجود حقيقي لفكرة الإله أو للإله نفسه في الخارج، ما دامت هذه الفكرة تخلّصه وتسدّ احتياجاته، وتقوم بكل ما يرغب بالقيام به.

وكما أسلفنا فإن تصوير المسألة بهذا الشكل هو تصوير غريب في بابه، ولا يمتّ إلى الواقع بصلة أبداً، كما أنه أجنبي عن الحقيقة التي يذعن لها كل إنسان، ويقرّ بها كل منصف؛ وبذا فهي فكرة فجّة غير صحيحة وغير ناضجة، بل ليس لها وجود خارجي أصلاً، لا فكرة الإله التي ليس لها وجود خارجي كما يدّعون. فما يحاول إنجلز وأتباعه إثارته من أن هذا التصوّر هو وجود ذهني صرف متمحّض دون أن يكون له وجود في الخارج هو أمر تثار ضدّه الكثير من علامات الاستفهام؛ كونه لا يتطابق مع الواقع. وتظل فكرة أن الإله لا وجود خارجياً له بل هو وجود ذهني صرف متشخّص داخل مشاعر الإنسان وأحاسيسه فكرةً غير صحيحة، ولا تستحق حتى النقاش؛ لأنه لا يمكن لإله مسيطر على هذا الكون ومحيط به، وهو ليس إلا فكرة في ذهن الإنسان يخلقه متى شاء ويصوّره متى شاء ويتصوره متى يُريد.

وهذا كما أسلفنا قبل قليل ما هو إلّا مغالطة؛ لأن التصوّر هو عبارة عن حركة أو انتقال فكريين، والحركة أو الانتقال لابدّ لهما من محرّك، والتصوّر لابدّ له من محدث. وبطبيعة الحال فإن الذي أحدثها هو الله تبارك وتعالى، وفي هذا أدل دليل على وجوده سبحانه، وعلى قدرته وإحاطته. ونخلص من هذا إلى نتيجة هي أن أفضل ردّ على هؤلاء، وأحسن دليل على وجوده تبارك وتعالى هو هذا الشعور بوجود الإله الذي يقع عند الإنسان، وهو الذي نسميه الفطرة؛ حيث يستشعر

الإنسان في قرارة نفسه الحاجة إلى التوجه إلى قوة خفية تستطيع أن تستنقذه مما هو فيه من شدّة أو من ضرّاء، وهذه القوة كامنة، وهي أقوى منه وتستطيع أن تتصرف في الكون كلّه.

ردّ آخر: بطلان التسلسل

ثم إننا نقول: إن هذه القوة التي يتمسك بها الإنسان إما أن تكون قوة لإنسان مثله أو لا، فإن كانت قوة لإنسان مثله فإن هذا الإنسان شأنه في هذا الأمر شأنه هو نفسه؛ لأنه حينما يصاب بمثل ما أُصيب به هذا الإنسان فإنه حتماً سوف يلجأ إلى مثل تلك القوة الخفية العظيمة الذي يمكن أن تنقذه والتي قد يتوجه إليها هذا الإنسان فتمد له يد العون والمساعدة فتشدّه وتساعده وتنتشله مما هو فيه من مشكلة. ودليل هذا أن هذا الإنسان ـ لو فرضنا أنه هو المقصود بهذه القوة التي يتوجه إليها حينما يقع في مشكلة ـ لا يُمكنه أن يدفع الأذى عن نفسه ولا الضر ولا المرض ولا دفع أي شر يمكن أن يصيبه، بل إنه لا قدرة له ولا طاقة على أن يلبي جميع احتياجاته البدنية والنفسية التي يمكن أن يتعرّض لها[1].

وإذا لم يكن الأمر كذلك فإنه حينئذٍ لابدّ أن يصار إلى القول بأن هذه القوة الخفية هي قوة غير منظورة، وليست قوة إنسان مثل ذلك الإنسان وليست صاحبة الضرّاء التي وقع فيها، وما تلك القوة إلا الله تبارك وتعالى الذي أحاط بكل شيء، والذي يستطيع أن يعالج جميع جزئيات الحياة والكون بأكلمه بحكمة وقوة

---

(١) قال عزّ من قائل: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُوراً * أَفَأَمِنتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً * أَمْ أَمِنتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفاً مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعاً﴾ الإسراء: ٦٧ ـ ٦٩.

ومقدرة لا حدود لها. ومما يروى في هذا المجال أن سلطان صقلية أرق ذات ليلة ومنع النوم، فأرسل إلى قائد البحر وقال له: أنفذ الآن مركباً إلى أفريقية يأتوني بأخبارها. فعمد القائد إلى مقدّم مركب وأرسله، فلما أصبحوا إذا بالمركب في موضعه كأنه لم يبرح، فقال الملك لقائد البحر: أليس قد فعلت ما أمرتك به؟ قال: نعم، قد أنفذت مركباً فرجع بعد ساعة، وسيحدّثك مقدّم المركب.

فأمر بإحضاره، فجاء ومعه رجل، فقال له الملك: ما منعك أن تذهب حيث أُمرت؟ قال: ذهبت بالمركب، فبينما أنا في جوف الليل والرجال يجدّفون إذا بصوت يقول: يا الله، يا الله، يا غياث المستغيثين. يكرّرها مراراً، فلما استقرّ صوته في أسماعنا، ناديناه مراراً: لبيك لبيك. وهو ينادي: يا الله، يا الله، يا غياث المستغيثين. فجدّفنا بالمركب نحو الصوت، فلقينا هذا الرجل غريقاً في آخر رمق من الحياة، فطلعنا به إلى المركب، وسألناه عن حاله، فقال: كنا مقلعين من أفريقية، فغرقت سفينتنا منذ أيّام، وأشرفت على الموت، وما زلت أصيح حتى أتاني الغوث من ناحيتكم، فسبحان من أسهر سلطاناً وأرّقه في قصره لغريق في بحره، حتى استخرجه من تلك الظلمات الثلاث: ظلمة الليل، وظلمة البحر، وظلمة الوحدة. فسبحانه لا إله غيره، ولا معبود سواه[1].

يقول أحد أُدبائنا:

وما ثمّ إلا اللّهُ في كلّ حالةٍ ... فلا تعتمدْ يوماً على غير لطفِهِ[2]

فهو تبارك وتعالى وحده المخلّص ووحده المنجي الذي إذا رأى عبده في شدة استنقذه منها، ولطفه تبارك وتعالى هو الذي ينظر إلينا بعيداً عن معاصينا وعن بعدنا

---

(١) المستطرف في كلّ فن مستظرف ٢: ١٦١.

(٢) المستطرف في كلّ فن مستظرف ١: ١٥٤.

عنه. وهو تعالى يتقرّب إلينا في كل لحظة من لحظات حياتنا التي لا نستحق منه تبارك وتعالى فيها هذا اللطف منه، فينجينا ويستنقذنا من ظلمات البر والبحر. وبهذا المعنى ـ وهو أن المراد من الظلمات الشدائد التي يتعرض لها الإنسان في البر والبحر بفعل ما يقع فيهما من كوارث طبيعية ـ فإن الإنسان حتماً سوف يتوجّه إلى تلك القوة الخفية العظيمة التي سوف تخلصه، وليست إلّا الله تبارك وتعالى الذي ينجي الإنسان من كل ما يعترضه في البر والبحر، فلا يتصور أو يظن أن هناك مخرجاً منها أو مهرباً إلّا بالتوجّه إليه تبارك وتعالى.

النحو الثاني: أن المراد بالظلمات هنا هو المحن الفكرية

فالإنسان بطبيعة الحال يمر عادة كل يوم بمحن كثيرة، ومنها المحن الفكرية، وهي المحن الناشئة عن الاعتقاد أو عن الالتزام بدين معين أو عن التمذهب بمذهب معيّن. فالإنسان لا يخلو يوماً من أيامه بشكل طبيعي من أن يقع فيه في محنة أو مصيبة، حتى إن العرب كانوا يُسمون هذا اليوم بأنه ذو كواكب، أي اليوم ذو المحن وذو المصائب، يقول شاعرهم:

فدا لبني ذهْل بن شيبان ناقتي إذا كان يوماً ذا كواكب أشنعا[1]

أي أنه يوم أسود نسبةً إلى الليل التي تظهر فيه الكواكب. وكأنما الآية الكريمة هنا تريد أن تقول: إن الذي يُنجيكم ويخلصكم من محن البر والبحر وما يطرأ عليكم من هموم ومشاكل وأنتم بين أهليكم، فهذا اليوم الذي تصيبكم به مصيبة سواءً كنتم بين أهليكم أو على سفرٍ فإنه تدلهم ظلمته عليكم ويُصبح أسود كئيباً. وحينئذٍ سوف لن ينجيكم أحد منها إلّا الله تبارك وتعالى، فهو جلّ شأنه من

---

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ١: ٣٨٤، ٢: ٤١، تفسير السمعاني ١: ٢٨٥.

يخرجكم من هذه الظلمات التي تتوالى عليكم في هذه الحياة عبر المحن التي تصادفكم، ومنها المحن الفكرية كما أشرنا.

المبحث الثالث: فلسفة الدعاء

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً﴾، وهنا نقطتان لابدّ من الالتفات إليهما والتنبيه عليهما، وهما:

النقطة الأولى: أهمية الدعاء

إن هناك الكثير من الناس ممن لا يظن أن للدعاء فلسفة خاصة به، وأنه هيكلية متكاملة وحالة من التواصل بين العبد وربه تبارك وتعالى، فيقول: لمَ يضيّع الإنسان وقته في الدعاء والمسألة إلى الله عز وجلّ دون اللجوء إلى الأسباب الطبيعية التي تحقّق له مراده، فيحرزها كي يحصل على ما يريد في هذه الدنيا؟ إن هذا المعترض في واقع الأمر وحقيقته لا يدرك حجمه الطبيعي أو الحقيقي؛ لأنه لو كان يدرك حجمه الحقيقي الذي هو عليه، ويدرك العظمة المطلقة لمن يدعوه ويتضرّع إليه ويتقدم إليه في المسألة لما تفوّه بمثل هذا الكلام واعترض بمثل هذه السفسطة. إن هذا التفكير في واقع الأمر هو نتيجة من نتائج الجهل التي يتخبط فيها الكثير من بني الإنسان، وإلّا فلو أن هذا الإنسان يكتفي بالتفكير بمخلوقات الله تبارك وتعالى دون أن يفكر به هو عزّ وجلّ فإنه حتماً سوف يؤوب إلى ما تدعو الآية الكريمة إليه، وإلى ما تلزم به، وإلى ردّ نفسه أو غيره ممن يعترض هذا الاعتراض على مسألة الدعاء.

ومن هذا أنه لو فكّر بهذا الكون المترامي الأطراف الواسع، وما فيه من مجرّات يبعد بعضها عنّا بما يزيد على أربعة عشر مليار سنة ضوئية ـ وهذه المسافة كما هو معلوم هي كل ما استطاعت أن تصل إليه أجهزة الرصد والتكبير المتوفّرة لدى

العلماء؛ إذ ربّما تكون المسافة أكبر من هذا بكثير[١] ـ لأدرك العظمة والقدرة اللّامحدودتين واللّامتناهيتين لله تبارك وتعالى. هذا مع أنه لم يكن هنالك جزم بما هو كائن وراء هذه المسافات، بل وراء الكون المنظور بالنسبة لنا مما تمكّنت أجهزة الرصد المتوفّرة من الكشف عنه، وما لم تتمكّن تلك الأجهزة من الكشف عنه وعمّا فيه من خصائص وعوالم وأبعاد، وما إلى ذلك مما لا يمكن تصوّره أو تخيّله. فهذا المقدار المشار إليه هو ما استطاعت أن تطاله أجهزة الرصد هذه، أو أن تصل إليه كما هو واضح.

وبهذا تتجلّى عظمة الخالق تبارك وتعالى الذي أحاط بكلّ شيء علماً، وكلّ شيء بقبضته يسيّره كيف يشاء وفق معادلات كونية علمية تحكم نظام هذا الكون وتسيّره دون أن ينفرط عقده. ونحن إذ نفكّر بهذا فإننا حتماً سوف نشعر بضآلة حجمنا وضآلة وجودنا، بل إننا في واقع الأمر سوف نعي بأننا في الحقيقة نعد ذرّة متواضعة جدّاً في خضمّ هذا العالم المترامي الأطراف، بل لا شيء إزاء هذا الكون الواسع الفسيح الأرجاء الذي لا يمكن أن يحدّه عقل إنسان، أو أن يحدّه بتفكيره بما تسبح فيه من مجرّات عظيمة كبيرة ذات سرعات هائلة، وما فيه من دقائق الخلق وعجائبه وغرائبه.

إننا لا نعدو أن نكون ذرّة ضالّة تائهة في هذا العالم الفسيح الأرجاء المترامي الأطراف التي لا تدري أين يسار بها إلّا بما أطلعته عليه يد الحكمة المبدعة، وهي يد الحكمة الإلهية المبدعة. وعليه فحينما يشعر الإنسان في قرارة نفسه بضآلته،

---

(١) بل إن آخر كشوفات العلم الحديث تشير بما أمكن التوصّل إليه عبر التلسكوبات الحديثة والمراقب الكهرومغناطيسيّة أن حافّة الكون تبعد عنّا بما يزيد على عشرين مليار سنة ضوئية.

وأنه لا شيء يذكر قياساً إلى ما حوله من وجود ضخم فإن عليه أن يخضع للقوة الجبارة المبدعة والخلّاقة التي أوجدت هذا النظام كلّه، والتي حافظت عليه من أن ينفرط عقده، أو أن يختلّ نظامه، أو أن ترتبك مسيرته؛ مما يؤدّي به إلى الدمار وإلى الموت.

وهذا هو الذي ترمي الآية الكريمة إلى ترسيخه في أذهان الناس وإلى تذكيرهم به، وهو أن عليهم أن يركنوا إلى الله تبارك وتعالى فيما لو أصابتهم مصيبة، أو نزلت بهم نازلة أو اشتدّ عليهم أمر ما؛ حتى يخلصهم من تلك المصائب والنوازل، أو الكوارث، أو المحن الفكرية وغير الفكرية التي تنشأ من ظلمات البرّ والبحر، وما يعتريهما من ارتباكات مفاجئة نتيجة تغيّر الظروف والأجواء وما إلى ذلك.

فهذه القوة هي الوحيدة القادرة على أن تنجيهم مما هم فيه.

إشكال: الدعاء أو الحتم

وهنا ربما يقول قائل: إن الدعاء لا ضرورة له في واقع الأمر لو نظرنا إلى المسألة بعين البصيرة؛ ذلك أن الإنسان حينما تنزل به نازلة فإن هذه النازلة إن كانت مقدرة عليه ومكتوبة، فلابد من مضائها إلى حيث أراد الله وقدّر وقضى وحتم وحكم، وحينئذٍ فلا يكون للدعاء أي أثر إزاء ما قدّر الله وقضاه، فإنها واقعة سواء دعا الإنسان أو لم يدعُ ربّه، وان كانت غير مقدرة الوقوع فإن هذا يعني أنها سوف ترتفع عنه دون أن يحتاج معها إلى الدعاء؛ لأنها ليست مقدرة عليه، وسوف لن تثبت في حقه، ولن يطول أمرها معه، وسوف تذهب بشكل تلقائي دون الحاجة إلى الدعاء. وعليه فلا ضرورة حينئذٍ إلى اللجوء إلى الدعاء كما ذُكر في أول هذا الإشكال.

الرد على هذا الإشكال

وللإجابة على هذا الإشكال نقول: إن الرد على مثل هذا الإشكال يتمحور حول نقطتين هامّتين، هما:

النقطة الأولى: تدخّل عامل البداء

إن قدرة الله تبارك وتعالى غير محدودة، وأن يده ليست مغلولة وليست جامدة؛ ولهذا فإننا نقرأ في القرآن الكريم: ﴿**يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ**﴾[١]. وهذا يعني أن البارئ تبارك وتعالى إذا أراد أن يغير فإنه يغيّر، وليس هنالك عندنا من شيء محتوم لا يمكن تغييره فيما يتعلق بحياة الإنسان ونظامه وما يدور حوله. وبهذا الاعتبار فإن على الإنسان أن يدعو كلّما تمكّن وكلّما عنّ له ذلك، وكلّما أصابته مصيبة. فالدعاء له ثمرته التي لا يمكن أن تتخلّف؛ سواء في الدنيا أو في الآخرة[٢]؛ ولذا فإن أمير المؤمنين عليه السلام يقرر هذه الحقيقة فيقول: «ادفعوا أمواج البلاء بالدعاء»[٣].

الأثر الوضعي في الدعاء

والدعاء في حقيقة الأمر يُشعر العبد بأنه مفتقر إلى الله تبارك وتعالى، وهذا الشعور بحد ذاته هو عبادة؛ لأن الإنسان حينما يشعر بأنه لا حول له ولا قوة، فإنه حتماً سوف يلجأ إلى قوّةٍ يرتبط بها؛ كي تقيه المكاره، وتجنبه السوء والمصائب.

---

(١) الرعد: ٣٩.

(٢) وقد ورد في الأثر الشريف: «مامن مؤمن دعا الله سبحانه وتعالىٰ دعوة ليس فيها قطيعة رحم، ولا إثم إلّا أعطاه الله بها إحدىٰ خصال ثلاث: إمّا أن يعجل دعوته، وإمّا أن يدخّر له ثوابها، وإمّا أن يدفع عنه من السوء مثلها». الدعوات (الراوندي): ١٩ / ١٢، عدّة الداعي: ٢٤.

(٣) الدعوات (الراوندي): ٢١: / ٣٢.

إن البعض من الناس يظن أو يعتقد أنه هو الذي يدبّر الأُمور حيث إنه يعالجها بقوّة بدنه أو بقوّة فكره، في حين أن الواقع يقول: إن الله تبارك وتعالى هو الذي يتولّى الأُمور، وهو الذي يدبّرها كيف يشاء. وعليه فإن الإنسان إذا ما أحس أنه مفتقر إلى الله تبارك وتعالى، وبأنه محتاج إليه فإنه يكون عابداً لله سبحانه وتعالى؛ لأن هذا الشعور في حقيقته عبادة؛ إذ أنه يعبّر عن مدى التصاق الإنسان بالله تبارك وتعالى واقتناعه بذلك.

فالقرآن الكريم يأمرنا بالدعاء، بل ويحثنا عليه، ولهذا فإننا نقرأ في الكتاب الكريم: ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾[1]. ولذا فإننا نجد أنه نادراً ما يكون في سير العظماء أو الصلحاء من لا يلهج لسانه دائماً بالذكر والدعاء، أما الأنبياء والأيمّة عليهم السلام فإن ألسنتهم دائماً تلهج بالذكر والدعاء والتسبيح والتحميد لله تبارك وتعالى؛ لما للدعاء من أهمية، ولما له من أثر كبير على حياة الإنسان في الدنيا أو في الآخرة.

وربما يقول قائل: لماذا هذا الإصرار على الدعاء والتأكيد عليه، مع أن الله تبارك وتعالى رؤوف رحيم؟ ثم إن الإنسان عبد مسكين ضعيف، وقد خلقه الله سبحانه بهذه الشاكلة من الضعف، وبهذا فإنه لا داعي لأن يدعو.

ونقول: إن الله تبارك وتعالى يريد من العبد أن يسير في طريق الكمال وإلى الكمال، ومن ملازمات الكمال الشعور بالنقص. وربما يستغرب البعض هذا المعنى لكن في حقيقة الأمر أن الإنسان إذا ما شعر بالنقص فإن شعوره هذا يعدّ أُولى خطواته على طريق الكمال. ولتقريب المعنى أضرب مثالاً هو أن الإنسان حينما يبعث ابنه إلى المدرسة ليتعلّم فهو إنما يفعل ذلك لأنه يعلم أنه إن لم يفعل

(١) الفرقان: ٧٧.

فإن ابنه سوف يبقى تنقصه الكثير من الأشياء، وأنه سوف يكون حينئذٍ جـاهلاً، وهذا الجهل الذي سوف يكون فيه هو نقص وارتداد عن طريق الكمال. فهو إذن لم يتعلم ولن يتعلم، ولا يعني هذا إلّا شيئاً واحداً هو أنه لا يستطيع أن يخطو خطوة واحدة في الحياة.

إذن الشعور بالنقص هو الذي يدفع الإنسان إلى التكامل، وإلى البـحث عـن الكمال، وهو الذي يجعله يشعر بأنه كلّه بحاجة وفي حاجة إلى ما حوله، وأن الله تبارك وتعالى كل أمره عطاء ورحمة: «**الذي لا تنقص خزائنه، ولا يـزيده كـثرة العطاء إلّا كرماً وجوداً**»[1].

النقطة الثانية: في معنى التضرّع وضرورته

فالآية الكريمة إذ تقول: ﴿**تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً**﴾ فهي إنما تحثّ على التضرّع وضرورة ذلك للإنسان، وأن عليه أن يتضرّع دائماً إلى الله تبارك وتعالى. وهـذا يُعتمد عبر جنبتين:

الجنبة الأولى: تحقيق مقام العبودية

ذلك أن التضرع في حقيقة الأمر هو شعور في مقام العبودية، وهذا يـعني أن الإنسان حينما يقف بين يدي عظيم فإنه تسيطر عليه حينها مشاعر من التـحرك المدروس، ونمط من التصرف الذي يتناسب وذلك الموقف الذي يقفه، فهو يتحرّك بأدب ووقار، ويعطي المجلس حقّه. فهذا إذن هو نوع من التـضرّع؛ لأنـه حـفظ لهيكل المقابلة؛ فكل مقابلة لها هيكلها، وهذا العبد في حـضرة الله تـعالى، وهـو إنما يقابل الله تبارك وتعالى، ولذا فإنه يـجب أن يكـون لهـذه المـقابلة هـيكلها

---

(١) مصباح المتهجّد: ٥٧٨، الإقبال بالأعمال الحسنة ١: ١٣٩.

الخاص الذي يُعتبر بناءً مرصوصاً ورصيناً من الآداب والخشوع والخضوع إليه تبارك وتعالىٰ.

وقد مرّ بنا أكثر من مرّة أن الإمام السجاد عليه السلام كان إذا وقف إلى الصلاة فإنه لا يتحرك منه إلّا ما تحرّكه الريح[1]؛ لأنه يشعر أنه بين يدي جبار عظيم. وحينما يقف عليه السلام بين يدي الله تبارك وتعالى فإنه يصفر وجهه ويتغير لونه، وحينما يسأل عن السبب في ذلك، فإنه عليه السلام يقول: **«ويلك، أتدري بين يدي من أقف؟ أنا أقف بين يدي جبار السماوات والأرض»**[2].

الجنبة الثانية: أن الله تعالى مطّلع على سريرة الإنسان

وبهذا فإنه تبارك وتعالى مطلع على حاجته، فهو أرحم به من أُمّه وأبيه، ولهذا فإنه يجب على الإنسان أن يتضرّع وأن يخشع بأدب، ودون أن يكون هناك ضجيج في مسألة الدعاء وفي مسألة التضرع، بل على العبد أن يحافظ على الأدب والأخلاق وهو يدعو الله تبارك وتعالى ويخاطبه ويتضرّع إليه. كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في غزاة، وكان معه صحابته، فأشرفوا على وادٍ، فجعل الناس يهلّلون ويكبّرون ويرفعون أصواتهم بذلك، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: **«أيها الناس، أربعوا على أنفسكم، أما إنكم لا تدعون أصمّ ولا غائباً، وإنما تدعون سميعاً قريباً معكم»**[3].

فهو صلى الله عليه وآله وسلم يقول لهم: تجاوزوا هذه الشكليات واجعلوا الروح هي التي تتحكم بكم لا الشكليات.

---

(١) الكافي ٣: ٣٠٠ / ٤.

(٢) عوالي اللآلي ١: ٣٢٤ / ٦٣، الطبقات الكبرىٰ ٥: ٢١٦، تاريخ مدينة دمشق ٤١: ٣٧٨، تهذيب الكمال ٢٠: ٣٩٠، سير أعلام النبلاء ٤: ٣٩٢، البداية والنهاية ٩: ١٢٣.

(٣) بحار الأنوار ٩: ٣٤٣، مسند أحمد ٤: ٣٩٤، ٤٠٣، ٤٠٧، ٤١٨، صحيح البخاري ٤: ١٦، ٧٥، ١٢٦، ٧: ١٦٢، ١٦٩، ٢١٣، ٨: ١٦٨.

فالنبي الأكرمﷺ يبيّن لهم أنهم إنما يدعون من هو أقرب إليهم من حبل الوريد؛ ولهذا فإن الدعاء يجب أن يكون بهدوء وسكينة؛ كي يصبح عبادة، ويأخذ أبعاد العبادة كافّة.

الدعاء الخفي

فالله تبارك وتعالى مطّلع على كل نمط من أنماط العبادة، فلا داعي إذن معها إلى رفع الصوت، ولا إلى استعمال أساليب في التضرع والدعاء ربما يكون فيها إساءة أدب في حضرة الخالق تبارك وتعالى: ﴿**إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيّاً**﴾[1]؛ ولذا فإننا نقرأ في الحديث الشريف: «**خيرُ الدعاءِ الخفيُّ، وخير الرزق ما يكفي**»[2].

شرح مفردات الحديث الشريف

وهكذا فإننا نلمس في هذا الحديث الشريف تأكيداً واضحاً وبيّناً على أمرين، هما:

الأمر الأول: «خيرُ الدعاءِ الخفيُّ»

فأفضل الدعاء هو الدعاء الذي يكون من العبد، وهو في أتمّ حالاته هدوءاً ووقاراً وسكينة واحتراماً للموقف الذي يقفه ولمن يقابله. فالمرء حينما يدعو بصوت عالٍ ويشكو إلى الله تبارك وتعالى ما حل به من مصيبة أو من ألم أو مرض أو فقر ربما يسمعه من يقف بجانبه فيشمت به، سيما إذا كان عدوّاً له، أو ربما يسمعه أحد أحبّائه فيتألم له وهو لا يستطيع أن يفعل له شيئاً أو أن يرفع شيئاً من معاناته.

---

(١) مريم: ٣.

(٢) مجمع البيان ٤: ٧٧، ٦: ٢٠١، المبسوط (السرخسي) ١: ٣٣، تفسير السمعاني ٣: ٢٧٦.

إذن في مسألة الدعاء لا داعي لأن يكون هناك رفع للصوت؛ لأن العبد بـهذا سوف يضع نفسه موضع شماتة العدو أو موضع محل رحمات الخلق ممن يحبونه، في حين أنه ينبغي عليه أن يضع نفسه محل رحمات الخالق تبارك وتـعالى ولا محل رحمات عباده الذين ينبغى عليه ألّا يدعهم يشعرون بضعفه، ولا بما هو فيه من رزيّة أو مصيبة، بل إن عليه أن يجعل ذلك كله بينه وبين بارئه تبارك وتعالى؛ ليشكو إليه همه وضعفه وحاجته وافتقاره، وليطلب منه أن يكون محل رحـمته. بالدعاء والتوسّل.

الأمر الثاني: الرزق الكافي

ويقول الحديث الشريف: «وخير الرزق ما يكفي»، وهذا يعني أن الرزق حينما يخرج عن كونه كافياً وعن حالة كونه مما يسدّ حاجة الإنسان، فإنه حينئذٍ يُصبح من الصعب بمكان السيطرة عليه أو التحكّم بتصرّفات الإنسان معه. وكذلك الأمر حينما يُصبح الرزق دون الكفاية؛ فإن الإنسان سوف يستشعر الأسـى والعـذاب والإحساس بالظلم؛ فالنفس تشتهي كل شيء، فهي تشتهي أن تلبس ولا تجد ما تشتري به ما تلبسه، وتشتهي أن تأكل ولا تجد ما تحصل بـه عـلى مـا تأكـله، وتشتهي أن توسّع على صاحبها وعلى من يلوذ به ولا تجد إلى ذلك سبيلاً، وفي هذا معاناة جسيمة لصاحبها.

الآثار السلبية للإفراط باكتناز الأموال

وهذا أحد طرفي المعادلة، والطرف الآخر هو حينما يزداد الرزق عـن حـد الكفاية فيُصبح الإنسان في حال ربما يصل فيها إلى حالة البطر والكفر. وهكذا فإن الرزق ما دام في حدود الكفاية فهو رزق معقول ومـقبول، لكـنه إذا ازداد فـإن

الإنسان من الممكن أن يبطر ويكفر[1]. ويمكن حصر الآثار السلبية له بالتالي:

الأول: إساءة التصرف بما يعود على المجتمع بالضرر

فالإنسان إذا ما استطاع أن يتصرف بهذا الرزق الوفير وإن زاد وفق أوامر الله سبحانه وتعالى وتشريعاته فإنه حينئذٍ لا بأس بذلك، أما إذا لم يكن يستطع السيطرة على نفسه وعلى أهوائها ومشتهياتها فإن هذا الرزق الزائد عن حاجته حينئذٍ سوف ينقلب إلى وسيلة ضرر عليه وعلى المجتمع. ولهذا فإنه يُقال في المثل: لو كان المال في جرة لحرّكت أُذنيها

فالإنسان حينما يملك أموالاً طائلةً تزيد عن حاجته وتربو على كفايته ثم لا يُحسن التصرف فيها إنفاقاً واكتنازاً فإنه حينئذٍ سوف يختل توازنه تحت وطأة تأثير هذه الأموال عليه. ونحن نرى الانحرافات الحاصلة كل يوم بسبب وجود كميات طائلة من الأموال عند بعض الأفراد غير مسيطر عليها من حيث التصرّف والإنفاق والجمع وما إلى ذلك. فالأموال طاقة، وهذه الطاقة يريد الله تبارك وتعالى منّا أن نصرفها وأن نتصرف فيها وفق ما تمليه الشريعة ووفق ما يقرره العقل بعيداً عن رغبات النفس والعاطفة، وبعيداً عن مسالك الشيطان.

ومع كل هذا فإننا نرى ببالغ الأسف أن صرف هذه الطاقة دائماً يتمّ بالاعتداء على الأعراض والكرامات، والإساءة إلى النفس وإلى الآخرين حيث يضع أصحاب هذه الأموال أموالهم في غير مواضعها؛ لأنهم بمجرد أن يملكوا ما يزيد

---

(١) كما في قصة ثعلبة بن حاطب الأنصاري الذي قال: لرسول الله ﷺ: ادعُ الله أن يرزقني مالاً. فلمّا دعا ﷺ له وكثر ماله ترك الصلوات الخمس، والصلاة في المسجد، والجماعة مقتدياً بالرسول ﷺ، وامتنع من أداء الزكاة. انظر القصة كاملة في مستدرك وسائل الشيعة ٣١: ٢٥٦ / ١٥٢٨٩، وقد ذكرنا أغلبها في ج ١ / محاضرة (القضاء والقدر) من هذا الكتاب.

عن حاجتهم وكفايتهم فإنهم حينئذٍ يفقدون توازنهم، وينساقون وراء أهوائهم وشهواتهم وملذاتهم، فيتّبعون الشيطان في كل تصرّفاتهم نتيجة لهذا البطر الذي يعتريه. ولهذا فقد ورد في الحديث الشريف أن كثيراً من الناس لا يصلحه إلّا الكفاف[1].

الثاني: الامتناع عن إخراج حقوق الله تعالى

إن الله تبارك وتعالى قد وضع للإنسان ضوابط في التصرف بحياتنا كافة، وما لم يلتزم بهذه الضوابط والقوانين فإن هذه الأموال سوف تؤدي بالإنسان إلى الانحراف، وإلى لون من ألوان التصرف غير المدروس الذي يعود بنتائج سلبية وخيمة وعواقب غير محمودة الأثر على الإنسان وعلى المجتمع. وهذا هو الذي يريده الدعاء الشريف بقوله: «وخير الرزق ما يكفي»؛ لأن الأموال حينما تكثر وتزداد فإن من الصعب بمكان على الإنسان السيطرة عليها وفق الضوابط الشرعية؛ ذلك أن هذه الأموال كلما ازدادت كلما ازدادت فيها على الحقوق.

وازدياد الحقوق يعني أن من الصعوبة على الإنسان أن يخرج حق الله تبارك وتعالى. والمسألة حينما تتعلق بالحقوق وفي الوقت تتعلق أيضاً بأموال طائلة ربما تكون بالملايين أو بالمليارات فإن إخراج الحقوق يكون من العسير حينئذٍ على ذوي النفوس الضعيفة، فنراها تمتنع عن إخراج الحقوق المالية الشرعية المترتبة عليها؛ لأنها تستكثر تلك الحقوق سيما إذا كانت الأموال بالملايين أو بما يزيد على ذلك، كما ذكرنا.

---

(١) في الحديث القدسي الشريف: «إن من عبادي المؤمنين لمن لا يصلحه إلّا الفقر، ولو صرفته إلى الغنى لهلك». مشكاة الأنوار: ٥٣٧، تفسير الثعلبي ٨: ٣١٨، الجامع لأحكام القرآن ١٦: ٢٨.

الثالث: قطيعة الرحم

فهذا الشخص الذي يملك هذه الأموال ربما يشعر بالترفع عن زيارة أرحامه وصلتهم، وربما هم يمتنعون عن زيارته لما يستشعرون عنده من تلك الروح، وبذا فإنه يجد مسوغاً لعدم صلتهم سواءً كانت صلتهم بالزيارة أو بتقديم المساعدات والإعانات لهم بحجة أنهم لا يصلونه ولا يزورونه. مع أنه ينبغي أن يفهم أنه مأمور بصلة الرحم بغض النظر فيما إذا كان رحمه طيباً أو غير طيب[1].

فصلة الرحم يجب ألّا تقطع بحال من الأحوال، ويجب على من يملك هذه الأموال أن يعرف بأن هذه الأموال التي هي بحيازته سوف تعرضه إلى مسؤولية ضخمة وكبيرة وإلى مساءلة لا حدود لها أمام الله تبارك وتعالى إلّا إذا وضعها في موضعها؛ فإن لم يضعها في موضعها، وكان قد تصرف فيها تصرفاً بعيداً عن تشريع السماء فإنه حينئذٍ سوف يعرّض نفسه إلى تلك المساءلة. ولذا فإن على الإنسان أن يدع أمواله كطاقة لتتفجر تفجراً طبيعياً، وتأخذ مساراً طبيعياً؛ كي يخدم بها نفسه في الدنيا والآخرة، وأن يخدم بها المجتمع أما إذا تركها لتتفجّر بشكل غير طبيعي وتسلك مساراً غير طبيعي فإنه بالنتيجة سوف يتحمل وزر كل ذلك، وحينئذٍ سوف يضع نفسه في مشكلة مع العقوبة الإلهية.

يروي الأصمعي فيقول: كنت جالساً في أحد الأيام في ديوان الرشيد، فطلب الرشيد من أحد غلمانه أن يأتيه بماء، فجاءه الغلام بماء في كأس من البلور المطعم بالذهب والأحجار الكريمة، ولما قدمه إلى الرشيد وتذوق الماء وجده حاراً،

---

(١) ذكر أمير المؤمنين عليه السلام أنه وجد في قائمة سيف من سيوف نبيّنا الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم صحيفة فيها ثلاثة أحرف: «صل من قطعك، وقل الحقّ ولو على نفسك، وأحسن إلى من أساء». الأمالي (الصدوق): ١٣٠.

فأخذ الكأس وضرب به ذلك العبد حتى شجّه وتحطم الزجاج على رأسه، يقول الأصمعي: فتململت، فرآني الرشيد كذلك فقال: ما بك؟ قلت: هل تأذن لي بالكلام؟ قال: بلى. قلت: بالأمس كانت قريش تعيّر بالسخينة، فهذا حسان بن ثابت يقول:

زعمت سُخَينَةُ أن ستغلبُ ربَّها وليُغلَبَنَّ مُغالبُ الغَلّابِ[1]

فهل نسيتم ذلك؟ وما الداعي إلى أن تكسر كأساً من البلور قيمته عشرة آلاف دينار وتشج هذا العبد؟ إنّ بإمكانك أن تطلب من العبد أن يأتيك بماءٍ بارد. فقال له الرشيد: أنا ألبس النعمة إذ لبستني، فإذا نزعتني نزعتها. والشاهد في هذه القصة هو أنّ السبب لهذا التصرّف الشنيع الذي قام به الرشيد هو كثرة الأموال الذي جرت على يديه بعد أن كانوا لا يجدون ما يأكلون.

وعلى العموم فإن الإنسان كما عبّر عنه القرآن الكريم بقوله: ﴿**كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى**﴾[2]، وإلّا فإن الذي يتمكّن من أن يسيطر على نفسه ومشتهياته وطلبه الملذات الدنيوية ويتصرف بأمواله كما أمر الله تبارك وتعالى فإن هذا هو الإنسان المتزن.

المبحث الرابع: مفارقات في حياة الإنسان

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت ﴿**لَئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنْ الشَّاكِرِينَ**﴾، إن الإنسان بطبعه محب للخير بنفسه ولذا فإنه حينما يقع في مشكلة أو في مصيبة من مصائب الدنيا فإنه يقطع على نفسه العهود والمواثيق، وينذر النذور بأنه إذا ما

---

(١) غريب الحديث (ابن قتيبة) ٢: ١٤٠، لسان العرب ١٣: ٢٠٦ ـ سخن، طبقات فحول الشعراء ١: ٢٢٢ / ٣٠٥.

(٢) العلق: ٦ ـ ٧.

خلصه الله تبارك وتعالى من هذه المحنة فإنه سيشكر، وسيعبد، وسيتقي وسيترك المعصية، وسيمتنع عن كل فعل نهى الله تبارك وتعالى عنه، لكن الذي يحدث هو أن الإنسان بمجرد أن ينجيه الله تبارك وتعالى من تلك الشدة ويخلصه منها فإنه ينسى كل ذلك وكل ما أعطاه من عهود ومواثيق، وكأنه لم يكن هنالك موعدة أو عهد سبق منه[١].

ولذا فإن الآية الكريمة قد عقّبت بعدُ بالقول: ﴿**قُلْ اللهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ**﴾؛ ذلك أن هذا الإنسان يحاول أن يُقنع نفسه ـ كي يتخلّص من تلك العهود التي قطعها عليها ـ بأن هذا الخلاص الذي حصل له ليس بسبب الله تبارك وتعالى، بل إنه بسبب جهده هو ومحاولاته للخروج بنفسه من ذلك المأزق الذي كان فيه، أو أنه بإعانة من الآلهة والأصنام التي يعبدها. فهذا الإنسان حينما يظن من نفسه بأنه يمتلك الخبرة والشهادة والعبقرية، ويرى منها أن عنده الطاقة البدنية التي يكتسب بها الأموال ويحصل بها عليها، وأنه هو الذي تمكّن من أن ينقذ نفسه وأن يخرجها من المآزق التي تعترضه في الدنيا دون أن يكون لذلك تدخل من الله تبارك وتعالى. ربما يكون قد نسي أو أنه يتناسى بأن هناك العديد من الناس ممن يمتلكون كل هذه المؤهلات التي عنده من حيث الشهادة والعبقرية ومن حيث الطاقة البدنية والذهنية ومع ذلك فهم لا يستطيعون أن يحصلوا على تلك الأموال أو أن يكنزوها أو أن يستنقذوا أنفسهم.

فمسألة الرزق لا علاقة لها بكل هذه المؤهلات، بل إنها خارج هذا النطاق أساساً، فلا تتحكم فيها كل هذه الاعتبارات والمقاييس التي نعرفها، بل إنها ترتبط

---

(١) قال عزّ من قائل: ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يونس: ١٢.

بالله تبارك وتعالى وإن حاول البعض أن ينسبها إلى قوىً أُخرى غيره سبحانه؛ فكل شخص ينسبها إلى شكل معين مما يقول به أو يعتقد به؛ فهذا يقول بأن الذي يسبب كل ذلك ويقسم الرزق هو الطبيعة، ويقول غيره: إن الذي يقوم بذلك هو الأصنام، وآخر يقول: إني قد حصلت على كل ذلك بجهدي وتعبي وما إلى ذلك. ومع كل هذه الآراء التي تبتعد عن الواقع ابتعاداً كبيراً يبقى الله تبارك وتعالى هو الذي يرزق، وهو الذي يُطعم، وهو الذي يعطي الإنسان الطاقة بعد أن خلقه وقدّر له رزقه وإن قام بنسبة كل هذا إلى غيره جلّ وعلا.

تطبيقات من الواقع على ضوء الآية الكريمة

إن هناك تطبيقات كثيرة في هذا الميدان مما تتناوله هذه الآية الكريمة، ونحن سنحاول أن نمرّ ببعضها؛ كي نجد أن ما تقوله الآية الكريمة بحق الإنسان هو أمر واقع لا خلاف فيه:

الأنموذج الأول: العباسيون

إن العباسيّين كانوا في بداية أمرهم لا يعدّون رقماً ذا قيمة في الساحة الاجتماعية أو السياسية، بل إنهم ليس لهم وجود أصلاً مع استثناء عبد الله بن عباس ﷺ حبر هذه الأُمّة من هذه القاعدة؛ ذلك أنه شخص بارز ومعروف في الساحة العلمية أو الاجتماعية، أما أولادهم وأحفادهم فلم تكن لهم تلك المكانة أو ذلك الوجود على جميع الساحات المعروفة آنذاك، فهم مأمورون غير معروفين، لكنهم مع كل ذلك حاولوا أن يركبوا الموجة للوصول إلى الحكم.

وفعلاً فقد ركبوا الموجة العلوية ورفعوا شعار «يالثارات الحسين» وشعار «الرضا من آل محمد»؛ كي يصلوا إلى أهدافهم موهمين الناس بأنهم بهذا الشعار

يريدون بأن الأُمويين هم الذين قتلوا الإمام الحسينعليه السلام وأساؤوا إلى النبيصلى الله عليه وآله وسلم بعترته وأساؤوا إلى الإسلام باعتدائهم على حملة الإسلام. وقد حاولوا مع بعض أبناء البيت العلوي بتمرير مخططهم ولتبرير تحرّكهم، فقالوا لهم: لقد جمعتنا وإياكم المصيبة ونحن أبناء عمومة وأُسرة واحدة، بل نحن إزاء الأُمويين في خندق واحد؛ فآلامنا واحدة، وجراحنا واحدة، ومشوارنا في هذه المسألة يتجه إلى طية واحدة؛ وعليه فإن علينا أن نجتمع وأن نتّحد وأن نتّفق لإسقاط الأُمويين، وإرجاع الحق إلى نصابه.

وهكذا مشوا في هذا الطريق، وهو الطريق الذي جعل الناس يتعاطفون معهم باعتبارهم يحملون حقّ استرجاع دعوة العلويين والوقوف بوجه الباطل؛ فوقف الناس معهم، وحملوا اللواء ونصروه. لكن بالرجوع إلى الحقائق التأريخية لنعرف كيف كانت النتيجة فإننا نجده خلاف ما طبّلوا له وما زمّروا، وكشاهد على ما نذكره هنا أروي حادثة وقعت لعبد الله بن الحسن الذي ألقى المنصور القبض عليه هو وأولاده الذين اضطروا إلى التمرد عليه نتيجة الضغط الذي مارسه ضدهم. وكان أبو سلمة الخلال كبير وزراء المنصور، وكان يميل إلى العلويين، فرأى أن الضغط يشتد عليهم، وأن المنصور يحاول أن ينال منهم بشتى الوسائل، فقصد عبد الله بن الحسن وأخبره بأنه على استعداد لأن يغيّر مسار الأُمور، ويجعل الحكم بيد العلويين.

ثم إنه خطا خطوة عملية، فأرسل كتاباً بذلك إلى الإمام الصادق عليه السلام الذي يعرف الساحة وما فيها، فلما وصل كتابه قال الإمامعليه السلام: **«عليّ بالسراج»**. فلمّا جاؤوه به وضع الرسالة على السراج وأحرقها، وقال للرسول **«إذهب لأبي سلمة وقل له: هذا جواب رسالتك»**.

فالامام عليه السلام يريد أن يبين له بأنه لا علاقة له بهذه الأُمور التي يدعو لها؛ لأنـه يعرف كثيراً من الأُمور التي تخفى على أبي سلمة وغير أبي سلمة، وعندها قصد أبو سلمة عبد الله بن الحسن الذي استجاب له ووافـقه عـلى فكـرته، غـير أن الاستخبارت قد أوصلت للمنصور الواقعة، فعمد إلى إلقاء القبض على عبد الله بن الحسن وعلى أولاده، وزجّ بهم في السجن، وهم ثلاثة عشر رجلاً. وحدث أن مرّ يوماً بموكبه يريد الحج، فوقفت له طفلة من بنات عبد الله واستشهدت له بأبيات فقالت:

ارحــم كـبيراً سـنّه مـتهدّم	في السجن بين سلاسل وقيودِ
وارحم صغار بـني يـزيد إنـهم	يـتموا لفـقدك لا لفـقد يـزيدِ
إن جدت بالرحم القريبة بـيننا	مـا جـدّنا مـن جـدّكـم بـبعيدِ

فقال لها: أذكرتنيه انزلوه إلى المطبق[١]. حيث إن العباسيين كان عندهم نوعان من السجون: السجون البسيطة والسجون الشديدة وبهذا يكون قد أمرهم بزجهم في السجن الشديد المظلم المسمى المطبق، فوضعه وأولاده في أحـد سراديـبه وضرب بأيديهم المسامير على الحيطان وأمر بالسرداب فـاغلق عـليهم إلى أن ماتوا داخله.

وهؤلاء هم أبناء العم الذين وقف الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ليرفع مـن شأنـهم وليصنع منهم رجالاً لهم قيمة وشأن بعد أن كانوا مغمورين، مع أنه قد تعرض من أجلهم إلى ضغوط كبيرة[٢]. على أية حال، فهؤلاء قـد ركـبوا مـوجة العـلويين،

---

(١) تاريخ بغداد ٩: ٤٣٩، تاريخ مدينة دمشق ٢٧: ٣٨٩.

(٢) حيث إنه عليه السلام عوتب على توليته أبناء عمومته وأنه بهذا إنما يفعل فعل عثمان حينما قـرّب الأُمويين. وقد أجابهم الإمام عليه السلام بجواب مرّ ذكره في إحدى المحاضرات السابقة.

وانتهوا إلى هذه النتيجة بعد أن استولوا على الحكم باسمهم، ثم راحوا يطاردونهم ويضيّقون عليهم الخناق.

الأنموذج الثاني: الأتراك

وهؤلاء أيضاً من تطبيقات هذه الآية الكريمة؛ ففي عام (١٩٢٠) حينما اندلعت الثورة التي سُميت باسم العام التي وقعت فيه، وهي «ثورة العشرين»، كان العراق موزعاً بين الأتراك وبين الإنكليز. ونحن حينما نرجع إلى تاريخ الأتراك معنا بشكل خاصّ، ومع العرب بشكل عام نجد أنهم قد عملوا جاهدين على تأخير هذه الأُمّة مئات السنين، فحاولوا عبر سياسة التتريك القضاء على لغتنا وحضارتنا وتاريخنا. وهذا الأمر لم يكن مقصوراً على تلك الأزمنة، بل إنه يمتدّ ليشمل هذا الزمان أيضاً؛ حيث إننا لا نزال نلاحظ أنهم حتى هذه الساعة يضعون أيديهم بيد إسرائيل ضدّ العرب وضدّ المسلمين، ومع كل هذا فإن هؤلاء يعتبرون من الصميم الإسلامي؛ وعليه فإنه لا يحق لأحد أن يتناوله بلسانه أو بنقده.

على أية حال فهؤلاء اتّخذوا لوناً من العبث، وعملوا على إقصاء العرب عن الحياة السياسية والاجتماعية والعلمية والحضارية، فارتكبوا المجازر خصوصاً مع شيعة أهل البيت عليهم السلام، لكن حينما حدثت معارك بينهم وبين الإنكليز كان لعلماء الشيعة موقف آخر منهم حيث إنهم جنّدوا كل أتباعهم، وأفتوا بوجوب الجهاد إلى جانبهم، مع كل ما مرّ منهم تجاه الشيعة ومذهب الشيعة. وكان مبنى علمائنا (رضوان الله عليهم) أن هؤلاء هم أهل «لا إله إلّا الله»؛ ولذا فإنه يجب نصرتهم ضد الإنكليز الكفرة.

وفعلاً خرج المرحوم السيد محمد سعيد الحبوبي والمرحوم السيد الحكيم وعلماء شيعة آخرون، وأمروا بتسليح كل الشيعة للقتال إلى جانب الأتراك،

فقاتلوا وقُتل منهم الآلاف، وسقط ما لا يعد ولا يحصى من الضحايا، وتكبدوا الخسائر، وكان من نتيجة ذلك أن تعرض جماعة منهم إلى النفي إلى الخارج في معركة لم يربحها الأتراك، فتحمل هؤلاء أعباء المعركة، ودفعوا الثمن من دمائهم وأموالهم ورجالهم.

لكن بعد انتهاء هذه الأزمة، وبدلاً من أن يردّ الأتراك لهؤلاء جميلهم رجعوا فسلطوا عليهم سيوفهم، وذبحوهم ذبح الكباش. وامتدّ إلى وقتنا الحاضر؛ حيث وصلت الوقاحة ببعضهم إلى أن أصدر كتباً في هذه الأيام مثل كتاب (كشف الجاني محمد التيجاني) لمجرد أن هذا الأخير قد تشيّع وكتب في حق أهل البيت عليهم السلام. وهم يدّعون أن الشيعة حينما انهزم الأتراك قد أخذوا الحجر الأسود المقدّس ونقلوه إلى الأحساء، حيث أقاموا هنالك الأفراح والمسرّات شماتة بالأتراك إذ انهزموا، مع أن العكس هو الصحيح؛ فالذي حصل هو أن الشيعة قد بذلوا دماءهم وأموالهم ورجالهم، وقاتلوا معهم ضد الإنكليز. غير أن المصيبة هي فيمن تتكلم معه[1].

إنني أعتقد جازماً أن هؤلاء بما أنهم بهذا المستوى المنحطّ من التفكير والافتراء وقلب الحقائق، فإنهم لا يمثلون ضمير الأمّة، بل إنهم شريحة معينة معروفة من ذوي الأقلام غير النظيفة التي تحاول قلب الحقائق، وتشويه التاريخ، وتزوير الوجود كلّه، وإلّا فإن ذوي الأقلام النظيفة لا يمكن أن يصلوا إلى هذا المستوى من الكذب والافتعال. إننا لا نريد أن نقول: إننا جزء خارج عن جسم الأُمّة، بل نحن نقول: «أشهد أن لا إله إلّا الله، وأن محمداً رسول الله»، وهذه هي

---

(١) قال الشاعر:

لقد أسمعت لو ناديت حيّاً ... ولكن لا حياة لمن تنادي

التبيان ١: ٦٤، ٤: ١٢٥، البحر المحيط ١: ٥٤٢، أضواء البيان ٣: ٢٨.

هويتنا جميعاً؛ ولذلك ينبغي علينا جميعاً أن نحافظ على هذه الهوية، وأن نعرف أن الله تبارك وتعالى قد أكرمنا بها لنعيش تحت لوائها جماعة واحدة كجسم واحد إذا اشتكى منه عضو اشتكت له باقي الأعضاء وتداعت له بالسهر.

نعم، إننا لم نقم الأفراح بانكسار العثمانيين، بل إن الذي حصل منا هو أن كلمة «لا إله إلّا الله» قد دفعتنا إلى القتال بجانبهم، وهذا التاريخ موجود بين يدي الجميع يُثبت كل هذه الحقائق التي ذكرناها، ويؤكّد موقف الشيعة الذي يندرج دائماً ضمن نداء الأُمّة وليس مع نداء الشيطان كما تحاول بعض الأقلام التي لا رقيب عليها أن تُظهر ذلك أو كما هو شأنها هي. وهذا الواقع الذي كان عليه هؤلاء مع الشيعة قد ترجمه أحد الشعراء بقوله:

أبالمعارك أبناء لواحدة ... وبالمآدب أبناء لعلّاتِ

فهو يريد أن يقول: إن حالنا معكم هو أنه حينما تحدث معركة بينكم وبين غيركم اعتبرتمونا إخوة لكم؛ لأنكم تحتاجون إلى نصرتنا، أو لأننا نقوم بنصرتكم، لكن حينما يحلّ وقت الطعام أو توزيع الغنائم فإنكم تصبحون المسيطرين على كلّ شيء دون غيركم، وكأننا أبناء ضرائر. ويقول غيره:

أيّام نقتسم اللظى وصدورنا ... تضرى فيمنحها الوسامَ المدفعُ
ودماؤنا امتزجت سواءَ فلم تكن ... فِرَقاً يصنّفها الهوى وينوّعُ
وتعانقت فوق الحراب أضالع ... منّا فما ميزت هنالك أضلعُ
حتى إذا أرسى السفين وعافه ... نوء زحمنا منكبيه زعزعُ
عدنا وبعض للسفين حباله ... والبعض حصّته السفينة أجمعُ[1]

أي أن الذي يحصل معكم هو أنكم في أوقات الشدّة تظهرون للآخرين بأنهم

---

(١) ديوان المحاضر ١: ٤٩.

إخوانكم وأنهم منكم، أما في وقت قسمة الغنائم فإنكم تستقلّون بها وتظهرون للآخرين بأنهم أعداء لكم، وعليه فلا حقّ لهم فيها، ولهذا فإن الأعداء يجب أن يُبعدوا عن جسم هذه الأمّة.

ومثل هذه المفارقات يجب أن تزول عن تاريخ المسلمين، ويجب على كلّ مسلم أن تكون عنده موضوعية في معالجة قضايا التاريخ ومعالجة الحياة؛ لأن الله تبارك وتعالى بالمرصاد لهذا اللون من التصرّف، والانتهازية، البعيد عن كل المعاني الأخلاقية والمعايير الأدبية والإسلامية وغيرها.

رجع

إذن فالقرآن الكريم يقول: **﴿قُلْ اللهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾**، أي أنكم وقت الدعاء تتضرّعون إلى الله سبحانه وتتوسّلون إليه، وتصفون أنفسكم بأنكم عبيد له، لكنكم بعد أن تمر هذه الشدة وهذه المحنة ترجعون إلى الكفر والشرك بدلاً من أن تشكروه بعد أن طلبتم رحمته وعطفه وشفقته، فتقولون: نحن من أنجى أنفسنا بما نملك من طاقات وخبرات، أو آلهتنا هي التي أنجتنا من هذا، أو أن الطبيعة هي التي فعلت كلّ ذلك.

أهمية الدعاء

ومن هذه الآية نجد أن للدعاء أهمية كبيرة في القرآن الكريم، ولذا فإننا نجده يوبّخهم على تركه؛ لأن الدعاء يعتبر ركيزة من الركائز الهامة التي يعتبرها الإسلام عبادة بحد ذاتها. فالعبادة في الإسلام تقع على ثلاثة معانٍ:

الأول: العبادة الجسدية كالصلاة والحج وما إلى ذلك.

الثاني: العبادة القولية وتندرج فيها الصلاة أيضاً.

الثالث: العبادة الفكرية أو القلبية، ومنها الدعاء الذي يكون عبادة فكرية وذكرية أو قولية:

فهو عبادة فكرية؛ لأن أي ناقص يحاول أن يصل إلى رتبة الكمال، ولا يصل إلى رتبة الكمال حتى يدعو الكامل وهو الله تبارك وتعالى.

وهو عبادة ذكرية أو قولية؛ لأن اللسان يلهج بذكر الله تبارك وتعالى دون أن يترك ذلك الذكر، بل ينقطع إلى الله سبحانه بالذكر والدعاء وما إلى ذلك من صور الذكر الأُخرى.

استجابة الدعاء

ولما للدعاء من أهمية كبيرة فإن الله تبارك وتعالى لا يرد دعاء المعصومين أبداً؛ فالمعصوم بما يمتلك مقوّمات التقوى، والخضوع الكامل، والمعرفة التامّة بالله تبارك وتعالى، وحسن الأدب عند الوقوف بين يديه فإن الله تبارك وتعالى لا يرد دعاءه أبداً.

نعم ربما يتأخر دعاؤه مدة لكن لا يترك دعاؤه دون استجابة أبداً ومن هذا أن الإمام الحسين عليه السلام حينما نزل علي الأكبر إلى المعركة رأى عمر بن سعد وقد وضع ابنه حفصاً وغلامُه دريد أمامه، في حين أنه عليه السلام رأى نفسه يقدم ابنه ضحية وطعاماً لسيوف هؤلاء ولأسنّتهم، فشخص ببصره إلى السماء أولاً، ثم دعا الله تبارك وتعالى فقال: «**اللهمّ اشهد علىٰ هؤلاء القوم، فقد برز إليهم غلام أشبه الناس خلقاً وخلقاً ومنطقاً برسولك، وكنّا إذا اشتقنا إلىٰ نبيّك نظرنا إلىٰ وجهه. اللهم امنعهم بركات الأرض، وفرّقهم تفريقاً ومزّقهم تمزيقاً، واجعلهم طرائق قدداً، ولا ترضِ الولاة عنهم أبداً؛ فإنهم دعونا لينصرونا ثم عدَوا علينا يقتلوننا**».

ثم خاطب عمر بن سعد قائلاً: «**ما لك؟ قطع الله رحمك، ولا بارك الله لك في أمرك، وسلط عليك من يذبحك بعدي على فراشك، كما قطعت رحمي، ولم**

تحفظ قرابتي من رسول الله ﷺ»[1].

وهذا الدعاء في واقع الأمر يبيّن لنا مدى حرقة قلب الإمام الحسين عليه السلام على ولده، فالألم الذي كان يخالج قلبه وهو يرى ابن سعد وأولاده معه في حين أنه عليه السلام يقدّم أولاده أضاحِيَ فداء للإسلام الواحد تلو الآخر، كل ذلك جعل قلبه يعتصر بالألم. وليس هذا الأمر سهلاً أبداً، فلا يمكن لإنسان أن يحتمل أنه ما بين آونة وأُخرى يجيء بأحد أولاده أو أولاد إخوته وعمومته مقطّعاً بالسيف إرباً إرباً، وقد تناثرت أعضاؤه، ويضعه إلى جانب القتلى ممن سبقوه إلى الشهادة والجنة، وكذلك أصحابه الذين تساقطوا الواحد تلو الآخر دونه. فهذا موقف صعب جداً؛ ولهذا فإنه عليه السلام قال له: **«قطع الله رحمك، ولا بارك الله لك في أمرك، وسلط عليك من يذبحك بعدي على فراشك، كما قطعت رحمي»**. ثم التفت إلى ولده علي الأكبر وقال له: **«ابرز بني»**.

وفعلاً فإن الله تبارك وتعالى قد استجاب دعاء الإمام الحسين عليه السلام بعد ذلك حيث قُتل عمر بن سعد على فراشه وجيء برأسه إلى المختار بن عبيد الثقفي.

وكان ابن عمر جالساً عند المختار، فقال له المختار: أتدري رأس من هذا؟ قال: هذا رأس أبي، ولا خير في الحياة بعده. فقال له: سألحقك بأبيك. ثم أمر به فضربت عنقه، ثم أخذ الرأسين وقال: أهذا برأس الحسين عليه السلام وهذا برأس عليّ الأكبر؟ إن لحظة ألم واحدة من اللحظات التي مرّ بها الإمام الحسين عليه السلام لا يمكن أن يعدلها هذا كلّه. ثم وضع الرأسين أمامه وقال: فهل هذان يمكن أن يكونا عِدلاً لسيّد شباب أهل الجنّة وابنه علي الأكبر شبيه الرسول الأكرم ﷺ خَلقاً وخُلُقاً؟ إن هذا لا يكون.

---

(١) بحار الأنوار ٤٥: ٤٢ ـ ٤٣، الفتوح ٥: ١١٤.

وهكذا فإن لحظة واحدة من لحظات الألم التي مرّت على الإمام الحسين عليه السلام وهو يرى ولده عليّاً الأكبر يُقتل لا يمكن أن يعادلها شيء أبداً وإن قتل به ثلاثة أرباع الكرة الأرضية.. ذلك الألم الذي راح يعتمل في صدر الإمام الحسين عليه السلام حينما خرج علي الأكبر إلى المعركة وقد سقط صريعاً، وقد انتهى الأمر بالإمام الحسين عليه السلام إلى درجة أنه ترجّل عن فرسه وسط الميدان، ووضع ثغره على خدّ علي الأكبر وراح يقبّله ويحتضنه:

ومحا الردى يا قاتل اللّه الردىٰ — منه هلال دجىً وغرةَ فرقدِ

يا نجعةَ الحيّينِ هاشم والندىٰ — وحمى الذمارين العُلا والسؤددِ

أفديه من ريحانة ريّانة — جفّت بحرّ ظما وحرّ مهندِ

لم أنسَه متعمّماً بشبا الظبا — بين الكماة وبالأسنّة مرتدِ

فلتذهبِ الدنيا على الدنيا العفا — ما بعد يومِك من زمانٍ أرغدِ[1]

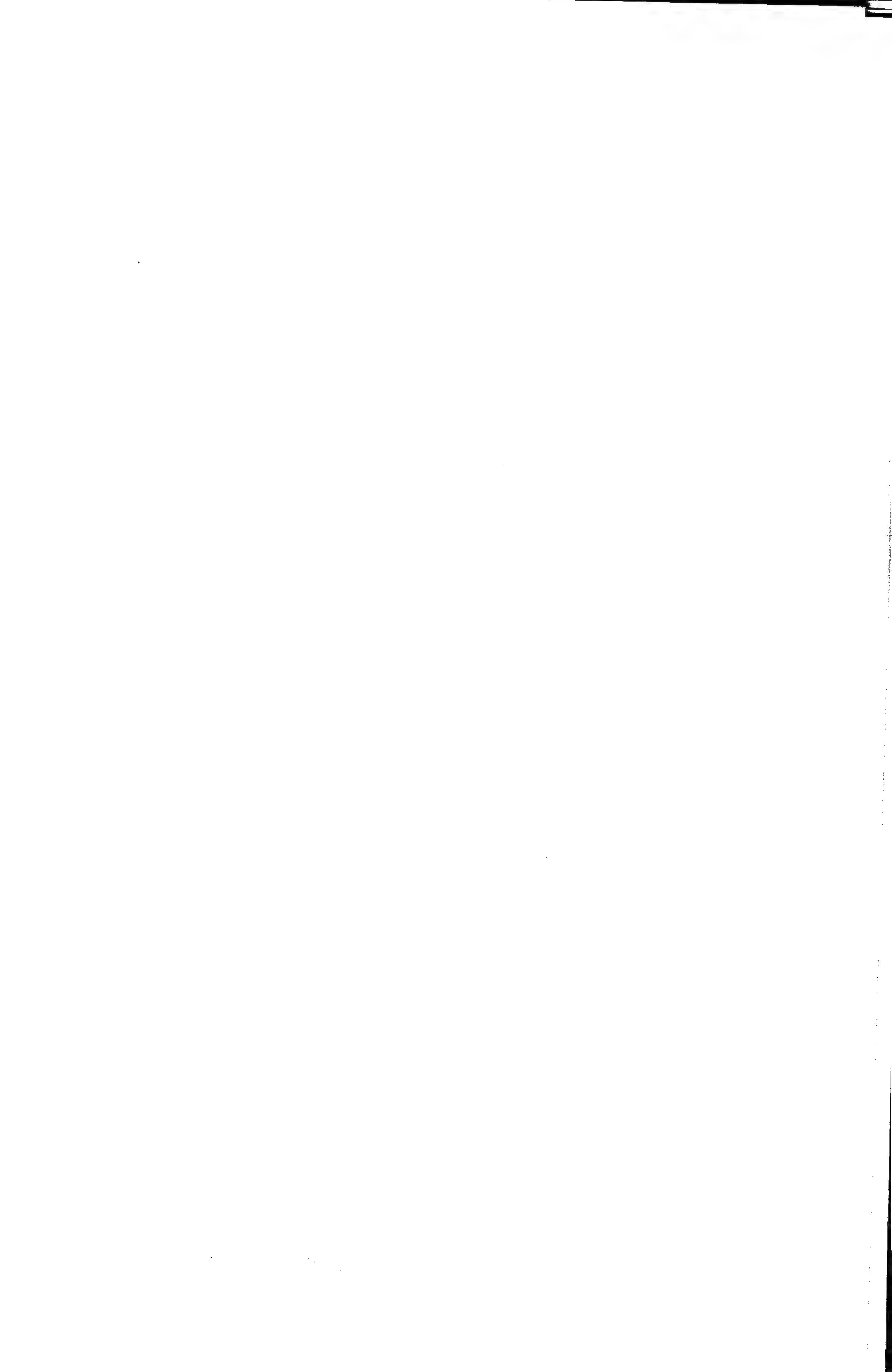
ثم التفت إلى من تبقّى من الهاشميين وقال لهم: «**احملوا أخاكم، والله لا طاقة لي علىٰ حمله**». فحملوه ورجلاه تخطّان الأرض، وهو عليه السلام من ورائهم ينظر إليه والدماء قد غطّت محيّاه، فجاؤوا به حتى وضعوه في الخيمة بين القتلى مع الهاشميّين، فجلس الإمام عليه السلام عند رأسه يمسح عنه الدم والتراب، وجاءت أُمّه ليلى تندبه:

شالفايده وياك يبني — أنا الوالده وهيّن تذبني

ردتك عليه البيت تبني

---

(١) من قصيدة للشيخ عبد الحسين صادق العاملي. رياض المدح والرثاء: ١٢١.



﴿٢١٧﴾

عاقبة الطغاة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِـرْصَاداً * لِـلطَّاغِينَ مَآباً * لابِثِـينَ فِيهَا أَحْقَاباً﴾[1].

مباحث النصّ الشريف

يرتبط موضوع هذه الآية الكريمة بالطغيان، وهو من المواضيع الحـية التـي تعيش مع الشعوب والأُمم، ومسائله من الفقه الحي؛ ذلك أن من الفقه ماهو ميت ـ أي ذهبت مسائله وانتهت، ولم يبقَ لها أثر سوى ما هو موجود في بطون الكتب فقط ـ ومنه ماهو حي يعيش مع الإنسان في كل أبعاد الحياة. ومن الفقه الحي أن المجتمع لا يمكن أن يستغني عمّن يديره ويدبّر له أمره. والذي يدير المجتمع إما حاكم متسلّط وطاغية، أو إنسان عادل. وسنرى كيف أن هذا الموضوع يـرتبط ارتباطاً وثيقاً بثورة الإمام الحسين عليه السلام، ووقوفه بوجه الطغيان الأُموي ليردّه عن أُمّة جده المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم.

المبحث الأوّل: متعلّق العذاب

تقول الآية الكريمة: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ﴾، ويلاحظ أن الحرف المشبّه بـالفعل ﴿إِنَّ﴾

(١) النبأ: ٢١ ـ ٢٣.

الوارد في صدر الجملة هو حرف يفيد التأكيد، أي أن هذا الأمر ـ تعذيب الطغاة والكافرين، وأن جهنم مرصاد لهم ـ هو أمر واقع فعلاً دون أدنى ريب أو شك؛ فهو أمر حقّي.

معنى كلمة ﴿جَهَنَّمَ﴾ وأصلها

إن لفظة ﴿جَهَنَّمَ﴾ ليست لفظة عربية، والقرآن قد اقتبسها من لغات أُخرى، لكنها كلمة معرَّبة كما هو شأن كثير من الألفاظ المستعملة في اللغة العربية وهي من أصل غريب عنها، فلما جاء القرآن الكريم استعملها. و﴿جَهَنَّمَ﴾ بإجماع الأديان والعقائد هي المكان الذي يحبس فيه العصاة على تفاوت؛ أي حسب شدّة الذنب الذي يرتكبونه. لكن كيف يمكن أن نتصوّر أن الإنسان يحبس في جهنم؟

إن من البديهي أن الماء إذا بلغ درجة حرارة (١٠٠) درجة مئوية، فإن الإنسان يموت عند إلقائه فيه، فكيف يمكن أن نتصور حرارة جهنم؟ ولو رجعنا إلى علماء الفلك لوجدنا أنهم يقدّرون درجة حرارة مركز بعض النجوم بما يزيد على (٢٠) مليون درجة مئوية، فكم إذن هي حرارة جهنم التي تقول الروايات بأنها لو أن حلقة واحدة من حلقات سلاسلها سقطت منها على الأرض لأحرقتها، ولساخت منها؟ إن المسألة إذن لابدّ أن ترتبط بعذاب الروح دون الجسم؛ لأن الجسم سوف يموت من أول لسعة من العذاب بالنار. كما أن عذاب الروح عذاب مضاعف لا يمكن احتماله.

هل الجنة والنار مخلوقتان أم لا؟

إن قوله تعالى: ﴿مِرْصَاداً﴾ يعني أن جهنم موجودة فعلاً، لكننا مع ذلك نجد أن هناك نزاعاً بين علماء المذاهب الإسلامية حول الجنة والنار، وهل هما مخلوقتان أم لا؟ فهناك من يذهب إلى هذا، وهناك من يخالفهم الرأي فيه.

الأثر التربوي لوجود الجنة والنار

إننا نؤيّد الرأي القائل بأن الجنة والنار موجودتان؛ لأن في وجودهما تربية للناس؛ فالإنسان حينما يعرف أن مصيره إمّا إلىٰ الجنة أو النار، فإن سلوكه سوف يتحرّك ضمن هذا الإطار، وسوف يلج دائرة التهذيب؛ لأنه سوف يخاف الله تعالى وسيطمع في دخول الجنة. فوجودهما إذن عامل تربوي له الأثر الكبير في توجيه حياة الإنسان إلى الخير.

دليل القائلين بعدم خلقهما

إن بعض العلماء من المذاهب الإسلامية كما ذكرنا يقولون: إنهما غير مخلوقتين؛ لأن في خلقهما عبثاً؛ ذلك أن الآية الكريمة تقول: ﴿**كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ**﴾[1]، فكيف إذن يخلقها، ثم يهدمها بعد ذلك؟

إن عملية البناء والهدم لا تكلّف الله شيئاً فهو جلّ وعلا يقول في كتابه العزيز: ﴿**إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**﴾[2]، وهدم الجنة أو النار بعد بنائهما إذا ما قيس بالنفع الذي يترتّب على وجودهما فإنه يعدّ حينئذٍ شيئاً ليس ذا أهميةٍ أو قيمة. فاللطف الإلهي بالناس المترتّب على وجودهما أهم وأكبر من عملية هدمهما بعد بنائهما؛ وحينئذٍ فإنه ليس في البين أي عبث ولا عدم توجيه في فعل الأُمور؛ ذلك أن العبث هو ما لا هدف يترتّب عليه، أما ما يترتّب عليه هدف فهو ليس بعبث أبداً بل هو حكمة مطلقة[3].

---

(١) القصص: ٨٨. (٢) يس: ٨٢.

(٣) ومثل هذا الشهادة في سبيل الله تبارك وتعالى؛ فهي وإن اقتضت هدم حياة إنسان، لكنها لما كانت في سبيل هدف أسمى وهو حفظ الدين أو العقيدة كانت شهادة بالحق، فهي حكمة لأنها تسعى إلى تحقيق هدف سامٍ من وراء ذلك.

إننا إنما نبحث في مسألة الجنة والنار، ونحن لا نريد من هذا سوى استقامة الفرد في الدنيا؛ ذلك أن سلوك الفرد ما دام معتقداً بوجود جنة أو نار سوف يُصبح سلوكاً مستقيماً وخاضعا لقوانين الله ولتشريعاته ما دام وجود الجنة والنار نصب عينيه؛ فيطمع في هذه ويخشى من هذه.

وإذا كان كذلك فإنه حينئذٍ سوف لن يسرق ولن يعتدي، وسوف يؤدي واجباته كاملة تجاه الله تبارك وتعالى، وتجاه المجتمع دون أن يتحول إلى عنصر تخريب داخل المجتمع أو ضدّ أبنائه أو ضدّ الدين السماوي. إن الإنسان بطبعه متمرّد على الدنيا بجميع ما فيها، كما أنه عادة بطبعه مخلوق طيّع للظواهر الاجتماعية المتعددة التي عادة يكون ظاهرها غير باطنها؛ ولذا فإننا نجد فيه النفاق والكذب والغش وما إلى ذلك. وبما أنه بهذا النمط من التكوين كان لابدّ من وجود ضوابط تهذّبه وتقوّم سلوكه وتصرفاته كي يُصبح مسلماً داخلاً في نطاق قول النبي الأكرم ﷺ: **«المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»**[1]. وهذا الهدف ـ **«سلم المسلمون من لسانه ويده»** ـ يشترك في تحقيقه أُمور عدّة، منها إيمان المرء بأن الجنة والنار موجودتان.

المبحث الثاني: في معنى كلمة مرصاد

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿**كَانَتْ مِرْصَاداً**﴾، وكلمة مرصاد مشتقة من الرصد ومأخوذة منه، ومنه قولنا: وقف فلان لفلان بالمرصاد، أو فلان يرصد فلاناً، أي يراقبه ليستطلع أخباره. وهكذا فإن جهنم تراقب كل من يمرّ بها. وهذه إحدى جنبتين تربويّتين يهدف إليهما من وراء في خلق الجنة والنار ووجودهما

---

(١) نهج البلاغة / الخطبة: ١٦٧، المحاسن ١: ٢٨٥ / ٤٢٦، الكافي ٢: ٢٣٤ / ١٢، مسند أحمد بن حنبل ٢: ١٦٣، صحيح البخاري ١: ٨، صحيح مسلم ١: ٤٨.

الآن، وهو ما أشرنا له في المبحث السابق.

جنبتان تربويّتان

إذن فجهنم مرصاد للكاذبين أو الطاغين، لأن في هذا جنبتين تربويّتين ـ كما ذكرنا ـ لابدّ من الإشارة إليهما، هما:

الأولى: أنها تراقبهم وترصد تصرّفاتهم وتحرّكاتهم. فالإنسان إذا ما أحسّ بهذا النمط من الرقابة والرصد عليه، فإنه إن كان ذا وازع وضمير حي فسوف يتقي الله ويطيعه ويبتعد عن معصيته.

الثانية: أن الذي يصرّح به القرآن الكريم أن كلّاً من المؤمن والكافر لابدّ أن يمرّا بها، فهي إذن تراقب كلّ من يمرّ بها من مطيع أو عاصٍ، وليس العصاة فقط.

لماذا يدخل المطيع النار؟

وهنا ربّما يسأل سائل فيقول: إذا كان العاصي يستحق العقاب والعذاب فيدخله الله تبارك وتعالى نار جهنم فلماذا إذن يُدخل الله الإنسانَ المطيعَ إليها؟

والجواب أن يقال: إن هذا الأمر صحيح وواقع؛ ذلك أنه جلّ وعلا يؤكّده في كتابه الكريم حيث يقول: ﴿**وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمَاً مَقْضِيَاً**﴾[1]، والعلماء يذكرون لهذا الأمر تعليلاً هو أن المطيع حتى يتمكّن من أن يقدر نعمة الله عليه والجنة لابدّ له من أن يرى مرارة النار ويذوقها حتى يحسّ بتلك الحلاوة. فنعمة الله جل وعلا على الإنسان عظيمة لكنه لا يستشعر ذلك حتى يفقدها[2].

---

(١) مريم: ٧١.

(٢) ورد في الحديث الشريف عن رسول الله ﷺ: «نعمتان مجهولتان: الأمن، والعافية». روضة الواعظين: ٤٧٢.

ومن هذا فإن الإنسان إذا قصد إحدى المستشفيات واطّلع فيها على حالات نزلائها، ووجد ما يقاسونه من ألم وحزن وعجز، وما يعانونه من مرضٍ يحول دون تمتّعهم بحياتهم بالشكل الذي يريدونه، ثم يلتفت إلى نفسه فيرى ماهو فيه من صحة وعافية فإنه حينئذٍ فقط يستشعر قيمة تلك النعمة التي منحه الله إياها وهو من قبل كان غارقاً فيها دون أن يستشعرها. وكذلك لا يُحسّ بها إلّا إذا فقدها؛ فحينما يمرض جسمه فإنه حينئذٍ سوف يستشعر قيمة الصحة ولباس العافية الذي ألبسه الله إياه.

وهذا عينه ما يجري حول آية المقام؛ فإن الإنسان المؤمن إذا ما دخل النار ورأى ما فيها من عذاب ثم خرج منها ليذهب إلى ما وعده الله به من الجنة فإنه حتماً سوف يرى أنه يعيش في أقصى درجات النعيم؛ لأنه رأى النار وما فيها من ألوان العذاب وصنوف ما أعد الله للمجرمين من حرق وتنكيل.

وهذا المعنى يتطرّق إليه الإمامﷺ في دعاء الجوشن، فهوﷺ يريد أن يوضّح أن الإنسان حينما يمرّ بضد النعمة فإنه حينئذٍ يقدّر تلك النعمة. إنّ عندنا نوعين من الناس: فصنف يرى نفسه أكبر من النعمة، وصنف آخر يرى أنه دون نعمة الله تبارك وتعالى عليه، وهذا إذا مرت به النعمة فإنه يعدّها لطفاً من الله جل وعلا ويشكره عليها، بل ويساهم في نشرها أو في إفادة المجتمع بها أو مشاركته معه بها؛ وبهذا فإن النعمة سوف تجعله أكثر إخلاصاً من غيره. يقول ابن عباس: نزل أمير المؤمنينﷺ الربذة، فلقيه بها آخر الحاجّ، فاجتمعوا ليسمعوا من كلامه وهو في خبائه، فأتيته فوجدته يخصف نعلاً، فقلت له: نحن إلى أن تصلح أمرنا أحوجُ منّا إلى ما تصنع.

فلم يكلّمني حتى فرغ من إصلاح نعله، ثمّ ضمّها إلى صاحبتها ثم قال لي:

«قوّمها». فقلت: ليس لها قيمة. فقال ﷺ: «علىٰ ذاك». قلت: كسر درهم. فقال ﷺ: «والله لهما أحبّ إلي من أمركم هذا إلّا أن أُقيم حقّاً أو أدفع باطلاً»[١].

ولذا فإن أحد الأُدباء يقول:

كـم هـفا للإكـليل رأس ولكـن ... أنت رأس يـهفو له الإكـليلُ

وإذا التـاج سدَّ نـقصاً بـرأس ... أنت رأس لتـاجه تكـميلُ

وسـتبقى أبـا تـراب فـريداً ... في المزايا حتّىٰ يـجيء البـديلُ

ومـتى يـوجد البـديل بكـون ... أنت فيه الإجمال والتـفصيلُ[٢]

إذن فالمطيع إنما يمر بالنار ليرى حقيقة النعمة التي سيكون عليها، وهذه هي النعمة التي أراده الله جل وعلا له، وهذه هي الحكمة من هذا التصرّف. أما الكافر المجرم فإنه إنما يدخل النار لينال عقابه وجزائه نتيجة ما اقترفه في الدنيا من كفر وظلم للناس ولنفسه واعتداء عليهم وعليها.

المبحث الثالث: في تحديد مفهوم الطغيان

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿لِلطَّاغِينَ مَآباً﴾، وقد وقع نزاع بين المفسّرين حول تحديد هوية الطغيان الموصوف به في قوله تعالى: ﴿لِلطَّاغِينَ﴾ وبيان مفهومه. والواقع أن الطغيان هو مجاوزة الحد في كل شيء؛ فالطغيان في الدنيا وممارسة أُمور السلطة والرئاسة ظلم، والطغيان في الدين كفر؛ ذلك أن الله سبحانه وتعالى أمر بالعدل[٣]. فإذا ترك الإنسان العدل فقد كفر بالعدل؛ وهذا يعني الكفر بالله تبارك وتعالى، والمجتمع لا ينتظر إلّا العدل من كل فرد من أفراده. هذا في

---

(١) الإرشاد ١: ٢٤٧، الجمل: ١١٣. (٢) من أشعار المؤلف ﷺ.

(٣) قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾ النحل: ٩٠.

حين أن البعض يظلم نفسه والمجتمع؛ بأن يتعامل مع الناس بالظلم، ويعالج مشاكلهم ومشاكله معهم بالظلم، ويخالطهم بالظلم.

ولو أننا رجعنا إلى كتب الفلسفة لوجدنا أن مسكويه ـ وهو من فلاسفتنا العظام وقد تلمذ له ابن خلدون، وهو صاحب أفكار رائعة وخلّاقة في مجاله ـ يقول: إن مهمة الشرائع السماوية كلها وجميع ما فيها من العقائد قائمة على مفهوم الحب، أي أن يتحابّ الإنسان مع أخيه الإنسان[1]، فإن على الإنسان أن يحبّ أخاه الإنسان وأن يتقرب منه؛ لأن الله تبارك وتعالى أراد لهذا الإنسان أن يعيش حالة التآلف والتآخي والتوادّ مع مجتمعه وإخوانه، وقد سُمي الإنسان إنسانا لأنه يأنس بالناس، ولأن الناس يأنسون به[2].

ولهذا الاعتبار فإن الصداقة تعتبر أسمى وأثمن ما في الوجود لأنها عبارة عن عامل تضييق للذات الإنسانية وللأنانية عند بني البشر. هذا ما عليه مسكويه أما أرسطو فيخالفه الرأي حيث يقول: إن الصداقة في حقيقتها امتداد للانانية عند الإنسان؛ فالإنسان يحب نفسه، وهذا شيء مألوف وغير مستغرب؛ ولذا فإنه إن

---

(١) قال رسول الله ﷺ: «إن لله خلقاً عن يمين الله وبين يدي الله، وجوههم أبيض من الثلج، وأضوأ من الشمس الضاحية، فيسأل السائل: من هؤلاء؟ فيقال: هؤلاء الذين تحابّوا في الله». بحار الأنوار ٢٧: ١٣٣ / ١٢٧.

وفي (مسند أحمد) عن رسول الله ﷺ في وصف قوم يغبطهم الأنبياء عليهم السلام والشهداء على مجالسهم وقربهم من الله تبارك وتعالى، قال ﷺ: «هم ناس من أفناء الناس ونوازع القبائل، لم تصل بينهم أرحام متقاربة، تحابّوا في الله وتصافوا، يضع الله لهم يوم القيامة منابر من نور فيجلسهم عليها، فيجعل وجوههم نوراً، وثيابهم نوراً». مسند أحمد ٥: ٣٤٣.

(٢) قال الشاعر:

وما سمّي الإنسان إلّا لأنسه ... ولا القلب إلّا أنه يتقلّبُ

الجامع لأحكام القرآن ١: ١٩٣.

رأى أحداً يجانسه فكريا أو علميا أو أخلاقياً فإنه ينجذب إليـه ويـميل إلى أن يكوّن معه علاقة صداقة، بخلاف من لم يكن كذلك فإن طباعه تنفر منه ولن يتقرّب منه حينها.

وهذا الكلام لا يعنينا؛ لأن الشرائع السماوية المقدسة تريد مـن الإنسـان أن يتقرب من أخيه الإنسان، أما إذا أصبح هذا الإنسان ظالماً فإن المجتمع حينئذٍ سوف يبتعد عنه ويكرهه لظلمه كما أن الله تعالى سوف يكرهه لكفره؛ وبهذا فإن الطاغية هذا سوف يُصبح غير محبوب من الله ومن المجتمع، وحينئذٍ سوف تنخرم عدالته فلا تجب طاعته حينئذٍ، وتسقط بيعته من أعناق الناس بل يجب خلعه.

مفهوم الإمامة عند المسلمين

إن فرق المسلمين ومذاهبهم يختلفون فيما بينهم حول تحديد مفهوم الإمـامة وصفة الإمام؛ فالفكر الشيعي الإمامي يذهب إلى اشتراط العصمة عـند الإمـام، ومعنى اشتراط العصمة عنده أنّ المجتمع يأخذ ضمانةً من الشخص الذي سـوف يتولى هذا المنصب الإلهي بأنه سوف لن يظلم ولن يجور ولن يحيف على أحد، ولن يسلب حقّ أحد. أما المذاهب الإسلامية الأُخرى فتذهب إلى عدم اشتراط العصمة عند الإمام بل إنهم يكتفون بوجوب العدالة عنده، أي ألّا يظلم أحداً وهذا كافٍ عندهم في جواز تولي ذلك الشخص للإمامة. وهم يسـتدلون عـلى هـذا بالحديث النبوي الشريف الذي يقول: «**من عامل الناس فلم يظلمهم، وحدّثهم فلم يكذبهم، ووعدهم فلم يخلفهم، فهو ممّن كملت مروءته، وظهرت عدالته، ووجبت أُخوّته، وحرمت غيبته**»[1].

---

(١) مسند الشهاب ١: ٣٢١ ـ ٣٢٢ / ٥٤٢ ـ ٥٤٣، الكفاية في عـلم الروايـة: ١٠٠ ـ ١٠١، وانظر: الكافي ٢: ٢٣٩ / ٢٨، الخصال: ٢٠٨ / ٢٨.

وهذا هو العادل عندهم فالحاكم إذا ظلم أو حدث فكذب أو وعد فأخلف؛ فإنهم يرون إن كان هذا الظلم وخلف الوعد ابتداء، فإنه حينئذٍ سوف تسقط عدالته ولن تظهر، أما إذا لم يظلم فإن عدالته حينئذٍ سوف تظهر وتجب طاعته ويحرم الخروج عليه وإن ظلم أو جار بعد ذلك. وكما قلنا فإن في هذه النقطة تقاطعاً فكرياً بين المذهب الشيعي والمذاهب الإسلامية الأُخرى، وقد بيّنا وجهة نظر المذهب الشيعي في المسألة.

نظرية الحاكم عند أهل السنة

وإننا إذ نطرح هذا الطرح فإننا لا نُريد أن نجنح إلى اتّهام المذاهب الإسلامية الأُخرى أو أن نميل إلى وضعها في الطرف السلبي للمعادلة بأن هذه المذاهب تساند الظلم، أو تميلُ إلى الدعوة إليه، لكن ما نريد بيانه هو أن الشيعة الإمامية يرون أن الظالم والمعتدي لا تجب طاعته، بل يجب أن تُخلع بيعته من رقاب المسلمين؛ فلا يدنو إليه أحد، وعلى المسلمين جميعاً أن ينهضوا لمكافحته ومجاهدته، وأن يخرجوا عليه؛ سواء كان ظلمه وجوره ابتداء، أو كان ظهور ذلك منه بعد تولّيه الحكم.

أما المذاهب الإسلامية الأُخرى التي ترى اشتراط العدالة فقط في الإمام فتذهب إلى أن الإمام إذا ظهرت عليه أمارات الفسق والفجور بعد أن كان عادلاً فإنه يُصبح ظالماً، لكن صيرورته ظالما لا تعني وجوب خلعه ومجاهدته أو مكافحته، بل حتى جواز ذلك، فهم في مثل هذه الحالات يرون الخنوع له والخضوع لسلطانه وعدم جواز الإفتاء بالنهضة ضدّه أو الثورة والخروج عليه، مستدلّين على ذلك بروايات يروونها. وهم إنما يذهبون إلى هذا وفق تحليل لهذه المسألة يقولون فيه بأن الثورة على الحاكم المسلم الظالم تؤدي إلى سفك الدم

وانتشار الفوضى وعدم الاستقرار، وهذا ما لا يريده الشارع المقدّس.

نقد هذه النظرية

إن وجهة النظر هذه في حقيقة الحال لا تصمد أمام النقد وأمام الحقيقة الناصعة القاضية بوجوب مكافحة الظالم ومقاتلته؛ لأن الحاكم الظالم يقتل المجتمع وهو ـ المجتمع ـ في الحياة فيسلبه كرامته ويحيله إلى كومة من رجالٍ لا قيمة لهم، يقول أحد الأُدباء:

نحن موتى وشر ما ابتدع الطغيان موتى على الدروب تسير

فالظالم يقتل الدنيا؛ لأن الأموال في ظل دولته وسلطانه ليست في أمان، والأرواح كذلك، والأولاد والأبناء أيضاً في مثل هذه الصفة، والكرامة تُهدر، والحريّات تُضيّع. وحينئذٍ فما الجدوى من الحياة إذا كانت داخل قفص من الذل؟ وكيف يمكن لإنسان حر أن يصبر على مثل هذا الظلم والذل وسلب الكرامة؟ إن أبناء المذاهب الإسلامية الأُخرى يرون الصبر على كل هذا؛ ولذا فإنهم يروون في هذا المعنى أحاديث كثيرة منها ما عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «**يكون بعدي أيمّة لا يهتدون بهداي ولا يستنون بسنتي، وسيقوم فيهم رجال قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان إنس**».

يقول: فقلت: كيف أصنع يا رسول الله إن أدركت ذلك؟ قال ﷺ: «**تسمع وتطيع للأمير وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك. فاسمع وأطِع**»[1].

---

(١) صحيح مسلم ٦: ٢٠، وانظر: صحيح ابن حبّان ١٠: ٤٢٦، كتاب السنة (ابن أبي عاصم): ٤٧٨/ ١٠٢٦، فتح الباري ١٣: ٦، موارد الظمآن ٥: ١١٠ ـ ١١٢ / ١٥٤٥، كنز العمّال ١: ١٠٤ / ٤٦٨، ٥: ٧٨١ ـ ٧٨٢ / ١٤٣٧٣، التمهيد: ١٥٢ (ط القاهرة ١٣٦٦هـ)، ١٤٥، تنوير الحوالك: ٣٧٤ / ٩٦٠، ونقل فيه أن في مسند أحمد زيادة: «وإن رأيت أن لك في

إذن فهؤلاء يكتفون في عدالة الإمام إذا تحصلت في أول أمره، أما إذا انتقضت تلك العدالة بعد ذلك وبدرت من الإمام بوادر الظلم والجور فإنهم حينئذٍ يرون وجوب الاستمرار على طاعته وعدم جواز الخروج عليه، وهذا خلاف ما عليه الفكر الإمامي الذي يرى ضرورة الوقوف ضد الحاكم الجائر الظالم.

ونحن لا ننكر أن بعض أعلام المذاهب الإسلامية الأُخرى قد وقفوا من الحاكم الجائر موقفاً مشرّفاً، ومما يُروى في هذا المجال أن أبا جعفر المنصور استدعى عبد الله بن طاووس ومالك بن أنس، فلمّا دخلا عليه أطرق ساعة ثم التفت إلى ابن طاووس وقال له: حدثني عن أبيك. فقال: حدثني أبي أن أشدّ الناس عذاباً يوم القيامة رجل أشركه الله تعالى في سلطانه، فأدخل عليه الجور في حكمه. فأمسك أبو جعفر ساعة، قال مالك: فضممت ثيابي خوفاً أن يصيبني دمه. ثم قال له المنصور: ناولني تلك الدواة. ثلاث مرّات فلم يفعل، فقال له: لم لا تناولني إيّاها؟ قال: أخاف أن تكتب بها معصية، فأكون قد شاركتك فيها. فلما سمع ذلك. قال: قوما عني. فقال ابن طاووس: ذلك ما كنّا نبغي. قال مالك. فما زلت أعرف

الأمر حقّاً»، أي اسكت عن حقّك وإن سلبه الأمير منك.

وروى مسلم عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «من رآى من إمامه شيئاً يكرهه فليصبر؛ فإنه من فارق الجماعة شبراً فمات، مات ميتة جاهلية».

وروى: «ليس أحد خرج من السلطان شبراً فمات عليه إلّا مات ميتة جاهلية».

وروى عن ابن عمر حين كان من أمر الحرّة ما كان أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من خلع يداً من طاعة لقي الله يوم القيامة لا حجّة له، ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية». صحيح مسلم ٦: ٢٠ ـ ٢٢، وانظر سنن البيهقي ٢: ١٥٨ ـ ١٥٩ / ٨.

وفي بعض الأحاديث: ألّا يُنازع الأمر أهله «إلّا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان». صحيح البخاري ٨: ٨٨، صحيح مسلم ٦: ١٧، السنن الكبرى (البيهقي) ٨: ١٤٥، تنوير الحوالك: ٣٧٤ / ٩٦٠. وقد مرّ نقل آراء علمائهم المؤيّد لهذا في ج ٣ من هذاالكتاب / محاضرة: (موقف الإسلام من الجور).

لابن طاووس فضله من ذلك اليوم[1].

وفي غيرها أنه قال له وهو السفاك للدماء: لقد رأيت توابيت من جلد والدماء تسيل. فقال له المنصور: عظني يا طاووس. فقال: الله تبارك وتعالى وعظك فلم تتعظ بموعظته، فكيف لي أن أعظك؟ فأطرق المنصور ثم قال له: لمَ لا تأتي إلينا؟ فقال طاووس: الله تبارك وتعالى نهاني عن ذلك. قال: كيف؟ قال: بقوله تبارك وتعالى: **﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾**[2]. فقال له: هل من حاجة؟ قال: نعم. قال: ماهي؟ قال: ألّا تضطرّني إلى رؤية وجهك، وألّا ترسل خلفي.

وهذا اللون من المواقف في واقع الحال هو لون مشرف، وعلامة مشرّفة ومضيئة في سير بعض هؤلاء الأعلام. ولموقف الفكر الشيعي هذا من الحكام الجائرين والطغاة نجد أن أهل البيت عليهم السلام قد حوربوا محاربة شديدة على امتداد التاريخ وعلى أصعدة المحاربة كافّة، فلم يدع لهم أصحاب العروش الظالمة فكراً ينمو إلّا حاربوه، ولا وجوداً مؤثراً إلّا وحاولوا اقتلاعه. وهذه المحاولات قد استمرّت حتى يومنا، هذا مع أن الواقع أنه ليس من مسلم يرفض فكر أهل البيت عليهم السلام، بل ليس مسلماً من يرفض هذا الفكر لأنه فكر السماء وفكر الرسالة الخالدة، ولكن الناس على دين ملوكهم.

رجع

إذن فالآية الكريمة تقرّر أن الطاغي في الدنيا هو الظالم، والطاغي في الدين هو الكافر وكلاهما لا تجب طاعته. حينما وقعت معركة الجمل ووقف الجيشان

---

(١) وفيات الأعيان ٢: ٥١١، وفي الثقات (ابن حبّان) ٧: ٣٩٠ ـ ٣٩١ أنها بين أبي الحارث محمد بن عبد الرحمن بن المغيرة بن أبي ذئب والرشيد. وقد مرّ ذكر ذلك في ج ٥ من كتابنا هذا / محاضرة: (مراحل الخلق).

(٢) هود: ١١٣.

أرسل أمير المؤمنين عليه السلام عبد الله بن عبّاس رضي الله عنه إلى الزبير، وقال له: «**قل له: أرسلني ابن خالك، وهو يقول لك**: «**ما عدا ممّا بدا؟ عرفتني بالمدينة وأنكرتني بالبصرة، ألم تبايعني طائعاً غير مكره؟**[1] **فما الذي رابك مني فاستحللت به قتالي؟**»». فلمّا أبلغه ذلك جعل الزبير ينقر بالمروحة في الأرض، ثم رفع رأسه إليه وقال: نرفع لكم المصاحف غداً؛ فما أحلّت حلّلنا، وما حرّمت حرّمنا.

فانصرف ابن عبّاس رضي الله عنه، لكن الزبير عاد فناداه، وطلب منه أن يقبل، فأقبل عليه، فقال: بيننا دم خليفة، وعهد خليفة، وانفراد واحد، واجتماع ثلاثة وأُم مبرورة، ومشاورة العامّة.

ولما وقع القتال تقدّم أمير المؤمنين عليه السلام على بغلة رسول الله صلى الله عليه وآله الشهباء بين الصفين، فدعا الزبير، فدنا منه حتى اختلفت أعناق دابتيهما، فقال عليه السلام له: «**يا زبير، أنشدك الله، أسمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: إنك ستقاتله وأنت ظالم له؟**». قال: اللهم نعم. قال عليه السلام: «**فلم جئت؟**». قال: جئت لأُصلح بين الناس. ثم أدبر الزبير وهو يقول:

أتى علي بأمر كنت أعرفه ... قد كان عَمر أبيك الخير مذ حينِ

---

(١) حينما تبع ابن جرموز الزبير؛ ليقتله بعد تولّيه من المعركة إثر رسالة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام الشفوية له، ثم كلامه عليه السلام معه بعد ذلك، قال له ابن جرموز: يا أبا عبد الله، أخبرني عن أشياء أسألك عنها: أخبرني عن خذلك لعثمان، وعن بيعتك علياً، وعن نقضك بيعته، وإخراجك أم المؤمنين، وعن صلاتك خلف ابنك، وعن هذه الحرب التي جنيتها، وعن لحوقك بأهلك. فقال: أمّا خذلي لعثمان، فأمر قدم فيه الذنب وأُخّر فيه التوبة. وأمّا بيعتي علياً، فلم أجد منها بدّاً؛ إذ بايعه المهاجرون والأنصار. وأمّا نقضي بيعته، فإنما بايعته بيدي دون قلبي. وأمّا إخراجي أمّ المؤمنين، فأردنا أمراً وأراد الله غيره. وأمّا صلاتي خلف ابني، فإن خالته قدّمته. فتنحّى ابن جرموز وقال: قتلني الله إن لم أقتلك. ثم قتله بعد ذلك. رسائل المرتضى ٤: ٧٣.

فقلت حسبك من عذل أبا حسن بعض الذي قلت منه اليوم يكفيني

فاخترت عاراً على نار مؤجّجة أنى يقوم لها خلق من الطينِ

ثم أقبل إلى عائشة فقال: يا أمة الله، مالي في هذا الأمر بصيرة، وأنا منصرف. فقالت: أبا عبد الله، أفررت من سيوف ابن أبي طالب؟ فقال: إنها والله طوال جداً، وتحملها فئة أجلّاء. ثم أتى عبد الله ابنه فقال: يا بني إني منصرف. فقال: أتفضحنا في قريش؟ أتتركنا حتى إذا التقت حلقتا البطان فضحتنا في العرب؟ لا والله لا تغسل رؤوسنا منها أبداً، أجبناً كلّ ما أرى يا أبتاه؟ فقال: يا ميسرة أسرج لي الفرس. ثم هيأ فرسه فرمى بها إلى جيش الإمام عليه السلام ثلاث مرات، ثم انصرف إلى ابنه فقال: يا بني أيفعل هذا الجبان؟ قال: لا، فما ردّك يا أبتاه؟ قال: إن علمته كسرك، قم بأمر الناس. ثم خرج راجعاً[1].

والشاهد هنا أن الإمام عليه السلام يقول له: «فما عدا مما بدا؟»، أي هل ظهر مني شيء يخالف العدالة حتى تنقض بيعتي وتخرج بجيش تجيشه إلى قتالي؟ وما إن رجع الزبير حتى كان فيه مصرعه.

المبحث الرابع: هل يخلَّد العاصي في جهنم؟

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً﴾، والحقبة ثمانون عاماً، أي أنهم بعد ذلك يُخرجون من جهنم؛ ذلك أن كلّ معدودٍ منقضٍ، فهم يبقون في نار جهنم أحقاباً معدودة ثم بعد ذلك تنتهي هذه الفترة ويخرجون من النار. وهذه العقوبة بالنسبة للظالمين من أهل التوحيد أي من أهل «لا إله إلّا الله»؛ فهؤلاء

---

(١) حديث مصعب ١: ٣٦ ـ ٣٧ / ١١، شرح نهج البلاغة ٩: ٣١٧، الشافي ٤: ٣٢٤. جواهر المطالب ٢: ١٣ تاريخ مدينة دمشق ٢٨: ١٨٧، وانظر: المصنّف (الصنعاني) ١١: ٢٤١ / ٢٠٤٣٠، المستدرك على الصحيحين ٣: ٣٦٦ ـ ٣٦٧، فتح الباري ١٣: ٤٦.

إكراما لرسول الله ﷺ لا يخلّدون في النار. ثم إن الله جلّ وعلا لا يغفر ذنب الشرك ويغفر ما دونه[1]؛ ولذا فإننا نجد الإمام السجّاد عليه السلام يقول في دعائه: **«إلهي، إني وإن كنت عصيتك في أشياء أمرتني بها، وأشياء نهيتني عنها، فقد أطعتك في أحبّ الأشياء إليك، آمنت بك لا إله إلّا أنت وحدك لا شريك لك»**[2].

وهذا المعنى قد استلهمه الخيّام في إحدى رباعيّاته حيث يقول:

ربّ إن لم أجدّ في طاعاتك إنني بائس إلى رحماتك

وشفيعي إليك أنيَ لم أشـ ـرك ولو ساعةً بوحدة ذاتك

فالواقع أن كلمة «**لا إله إلّا الله**» محببة إلى الله جل وعلا؛ ولهذا فإننا نجد عن أهل البيت عليهم السلام أن الإنسان قبل أن ينام يُستحب له أن يقرأ: **﴿شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاّ هُوَ وَالمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا العِلْمِ قَائِماً بِالقِسْطِ﴾**[3]؛ فهذه من أحب الأشياء إلى الله جل وعلا، ومن أكثر الأشياء نفعاً وبركةً للإنسان. ولهذا اُستُحبّت قراءتها عند النوم. إن هذا يعني أن الإنسان إنما يختم يومه بالشهادة لله تبارك وتعالى بالوحدانية، ثم حينما يُصبح من يومه التالي أيضاً يصبح مبتدئاً يومه بالشهادة لله جل وعلا بالوحدانية عبر صلاة الفجر. وهذا ما يقوّي مشاعر الإيمان عنده، ويجعله بتماسّ

---

(١) قال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً﴾ النساء: ٤٨.

(٢) الصحيفة السجادية: ١٧٣ ـ ١٧٤ / ٨٩، دعاؤه عليه السلام بعد صلاة الليل. وقال عليه السلام: «إلهي إن كنت عصيتك بارتكاب شيء ممّا نهيتني، فإني قد أطعتك في أحبّ الأشياء إليك، الإيمان بك، منّاً منك به عليّ، لا منّاً مني به عليك، وتركت معصيتك في أبغض الأشياء إليك أن أجعل لك شريكاً، أو أجعل لك ولداً أو نداً». الصحيفة السجادية: ٤٩٧ / ٢٠٩، دعاؤه عليه السلام في المناجاة. وفي قوله عليه السلام: «منّاً منك به علي، لا منّاً مني به عليك» إشارة إلى قوله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لاَ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلاَمَكُمْ بَلْ اللّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ الحجرات: ١٧.

(٣) آل عمران: ١٨.

دائم غير منقطع مع الله تبارك وتعالى.

فالحقبة هي الفترة الزمنية التي يبقى فيها الإنسان العاصي في نار جهنم، وهي فترة تمتدّ ثمانين عاماً، يقول متمّم بن نويرة يرثي أخاه مالكاً:

وكـنا كـندماني جـذيمة حـقبة — من الدهر حتى قيل لن يتصدّعا[1]

وهذه الفترات (الحقب) التي تُقضى في نار جهنم تتراوح كثرة وقلة حسب طغيان الشخص المعنيّ بالعذاب.

المبحث الخامس: خروج الإمام الحسين عليه السلام؛ المبرّرات والأسباب

وعلى أية حال فنحن أشرنا في أول المحاضرة إلى أن هذا الأمر له علاقة بالثورة المباركة والنهضة الشريفة للإمام الحسين عليه السلام ضدّ الحكم الأُموي، والآن سوف نبيّن دوافع هذه النهضة وأسبابها التي حدت بالإمام الحسين عليه السلام إلى القيام بها؛ مما أدّى به إلى أن يُقتل وأصحابه وأهل بيته مع علمه عليه السلام بكل ذلك. إن أبناءنا حينما يقرؤون التاريخ فإنهم سيجدون فيه تأكيداً على أنّ الخلافة الإسلامية هي عبارة عن وقفة زمنية تبتدئ بفلان وتنتهي بفلان.

وهذا يعني أن كلّ من حكم باسم الإسلام ما بين أول خليفة وآخر خليفة هو حاكم شرعي، وخليفة واجب الطاعة وأمير للمؤمنين، وليس من الأدب ولا الدين ولا المروءة أن يعمد أحد إلى المساس بهذه الشخصيات أو بهؤلاء الخلفاء، أو أن يتوجه اليهم بالذم أو حتى بالنقد العلمي الأكاديمي.

إن مثل هذا المنهج والمنحى إنما وُضع لتبرير الأخطاء التي كان يرتكبها هؤلاء

---

(١) الاستيعاب ٤: ١٦٣٨، تعزية المسلم عن أخيه (ابن هبة الله): ٣٠، تفسير الثعلبي ١٠: ١١٥، تفسير السمعاني ٦: ١٣٩؛ الجامع لأحكام القرآن ١٩: ١٧٧، تاريخ خليفة بن خياط: ٦٨ ـ ٦٩، أسد الغابة ٤: ٢٩٩، الإصابة ٥: ٥٦٧ / ٧٧٣٢.

الخلفاء باسم الإسلام، ولتكفير كل من يخرج عليه حتى وإن كان هو الإمام الحق. ومن هنا فإننا سوف نتناول شخصية يزيد بن معاوية باعتباره الخليفة الأُموي الذي خرج الإمام الحسين عليه وثار ضده لنرى هل إنه فعلاً يستحق هذا اللقب وإنه جدير بالاحترام أم إنه ليس كذلك.

إنني سوف أُحيل القارئ إلى كتاب (حياة الحيوان الكبرى)[1] في باب «فهد» ليرى رأي أساطين علماء أهل السنة كأحمد، وأبي حنيفة، والكيا الهراسي[2] في يزيد بن معاوية، وهم علماء محترمون ولا ينقصهم شيء؛ ليخلص منه القارئ إلى حقيقة موقف الإمام الحسين﵇ من هذا الرجل وهل كان يزيد ظالماً في حكمه جائراً أم إنه ليس بظالم ولا بجائر[3].

وأنا أُحبّ للمسلم أن يُصبح قارئاً مثقّفاً، فيطّلع على ما يُكتب من تاريخنا وحوله، وهنا أودّ أن أُلفت نظره إلى إحدى حلقات سلسلة تراث الإسلام التي تصدر من موسوعة عالم المعرفة في الكويت، وهو كتاب اشترك في تأليفه كل من الدكتور شاخت، وتريفورز، واسمه «Islamic Relegous Low»، أي (قانون الشريعة الإسلامية)، وهذا الكتاب حينما يمرّ بالفترة التي عاشها يزيد بن معاوية في الحكم ـ وهي الفترة الواقعة في النصف الثاني من القرن الأُول الهجري ـ يذكر المؤلفان فيه ـ وهما باحثان قديران ـ أن هذه الفترة هي فترة صراع بين القيم

---

(١) حياة الحيوان الكبرى ٢: ١٧٥.

(٢) الذي قال فيه الدميري: «كان من رؤوس معيدي إمام الحرمين، وثاني الغزالي. ثم ذكر شعراً لمنافسه أبي الحسن بن الدامغاني يصفه فيه بأن النساء قد عقمن عن مثله». فهو يقول في يزيد: لنا فيه قول واحد هو التصريح، وكيف لا يكون كذلك وهو المتصيّد بالفهد، واللاعب بالنرد، والشارب الخمر؟

(٣) وقد ذكرنا جملة من آراء علماء أهل السنة في يزيد بن معاوية في محاضرة: (الشخصيّة القياديّة عند أهل البيت﵈) من هذا المجلّد.

الإسلامية والقيم الجاهلية؛ ذلك أن الإسلام لم يُخرج قيم الجاهلية ومبادئها من قلب أبي سفيان خاصّة أو البيت الأُموي عامة إلّا ما ندر.

والنزعات الجاهلية التي بقي عليها بنو أُمية لم تكن لتلتقي مع الخطوط الإسلامية بحال من الأحوال، ومع هذا فالنزعة العصبية الأُموية كانت تشكّل الركيزة الأساس لقيام الدولة الأُموية. يقول ابن خلدون: إن الخلافة قامت على عاملين أساسين: عامل ديني، وعامل العصبية القرشية. والعصبية هذه هي التي كانت سائدة، وهي نزعة لا يمكن أن تلتقي مع النصوص الإسلامية؛ فالإسلام يأمر بالعدل وهؤلاء يظلمون الناس باسمه، والإسلام يأمر بحفظ النفس وصيانتها واحترام الدم وهم يقتلون النفس التي حرم الله ويريقون الدماء باسمه كذلك، والإسلام يرى الناس بأجمعهم أحراراً وهم يرونهم عبيداً[1]، يقول عمر بن الخطاب لعمرو: مذ كم تعبّدتم الناس، وقد ولدتهم امهاتهم أحراراً؟[2].

فالإسلام يرى أن الإنسان إنما يخرج إلى الدنيا حرّاً، وما العبودية إلّا أمر طارئ عليه لظرفٍ عسكري أو اجتماعي يجعل من بعض الناس يعيشون هذا الوضع. ولسنا ندري ماهو المبرر الذي يدفع بخليفة المسلمين إلى أن يرسل مسلم بن عقبة قائداً على جيش من قبله لإخضاع المدينة المنورة، وبعد أن يفتك بالمدينة وبأهلها ويستبيح أعراضهم، ثم يأخذ البيعة ليزيد مخاطبا كل من يقدم عليه ليبايع من الناس بقوله: تبايع علىٰ أنك عبد قِنّ ليزيد[3]. أي

---

(١) قال ابن أبي الحديد: وكانت بنو أُميّة تختم في أعناق المسلمين كما توسم الخيل؛ علامة لاستعبادهم. شرح نهج البلاغة ١٥: ٢٤٢.

(٢) كنز العمّال ٢: ٦٦١ / ٣٦٠١٠. وقال أمير المؤمنين عليه السلام في وصيته لابنه الإمام الحسن عليه السلام: «لا تكن عبد غيرك، وقد جعلك الله حرّاً». نهج البلاغة / الوصية: ٣١.

(٣) تاريخ مدينة دمشق ٥٤: ١٨١ ـ ١٨٢.

أنك مملوك مع ما تملك ليزيد.

فما هو الدليل الذي يستند إليه من يدّعي أنه خليفة المسلمين في تقرير مصير هؤلاء، ووضع هذا القانون المجحف بحقّ الدين قبل أن يكون مجحفاً بحقّهم؟ إن هي إلّا نزعة الجاهلية وعصبيتها التي كانت تعيش في أذهان هؤلاء. ثم إن هذا الخليفة هو عينه الذي يترنم بقوله:

أقول لصحب ضمّت الكأس شملهم ... وداعي صبابات الهوى يترنّمُ

خذوا بنصيب من نعيم ولذّة ... فكلٌ وإن طال المدى يتصرّمُ

ولا تتركوا يوم السرور إلى غد ... فربّ غد يأتي بما ليس يُعلمُ[1]

ومثب هذا لا يمكن لإنسان حرّ أن يبقى تحت إمرته، وأن ينقاد إليه ويطيعه، وإلّا فهل إن من العقيدة الإسلامية شرب الخمر؟ وهل من الإسلام أن يُسكت على طغيان الحاكم الظالم الذي يعتدي على أعراض المسلمين وينتهكها؟ وأود أن أُشير هنا إلى نكتة في البيت الأول، هي قوله: «الكأس»، فهذا يعني أنها مملوءة خمراً، وإلّا فإن الفارغة لا تسمى كأساً أبداً. إذن في المقام إصرار على معصية الله تبارك وتعالى بشرب الخمر.

إن الإمام الحسين عليه السلام هو ابن القرآن وابن الوحي، وهو ابن من قال: **«والله ياعمّ، لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر ما فعلت»**[2].

---

(١) جواهر المطالب (الدمشقي) ٢: ٣٠١، سمط النجوم العوالي ٣: ٢٠٨، شذرات الذهب ٤: ٩، النجوم الزاهرة ١: ١٦٣، وفيات الأعيان ٣: ٢٨٧، التدوين في أخبار قزوين ٤: ٩٨، فوات الوفيات ٢: ٦٤٤.

(٢) بحار الأنوار ١٨: ١٨٢، وقريب منه ما في تاريخ الطبري ٢: ٦٧،البداية والنهاية ٣: ٦٣.

وكذلك هو ابن علي عليه السلام الذي يقول: «**وأيم الله، لأبقرن الباطل حتى أُخرج الحقّ من خاصرته**»(١).

وبهذا فهو امتداد لجدّه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وإذا كان الله جل وعلا قد أعد للطغاة نار جهنم في الآخرة، فإن الإمام الحسين عليه السلام لابد أن يعدّ لهم نار جهنم اجتماعية قبلها يهزّ بها عروشهم بدمه وبدماء أهل بيته وأصحابه الزاكية. وحينما يحاول البعض أن ينصحه ويقول له: إن هؤلاء القوم قد غدروا بأبيك وأخيك، ولهم مواقف مخزية في هذا المجال، فالرأي أنه لا وجه لأن تذهب إليهم وتصرّ بالقتال معهم ضد السلطان، أجاب الإمام عليه السلام بقوله: «**إن جدي رسول الله أمرني بأمر وأنا ماضٍ بأمره**». وحينما اعتُرض عليه بالقول: لماذا تُخرج عائلتك معك؟ قال لهم: «**قد شاء الله أن يراهن سبايا**»(٢).

وهكذا نجد أن النهضة الحسينية المباركة قد جسدت مواقف القرآن كافة على جميع مستوياتها وأصعدتها، وحاربت الطغيان الجاهلي الأُموي. وقد رأى الإمام الحسين عليه السلام أن التضحية في سبيل هذا الدين يجب أن تكون تضحية كبيرة لأن ما يضحّي عليه السلام من أجله ليس هناك من شيء أكبر منه، وهذه التضحية ليست بأمر جديد أو طارئ على شخصه العظيم، فهذا أبوه أمير المؤمنين عليه السلام وهذا جده رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد ضحيا بكل شيء من أجل رسالة السماء ومن أجل الإسلام فقد ضحى جده صلى الله عليه وآله وسلم بكل شيء إلى حد وصلت معه التضحية أنه صلى الله عليه وآله وسلم كان ينام على جلد كبش صابراً، وقد وصل به الأمر كما تقول إحدى زوجاته صلى الله عليه وآله وسلم: يمر علينا أحياناً

---

(١) نهج البلاغة / الخطبة: ١٠٤.

(٢) مختصر بصائر الدرجات: ١٣٢، المحتضر: ٤١، اللهوف في قتلى الطفوف: ٤٠، بحار الأنوار ٤٤: ٣٦٤، ينابيع المودة ٣: ٦٠.

أربعون يوماً لا نأكل فيها إلّا الأسودين (أي التمر والماء).

وهو ﷺ من شدّ حجر المجاعة بقوله: «**أيها الناس، أي نبيّ كنت لكم؟ ألم أربط على بطني حجر المجاعة؟**»[1]. حتى أقام صرح الإسلام والإيمان، وكذلك كان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﵇ الذي أقبلت إليه الدنيا بأعنّتها طائعة، لكنه ﵇ طلّقها ولم يخرج منها إلّا بقميصه الذي كان عليه. وهكذا الإمام الحسين ﵇، فهو (صلوات الله عليه) لم يأخذها عن كلالة، بل إنه ﵇ كان ابن بجدتها، وقد أخذها عن ميراث من جدّه وأبيه، ومن جدّه وأبوه؟ إنهما الرسول الأكرم ﷺ، وأمير المؤمنين ﵇.

فالتيار الجاهلي الذي حارب التيار الإسلامي الجديد في زمن رسول الله ﷺ هو عينه ذلك التيار الذي حارب الإسلام في خلافة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﵇، وها هو يعود لمحاربة الإسلام المتمثل بامتداد الإسلام وبامتداد رسول الإسلام ﷺ الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب ﵉. فالإمام الحسين بن علي ﵉ رأى أن الطغيان سواء كان في الدنيا وهو بمعنى الظلم أو في الدين وهو بمعنى الكفر قد وصل إلى منبر رسول الله ﷺ؛ لأن من يُسمي نفسه خليفة رسول الله ﷺ وخليفة المسلمين يرتقي منبر الرسول الأكرم ﷺ ويقول ما يقول ممّا مرّ ذكره.

وكما ذكرنا فإنه ليس من الإسلام شرب الخمر أو الدعوة إلى شربها. والإمام الحسين بن علي ﵉ هو سيد الأحرار وأبو الإباء؛ ولذا فإنه أبى أن يسكت على هذا الضيم والطغيان؛ لأن الحرّ يأبى أن يسكت على ذلك، وقد رأى ﵇ ـ وهو أبو الأحرار وسيّدهم ـ أن الدين قد انتُهك، وأن الأعراض قد هتكت وأن المقدسات

---

(١) انظر: الأمالي (الصدوق) ٧٣٢ـ ٧٣٦ / ١٠٠٤، مناقب آل أبي طالب ١: ٢٠١ ـ ٢٠٣.

قد أُهينت، وهو ابن القرآن وابن الوحي وابن الإسلام، وعليه أن يدافع عن القرآن والوحي والإسلام.

وهنا أعد الإمام الحسين عليه السلام عدّته للخروج إلى حيث يعلن ثورته المباركة دون أن يسمع إلى كلمات من يريدون أن يثنوه عن عزمه هذا؛ فعمد أول ما عمدزيارة قبر جدّه المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم ليودّعه فجاءه ووقف عنده وقال: «**يارسول الله، أنا فرخك وابن فرختك، وسبطك في الخلف الذي خلفت على أُمتك، فاشهد عليهم يا نبي الله أنهم خذلوني وضيّعوني، وأنهم لم يحفظوني، وهذه شكواي إليك حتى ألقاك**»[1]. ثم قال عليه السلام: «**وقد نزل بي من الأمر ما قد علمت، اللهم إني أُحبّ المعروف وأُنكر المنكر**».

ثم ودعه وجاء إلى قبر أُمه فاطمة (سلام الله عليها)، وإلى أهل بيته، فجدد بهم العهد، ثم عاد إلى بيته، وأخرج الظعينة معه، مخلّفاً له طفلة صبية كانت عليلة اسمها فاطمة، وكان كلّما نظر إليها أو مرّ اسمها على مسامعه تذكر أُمّه فاطمة الزهراء عليها السلام، فدمعت عيناه الشريفتان. ولهذا فإننا نقرأ في كتب التاريخ أن أُم البنين (رضي الله تعالى عنها) قد التفتت إلى هذا الشيء بنفسها، فكانت تقول لأمير المؤمنين عليه السلام: يا أمير المؤمنين، لا تناديني بفاطمة، بل ناديني بـ«أُم البنين»؛ لأن الحسن والحسين عليهما السلام يتألّمان ويبين عليهما التأثّر عند ذكر اسم فاطمة أمامهما؛ فهو يذكرهما بأُمهما فاطمة الزهراء عليها السلام.

لماذا خلّف الإمام الحسين عليه السلام فاطمة في المدينة؟

وهنا يذكر المحلّلون التاريخيّون أن الإمام الحسين عليه السلام قد ترك فاطمة ابنته في المدينة، ولم يأخذها معه لسببين، هما:

---

(١) بحار الأنوار ٤٤: ٣٢٧، الفتوح ٥: ١٩، مقتل الحسين عليه السلام (الخوارزمي) ١: ١٨٦.

الأول: أنها كانت تذكّره بأُمه فاطمة الزهراءﷺ كما ذكرنا، ففيها ملامحها، وفيها منها اسمها؛ ولذا فإنهﷺ أراد أن يجنّبها مأساة كربلاء وما سوف يحصل فيها من مجازر.

الثاني: أنها كانت مريضةً ولا طاقة لها على المسير مع القافلة كل تلك المسافة، ولذا فإن الإمام الحسينﷺ قصد أحد القلوب الرؤوفة بهم وهي أُم المؤمنين أُم سلمة (رضي الله تعالى عنها)، وقال لها: «**إن هذه وديعة عندك**». ثم طلب منها أن تُضفي عليها عطفها وحنانها، وأن تبعدها عن كلّ ما يمكن أن يذكّرها بهم وبرحلتهم، وعن كلّ ما يمتّ إلى أجواء الطفّ بصلة، إلى أن يختار الله تبارك وتعالى ما يختار.

ثم بعد ذلك سلّاهاﷺ وودّعها، ومنّاها بأنه إذا استقرّت به الحال فإنه سوف يُرسل في طلبها. وهنا خرجت هذه الصبية تودّع الأظعان واحداً واحداً إلى أن وصلت إلى هودج الرباب، فتشبّثت بالطفل الرضيع وقالت لأبيهاﷺ: أبي، دع لي هذا الطفل الرضيع لأسلو به بعدكم. فقال لها الإمامﷺ: «**بنيّة، إنه طفل صغير ولا يستغني عن ثدي أُمّه**». ثمّ رحل عنها تاركاً إيّاها في بيت أُم سلمة (رضي الله تعالى عنها).

وهكذا خرج ركب الإمام الحسينﷺ، وبقيت فاطمة العليلة تنتظر الأخبار إلى أن رجع الناعي ينعى الإمام ﷺ وأصحابه وأهل بيته فكانت تعدو وراء الناعي وتقول له: أيها الناعي قف لي قليلاً؛ فإني أُريد أن أسالك. فقال لها: الخبر أمامك عند قبر رسول اللهﷺ. فقالت: أنا عليلة ولا طاقة لي على اللحوق بك ثم اختنقت بعبرتها:

يـــــناعي ريّــض بـــهونك أنشــــدنك وجـــــاوبني

مـــا بـــيه ألحگ بـــممشاك　　عـــليلة والمـــرض ذبـــني

* * *

عـــندك خـــبر عـــن حـالي　　يـــو مـــا لك بـحالي أخـبار

أنـــه الراحـــوا هــلي عـني　　وعـــــافوني بـــهاي الدار

يـــصيح الدمـــع بـــعيوني　　وتســـعر بـــالضلوع النـــار

فـــــرگاهم تـــــلوّعني　　وذكـــــراهـــم تـــعذّبني

* * *

هـــلي الچـــانت حـــچاياهم　　مـــجد ووجـــوهم حـــلوه

عـــــافوني بـــــهاي الدار　　وخــــلوني بأرض شــــلوه

مـــا ظــل بـعد مـن عـدهم　　ولا حـــتى طـــفل ســـلوه

فالتفت إليها بشر وقال لها: مولاتي، حسبك، هوّني على نـفسك. فـقالت له: يا بشر، ما الخبر؟ فقال: عظّم الله لكِ الأجر بأبي عبد الله عليه السلام. فـرجـعت وهـي صارخة مولولة:

بعد هـيهات دهـري بـيكم يـعود　　أردّ اشـيل راســي بـيكم ردود

* * *

أحـبّتنا مـن للـظعائن بـعدكم　　فليت فداكـم يـا كـرام الظـعائنُ



﴿٢١٨﴾

أثر البيئة في العملية التربوية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾[1].

مباحث النصّ الشريف

المبحث الأول: مدارس التفسير

تقول الآية الكريمة: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، و﴿الصِرَاط﴾ يُنطق بالسين وبالصاد، والأصل فيه السين. وهو الطريق الذي يمشي عليه الإنسان في حياته. وبما أن المقصود به الطريق الذي يسير عليه الإنسان، فهو قطعاً يراد به طريق الحقّ وليس طريقاً غيره. ونحن بطبيعة الحال حينما نرجع إلى كتب التفسير نجد أن الإسرائيليات قد استغلّت الفرص الكثيرة لتتغلغل فيها، وهو ما سنلاحظه ونشير إليه خلال المباحث القادمة إن شاء الله تعالى. وقد أشرت سابقا إلى أن عندنا أكثر من مدرسة في مجال التفسير، منها:

---

(١) الفاتحة: ٦ ـ ٧.

الأولى: مدرسة التفسير بالرأي

ولا يُراد هنا: الرأي الشخصي المبتني على انفعالات المفسّر، أو طبيعته الاجتماعية، أو ميراثه الاجتماعي أو الأخلاقي، أو ما شابه ذلك، بل إننا نريد به الرأي المستند إلى العلم. فتفسير آية كريمة بالطرق الفنية تعني أن نعتمد التفسير العلمي لها، وهو تفسير بالرأي، لكنه تفسير مستند إلى الدليل العلمي أو البرهان العقلي. وبعبارة أُخرى أنه التفسير المستند على المقدّمات، وليس هو التفسير الذي يرجع به متبنّيه إلى المأثور النبوي الشريف.

ولبيان هذا الأمر نضرب مثلاً فنقول: قوله تعالى: ﴿**وَأُوْلَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ**﴾[1]، فالبعض من الفقهاء مثلاً يستفيد من قوله تعالى: ﴿**يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ**﴾ أن هذه المرأة يحقّ لها الزواج من شخص آخر بمجرد أن تلد جنينها، مستدلّين على ذلك بأن ظاهر لفظ القرآن يُشير إلى أن هذه المرأة إذا وضعت حملها حلّت للأزواج بمجرّد ذلك؛ لأننا لو خلّينا وظاهر لفظ الآية الكريمة لعرفنا أن هذا هو مفاد هذه العبارة.

في حين أن القسم الآخر من الفقهاء لا يرتضون هذا التوجيه، ويقولون: إن هذاالظاهر غير مقصود؛ لأنه ربما كان عند المرأة أكثر من جنين، فمسألة أن أول جنين يحقّق الوضع أمر صحيح ولا إشكال فيه، لكن نحن بحاجة هنا إلى إعمال الوسائل الفنية الأُخرى التي يجب أن تتبع في مقام التفسير. وعليه فإن المقصود هو حتى تُفرغ ما في رحمها من أجنّة فيما لو كانت حاملاً بأكثر من جنين، وهذا يعني أنها لا يجوز لأحد أن يعقد عليها حتى تضع الجنين الثاني أو الثالث إن كان هناك ثلاثة أجنّة في بطنها.

---

(١) الطلاق: ٤.

إذن فالمناط هنا هو إفراغ الرحم من الأجنّة، وليس تحقّق الوضع بنزول أول جنين منه.

وكما قلنا فإن هذه المدرسة هي مدرسة التفسير بالرأي المستند إلى العلم، وهي مدرسة مشهورة، ولها الكثير من الأنصار والأتباع الذين انتهجوا هذا المنهج في تفسير كتاب الله الكريم.

الثانية: مدرسة التفسير بالمأثور

وفي مقابل مدرسة التفسير بالرأي هنالك مدرسة التفسير بالمأثور، وهي المدرسة التي يعمد أصحابها إلى تفسير الآية الكريمة برواية من الحديث الشريف، وليس برأي من آراء العلماء. فهي إذن أن المفسّر حينما يتناول آية من كتاب الله تبارك وتعالى فإنه يتناولها ليفسرها بالأحاديث والروايات الواردة عن النبي الأكرم ﷺ أو عن أهل بيت العصمة عليهم السلام أو ما ورد بلغة العرب. وهكذا نخلص إلى أن مدرسة التفسير بالمأثور تنقسم إلى قسمين:

الأول: التفسير بالمأثور اللغوي

ومن هذا قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ**﴾[1]، فالتفث هنا يمكن معرفة معناه بالرجوع إلى لغة العرب، حيث نجد أنه قصّ الأظافر والشعر. فهذا تفسير للقرآن العزيز بالمأثور الوارد عن العرب لغة واستعمالاً.

الثاني: التفسير بالمأثور الحديثي

أما في بعض الآيات الكريمة الأُخرى فإننا نرجع في تفسيرها بالمأثور الوارد

---

(١) الحج: ٢٩.

عن المعصوم ﷺ، أي أن نرجع إلى الحديث الشريف لنفسر به الآية القرآنية الكريمة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا﴾[1]، فلمعرفة أسماء هؤلاء الثلاثة هنا فإنه لا مجال للرأي. هذا من ناحية، وكذلك لا مجال للرجوع إلى كتب اللغة أو إلى الآثار اللغوية الواردة عن العرب، بل لابدّ من الرجوع إلى الروايات، أي الرجوع إلى المأثور لبيان أسماء هؤلاء الثلاثة الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم، فعن طريق الرواية نعرف أسماء هؤلاء.

المبحث الثاني: سلبيّات التفسير بالمأثور

وعلى العموم فما أُريد أن أقوله هنا هو أن مدرسة التفسير بالمأثور قد دخلت فيها روايات إسرائيلية كثيرة غير معتمدة، وهي الروايات التي خلقت لنا كثيراً من المشاكل على نطاق التفسير، وفي إطار بيان كتاب الله جلّ وعلا. ومن موارد تغلغل الروايات الإسرائيلية في مدرسة التفسير بالمأثور ما يتعلّق بآية المقام وأخصّ منها كلمة ﴿الصِرَاط﴾. فالإسرائيليات تدخلت في هذا الباب حتى وصل الأمر حدّاً أنها تصف الصراط معه بأنه معبر دقيق كالشعرة، أو كحد السيف[2]، إلى آخره من هذه الأوصاف التي لا يمكن تعقّلها ولا تقبّلها بحال من الأحوال. فكيف يعقل أن الله تبارك وتعالى يكلّف الناس في أن يمروا على شيء مثل الشعرة أو

---

(١) التوبة: ١١٨.

(٢) الأمالي (الصدوق): ٢٤٢، روضة الواعظين: ٤٩٨، ٤٩٩، المستدرك على الصحيحين ٢: ٣٧٥، ٣٧٦، ٤: ٥٩٠، فتح الباري ١١: ٣٩٥، عمدة القاري ٢: ٤٢، ٦: ٨٤، ١٩: ٢٩٢، المصنف (الصنعاني) ١: ٢٩٤، المصنف (ابن أبي شيبة) ٨: ١٠٤، الأحاديث الطوال: ٩٩، المعجم الكبير ٩: ٢٠٣، الفايق في غريب الحديث ٢: ١٦٩، السيف الصقيل: ١٣٢ المواقف ٣: ٥٢٣ ، ٥٢٥، التخويف من النار: ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٣٨، ٢٥٢، العهود المحمدية: ٦٢٨.

مثل حدّ السيف، فإن استطاعوا وإلّا دخلوا النار؟

إن الله تبارك وتعالى لا يكلّف نفسا إلّا وسعها[١] ثم إنه ليس هنالك من تكليف يوم القيامة حتى يقال بأن الله تبارك وتعالى يكلّف الناس، أو يأمرهم باجتياز هذه الشعرة.

وعلى العموم فالروايات الإسرائيلية موجودة في التراث العلمي للمسلمين، وقد لعبت دورها فيه، وفي تفسير هذه الآية كذلك.

الكليني﵀ والبخاري

وهنا أود أن أُلفت النظر إلى أن البعض يتّهمون الشيعة بأنهم يأخذون عن الكليني (رضوان الله تعالى عليه) وهو الذي يروي ما يروي في كتابه من روايات شاذّة. وهذا غير صحيح، فالكليني﵀ وإن كان من خيرة مؤلّفينا، ومن علمائنا الأفذاذ العظام الذين نعتزّ بهم، لكننا مع ذلك لا نأخذ بكل ما ورد عنه، بل إننا نطرح ثلث ما ورد في كتاب (الكافي) لأننا نعتبره روايات ضعيفة[٢]. فنحن إذن لا نأخذ بكل ما في (الكافي) الذي يعتبره خصمنا هو أفضل كتبنا، بخلاف الخصم الذي يأخذ كلّ ما هو موجود في كتاب البخاري ولا يحكم على شيء منه بالضعف أو ما إلى ذلك.

وهكذا فإننا في الوقت الذي نضعّف فيه نحن الكثير من روايات الكليني ولا نأخذ بها ونطرحها، ولا نرتّب عليها أي أثر؛ لأنها معارضة بما هو أقوى منها دلالة أو سنداً، أو بما لا يلتئم مع أُصولنا العامّة، أو مع القرآن الكريم مع كون

---

(١) إشارة إلى قوله تبارك وتعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا﴾ البقرة: ٢٨٦.

(٢) بل بالرجوع إلى كتاب (مرآة العقول) للعلامة المجلسي الثاني نجد أنه يضعف فيه أكثر من ثلثي هذا الكتاب.

الكليني محقّقاً، ومن خيرة الأتقياء البررة نجد أن الخصم يأخذ بكل ما جاء في (صحيح البخاري)، مع أن فيها الكثير ممّا هو غير معقول أبداً.

أنموذجان من إسرائيليّات القوم

إن هناك الكثير من الروايات التي تبرز فيها اليد اليهوديّة واضحةً معالمُها على هذا التراث الذي ينبغي أن يكون مقدساً، ومن هذا نضرب بضعة أمثلة:

الأول: البخاري يروي أن النبي موسى عليه السلام سمل عين عزرائيل

أنهم يصدقون بأن عزرائيل أعور لأن نبي الله موسى عليه السلام قد لطمه ففقأ عينه، تقول الرواية: إن الله تبارك وتعالى أرسل ملك الموت عزرائيل إلى النبي موسى عليه السلام، فلما جاءه قال له نبي اللّه موسىٰ عليه السلام: «جئتني زائراً أم قابضاً؟». قال: «جئتك قابضاً». قال: «أتقبض روحي؟». ثم صكّه ففقأ عينَه، فرجع إلى ربّه بعين واحدة، فقال: «أرسلتني إلى عبد لا يريد الموت». فردّ الله عزّ وجل عليه عينه، وقال: «ارجع فقل له: يضع يده على متن ثور، فله بكل ما غطت به يده بكلّ شعرة سنة». فقال عليه السلام: «أي رب، ثم ماذا؟». قال: «الموت». قال: «فالآن»[1].

الثاني: أن الله قد كشف عن عورة نبيّه موسى عليه السلام

ذلك أن الناس كانوا يظنون أنه عليه السلام به عاهة في عورته (تنزه عليه السلام عن ذلك)، فكشفها الله تبارك وتعالى أمامهم ليتأكّدوا من سلامته عليه السلام من هذا المرض، حيث تقول الرواية: إن بني إسرائيل قالوا لموسى عليه السلام قولاً سيئاً في عورته عليه السلام، واتّهموه بأنه آدر[2]، فأراد الله أن يبرّئه أمامهم من هذا العيب، فوضع ثيابه مرّة على صخرة

---

(١) صحيح البخاري ٢: ٩٢، وانظر صحيح مسلم ٧: ١٠٠.
(٢) الآدر من الأدرة، وهي انتفاخ كيس الصفن. الصحاح ٢: ٥٧٧ ـ أدر.

وهو يغتسل، فأوحى الله للحجر أن يطير، فطار بعيداً عنه، فانطلق النبي موسىﷺ يتبعه في أثره وهو يقول: «يا حجر، ألقِ ثيابي». حتى أتى به على بني إسرائيل، فرأوه مستوياً حسن الخلق، فلجبه ثلاث لجبات [١].

ثم يعقّب أبو هريرة راوي الحديث على هذا فيقول: فوالذي نفس أبي هريرة بيده، لو كنت نظرت لرأيت لجبات موسى فيه [٢].

وكذا في الكثير من الروايات غيرها مما لا يدخل في مجال العقل [٣] وهم مع ذلك يأخذون بها ويصدقونها لأن راويها البخاري الذي لا يجوز أن تنسب إحدى الروايات التي في كتابه إلى الضعف أو الوضع أو الكذب [٤]. فكون البخاري يروي شيئاً وبالتالي لا يمكن ردّه لهو كلام فارغ لا يوصل إلى نتيجة، بل هو كلام أُناس لا شأن لهم، وليس لديهم غيرة على الدين، ولا على المسلمين، ولا على وحدتهم، ولا على تنزيه أنبياء الله تبارك وتعالى عن النقائص والمعايب. وأنا من هنا أقول: جزى الله خيراً أُولئك الذين تمكّنوا من أن يستخرجوا النفط لنعيش به، ولولا هذا لبقينا نعيش على أُولئك الذين يتّبعون البخاري، ولبقينا حتى الآن نأكل الضبّ ونمشي على آرائهم وأفكارهم.

---

(١) قال ابن الأثير: «وفي قصة موسىﷺ: «فلجبه ثلاث لجبات». قال أبو موسى: «كذا في (مسند أحمد بن حنبل)، ولا أعرف وجهه، إلّا أن يكون بالحاء والتاء، من (اللحت)، وهو الضرب. ولحته بالعصا: ضربه»...». النهاية في غريب الحديث والأثر ٤: ٢٣٣ ـ لجب.

(٢) مسند أحمد ٢: ٣٢٤، تفسير مجاهد ٢: ٥٢١، جامع البيان ٢٢: ٦٣ / ٢١٨٨٢.

(٣) كحديث: «فقدت أُمة من بني إسرائيل لا يدرى ما فعلت، وإني لا أراها إلّا الفأر، إذا وضع لها ألبان الإبل لم تشرب، وإذا وضع لها ألبان الشاة شربت». صحيح البخاري ٤: ٩٨، وأشباهه.

(٤) بل الأكثر من هذا أنهم يقدمونه على كتاب الله تبارك وتعالى، فيقرؤونه عندما تنزل بهم نازلة كالطاعون وما إلى ذلك. انظر: قواعد التحديث (القاسمي): ٢٤١ .

إن الأولى بهؤلاء أن يتّجهوا إلى تدعيم كلمة «لا إله إلّا الله»، وأن يصبّوا جهودهم على معالجة مشاكلنا الاجتماعيّة والأخلاقيّة والاقتصاديّة، إن على كلّ مسلم أن تكون عنده غيرة على المسلمين وعلى الإسلام من قبل ذلك. وبناء على هذا فإنه لا يجب أن نأخذ بكل رواية لأنها وردت في الكتاب الفلاني. وكمثال آخر على هذا فإن هناك العشرات من الروايات المروية في (صحيح البخاري)، والتي تقول بتحريف القرآن الكريم[1]، فهل يمكن لنا أن نأخذ به؟ قطعا لا؛ لأن

---

(١) هناك الكثير من هذا القبيل ننقل منه ما يتيسّر كدليل على صحّة المدّعى، وهو:

الأول: أن الله بعث محمداً ﷺ بالحق، وانزل عليه الكتاب، فكان مما أنزل الله آية الرجم، فقرأناها وعقلناها ووعيناها. صحيح البخاري ٨: ٢٦.

الثاني: عن عبد الله قال: (وما أُوتوا من العلم إلا قليلاً)، قال الأعمش: هكذا في قراءتنا. صحيح البخاري ٨: ١٨٩.

الثالث: عن ابن عباس: كان عكاظ، فنزلت: (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم في مواسم الحج). صحيح البخاري ٢: ١٩٧، ٣: ٤، ١٥، ٥: ١٥٨.

الرابع: وقرأ ابن عباس: (أمامهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً، وأما الغلام فكان كافراً وكان أبواه مؤمنين). صحيح البخاري ٤: ١٢٤، ٥: ٢٣٢، ٢٣٥.

الخامس: عن علقمة: فقرأت عليه: (والليل إذا يغشى، والنهار إذا تجلّى، والذكر والأُنثى). قال والله أقرأنيها رسول الله من فيه. صحيح البخاري ٦: ٨٤.

السادس: وعنه لما نزلت: (وأنذر عشيرتك الأقربين، ورهطك منهم المخلصين)... صحيح البخاري ٦: ١٩٨.

السابع: نزلت: (تبت يدا أبي لهب وتب، وقد تب)، هكذا قرأها الأعمش. صحيح البخاري ٦: ٩٤.

الثامن: عن ابن عباس: قال عمر: لقد خشيت أن يطول بالناس زمان حتى يقول قائل: لا نجد الرجم في كتاب الله. صحيح البخاري ٨: ٢٥.

التاسع: وعن عكرمة عن عمر قال: (لولا أن يقول الناس: زاد عمر في كتاب الله لكتبت آية الرجم بيدي). صحيح البخاري ٨: ١١٣.

العاشر: وعنه عن عمر: ثم إنا كنا نقرأ فيما نقرأ من كتاب الله تبارك وتعالى: (أن لا ترغبوا عن آبائكم فإنه كفر بكم أن ترغبوا عن آبائكم)، أو (إن كفراً بكم أن ترغبوا عن آبائكم).

هذا يخالف ما عليه صريح القرآن الكريم [١]، وما عليه إجماع المسلمين. ومن أراد التحقّق من الأمر فعليه بكتاب (التحقيق في نفي التحريف) للسيد علي الميلاني، وكذلك لينظر إلى الروايات التي ينقلها أبو زهرة، وكذلك لينظر في كتاب (مصباح الظلام) للجرداني.

كما أني على استعداد لأن أُعطي القارئ عشرات المصادر والكتب التي تحتوي على خبط من السماء إلى الأرض، لكن هذا لا يعني أنني أُعطي نفسي حقّ اتّهام المسلمين، وأن ادّعي عليهم بأنهم يقولون كذا وكذا، وأن أجلس في كل قارعة لأُهرّج عليهم. فما هو الهدف الذي يمكن أن يُجنى من وراء هذا التهريج؟ إنه لا يتمخّض إلّا عن تفريق للمسلمين، ولا يثمر إلّا تشتيتاً لشملهم وتمزيقاً لوحدتهم. ومن يعلم أن هذه هي النتيجة الحتمية لمثل هذا التهريج، ثم يعمد إليه فيفعله، فإنه حتماً يكون إنساناً مريضاً غير نظيف، وذا هدف غير نظيف أيضاً، بل إن مثل هذا الإنسان يُخفي وراءه أكثر من علامة استفهام.

إننا ندعو هؤلاء الذين يهرّجون علينا الليلَ والنهارَ إلى أن يأتوا لينظروا إلى ممارسات الفرد الشيعي، فإنهم حينما يرونها فحتماً سوف يجدونها ممارسات لا تختلف عن ممارساتهم الدينية والعبادية، فهو يصلّي اليومية مثلهم، ويصوم رمضان، ويحجّ بيت الله كما يحجون. فليس هنالك من فرق في تطبيق هذه الطقوس أو هذه الشعائر بين مسلم ومسلم؛ سواء كان شيعياً أو غير شيعي. لكن للأسف نجد أن البعض يبحثون عن رواية في بطون الكتب لعلّهم يستطيعون أن

صحيح البخاري ٨: ٢٦.

وغيرها كثير من موارد نسخ التلاوة وما شاكل.

(١) في قوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ الحجر: ٩.

يستخرجوا منها حكماً بكفر هذه الطائفة.

ولسنا ندري ما هي الجدوى من وراء ذلك، وما هو النفع المترتب على هذا. وأنا طبعا أربأ لنفسي عن أن أخوض في مثل هذه المهاترات؛ لأني أعلم أنها مضيعة للوقت، لكن الإنسان يضطرّ أحيانا إلى الخوض فيها؛ نتيجةً لما يوضع فيه من حال، أو ما يكون عليه من وضع؛ لأنه يجد نفسه قد حوصر بكثير من هذه القضايا التافهة، محاصرة تامة، ويجد نفسه لا يستطيع معها إلّا أن يخوض في مثل هذه الأُمور والمهاترات؛ ليدفع بها عن نفسه وعن مذهبه الحقّ.

وأنا أرى أنه يجب أن يوضع حدّ لهؤلاء؛ لأن حالهم حال الوباء الذي يصيب بلداً، فإنه إذا أصاب وباء بلداً ما وجب على أهله الاستعداد لمكافحة ذلك الوباء والقضاء عليه، وللوقاية منه في البلاد التي لم يصل إليها. وهكذا فإن هؤلاء أيضاً يجب عليهم أن يحاصروا ويكافحوا مثل هؤلاءِ؛ ليُقضى على هذا الوباء الديني والأخلاقي الذي يعيث فساداً في جسد الأُمّة الإسلامية وينخر في جسمها. فهذا الوباء يجب ألّا يصل صوته إلى المسلمين، ويجب أن يمنع المسلمون عنه؛ كيلا تصل عدواه إليهم.

فعلى المجتمعات الإسلاميّة كافّة أن تضع الحواجز دونهم لتمنعهم عن أن يصلوا إلى جسد هذه الأُمة وأن ينخروه ويفتّتوه ويشتتوا اجتماعه ووحدته.

بين النقد والانتقاد

إننا لا نريد أن نكمّ الأفواه، ولا أن نمنع شخصاً عن أن يعبّر عن رأيه بحرّيّة، لكن شريطة أن يكون ذلك التعبير ناشئاً عن مدرك علمي، أو أن يكون نقد الناقد نقداً علميّا أكاديميّاً مبتنياً على أُسس الحوار وقواعد النقد؛ كي نتوصّل عن طريقه إلى نتيجة دون المساس بوحدة المسلمين وباجتماع كلمتهم، ودون أن يؤدّي ذلك

إلى بثّ الفرقة بينهم. ومن هذا المنطلق فإن على الآخر الذي يريد أن يناقش نظرية فقهية، أو في علم التفسير، أو في علم الكلام عند الخصم فإن عليه أن يحافظ على الأدب في الحوار الإسلامي، وعليه وهو يكتب كتاباً أن يقيّد نفسه بالخلق الإسلامي النبيل الذي يحجر على الإنسان أن يسبّ أخاه أو أن يكفّره، وعليه أن يكتب كتاباً ليس فيه سوى النقد العلمي المتين القائم على أُسس النقد العلمي والمبتني على نظريّاته، وليس فيه سوى الكلام المستند إلى الأدلّة والبراهين، لا أنه مجرّد تهريج أهوج لا ينمّ إلّا عن فراغ صاحبه وضحالة فكر كاتبه.

الوحدة الإسلاميّة وضرورة الحفاظ عليها

إن على كل مسلم أن يظلّ محافظاً على أدب الحوار الإسلامي الذي ألزَمَنا به هذا الدين الحنيف؛ فالمفروض بكل مسلم أن يشعر بأن على لسانه رقيباً وأن على يده رقيباً وأن على ضميره رقيباً؛ كيلا يكتب إلّا ما هو حقّ وما فيه رضا الحقّ، ولا يلفظ إلّا ما هو حق، ولا يقول إلّا ما هو حقّ، لكن البعض لا زال يعيش أيام الجاهليّة وأوهامها؛ إذ يفعل كل ذلك دون رقابة من ضميره أو دينه أو غيرة على وحدة المسلمين والحفاظ عليها، بل إنه بتصرّفه هذا يكون قد سحق على وحدتهم بالأقدام.

والواجب يقضي عليه أن يعرف وأن يتنبّه إلى أن هذا الكلام ليس له مسوّغ أبداً، فجميع الناس ممّن يدين بالإسلام اليوم قد ولدوا على كلمة «**لا إله إلّا الله، محمد رسول الله**»، وربوا في بيوت مسلمة يظلهم فيها لواء «**لا إله إلّا الله، محمد رسول الله**»؛ وعليه فينبغي أن يضرب أي صوت يخدش وحدة المسلمين بعرض الجدار.

المبحث الثالث: أثر النعمة في الإنسان المؤمن

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، وهنا يطرح سؤال في المقام هو: من هم الذين أنعم الله عليهم؟ وهنا يتكفّل المصحف الشريف بالإجابة؛ فبالرجوع إليه نجدنا نقرأ فيه: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا﴾[1].

سبب نزول قوله تعالى: ﴿أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾

ويروي المفسّرون أن هذه الآية الكريمة نزلت بشأن عبد الله بن زيد بن عبد ربّه الأنصاري.

رواية الأذان

وهذا الرجل هو الذي يروي أنه السبب في حكم الأذان وصيغته وتشريعه كما تقول الرواية، ذلك أن النبي الأكرم ﷺ لما أراد أن يجمع الناس إلىٰ الصلاة جمع أصحابه واستشارهم، فقال بعض منهم: نضع ناقوساً كما يفعل النصارىٰ، نضربه وقت الصلاة فيجتمع الناس. وقال البعض الآخر: نصنع كما تصنع العرب، بأن نشعل ناراً علىٰ رأس الجبل فيراها الناس فيجتمعون. وقال بعض غيرهم: نبعث وقت الصلاة من ينبّه الناس في بيوتهم بأن وقت الصلاة قد حان.

ولم يوافق رسول الله ﷺ على رأي من هذه الآراء، وتفرّق الصحابة دون أن يحسم الأمر، حتىٰ إذا باتوا ليلتهم وأصبح الصباح جاءه عبد الله بن زيد هذا، فقال: يا رسول الله، لقد رأيت في الرؤيا من يقول لي: أذّنوا للصلاة بأن تأمروا

---

(١) مريم: ٥٨، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِعْ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقاً﴾ النساء: ٦٩.

أحدكم بالصعود على مرتفع، ويقول: الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، أشهد ألّا إله إلّا الله، أشهد ألّا إله إلّا الله... إلى آخره. فاستحسن النبي ﷺ ذلك، وأمر بلالاً أن يصعد فيؤذن به[1].

نقد الرواية

ولنا مؤاخذة حول هذه الرواية هنا؛ ذلك أن الأحكام الشرعية ـ سيّما الهامّ منها، وهو ما يتعلق بالمجتمع كافّة ـ لا يمكن أن يؤخذ عن طريق الرؤيا. وهذا المذهب في واقع الأمر ليس بكلام علمي ولا منطقي؛ فلا ينبغي الاستناد إليه، وإلّا فإن أي شخص يريد أن ينتقد المسلمين فإنه يحكم على دينهم بأنه دين الخرافات والأحلام والرؤى. وعلى أية حال فإن هذا الكلام لا يصمد أمام التحقيق، لكن هذه الرواية تروى عن هذا الرجل في سبب نزول هذه الآية الكريمة. على أن النبي الأكرم ﷺ حاشا له أن يأخذ حكماً من أحكام الإسلام عن طريق الرؤيا. فالرؤيا لا يمكن أن يُبنى عليها حكم شرعي أبداً، فما أكثر ما يرى الإنسان في حياته من رؤىً ومن أحلام!

وعلى أية حال فعبد الله هذا هو السبب في نزول هذه الآية الكريمة، ذلك أنه جاء مع جماعة إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إذا متَّ ومتنا كنت في علّيّين لا نراك ولا نجتمع بك. وذكر حزنه على ذلك، وقال الجماعة الذين جاؤوا معه: يا رسول الله، كيف يكون الحال في الجنّة، وأنت في الدرجات العُلى، ونحن أسفل منك؟ وكيف نراك؟ فنزلت هذه الآية الكريمة[2].

---

(١) مسند أحمد ٤: ٤٣.

(٢) تفسير السمعاني ١: ٤٤٦، تفسير الثعالبي ٢: ٢٥٩ ـ ٢٦٠.

استنتاجات على ضوء سبب النزول

وبمعارضة هذه الآية الكريمة على آية المقام فإننا يُمكن أن نستنتج عدّة أشياء من سبب النزول هذا، هي:

النتيجة الأولى: أن الإنسان لا يستغني عن الرفيق

وهذا الأمر لا يقتصر على الدنيا فقط، بل إنه يمتدّ ليشمل حتى الحياة الآخرة. والقرآن الكريم حينما يحدّثنا عن أجواء الجنّة في كلّ مقاماته فإنه يحدّثنا عن أجواء تقوم على نمط من أنماط الاجتماع، وليس على نمط فردي، ففي الآيات التي تتناول حال الناس يوم القيامة أو حال المؤمنين الذين أنعم الله عليهم بالجنة تصف هذه الآيات الكريمة سكّان الجنة على أنهم في اجتماع دائم، وعلى اتّصال مستمرّ يلتقي بعضهم بعضاً. وبناءً على هذا التقرير فما الذي نفهمه منه؟ إننا نفهم من هذا أن الإنسان يأنس بغيره ويؤنس به، وهذا يعني بطبيعة الحال أنه لا يستطيع أن يعيش وحده، بل لابدّ أن يعيش ضمن منظومة اجتماعية يتكامل معها وتتكامل معه.

ثم إن الإنسان مدني بطبعه وتركيبته، ومعنى هذا أنه يحتاج إلى أن يتآلف مع غيره ويندمج وينسجم معه[1]، وكما قلنا: سواء كان هذا في الدنيا أو في الآخرة. ففي الجنّة لابدّ للإنسان من إخوان يحلّ معهم فيؤنسهم ويؤنسونه[2]. والجنّة إذا خلت من الإخوان أو الرفقاء الذين ينسجم معهم الإنسان لم تكن جنة أبداً بل إنها

---

(١) قال الشاعر:

وما سمّي الإنسان إلّا لأنسه ... ولا القلب إلّا أنه يتقلّبُ

الجامع لأحكام القرآن ١: ١٩٣.

(٢) قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ الحجر: ٤٧.

تتحول إلى نوع من أنواع السجون الانفرادية[١]، غاية ما في الأمر أن هذا السجن واسع كبير فيه كل ما يشتهي الإنسان لتلبية حاجاته الجسدية. وهذا يعني أن النعمة هي أن يجلس الإنسان إلى أخ يتناغم معه روحياً، وينسجم معه؛ كي يردّ أحدهما عن الآخر الوحشة.

وهذا هو النعيم الذي تتناوله آية المقام؛ سواء كان في الدنيا، أو في الآخرة والرفاق المؤمنون هم رفاق في الدنيا ورفاق في الآخرة؛ لأنهم كما هم متحابّون هنا ومتآلفون ويؤثر بعضهم بعضاً على نفسه فكذلك هم في الآخرة إخوة متحابّون متقاربون. وقد قرّر الشاعر هذه الحقيقة حيث يقول:

ورفاقُ هذي الدارِ فيما أسلفوا للكاتبينَ رفاقُ تلكَ الدارِ

وبهذا فإننا نعرف أن هناك سنخية في الأمر؛ فالإنسان المؤمن يبحث عن إنسان مؤمن مثله ليلجأ إليه ويأنس به، وكذلك الإنسان الفاسق فإنه يبحث عن إنسان على شاكلته ليأنس به ويتناغم معه؛ لأنه كما قلنا هناك سنخية وتجانس في الباب[٢]. ولذا فإن هناك وصايا كثيرة حثّت فيها الشريعة المقدّسة على اختيار الرفيق أو الصدّيق المناسب للإنسان؛ لأن هذا الرفيق هو أشبه شيء برقعة الثوب، فهذه الرقعة ما لم تكن من جنس الثوب ومن لونه فإنها سوف تُصبح أمراً ناشزاً ومعيباً على الثوب، بخلاف ما لو كانت من عين جنسه أو لونه أو مادّة صنعه؛ لأنها حينئذٍ سوف تُصبح أمراً غير مرغوب فيه على ذلك الثوب.

وهذا هو شأن الرفيق والصديق الذي يجب على الإنسان أن يحرص على أن

---

(١) قال الشاعر:

إن قبرَ الحبيبِ دارٌ وداراً ليس فيها الحبيبُ قبرٌ كئيبُ

(٢) أن الطيور على اشكالها تقع

يختاره بدقّة؛ لأن الصديق هو مرآة أخيه التي تعكس له جملة أخلاقياته[1]. وبناءً على هذا فإنه يجب على الإنسان ألّا يختار الصديق الفاسق، أو الذي اعتاد على أن يلفظ الكلمات النابية، أو الذي اعتاد على أن يتصرّف تصرفات بعيدة عن روح الإسلام.

ثم إنه وكما يُقال: «الطبع سرّاق»[2]، وهذا يعني أن الإنسان سوف يتعلم من رفيقه كثيراً من أخلاقياته وعاداته وثقافته، وهذه الأخلاقيات أو الثقافة التي يتخلّق بها الرفيق، أو كان قد تثقّف بها سوف تسرق شيئاً من طبع الرفيق وعاداته، وتحلّ محلّها، وبالتالي فإنه سوف يتأثّر تأثّراً كبيراً بصديقه.

إذن فالصديق إذا كان من أصدقاء السوء فإنه حتماً سوف يطبع بصماته على صديقه بشكل سلبي، ويغيّر أخلاقياته وعاداته والتزامه إلى خلاف ما تريد السماء. ولذا فإننا نجد أن الوباء الذي يعيث فساداً الآن في مجتمعنا هو وباء ناشئ عن رفاق السوء الذين يدفعون برفاقهم إلى المعصية والوقوع في الجريمة دفعاً. ومن هذا ما يعانيه بعض الآباء الذين لا يتمكّنون من السيطرة على أبنائهم؛ ذلك أن هذا الولد بمجرد أن يُصبح صبياً يظنّ أنه يملك أمره، فيخرج إلى الشارع الذي سوف يسرقه من أبيه، وكذلك تفعل المدرسة.

ولابدّ من أن ننوّه إلى أن الشارع والمدرسة يعدّان أُنموذجين مصغّرين من المجتمع؛ لأنهما يضمّان الإنسان المؤمن والإنسان الفاسق، والإنسان الخلوق والإنسان غير الخلوق، وما إلى ذلك، كما أن فيهما ابن رجل الدين وابن العامل وابن التاجر وابن المهندس وأبناء آخرين غيرهم. وهؤلاء كلهم يكونون عادة

---

(١) يقال في المثل: صديقك من صدقك لا من صدّقك. الغارات: ٧١٢.

(٢) منية المريد: ٢٢٩.

ذوي أخلاق متباينة وطباع مختلفة.

والشابّ حينما يخرج إلى الشارع أوالمدرسة فإن ما ستؤول إليه حاله يختلف باختلاف وضعه النفسي وتربيته الأساس التي تلقّاها في البيت؛ فهو تارة يكون نابهاً متيقّظاً، فيختار رفاقه اختياراً دقيقاً؛ لأنه يعرف أن هذا الرفيق سوف يتأثّر به ويؤثّر فيه؛ ولذا فإنه يعمد إلى أن يختار من يتجانس معه ولا يختار رفاقه عشوائياً؛ كي يبتعد بذلك عن رفاق السوء. وهذا بخلاف الإنسان أو الشابّ غير اليقظ وغير الحذر، فإنه يعمد إلى عدم الانتقاء في مرافقة ومصادقة الآخرين، فيرافق الخيّر والشرّير، وهذا قد يوقعه في مشكلة هي أن الصديق الشرّير سوف يؤثر سلباً على أخلاقه وعلى طباعه، ويدفع به دفعاً حثيثاً إلى اقتراف الخطيئة وارتكاب المعصية.

ومثل هذا فإن الشارع أو المدرسة سوف يسرقانه من أبيه الذي حينئذٍ سوف لن يتمكّن من السيطرة عليه، بل ربما يفقدها تماماً؛ لأن هذا الولد يرى من نفسه أنه قد ملك زمام أمره، وأن له الحقّ في أن يصادق من يريد وألّا يصادق من يريد. وهنا نجد حرص الإسلام والشارع المقدس واضحاً في الحثّ على تجنيب الآباء أبناءهم عن أن يتّصلوا برفقاء السوء، ذلك أن المرض الاجتماعي لا يختلف في خصائصه عن المرض البدني أبداً، فهو يسري في المجتمع ويدمّره تدميراً كاملاً كما يسري السرطان في الجسم من مكان إلى مكان حتى يأتي عليه، ويؤدّي به أخيراً إلى الموت.

النتيجة الثانية: أن ذهاب الرفيق يؤدّي إلى الإحساس بالاغتراب

فالإنسان إذا ما ذهب عنه رفاقه أصبح يعيش في غربة واغتراب، وفي عزلة عن المحيط الذي يعيش فيه؛ لأنه حينئذٍ سوف لن يجد من يتجانس معه أو يتناغم

مع روحه. وهذا غالباً يقع مع الإنسان الذي يحدو به ركب الأيّام، ويتقدّم به مشوار السنّ؛ فبعد أن يمتدّ به العمر، ويكون رفاقه الذين عاصروه وأترابه الذين عاشوا معه طفولته وصباه وشبابه، ولعبوا معه ولعب معهم قد فارقوه إلى الحياة الأُخرى، فإنه حينئذٍ سوف يحسّ بنفسه بأنه في وحشة حقيقيّة، وفي عزلة ما بعدها عزلة.

فهؤلاء هم الذين كان يأنس بهم ويأنسون به، وينجذب إليهم وينجذبون إليه، وبذهابهم فإنه يكون قد فقد عنصراً روحياً هامّاً يجد من خلاله نفسه وأجواءه التي عاشها، أو التي كان فيها.

وقد مرّت هذه الحالة بإمامنا أمير المؤمنين عليه السلام الذي كان كثيراً ما يناجي أصحابه ورفاق دربه المعنّي، فيقول: **«أين إخواني الذين ركبوا الطريق ومضوا علىٰ الحقّ؟ أين عمّار؟ وأين ابن التيهان؟ وأين ذو الشهادتين؟ وأين نظراؤهم من إخوانهم الذين تعاقدوا على المنيّة، و أُبرد برؤوسهم إلى الفجرة؟»**. ثمّ ضرب عليه السلام بيده الكريمة إلى لحيته الشريفة، وأطال البكاء، ثمّ قال (صلوات الله وسلامه عليه): **«أوّه علىٰ إخواني الذين تلوا القرآن فأحكموه»**[1].

وهكذا كان عليه السلام، وقد كان كثيراً ما يخرج إلى الجبّانة ويجلس ينكت التراب بإصبعه ويقول:

وفي الصَّدرِ لُبانات ... إذا ضاق بها صدري
نكتّ الأرضَ بالكفّ ... وأبديتُ لها سِرِّي
فمهما تُنبِتُ الأرضُ ... فذاك النَّبتُ من بَذري[2]

---

(١) نهج البلاغة / الخطبة: ١٨٢.

(٢) فضل الكوفة ومساجدها (المشهدي): ٦٥، بحار الأنوار ٤: ٢٠٠، ٩٧، ٩: ٤٥٢.

فالواقع أن الإنسان إذا مرّ بهذه المرحلة فإنه سوف يعيش حالة من النزاع مع الحياة والنفس لا حدود لها؛ لأنه بطبيعة الحال لا يمكن له أن ينفكّ عن رفاقه الذين عاش معهم العمر كلّه، وانسجم معهم انسجاما كاملاً، فإذا ما افترق عنهم حينئذٍ فإنه سوف يحسّ بأنه يعيش في دائرة من الفراغ اللامتناهية، وأن الدنى كلّها قد أصبحت سوداء في عينيه. ذلك أنه أصبح على هذه الدنيا في يوم جديد وهو يفتقد تلك الأجواء التي يأنس بها، والتي تتناغم مع روحه، وكذلك دون أن يرى صحبه وأحبّته. وهذا الأمر هو الذي يحدو به إلى أن يحنّ إلى اللحاق بهم.. برفاقه الذين عاش معهم، وأترابه الذين قضى عمره معهم.

لكنه ﷺ كان يستعيض عن ذلك باللجوء إلى الله تبارك وتعالى، والانقطاع إليه، فمن الممكن للإنسان أن ينشغل عن هذه الأجواء فيما لو اتّخذ رفيقاً آخر لا يفارقه، وهو الله جل وعلا. سئل أحد العبّاد الملازمين لبيوتهم: ألا تستوحش من ملازمتك بيتَك؟ فإنا نرى الناس تمرّ بأدوار من الوحشة والغربة، وأنت نراك لست كذلك، أفلا تستوحش من هذه الحال؟ فقال: لا. فقيل له: لماذا؟ فأجاب: إذا أحببت أن أُكلّم اللّه صلّيت، وإذا أحببت أن يكلّمني اللّه قرأت القرآن؛ لأنه كلامه تعالى.

فهذا يقول: أن كلاًّ من الصلاة وقراءة القرآن يجعلانِني أعيش أجواء روحيّة لا حدود لها؛ ولذا فإنني لا أُفارقهما أبداً.

حقيقة التصوّف وأنواعه

وهذا لون من ألوان التصوّف؛ ذلك أن للتصوّف أنماطاً عدّة، نذكر منها:

الأول: التصوّف المعتدل

وهو مذهب يعتقد أصحابه بأن كلاًّ من الصلاة وقراءة القرآن أُمور تجعلهم

يعيشون أجواء مليئة بالروحيّة؛ ولذا فإنهم لا يستوحشون معها أبداً. وللحقيقة نذكر أنّ هناك نوعاً من التصوّف يقف عند هذا الحدّ، وهو تصوّف سليم لا غبار عليه؛ لأنه وسيلة تعمل على انقطاع صاحبها إلى الله تبارك وتعالى، وتحقيق صلته به بشكل سليم ومعقول دون أن ينقطع عن المجتمع أو عن علاقاته الأُخرى داخله؛ سواء كانت علاقات اجتماعيّة أو اقتصاديّة أو غيرهما.

الثاني: التصوّف المتطرّف

وهو التصوّف الذي تشوبه بعض التوابع التي راحت تشوّه أصالته وحقيقته بعد أن كان يمثّل فكراً سليماً. وهو التصوّف الذي ينقطع فيه الإنسان عن المجتمع انقطاعا كاملاً دون أن يكون له أثر أو تأثير فيه[1].

إذن ما أُريد أن أقوله هو أن التصوّف المعتدل هو في حقيقته منازل العارفين بالله تبارك وتعالى.. العارفين الذين لا يستوحشون في هذه الحياة أبداً؛ لشعورهم بأن الله تبارك وتعالى معهم في كلّ لحظة من لحظات حياتهم، وفي كلّ حركاتهم وسكناتهم، فيجعلون الله تبارك وتعالى رفيقاً لهم في كلّ جزئيّة من جزئيّات حياتهم، مهما استُقلّت أو صغرت.

وهذه الحالة التي أشرنا إليها هي أظهر وأشدّ وأشرف مراحل التصوّف الصحيح؛ لأن الإنسان إذ ينقطع إلى الله تبارك وتعالى فإن عليه ألّا يبتعد عن أداء الواجبات أو المستحبات الشرعية أو الاجتماعية، ولا ينقطع عن أداء حقوق المجتمع الذي يعيش فيه، بل عليه أن يظلّ يعيش القرب الإلهي ولا يرى إلّا الله تبارك وتعالى عوناً وردئاً وحافظاً ورازقاً ومعيناً. وهؤلاء هم الذين نسمع

---

(١) والحقيقة أن هذا الإنسان يعيش عائلاً على المجتمع؛ لأنه يأكل ويلبس مما يعمل المجتمع، في حين أنه لا يقدّم للمجتمع هذا شيئاً يُذكر.

شاعرهم وهو يقول:

توهّمت قدماً أن ليلى تبرقعت ... وأن حجاباً دونها يمنع اللثما

فلاحت فلا والله ما ثم حاجب ... سوى أن طرفي كان عن حسنها أعمى [١]

وهذا لون من الجذبات الصوفيّة الرائعة التي تحمل روحية عالية تجعل صاحبها لا يشعر بشيء من حوله إلّا بوجود الله تبارك وتعالى، ولسان حاله أنه حاول أن يضع حاجباً أو حاجزاً بينه وبين الله عزّ وجلّ، لكنه لم يستطع؛ ذلك أنه جل وعلا كان معه أينما يذهب[٢].

وهذا الأمر هو الذي يجعل من الإنسان بعيداً عن الإحساس بالغربة الحقيقيّة وقريباً من الاستئناس؛ لأنه تبارك وتعالى هو أُنسه، فهو الموجود الوحيد الذي يأنس به؛ ولذا فإننا نقول في الدعاء الشريف: «يا مؤنس المستوحشين في الظلم»[٣].

النتيجة الثالثة: أن الإخوة لا تحول بينهم الرتب

إن هؤلاء الصحابة الخلّص إذ يقولون للنبيﷺ: يا رسول الله، كيف يكون الحال في الجنّة، وأنت في الدرجات العُلى، ونحن أسفل منك؟ وكيف نراك؟ ثم نزول الآية الكريمة مجيبة على تساؤلاتهم، فإننا نفهم من هذا أن الإخوة كما ذكرنا قبل قليل لا يمكن أن تحول بينهم المراتب أو المنازل التي أنزلهم الله فيها.

وما هو متعارف من أن هناك حواجز رسمية بين الناس وذلك حينما يكون لأحدهم رتبة أو مركز اجتماعي أو إداري أو سياسي مرموق؛ وهو بهذا يظن أن

---

(١) تفسير الآلوسي ١: ٥٨، ٢٩: ١٤٦.

(٢) قال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ الحديد: ٤.

(٣) مصباح المتهجّد: ٣٦١ / ٤٨٥، الإقبال بالأعمال الحسنة ٣: ٣٣٧.

عليه أن يتميّز عن الآخرين وأن يترفّع عنهم، وألّا يكلّمهم إلّا بواسطة رسل أو حجّاب دونه ودونهم، ولا يخاطب إلّا طبقة مختصّة به فهذا ما لا وجود له في الإسلام أبداً، بل إن الإسلام يعدّه لوناً من العصبية الجاهليّة أو التصرّفات البعيدة عن روحه وعن تشريعاته.

فالرتبة بأية حال من الأحوال لا يمكن أن تحول بين إنسان وإنسان وإن كبرت، أو عظم ذلك التفاوت فيها؛ لأن هذه الرتب التي ينعم بها الإنسان غير منتزعة من ذاته، وإنما هي رتب قد خُلعت عليه من الخارج. فالإنسان عندما يكتسب مقداراً من المال يؤهّله للعيش بمستوى خاصّ، فإنه إذا ما فقد ذلك المال فسوف يرجع إلى وضعه السابق قبل أن يحصل عليه.

وهذا الأمر يدفعنا إلى القول بأن هذه المرتبة الخاصّة التي حصل عليها بواسطة الأموال هي مرتبة خارجية عن ذاته، وأجنبية عنها، والشيء الأجنبي لا يمكن أن يكون سببا للتفاضل والتمايز عن الآخرين، بل إن الشيء الذي يجب أن يكون كذلك هو ما كان من داخل الذات، كأن يتم التمايز بين الناس على ضوء العلم، فيقال: هذا عالم وهذا جاهل، أو على ضوء التقوى فيُقال: هذا تقي وهذا شقي عاصٍ.

إذن فالرتب الخارجية عن الذات والأجنبية عنها لا يمكن أن تكون مورد تفضيل بين الناس أبداً، ولا يحقّ لأحدهم أن يتعالى على الآخرين ممّن خلق الله تبارك وتعالى، بل إن الواجب يقضي بأن يكون العكس هو الواقع؛ لأن هذه الرتب الخارجية عن الذات التي جاءت للإنسان من غير أن يكون له يد فيها ينبغي أن تُلزمه بأن يكون أكثر تواضعاً ودون أن يكون مترفّعاً ومتكبّراً عليهم. يصف أحد الشعراء وادياً مرّ به فيقول:

مـررتُ عـلى الوادي فسفَّت عَـجاجةٌ	وكـم مـن بـلادٍ بـالعجاج ومـن نـادِ
فكـم كـومةٍ للـتُّربِ مـن بـعدِ كُومَةٍ	مُـعلَّمَة هـذا الزعـيمُ وذا الهـادي
ثـلاثون جـيلاً قـد ثـوتْ في قراره	تَـزاحَـمُ فـي عُـربٍ وفُرسٍ وأكـرادِ
فـفي الخـمسةِ الأشبارِ دُكَّتْ مـدائـنٌ	وقـد طُـويت فـي حـفرةٍ ألفُ بـغدادِ
طـلبتُ ابـنَ عـبَّادٍ فألفـيتُ صـخرةً	وقـد رُقشت: هـذا ضـريحُ ابنِ عـبّادِ
وأبـقيتُ لم أنـفُض عـن الرأس تُـربَها	لأرفَـعَ تكـريماً عـلى الرأسِ أجدادي
فذو الزَّهوِ خلَّى الزهوَ عنه وقد مضى	وظـلت عـلى الغـبرا سِـيادةُ أسـيادِ
أعُـقباكِ يـا دُنـيا قـميصٌ وطِـمرَةٌ	بـحفرةِ أرضٍ مـن خَـرابـات زُهَّـادِ [١]

إذن ففي الواقع أن رفاق الحقّ الذين تحابّوا في الله تبارك وتعالى، والذين اجتمعوا على طاعته وحبّه والإيمان به لا يمكن أن تفصل بينهم الرتب، ولهذا فإننا نجد أن أُولئك التلاميذ الذين أنجبتهم مدرسة الرسول الأكرم ﷺ لم تكن تشكّل عندهم هذه الآثار الخارجيّة نوعاً من العصبيّة الجاهليّة أو التعالي والترفّع على الآخرين، ولم تكن بالتي تدفعهم إلى الانعزال عن الناس والانقطاع عنهم بحجّة أنهم ذوو مراتب اجتماعية أو سياسية أو إدارية تلزمهم أن يكونوا بهذا الوضع الجديد، وان يترفّعوا عن مخاطبة الناس أو تكليمهم إلّا بواسطة حجّاب.

أنموذج من مدرسة رسولنا الأعظم ﷺ

إننا حينما نرجع إلى أُولئك التلاميذ النجباء لمدرسة الرسول الأكرم ﷺ، فإننا نجد أنهم كانوا كسائر الناس لا يختلفون عنهم أبداً، فهم كغيرهم في ملبسهم ومطعمهم، وفي حيثيّات حياتهم العامّة.

---

(١) الأبيات للشيخ علي الشرقي. انظر مدينة النجف: ٧٦.

سلمان المحمدي ﷺ

وكمثال على هذا فإننا نجد أن سلمانَ المحمدي ﷺ كان من أولاد الملوك كما ينقل بعض المؤرّخين ذلك؛ حيث إنه كان في قرية من قرى أصفهان تُسمى جي[1]. وكان ﷺ من المعمَّرين، وكان كتلة من المعارف والعلوم، وغاية في التكامل الجسدي والروحي. ويكفيه أنه من عبّر عنه الرسول الأكرم ﷺ بقوله: **«سلمان منا أهل البيت»**[2].

وهو ﷺ قد أعطاه بهذا مركزاً ومكانةً عاليين لا يمكن لأي من الناس أن يصل إليهما. يروي ابن أبي الحديد عن السيدة عائشة قولها: كان لسلمان ﷺ مجلس من رسول الله ﷺ ينفرد به بالليل، حتى كاد يغلبنا على رسول الله ﷺ[3]. وهذا يعني أن له وقتاً يخصّصه له الرسول ﷺ؛ ليجلس معه ويقرّبه، ويحدّثه ويعلمه. وبهذا فإنه ﷺ كانت له مزايا كثيرة قد اختصّ بها دون غيره من الصحابة والمسلمين.

وكذلك يروي ابن أبي الحديد عن النبي ﷺ بطريق عبد الله بن عمر بن الخطاب قوله: **«أمرني ربي بحبّ أربعة، وأخبرني أنه يحبهم: علي، وأبو ذر، والمقداد، وسلمان»**[4].

وعلى أية حال فإن سلمانَ ﷺ هذا كانت له مزايا كثيرة تجعله أهلاً لتلك

---

(١) الدرجات الرفيعة في طبقات الشيعة: ١٩٨، بحار الأنوار ٢٢: ٣٦٢، مسند أحمد ٥: ٤٤١: دلائل النبوّة ١: ٣٥٢، تغليق التعليق ٣: ٢٦٥، الإكمال في أسماء الرجال: ٩٦، شرح نهج البلاغة ١٨: ٣٤.

(٢) عيون أخبار الرضا ١: ٧٠ / ٢٨٢، المعجم الكبير ٦: ٢١٣.

(٣) شرح نهج البلاغة ١٨: ٣٦.

(٤) المصدر نفسه، وانظر: شرح الأخبار ٣: ٤٨٧ / ١٤١٢، الاستيعاب ٢: ٦٣٦.

المنزلة التي أولاه إياها الرسول الأكرم ﷺ، كما أن هناك روايات كثيرة تُشير إلى فضله وفضائله[١]، وكان كثير الزهد شديد الانقطاع عن الدنيا دون أن يمنعه ذلك من الاجتماع بالناس ومشاركتهم في حياتهم الاجتماعيّة.

أنموذج من زهد سلمان رضي الله عنه

ويروى في هذا المجال أن سلمان المحمدي رضي الله عنه كان له عباءة ليس له غيرها، فكان إذا أراد أن يجلس أو أن ينام افترشها، وإذا أراد أن يمشي رفعها ووضعها على منكبيه، مع أنه يمتلك القابلية على أن يشتري غيرها[٢]، ولم يكن ليفعل؛ فقد كان راتبه من بيت المال خمسة آلاف درهم، لكنه رضي الله عنه كان ينفقه جميعه على الفقراء دون أن يأكل منه شيئاً، ثم يأتي إلى بساتين النخيل ويأخذ بضعة سعفات ليصنع منها زنابيل ويبيعها ويأكل من ثمنها[٣]. أي أنه رضي الله عنه كان يأكل من كدّ يده ومن عرقه، وبهذا فإنه كان غاية بالزهد.

أنموذج من تواضعه رضي الله عنه

يروي المؤرخون أنه رضي الله عنه بعد أن ولّاه عمر بن الخطاب على المدائن جاء راكباً على حمار، وكان عنده مطهرة وشيء يسير من الأثاث الذي يحتاجه في طعامه ووضوئه، فلمّا وصل المدائن راح الناس يسألونه: هل مر بك موكب الأمير؟ لأنهم قد وصل إليهم الخبر بأن الأمير سوف يصلهم. وكان رضي الله عنه يسكت عنهم حتى جاء ودخل الدار المعدّة للولاية، وحينها عرف الناس أنه هو الوالي أو الأمير المرسل إليهم.

---

(١) انظر: شرح نهج البلاغة ١٨: ٣٤ ـ ٤١.

(٢) الاستيعاب ٢: ٦٣٥، شرح نهج البلاغة ١٨: ٣٥.

(٣) المصدر نفسه.

فكان بهذه الدرجة من البساطة والترسّل، وفي قبوله منصب الولاية دليل على أنه لم يكن يريد أن ينقطع عن الناس ويشتغل بالعبادة فقط، بل إنه مع ما كان عليه من الانقطاع إلى الله جل وعلا لم يترك أُمور الناس ومساعدتهم وسدّ احتياجاتهم.

أنموذج ثانٍ من تواضعه رضي الله عنه

يروي المؤرخون أن رجلاً اشترى بالمدائن بضاعة ثقيلة، فمرّ سلمان وهو أمير بها كما ذكرنا، فلم يعرفه الرجل، فقال له: احمل هذا معي يا علج. فحمله سلمان وسار معه إلى الدار، فكان كلّ من يتلقّاه يقول: ادفعه إلي أيها الأمير. فعرف الرجل أنه هذا الذي نعته بالعلج هو الأمير، فأخذ يعتذر منه، ويطلب منه أن يعطيه الحمل، وسلمان يأبى ويقول: لا والله، ما يحمله إلّا العلج. حتى بلغ منزل الرجل (١).

فتأمل هذا اللون من الخلق الرفيع والتواضع العالي، وهل هذه إلّا المدرسة التي أنشأها وأشادها رسول الله ﷺ وغذاها بروح الإسلام وأعطاها ذلك النفَس الخالي من الجبروت والتعالي عن الناس والتكبّر عليهم.. النفَس المرن اللين الذي لا يفكر في أن تكون هناك حواجز بينه وبين الآخرين؛ لأنه يرى أن الجميع إخوان في الدين، وبالتالي فهم إخوان على سرر متقابلين في هذه الحياة الدنيا وبعد الموت في الحياة الآخرة؟ وبهذا فإنهم مثال الوفاء، ومثال حفظ العهود والاتّصال ببعضهم البعض دون أن تُقطع تلك العلقة التي تربط بينهم.

سارتر والوجودية

فالإنسان لا يمكن أن يعيش لنفسه، بل إنه يعيش لمجتمعه وللناس كافّة. أم أن

---

(١) نثر الدرر ١: ١٢٢، التذكرة الحمدونية ١: ٢٢، الطبقات الكبرى ٤: ٨٨.

يعيش الإنسان لنفسه، ويرى منها أنها أكبر من غيرها، فهذا ليس إنساناً في حقيقة الأمر، بل إنه إغراق في الأنانيّة التي تبعث على الكره، والتي تجعل من صاحبها يرى الناس كلهم دونه.

وفي هذا المجال نذكر أن سارتر إمام الوجوديين كان في أول أمره قد طرح نظرية أن الإنسان قد خُلق لنفسه، وبتعبير آخر أنه لا وجود متحقّق إلّا وجود الإنسان الفردي، فهو فرد بوجوده، ولا علاقة له بالآخرين. وكأنما الإنسان بهذا قد جاء من عالم مجهول، ثم بعد ذلك يذهب إلى عالم مجهول، ولذا فإنه لا يستطيع أن يحقّق وجوده إلّا بإشباع رغباته الوجودية.

فهو إذن ينطلق مع رغباته دون أن تكون له هنالك أية علاقة مع الآخرين، ودون أن يكون لجميع المعايير والقيم التي تخلق الإنسان الصالح أي اعتبار عنده، بل إن هذه المعايير والقيم من وجهة نظره تشلّ الإنسان وتقيّد حياته وحركته. وبهذا فإن عليه أن ينبذها لأنها تقيّده بقيود لا حدود لها، فتقضي على الشعور بوجوديته وفردانيّته، مع أنه فرد يجب أن يعيش مع نفسه ولنفسه دون أن يهتمّ بكلّ تلك المعايير والقيم والأخلاقيات.

وهكذا نجد أن سارتر بهذه النظرية يذهب إلى أن نبذ تلك القيم والأخلاقيات، ويرى أن التخلّي عنها يؤدّي إلى تحرّر الإنسان من القيود كافّة، وإلى تمكّنه من أن يشبع رغباته، فيحقّق وجوده لنفسه.

هذا ملخّص نظريته، لكنه عاد بعد ذلك وأجرى عليها بعض التغيير والتعديل فقال: إذا أراد الإنسان أن يبحث عن ذاته فليبحث عنها في خدمة غيره. وهو بهذا يكون قد انتقل في فكره هذا نقلة كبيرة.. انتقل من الخطأ إلى الصواب. وهذا هو الذي ينبغي أن يكون؛ فالإنسان لا ينبغي عليه أن يفكر مجرد تفكير أنه لا يمكنه أن يجد ذاته مع الآخرين، بل إن عليه أن يعي أن وجوده متحقّق بوجودهم، وهذا

ما أشار إليه الحديث النبوي الكريم الذي يقول: «المرء كثير بأخيه»[(١)]، أي أن الإنسان من غير أخيه الإنسان لا يمكن له أن يعيش أبداً.

رجع

وعلى أيّة حال فهؤلاء الصحابة كانوا يقولون للنبي ﷺ: يا رسول الله، كيف يكون الحال في الجنّة، وأنت في الدرجات العُلى، ونحن أسفل منك؟ وكيف نراك؟ مع أن أخلاق الإسلام ليست كذلك؛ فكما أنّ مقام النبي ﷺ السامي لم يكن ليمنعه من الاتّصال حتى بأدنى الناس في الدنيا فكذلك هو الشأن في الآخرة، حيث إنه ﷺ مهما بلغ من مراتب العلوّ في الجنة فإن ذلك سوف لن يمنعه من الاتّصال بالصحابة والصالحين من اُمّته، بل إن العكس هو الكائن؛ لأنه ﷺ أرأف الناس باُمّته، وأرفقهم بها، وأشفقهم عليها؛ ولذا فإننا نجد أن الرواية تقول: «ما خلق الله عبداً من عباده؛ ملكاً ولا نبياً إلاّ وينادي: يا ربّ نفسي نفسي، وأنت تقول: يا ربّ، اُمّتي اُمّتي»[(٢)].

وفي هذا دليل على أن الإنسان لا يفكّر في أن يفارق إخوته؛ لأن هذه العلاقة التي تربطهم لا يمكن لها أن تنفكّ أو تنكسر، ولو أنها انكسرت بالموت، فإن الذي يبقى على قيد الحياة سوف يعاني ويقاسي من ألم الوحدة والفراق والاغتراب والتوحّش، ما لم يكن قد استبدل ذلك بالتقرّب إلى الله تبارك وتعالى. لكن هذا الأمر لا يعني أنه سوف ينسى إخوانه، أو أنه سوف لن يفكّر بهم، أو أنه سوف ينقطع عنهم وينساهم. ولذا فإننا نجد أن هذا الإنسان سوف يعزف عن المكان الذي كان فيه أحباؤه ورفاقه؛ لأنه حينما يأتي إلى ذلك المكان يجد خياله وذهنه

---

(١) تحف العقول: ٣٦٨، شرح نهج البلاغة ١٥: ٧١، ١٨: ١٣.

(٢) الكافي ٨: ٣١٢ / ٤٨٦، الدرّ المنثور ٢: ٣٨٥، ٥: ٦٤.

يصوّران له وكأن ذلك المكان يعجّ بطيوف أحبّائه وصحبه، وهذا ما يبعث عنده الذكريات الأليمة، ويشحن صدره بالشجن والذكرى والألم.

فالأحبّة ينشرون الذكرى بديار الأحبة، وهذا ما أشار إليه دعبل بن علي الخزاعي عندما يمرّ بذكر بيوت آل محمد ﷺ.. البيوت التي بقيت خالية محاريبها، ولا مكان للذكر فيها بعد أن انصرف أهلها عنها وبقيت تنطق بالأسى واللوعة والألم. وهنا أقول: ينبغي علينا أن نشاركه في هذه العواطف والمشاعر النبيلة تجاه أهل هذا البيت النبوي الكريم:

قفا نسألِ الدارَ التي بادَ أهلُها ... متى عهدُها بالصَّومِ والصَّلواتِ

وأينَ الأُلىٰ شَطَّت بهم غُربَةُ النَّوى ... أفانينَ بالآفاقِ مُفترِقَاتِ

ديارُ عليٍّ والحسينِ وجعفرٍ ... وحمزةَ والسجادِ ذي الثَّفِنَاتِ[1]

وهذا المعنى الذي ذكرته آنفاً قد مرّت به الحوراء زينب حينما رجعت إلى المدينة من كربلاء، وتراءت لها دور إخوتها، فوجدتها خالية ليس فيها أنيس منهم إلّا الأرامل واليتامى:

يناعي اشبعد تدري شبگالي ... وشخلّفت عندي الليالي

بيت وبگه من الزلم خالي

* * *

بالأمس كانوا معي واليومَ قد رحلوا ... وخلّفوا في سويدا القلب نيرانا

نذر علي لئن عادوا وإن رجعوا ... لأملأن طريقَ الطفّ ريحانا[2]

---

(١) ديوان دعبل: ٣٨.

(٢) شجرة طوبىٰ ١: ٩١.



﴿٢١٩﴾

الفقه الجنائي الإسلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿فَبَعَثَ اللهُ غُـرَاباً يَـبْحَثُ فِـي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَـاوَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنْ النَّادِمِينَ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: دواعي قتل هابيل

يختلف المفسّرون في تحديد السبب الذي حدا بقابيل أن يقتل أخاه هابيل باختلاف مناهجهم في التفسير، فكل مفسّر يتّبع المنهج الذي يرتئيه في عملية التفسير، وهذا المنهج ينعكس حتماً على طبيعة تفسيره للآية الكريمة، وتحديده لعناصرها وجوانبها. وما يستعمله المفسّر هو أثر لذلك المنهج الذي ينتهجه، وهو يتناول كتاب الله تبارك وتعالى.

الآراء في تزويج أبناء آدم عليه السلام

ولذلك فإننا نقول: إن السبب الذي حدا بقابيل إلى أن يقتل أخاه هابيل هو

(١) المائدة: ٣١.

سبب غير ثابت، بل لكلّ مفسّر سبب يذكره تبعا لأُسلوبه ومنهجيته. وهو أمر يعتمد على تنوّع الآراء في الطريقة التي زوّج بها النبي آدمعليه‌السلام أولاده بما أنهعليه‌السلام على رأيٍ أول موجود على الكرة الأرضية، وأُسرته أول أُسرة عليها، فإن هنالك تساؤلاً حول الكيفية أو الطريقة التي تمّ بها زواج أبنائهعليه‌السلام، وسوف نعرضها بالآتي:

الرأي الأول: تزويج كلّ واحد منهم من توءم الثاني

إن الشائع عند كثير من المفسّرين أن حوّاء كانت تحمل في كلّ مرة بتوأمين ذكر وأُنثى؛ فحملت بهابيل ومعه أُنثى، ثم حملت بقابيل ومعه أُنثى، ولما أراد آدمعليه‌السلام أن يزوّج أبناءه عمد إلى تزويج كلّ ذكر من ولادة بأُنثى من الولادة الأُخرى، أي من توءم أخيه.

نقد الرأي الأول

وهذا رأي غريب وغير مقبول ولا معقول؛ ذلك أن الأحكام الشرعيّة التي عندنا تنقسم إلى قسمين بلحاظ ذكر العلّة وعدمها، وهما:

الأول: الحكم المنصوص العلّة

وذلك فيما لو أن الشارع المقدّس حرّم شيئاً، ثم أشار إلى العلّة التي من أجلها حرّمه، ففي مثل هذه الحال تكون العلّة منصوصاً عليها. وهذه العلة تكون هنا موضوعا للحكم، ومثال ذلك أننا نقرأ في القرآن الكريم في مجال إعادة توزيع الثروة داخل المجتمعات قوله تعالى: ﴿**مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْلَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ**﴾[١]، فالشارع المقدّس هنا في مقام الأمر بإعادة توزيع الثروة وعدم

(١) الحشر: ٧.

تكديسها في جانب دون جانب؛ ولذا فإنه بعد أن ذكر الحكم الشرعي أعقبه بذكر العلّة التي من أجلها شرّع هذا الحكم، وهو قوله تبارك وتعالى: **﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾**.

فهذا المقطع الكريم من الآية يُعد علّة لذلك الحكم، أي أنه تبارك وتعالى يُريد أن يقول: إنّ هذا الحكم إنما شرعته لكم كيلا تبقى الثروة محفوظة في طبقة خاصّة دون باقي الناس الذين حينئذٍ سوف يبقون جياعا أو عراة.

الثاني: تنقيح المناط

وفي مثل هذه الحالات فإنه ليس هنالك من علّة منصوصة في الحكم، لكن المفسّر أو الفقيه يرى أنّ هذا الحكم إنما كان لهذه العلّة التي ينقّحها. ومن هذا آية تحريم زواج المحارم، فهذا الزواج قد حرمه الله تبارك وتعالى؛ لأن فيه أضراراً كثيرة.

أضرار الزواج من المحارم

ويرى الفقهاء أو المفسّرون أن هذه الأضرار هي العلّة التي من أجلها حرم الله سبحانه وتعالى الزواج من المحارم، ونذكر منها:

أولاً: أن النسل سوف يلج الدنيا وهو بحال غير سليمة.

ثانياً: أن فيه عدم مراعاة للجنبة الأخلاقية بل إن فيه هتكاً لها؛ لأن هؤلاء الذين نشؤوا في أُسرة واحدة وقد ولدوا من بطن واحد ليس من السهل عليهم أن يتزوّجوا من بعضهم، بل ليس من السهل على الإنسان نفسه حينئذٍ ترويض نفسه على العلاقة مع الأخوات، فهذا شيء تأباه النفس البشرية والأخلاق والطبيعة الإنسانية.

وعليه فإن العلة موجودة هنا وهي هذا الذي ذكرنا؛ ومنه نخلص إلى أن آدم ﷺ لم يكن ليزوج أحداً من أبنائه من إحدى أخواته، وكذلك لم يكن الله

تبارك وتعالى ليأمر بذلك.

الرأي الثاني: تزويجه عليه السلام أبناءه من قارة أخرى

وهذا الرأي يتبنّى من يذهب إليه فكرة أن آدم عليه السلام قد ذهب إلى قارة أُخرى يعيش عليها خلق آخرون، فخطب لأبنائه منهم. وبناء على هذه النظرية فإن النبي آدم عليه السلام لم يكن الوحيد حينها على ظهر الأرض، بل إن هناك على أقلّ التقديرات آدم آخر يقطن في منطقة أُخرى من هذه المعمورة ولا أقلّ من ذلك. وهذا الرأي يميل إليه بعض الكتّاب والمفسّرين الإسلاميّين.

الرأي الثالث: أن الله تبارك تعالى خلق زوجات لأبنائه

فبعض المفسّرين يتبنّون هذا الرأي، وهو يعتمد على فكرة مؤدّاها أنه كما أن الله تبارك وتعالى قد خلق آدم من تراب وخلق حواء كذلك، فإنه عزّ وجلّ قادر على أن يخلق لأبناء آدم عليه السلام زوجات من التراب عينه، ثم يزوّجهم منهن؛ ليستقيم النسل بعد ذلك.

الرأي الرابع: أن الله تعالى زوّجهما حوريّة وجنيّة

وهذا الرأي يذهب إليه بعض المفسّرين الذين يروون روايات في هذا الصدد تنصّ على أن أحد ابني آدم عليه السلام أنزل الله له جنيّة ليتزوج منها، والآخر أنزل له حوريّة ليتزوج منها. وهذا كلام غير صحيح وغير مقبول، بل هو من الإسرائيليات التي اجتاحت الكثير من الفكر التفسيري عند المسلمين؛ لأن الجنية ليست من جنس الإنسان ليتزوّج منها، فما دام الكائن غير مجانس لكائن آخر فإنه لا يمكن له أن يتزوج منه[1].

---

(١) وهذا يعتمد على عدد الكروموسومات الموجودة في الكائنات، والتي يختلف من كائن آخر؛ فإذا ما حصل أختلاف ولو بكروموسوم واحد فإنه حينئذٍ لا يمكن أن يحصل توالد منهما.

وربما يقول قائل: هنالك فتاوى عند بعض علماء المسلمين تجوّز الزواج من الجنّ، وتجيز استيلادها.

ونقول: إن هذا الكلام ـ في واقع الأمر ـ لا يستحقّ الردّ ولا الإجابة؛ لأنه كلام غير مبتنٍ على الدليل العلمي. هذا من ناحية، ومن ناحية أُخرى فإن الأدلّة التي يستدلّون بها على وقوع مثل هذا الأمر كلّها أدلّة غير ناهضة، ولا تكفي لأن تكون دليلاً قاطعاً في المقام؛ ذلك أنها معارضة بآية كريمة تعالج هذا الموضوع، وهي قوله تعالى: ﴿**جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً**﴾[1]، أي من نوعكم ومن جنسكم ومن طبيعتكم. والجميع يعرف أن الجن نوعاً وجنساً وطبيعةً هم غير بني الإنسان؛ ففي حين أن الإنسان مخلوق من تراب نجد أن الجنّ مخلوق من نار، وهنالك فوارق كبيرة وكثيرة بين التراب والنار من حيث الطبائع والخصائص.

الأثر السلبي للأفكار الإسرائيلية على الإسلام

لقد سبق أن ذكرت أننا بعيداً عن مثل هذه الأُمور في وضع لا نُحسد إزاء العالم من حولنا والمتكالب علينا، والذي يريد أن ينقضّ علينا في كلّ فرصة تسنح له، فكيف والأمر أننا نجد الكثير من أمثال هذه الآراء في كتبنا؟ وكيف الأمر إذا وجد هذا العالم المحيط بنا، والذي يتربّص بنا الدوائر في كل فرصة تسنح له أننا نذكر أن فلاناً هو ابن جنية؟ إنه حتماً سوف يستغلّ مثل هذه الأفكار للنيل من قداسة الإسلام، ومن صحّته، ومن حقيقته وأصل وجوده.

الخلاصة

إذن فهذا النمط من الزواج (زواج الأخ من أُخته) هو زواج ممجوج وتأباه

---

(١) النحل: ٧٢، الشورى: ١١، وقال عز من قائل: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً**﴾ الروم: ٢١.

النفس والأخلاق، وكذلك يأباه الجوّ الأُسري الطاهر والنظيف والمتين الذي يحرص القرآن الكريم على توفيره في كلّ أُسرة وفي كل مجتمع. فالإسلام يحرص على أن تكون المشاعر التي تخيّم على الأُسرة وتظلّل على أبنائها مشاعر نظيفة وعفيفة، وليس فيها شائبة من شوائب ما تأباه النفس.

حقيقة الأمر في زواج أبناء آدم﵇

إن كل ما في المسألة هو أن ابني آدم﵇ حينما أرادا أن يتزوّجا ـ وهو الأمر الذي أصبح السبب في قتل أحدهما للآخر ـ خلق الله تبارك وتعالى لهما زوجتين، وكانت إحداهما جميلة، أو كانت أكثر جمالاً من الأُخرى؛ ممّا أدّى إلى أن ينشأ بينهما لون من التنافس على الجميلة منهما، واتّفقا على أن يقرّبا قربانا إلى الله تعالى، فمن تقبل الله قربانه كانت المرأة الأجمل له.

وكان قابيل فلّاحاً يزرع، أما هابيل فكان راعياً عنده بضع غنيمات، فعمد هابيل إلى تقديم أسمن ما عنده من الأغنام، وقرّب قابيل قرباناً من غير الجيد ممّا عنده، فنزلت النار من السماء فأكلت قربان هابيل دون أن تأكل قربان قابيل. وهذا يعني أن الله تعالى قد تقبّل قربان هابيل دون أن يتقبل قربان قابيل، فوقع الحسد في قلب قابيل على أخيه هابيل من تلك اللحظة، وازداد التنافس من جهته للحصول على الزوجة الأجمل؛ مما أدّى به إلى أن يعمد إلى أخيه ويقتله حسداً منه له؛ لأن الله تبارك وتعالى قد تقبّل قربان هابيل دون قربانه.

وهذا ما هو موجود في كتب التفسير، ونحن نعرف أنّ ما في كتب التفسير إن كان وارداً عن المعصوم﵇ (النبي ﷺ أو أحد الأيمّة﵈) فإننا نقبله، لكن بشروط منها صحّة السند ومتابعة ظروف الرواية، أي لا على إطلاقه. أما ما ورد عن غير المعصوم﵇ فإننا نرفضه ولا نأخذ به. فما ورد عن المعصوم وكان

صحيحاً سليما لا تشوبه شائبة فإننا نذعن له، وإلّا فإن علينا أن نتعبّد بما ورد إجمالاً في القرآن الكريم. ومعنى هذا أن من غير المهم أن نخوض في التفاصيل التي يذكرها المفسّرون من أنفسهم، فما زالت هذه التفاصيل لم ترد في القرآن الكريم، ولم تذكرها الأحاديث الشريفة فإننا حينئذٍ لن نأخذ بها.

المبحث الثاني: استنتاجات على ضوء المبحث الأول

إننا من خلال هذا المبحث المتقدم نستطيع أن نستنتج أُموراً عدة تدور في مضماره، نذكر منها:

الأمر الأول: أن الزواج أمر حسّاس وخطر

فمسألة الزواج مسألة حسّاسة جدّاً، وهذا يعني أن الإنسان حينما يقدم علىٰ هذا المشروع فإنه ينبغي عليه أن يهيّئ مقدّماته.. المقدمات التي تؤديّ إلى استقرار الإنسان، وبالتالي استقرار الأُسرة. وهذا يعني أن عليه ألّا يتزوج في جوّ ملغوم. ومن الأُمور التي تصنع جوّاً ملغوماً أن المرأة مثلاً في بعض المجتمعات تكون غالباً غير راضية بالزوج الذي يختاره لها أهلها، أي أنها في واقع الأمر فاقدة الاختيار، ومجبرة أو مكرهة على الزواج من هذا الإنسان الذي اختير لها أهلها، ومن جهة أُخرى فإن الأمر في بعض الحالات لا يتعلّق برضا المرأة وعدمه، لكنها تعيش ضمن أجواء اجتماعية لا تقوى عليها؛ لأنها قد تؤدّي بالأمر إلى أن يصل حدّاً تسفك فيه الدماء في هذا الباب.

ومثل هذه الأُمور نراها كل يوم في مجتمعاتنا. فالمهم ألّا تكون هناك عقبات في طريق الزواج؛ لأن جوّ الأُسرة يجب أن يكون جوّاً هادئاً ونظيفاً تخيّم عليه العاطفة والانسجام، ويظلّله التوافق والحبّ والمودة.

الهدف من الزواج

ثم إننا يجب أن نعرف أن الهدف الأساس من الزواج، والذي ندبت إليه الشريعة هو أن نبني أُسرة صحيحة سليمة؛ كي نمدّ المجتمع بأفراده الصلحاء الذين يبنونه بناء صحيحاً. فالزواج عادة هو عملية تقريب بين أُسرتين أو بيتين أو قبيلتين، وهذا الأمر لابدّ من أخذه بنظر الاعتبار في عملية الزواج هذه، فهو زواج يؤمل من ورائه توثيق العلاقية بين عائلة الزوج وعائلة الزوجة. أما إذا أدّى مثل هذا الزواج إلى حصول قطيعة بين العائلتين أو إلى التنافر بينهما فإننا حينئذٍ نكون قد عمدنا إلى فعل ما يضرّ بالعلاقات الضروريّة داخل المجتمع، والتي يتبنّاها الإسلام.. فعل شيء سلبي لم يكن منظوراً حينما شُرّع هذا الأمر. يقول الله تبارك وتعالى: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾**[1].

وهذا هو الهدف؛ ذلك أن هذه القبيلة سوف تقترب من القبيلة الأُخرى، وسوف تجمعهما علاقات محبّة جديدة بسبب هذا الزواج الذي لابد أن يؤدّي إلى حصول الانسجام بين الأُسرتين التابعتين لهما. وحينما يفتقر الزواج إلى مثل هذه العاطفة، أو إلى توفير جوّ الانسجام هذا بينهما، وذلك كأن يقوم على أُسس متشنجة، فإننا حينئذٍ نكون قد فعلنا شيئاً سلبياً، مع أن الهدف الذي يريده الإسلام من الزواج هو ذلك الهدف الإيجابي.

الأمر الثاني: أن المرأة تقف وراء أعظم الجنايات

إن هنالك مقولة معروفة عند الجنائيين، أو المتصدّين لمعالجة الأحوال الجنائية تقول: «فتّش عن المرأة». وهي كلمة معروفة تدلّ غالباً على أن أعظم **الجنايات**

---

(١) الحجرات: ١٣.

إذا ما بُحث عنها يوجد امرأة تقف وراءها. فالمسألة هنا من هذا النوع عينه، وهذا هو السبب الذي أدّى إلى أن يقتل الأخ أخاه.

الأمر الثالث: أن أول من يُساق إلى جهنم هو قابيل

ذلك أنه أول من فتح باب سفك الدماء في الأرض[1]. وإذا كان هذا هو أمر قابيل الذي سفك دماً واحداً فما بالك بمن يقتل الملايين من الناس دون شفقة أو رحمة، أو دون تروٍّ ودون خوف من الله تبارك وتعالى؟ وهنا نعرف السر الكامن في قوله تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَزِيزاً حَكِيمَ﴾**[2].

إن هناك مجموعة من العناصر ممن ينتسبون إلى البشر هم في حقيقة الأمر بعيدون عن الطبيعة الإنسانية، فنجد ظاهرهم أُناسا لكن باطنهم لا يعدو طباع الذئاب وأشكالها؛ فهم يغوصون في بحار من الدماء. ومثل هؤلاء هل يكفي أن ينتقم الله تبارك وتعالى مرّة واحدة منهم بأن يضعهم في جهنم ويحترقوا وينتهي كل شيء؟ والجواب في طبيعة الحال هو النفي؛ ذلك أن عدل الله تبارك وتعالىٰ أكبر من هذا؛ ولذا فإن عذابه لهؤلاء لا نهاية له ولا حد، فيخلّدون في نار جهنّم جزاء بما اقترفت أيديهم من تقتيل وإرهاب، وولوغ في دماء الناس وبما سفكت منها.

إن من حقّ أي إنسان أن يتساءل عن الذنب الذي جنته الإنسانيّة حتى تتعرّض إلى هوس المهووسين بالدم والقتل، أو تتعرّض إلى اعتداء المعتدين على الأنفس والأعراض. فما هو ذنب الإنسان الذي لا يملك حولاً ولا طولاً، فيُذبح ذبح الكباش دون شفقة ورحمة، ودون أن يكون هناك وازع من دين أو تقوى من الله

---

(١) حتى عُبّر عنه بأنه قد سفك دم سدس سكان الكرة الأرضية، كما ورد عن الإمام السجاد عليه السلام.

(٢) النساء: ٥٦.

تبارك وتعالى؟ إن التاريخ يحدّث أن هناك الكثير من السفّاكين المهووسين بالدماء ممّن أراقوا ما لا يمكن عدّه أو حصره من دماء الناس دون ذنب أو دون اقتراف جريمة؟

وعلى أية حال فإن أول من يُقاد إلى نار جهنم هو قابيل بموجب كونه هو القاتل الأول، بل هو الذي فتح باب سفك الدماء على هذه الأرض.

المبحث الثالث: خصائص الدفن ومنافعه

والآية الكريمة ترتبط بمناسبتنا هذه الليلة [١]، تقول: ﴿**فَبَعَثَ اللهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ**﴾، فقابيل باعتباره القاتل الأول ولم يكن قد سُبق بشخص ميّت أو مقتول، وما الذي يمكن أن يُفعل به؛ ولذا فإنه بقي حائراً لا يعرف كيف يفعل بجثة أخيه، حتى إنه ـ كما تقول الروايات [٢] ـ وضعه في كيس وحمله على كتفه، وراح يدور به، لا يعرف ما يفعل به ولا يهتدي إلى شيء يواري به جرمه. وهنا تتدخّل العناية الربّانيّة، حيث إنه تبارك وتعالى بعث له هذا الغراب ليعلمه كيف يفعل.

وبهذا فنحن إزاء خمس مسائل في المقام أودّ أن أُشير إليها، هي:

المسألة الأُولى: طائر الغراب والتشاؤم

تقول الآية الكريمة: ﴿**فَبَعَثَ اللهُ غُرَاباً**﴾، والغراب هو طير من فصيلة العقعق، وهو طائر يتغذّى على الحيوانات الصغار، والحبوب. وكان العرب يتشاءمون منه، حتى إنهم كانوا يسمونه (غراب البين)؛ ذلك أنه كان يبقى في البيوت الخالية ينعق فيها بعد أن يهجرها أهلها، كأن تخلو منهم بكارثة أو بغيرها. وهذا في واقع الأمر موروث اجتماعي واعتقاد غير صحيح؛ لأنه طائر كغيره من الطيور الأُخرى لا

---

(١) تاريخ هذه المحاضرة هو الثالث عشر من شهر المحرم الحرام.

(٢) تاريخ مدينة دمشق ٦٤: ٤.

شأن له في التفاؤل والتشاؤم.

وهناك نوع من الغربان يسمى الغراب الأعصم، وهو الذي يكون في رجله بياض. وهو نوع نادر وقليل الانتشار والوجود؛ ولذا فإن الحديث النبوي الشريف يعبّر عن المرأة الصالحة بذلك حيث يقول: «**المرأة الصالحة كالغراب الأعصم، ولن يوجد إلّا قليلاً**»[(١)].

أي أن النساء الصالحات نسبتهن قليلة جداً قياساً إلى غيرهن.

السماء تأمر عبد المطّلب بحفر بئر زمزم

وبمناسبة الحديث عن الغراب الأعصم نستذكر قصّة حفر عبد المطلب ﷺ لبئر زمزم؛ حيث إنه ﷺ كان نائماً في ليلة من الليالي، فطاف عليه طائف في منامه وقال له: «قم يا أبا البطحاء واحفر زمزم، حفيرة الشيخ الأعظم». فاستيقظ فقال: اللهم بيّن لي في المنام مرّة أُخرى. فرآه يقول: «قم فاحفر برّة». قال: وما برّة؟ قال: «مضنّة ضُنّ بها على العالمين، وأُعطيتها». ثم رأى في الليلة الثانية قائلاً يقول له: «قم يا أبا الحارث، فاحفر زمزم، لا تنزف ولا تذمّ، تروي الحجيج الأعظم». ثم رآه في الليلة الثالثة، فقال له: «قم فاحفر». قال: وما أحفر؟ قال: «احفر بين الفرث والدم، عند مبحث الغراب الأعصم، وقرية النمل، فإذا أبصرت الماء فقل: هلم إلى الماء الروا، أُعطيته على رغم العدا».

فلما استيقن عبد المطلب أنه قد صُدق، جلس عند البيت مفكّراً في أمره، وذبحت بقرة بالحزورة، فأفلتت وأقبلت تسعى حتى طرحت نفسها موضع زمزم، فسلخت هناك، وقسم لحمها وبقي الفرث والدم، ذلك أن المشركين كانوا حينما

---

(١) دعائم الإسلام ٢: ١٩٥ / ٧٠٧، تهذيب الأحكام ٧: ٤٠١ / ١٦٠٠، مسند الشاميّين ٢: ١٩٢ ـ ١٩٣ / ١١٧١.

يقرّبون القرابين لآلهتم وأصنامهم كانوا يتركون الفرث في الكعبة، فكانت الطيور تنزل عليها لتأكل منها، وحدث في تلك اللحظة التي جاء فيها عبد المطلب (رضوان الله تعالى عليه) أن نزل غراب أعصم ينقر فيها. فقال عبد المطلب: الله أكبر. ثم سعى لينظر، فإذا قرية نمل مجتمع في الأرض، فانطلق فأتى بمعول ومعه ابنه الحارث وكان الوحيد عنده حينها، فاجتمعت إليه قريش فقالوا: ما هذه؟ قال: أمرني ربّي أن أحفر ما يروي الحجيج الأعظم.

فلم يحفر إلّا قليلاً حتى بدا الطي فكبر، فلم يزل يحفر حتى بدا الماء [١].

المسألة الثانية: في فعل الغراب

وهو نبش الأرض، فهنا يُثير بعض المفسّرين أو العلماء سؤالاً هو: من الذي علم هذا الطائر أن يحفر الأرض برجليه، ويعمل منها قبراً ليدفن به زميله الذي قتله أمام قابيل؟ ذلك أن من المعلوم ـ كما يحدثنا القرآن الكريم عن ذلك ـ أن الله تبارك وتعالى أرسل هذين الغرابين اللذين اقتتلا أمام قابيل، فقتل أحدهما صاحبه، ثم عمد إلى أن يحفر الأرض برجليه ومنقاره حتى صنع حفرة تتّسع لزميله، ثم وضعه فيها وواراه التراب.

عجائب عالم النمل

ومثل هذا التساؤل في اعتقادي تساؤل ساذج ليس له وجه؛ لأننا نعرف أن الله تبارك وتعالى قد ألهم بعض الحيوانات نوعاً من التصرّف الذي يرتفع إلى مثل هذا المستوى دقّةً وانتقاءً وقدرة [٢]. ومن هذا فإن أحداً لو تأمّل جماعة النمل

---

(١) الكافي ٤: ٢١٩ ـ ٢٢٠ / ٦، الطبقات الكبرى ١: ٨٣، المصنّف (الصنعاني) ٥: ٣١٣ ـ ٣١٥ / ٩٧١٨.

(٢) وهو الهداية التكوينيّة التي أشارت إليها الآية الكريمة: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ طه: ٥٠. وهي التي يسميها العلم الحديث الغريزة أو السلوك الغريزي الذي سنشير

ليرى كيف تجمع قوتها لتدّخره إلى فصل الشتاء؛ لأنها لا تستطيع أن تفعل ذلك حينئذٍ بسبب البرد والأمطار والثلوج، فإنه سوف يلتفت إلى وجود نوع من التدبير والتخطيط والإلهام الإلهي لها، والذي يدفعها إلى أن تدّخر ذلك القوت لتحرزه في باطن الأرض تحسّبا لفترة الشتاء القاسية. وتتجلى عظمة هذا التصرّف وهذا الإلهام الإلهي في طريقة تخزينها للحبوب، وهي تتمثّل بأُمور عدة منها:

أولاً: أنها تجمع قوتها في النهار ثم تضعه تحت الأرض في مكان جافّ، حتى إذا حلّ الليل أخرجته لتنشره تحت ضوء القمر.

ثانياً: أنها تعمد إلى بعض الحبوب فتفلقها قسمين أو ثلاثة أقسام حسب نوع الإنبات في البذرة [1]؛ كيلا تنمو هذه البذرة ثانية.

ثالثاً: أنها تعمد إلى أن تأكل الجنين في بعض الحبوب، وهو موضع إنبات هذه الحبّة؛ كيلا تنمو فيما لو تعرضت لجوّ رطب فتتلف في نهاية الأمر.

وهذا الأمر كله لون من ألوان التصرف الذكي الذي ينمّ عن نسبة من الإدراك عندها، وهي نسبة وضعها الله تبارك وتعالى فيها. وعلماء الحيوان كثيراً ما يبحثون هذه الظاهرة التي تتميز بها بعض الحيوانات، ويتساءلون حول ما إذا كانت هذه التصرّفات ناشئة عن وجود نسبة من الإدراك العقلي عند الحيوان، أم إنها غريزة طبع عليها هذا الحيوان [2].

إليه في الهامش بعد التالي إن شاء الله تعالى.

(١) ذلك أن بعض الحبوب يمكن لها أن تنبت حتى وإن فلقت مرّة واحدة؛ ولذا فإن النمل يفلقها مرّتين، وبعضها يمكن لها أن تنبت حتى وإن فلقت مرّتين؛ وهذا ما يدعو النمل إلى أن يعمد إلى فلقها ثلاث مرّات.

(٢) لقد توصّل علماء الحياة المختصّين بمراقبة سلوك الحيوانات والنباتات من خلال مراقبتهم ورصدهم لتصرّفات الحيوانات أنها تتصرف بنحوين من التصرف، تسلك في كل واحد منهما سلوكاً مغايراً، وهما:

وبهذا يتّضح لنا أن للحيوانات نسبة ولو ضئيلة من الإدراك يكون نتيجة لها هذا اللون من التصرّف، وهذا ما يؤكّده الأطبّاء الفسيولوجيون حينما يبحثون في هذا المجال. وهذه النسبة من الإدراك تتناسب مع حاجة الحيوان؛ ذلك أن الله تبارك وتعالى يُعطي كلّ نفس حاجتها. وبهذا فإن الغراب من الممكن أن تكون عنده نسبة من الإدراك، وهي النسبة التي جعلته يحتفر حفرةً ليواري الغراب الذي قتله فيها[1].

المسألة الثالثة: فيما امتنّ الله تعالى به على عباده في هذا المقام

إن عملية المواراة هي نعمة من نعم الله تبارك وتعالى على الإنسان؛ ذلك أنها تحقّق للإنسانيّة الكثير من النفع وتدفع عنها الكثير من الضرر كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى[2].

أولاً: السلوك الغريزي. وهو منظومة من الفعّاليّات الحركيّة عند الحيوانات، والمتمثّلة برغبتها في المحافظة على حياتها عبر جمع غذائها، أو دفع الأذى عن نفسها، أو بممارسة سبل بقائها كافّة.

ثانياً: السلوك الذكي. وهو منظومة من النشاطات العقلية التي تمرّ عبر جهاز مختص في تنفيذها، وتتمثّل في اختيار الوقت المناسب للحركة، واختيار التصرّف المناسب لكلّ ما يعترض طريقها وهي تمارس حالات السلوك الغريزي عندها.

وهكذا فإننا نجد أن العلماء بعد دراسات مكثّفة على سلوكيات الحيوانات، بل وحتى النباتات قد تمكّنوا من الفصل بين ما سُمّي بعد ذلك بالسلوك الغريزي، وبين ما سمّي بالسلوك الذكي، وبهذا فإن العلماء قد خلصوا إلى إقرارهم بوجود نسبة من العقل عند الحيوانات وإن تفاوتت هذه النسبة شدّةً وخفاء بين هذه الحيوانات، وكذلك من حيث سعة الوعي والذكاء ومساحتهما، بل إن ذلك يمتدّ ليشمل بعض النباتات كنبات القرّيص الذي يستعمل حمض الفورميك السام في الدفاع عن نفسه. انظر حول تحقيق هذا المطلب كلّه كتاب صنع الله (عبد الرزاق نوفل): ٢٥.

(١) وقد أثبت العلم الحديث أن الغراب يعدّ من الحيوانات الذكيّة إن لم يكن من أذكاها.

(٢) انظر عنوان (الحكمة من الدفن).

إن الله امتنّ على الناس بثلاث بعد ثلاث

وكون المواراة نعمة من نعم الله تبارك وتعالى هو أمر يشير إليه الحديث النبوي الشريف الذي يقول: «**إن الله تعالى امتنّ على الناس بثلاث بعد ثلاث: امتنّ عليهم بالرائحة بعد الروح، وامتنّ على الجثّة بالديدان، وامتنّ على الإنسان بالموت بعد الكبر**». ونحن هنا إزاء ثلاث نعمٍ من نعم الله تبارك وتعالى الكبيرة على عباده، وهي:

الأولى: أنه تعالى «امتنّ عليهم بالرائحة بعد الروح»

وهذا يعني أنه ما دام الإنسان يملك الروح فإنه مقبول، ومقبول الرائحة، فوجود الروح في بدنه يُعطيه صفة أن رائحته طيّبة ومقبولة وغير مثيرة للاشمئزاز. وهذه ـ كما يذكر الحديث الشريف ـ نعمة من الله تبارك وتعالى على الإنسان. وهي نعمة لأنه لولا ما يؤول إليه الإنسان من تعفّن الجسم وفساده وتحلّله وتغيّر رائحته وعفونته، لما أقدم إنسان على دفن عزيز من أعزّائه، بل إنه يحتفظ به لأنه ليس من السهل عليه أن يفارق هذا العزيز الذي اختطفه الموت منه. فهذه الرائحة التي سوف تنبعث من هذا الجسد المتعفّن والمتفسّخ كانت مدعاة لهؤلاء إلى أن يدفنوا أعزّاءهم وأحبّاءهم تخلّصاً من هذه الرائحة غير المقبولة. وهي نعمة من نعم الله الكبيرة على الإنسان والتي ولولاها لضاقت الأرض بساكنيها.

الثانية: أنه تعالى «امتنّ على الجثّة بالديدان»

فلولا تحلّل هذه الجثث وتفسّخها وجعلها طعمة للديدان كذلك، لاحتفظ الناس بالجثث ولم يدفنوها، ولم يرضوا أبداً أن يودعوها باطن الأرض. لكن نعمة الله عليهم ورأفته بهم شاءتا أن يكون هناك هذا الدفن الذي تتخلّص به الإنسانية من تكدّس الجثث على وجه الأرض أو صعيدها.

الثالثة: أنه تعالى «امتنّ على الإنسان بالموت بعد الكبر»

فإذا وصل العمر بالإنسان إلى حدّ ينكّس فيه في الخلق، فإنه سوف يُذل، ونحن هنا نسأل الله تبارك وتعالى ألّا يذلّ أحداً بهذا الأمر وإلّا فإن الإنسان إذا وصل إلى سن لا يستطيع معها أن يتناول كأساً من الماء، ولا أن يتحرك ليدفع عن نفسه أذى ذبابة، أو مطلق الأذى عنها، فإنه حينئذٍ سوف يحتاج إلى غيره من الناس ليعينوه على ذلك، أو ليأتوه بما يحتاج وما يريد. وهذا في حقيقته ذلّ للإنسان؛ لأنه سوف يمدّ يده لمن حوله في كلّ شيء يريده[1].

والمسألة هذه ليست سهلة أبداً؛ فالإنسان إذا وصل إلى هذه المرحلة فإنه يكون كما وصفه الحديث الشريف الذي يقول: «**يملّه طبيبه، ويعرض عنه حبيبه**»[2].

وبهذا فإن الموت هو الذي يكون حلية للإنسان، وليس الحياة لما هو عليه من حال مزرٍ، أي أن الموت يُصبح نوعاً من أنواع الزينة لهذا الإنسان، فالحياة تُصبح عبئاً عليه قبل أن يصبح هو عبئاً على غيره لأنه لا يقوى على قضاء حاجاته، ودفع الأذى عن نفسه، والحصول على ما يريد إلّا بمعونة الآخرين. ويتناول أحد الشعراء هذه الحقيقة حيث يقول:

المـرءُ يأمـلُ أن يـعيـ ... ـشَ وطولُ عيشٍ قد يـضرُّهْ
تـفنى بشـاشتُه ويـبـ ... ـقى بعدَ حلو العيشِ مرُّهْ[3]

---

(١) قال الإمام زين العابدين عليه السلام: «أربع هن ذلّ: البنت ولو مريم، والدين ولو درهم، والغربة ولو ليلة، والسؤال ولو أين الطريق؟». أعيان الشيعة ١: ٦٤٥، شرح رسالة الحقوق: ١٥.

(٢) من خطبة لأمير المؤمنين عليه السلام خالية من الألف. انظر شرح نهج البلاغة ١٩: ١٤١، كنز العمّال ١٦: ٢١٠ ـ ٢١١، وأوّلها: «ليغتنم كلّ مغتنم منكم صحّته قبل سقمه، وشبيبته قبل هرمه وسعته قبل فقره، وفرغته قبل شغله، قبل تكبّر وتهرّم وتسقّم..

(٣) البيتان لأبي العتاهية. شرح نهج البلاغة ٨: ٢٩٣.

وفعلاً فإن الأيام الجميلة سوف تذهب فلا تبقى هناك أناقة ولا قدرة على التحرك، بل إن كل ذلك سوف يولّي وسوف تحلّ محلّه المرارة والإحساس بها، والألم والشعور بالذلّ نتيجة احتياجه الآخرين في كل صغيرة وكبيرة يريدها. وفوق هذا فإن الإنسان يبقى يجترّ والذكريات المؤلمة عن أيام صباه وشبابه وقوّته وعزّه.. يجترّ ما مرّ به في حياته من لحظات جميلة، وحالات القوة التي كان عليها مقارنة بالحال التي هو عليها الآن؛ حيث إنه يشعر بأنه مفتقر إلى غيره في حاجاته كلّها.

وهذا الشعور بحدّ ذاته هو مرض وألم؛ لأنه يعبّر عن انتكاسة حقيقيّة وقاتمة تعمل على قتل الإنسان وهو لا يزال في حياته، ويعبّر عن إحساسه بالألم والوحدة، وما يرافق كلّ ذلك من مشاعر تعتمل في داخله. ولهذا فإن الحديث الشريف عبّر عن أن من نعم الله على الإنسان أنه بعد أن يكبر يأتيه الموت؛ فالموت بهذا يصبح ستراً له وزينة دون أن تكون الحياة له كذلك.

مداد الموت

والموت في واقع الأمر لا يأخذ من الإنسان إلّا هذا الجسم الفاني المتضائل، والذي يُصبح بعد الحياة عرضة للتحلّل والاندثار والتحوّل إلى تراب، أما الروح فلا يتناولها الموت أبداً، بل إن الروح من الموجودات الخالدة والباقية حتى بعد فناء العالم كلّه[1]. فالجسم كما خرج من التراب فإنه يرجع إلى التراب لأنه مقرّه

---

(١) يقسّم علماء الكلام الموجودات إلى ثلاثة أقسام:
الأول: موجود أزلي سرمدي، وهو الله تبارك وتعالى.
الثاني: موجودات حادثة باقية، وهي الأرواح والمخلوقات النورانية كالملائكة.
الثالث: موجودات حادثة فانية، وهي الأجسام الظلمانية كجسم الإنسان وكل ما هو مادي في هذا الكون.

الأخير، ومستودعه ومكانه: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾[1]:

وهـامةٌ هـي مـيدانٌ لمـعرفةٍ	أضـحى بـها للـبلى والدودِ مـيدانُ
لا السامرون ولا الوادي ومن عـمروا	كأنـما الأرضُ مـا كـانت ولا كـانوا
بـدءُ النـهاية فـي يـوم البـداية لـلـ	أعـمارِ فـالحلّ بـالترحـالِ إيـذانُ
أنـحن فـي هـذه الدنـيا حـقائقُ أم	ضربٌ من الوهمِ عـاشت فـيه أذهـانُ

رجـع

إذن فقابيل حينما رأى الغراب يدفن ذلك الغراب الذي قتله، قال له بلسان حاله: لقد أرحتني؛ لأنني لم أكن لأعرف ما الذي يتوجّب عليَّ فعله في مثل هذه الحال.

المسألة الرابعة: المذاهب فيما يُفعل بالإنسان بعد موته

إن الشرائع السماويّة وعامّة الناس يتفاوتون فيما يجب أن يفعل بالإنسان بعد موته على ثلاثة تيارات:

التيّار الأول: وجوب دفنه

إن هذه الآية الكريمة تعتبر أصلاً من الأُصول في وجوب مواراة الميت وجوبا كفائياً. بمعنى أنه إذا قام بهذا الأمر بعض الناس ممّن فيهم الكفاية، سقط عن الآخرين وإلّا أثموا جميعاً.

شروط الدفن

والدفن بما أنه تشريع فإنه يرتبط تحقيقه على الوجه الأكمل بشروط لابدّ من

(١) الأنبياء: ١٠٤.

مراعاتها؛ كي تبرأ ذمّة القائمين به وعليه، ومن هذه الشروط:

١ـ أن يكون في التراب.

٢ـ أن يكون على كيفية مخصوصة.

وهنا ربما يقول قائل: إن الأُمم الحية أو المتيقّظة لا تدفن موتاها، بل إنها تعمد إلى حرقهم؛ كي تتخلّص من الجراثيم التي يمكن أن تكون قد استعمرت هذه الجثث.

والجواب أن يُقال: في حقيقة الأمر: إن الإقدام على حرق الميت ينطوي على غلظة وقسوة كبيرتين يأباهما الحيوان، فكيف بالإنسان؟ أما إذا وضعنا هذا الميت في التراب فإن هذه البكتريا أو الجراثيم الموجودة في جسمه وفي التراب تعمد إلى القضاء على كل شيء، فبمجرد وضع هذا الميت في التراب فإنه سوف تهجم عليه هذه البكتريا وتحوّله إلى مادّته التي خلق منها. ولهذا فإن التراب يعدّ مطهراً، وليس هنالك من مشكلة أبداً.

الحكمة من الدفن

إن هناك أكثر من مورد يرجّح ضرورة دفن الميّت في التراب وليس حرقه، منها:

الأولى: تحقيق مبدأ مراعاة حرمة الميّت

إن حرق الجثث ـ مع ما فيه من غلظة وقسوة كما أشرنا ـ ينطوي على جانب مهمّ وهو أن الحرق خلاف الخطّ الإنساني الذي يبتني على الرحمة والرأفة والشفقة بالآخرين، وكذلك على احترامهم وإن كانوا أمواتاً[١].

---

(١) سيأتي أن حرمة المؤمن أو المسلم ميتاً كحرمته حيّاً.

وبهذا فإننا نجد أن الإنسان يجب احترامه ويجب مراعاة الرأفة والشفقة به حتى وإن كان ميتاً؛ لأن خلاف ذلك يُعد خلاف الخطّ الإنساني ومسيرة الحياة الإنسانية.

الثانية: عدم إلحاق الأذى بالآخرين

هو أن هذا الميت عندما يوضع تحت التراب فإنما يُفعل به ذلك لأجل عدم حصول الأذى للأحياء من رائحته، وهو ما أشار إليه الحديث الشريف الآنف الذكر.

الثالثة: عدم تعرّض جسمه إلى الحيوانات

فالإنسان ـ سيّما المؤمن ـ يجب مراعاة حرمته كما أشرنا، وهو أمر يعني المراعاة في كلّ الأحوال، وعلى شتّى الأصعدة، ومنها حمايته من أن تتعرّض له الحيوانات المفترسة والرمّامة بعد موته[١].

التيّار الثاني: أن في دفنه إذلالاً له

هذا في حين أن هناك تياراً في حضارتنا العربية يذهب إلى أن دفن الإنسان في التراب يعتبر ذلاً وإذلالاً له، فيرى أن الشخص يجب ألّا يدفن في التراب؛ لأن التراب ليس موطناً للشجعان والأبطال بل إنهم يرون أن الذي يدفن في التراب هو الجبان، فالدفن في التراب جبن يترفّع عنه أبناء هذا التيار. بل إن إولئك كانوا يتمدّحون بألّا يُدفن هذا الإنسان في باطن الأرض، ويتغنّون إنه يجب أن يكون في بطون الحيوانات التي سوف تلتهمه. وهكذا كان الإنسان يأمر بإلقائه بعد موته على صعيد الأرض لتأتي الحيوانات فتأكل هذا الجسم، يقول أحد الشعراء:

---

(١) ولذا فإنه قد ورد في الشريعة المقدسة أنه يجب أن يكون الدفن على عمق معيّن؛ كيلا تصل إليه الحيوانات، ولا تتمكّن من أن تحتفر القبر وتستخرج الجثّة وتأكلها.

فــــلا تـــدفنوني إن دفــني مــحرّم ... عـــليكم ولكــن خــامري أمّ عــامرِ
إذا احتملوا رأسي وفي الرأس أكثري ... وغــودر عــند المـلتقى ثـم سـائري
هـــنالك لا أرجـــو حــياة تســرّني ... سـمير اللـيالي مـبسلاً بـالجرائرِ[1]

أي لا تدفنوني، بل اتركوا جسمي إلى الضبع التي كانوا يكنونها بعامر؛ كي تأكل من لحمي.

التيار الثالث: ضرورة أن يكفّن بالنبال

وأصحاب هذه النزعة يرون أن الإنسان إذا مات حتى بطون الحيوانات لا تصلح لأن تكون مكاناً ومستقرّاً له؛ لأنه يرى أن جسده أرفع من أن تطاله الأرض أو أن تناله الحيوانات، ولذا فإنه يريد أن يموت تحت القنا والنبال، فلا تصل الوحوش إلى جسمه. يقول أحد الشعراء:

لا يأكلُ السرحانُ شلوَ طعينِهم ... ممّا عليهِ من القنا المتكسّرِ[2]

فهذا يصف حاله بأن الذئب لا يستطيع الوصول إليه لأن النبال والقنا قد كسته ثوباً يحول دونه ودونها. ووجهة النظر هذه موجودة عندهم، وهي نابعة وناشئة عن الحالة التي ألفوها نتيجة طبيعة حياتهم القائمة على الحروب والقتل والغزو.

المسألة الخامسة: في فوائد الدفن

فدفن الإنسان في الأرض بعد موته يحقّق لنا هدفاً سامياً هو حفظ كرامة الإنسان؛ ولذا فإن عندنا في الشريعة المقدسة أن المكان الذي يدفن فيه المؤمن

---

(١) الأبيات لتأبّط شرّاً، وتروى للشنفري. الأمالي (السيد المرتضى) ٣: ١٥٨ ـ ١٥٩، شرح نهج البلاغة ١: ٢٢٤ ـ ٢٢٥. الجامع لأحكام القرآن ٦: ٨٧، الأغاني ١٠: ١٨٨، الحيوان ٢: ٩١.

(٢) البيت لابن حمديس. الوافي بالوفيات ١: ٢٦١، معجم الأدباء ٥: ٤٧٠.

بعد موته إذا لم يحقق هذه الصفة أو هذه الخاصية له فإنه يجوز حينئذٍ حفر القبر واستخراج الميت ونقله إلى مكان آخر يكون دفنه فيه محقّقا لهذه الخاصية، وهي حفظ الكرامة.

موارد جواز نبش القبر

وبهذا فإننا نرى أن في الشريعة المقدسة موارد عدّة يجوز فيها نبش قبر الميت، وهي:

الأول: فيما لو دفن الميت في مكان مهين

فإذا ما دفن الميت في مزبلة مثلاً، أو في مسيل ماء، أو في مكان فيه انتهاك لحرمة هذا الميت، فإن الشارع المقدّس حينئذٍ يأمر ويلزم بنبش هذا القبر وإخراج الميت منه ونقله إلى مدفن آخر. ذلك أن دفنه في هذه الأماكن المهينة يستلزم إهانة له، والكلام هنا بطبيعة الحال عن المؤمن، وكما ورد في الحديث الشريف عن النبي الأكرمﷺ أن «حرمة المسلم ميّتاً كحرمته حيّاً سويّاً»[1].

الثاني: الدفن في أرض شبهة

فلو دُفن مؤمن في أرض غير مملوكة للميت، أو لورثته، أو لمن يتولّى دفنه، أو أن هذه الأرض فيها شبهة من جهة أن من يتولّى الدفن غير متيقّن من أن صاحب الأرض سيوافق على هذا الدفن أو أنه لا يوافق، ففي مثل هذه الحال إذا دفن الميت في مثل هذه الظروف فإن الشارع يوجب على أولياء الميت أن يحفروا قبره، ويخرجوه لينقلوه إلى مكان آخر.

(١) تهذيب الأحكام ١: ٤١٩ / ١٣٢٤. وورد عن أبي عبد اللهعليه السلام أنه قال: «حرمته (المؤمن) ميتاً أعظم من حرمته وهو حي». الاستبصار ٤: ٢٩٧ / ١١١٦.

الثالث: أن يكون في البين شبهة جنائية

فلو اقتضى الأمر أن ينبش قبر الميت للتحقّق من كون موته موتاً طبيعياً، أو غير طبيعي، كأن يكون قد قُتل بالسم أو بالخنق أو ما إلى ذلك، فإن هذا الأمر يكون معذّراً ومسوّغاً لنبش قبره وفحص جثّته؛ للتأكّد من هذا الأمر؛ كيلا يُظلم إنسان، وكيلا يضيع حقّ[1]. ففي مثل هذه الحال يُصبح عندنا مسوّغ شرعي لنبش القبر لمعرفة الحقيقة، وهل إن هذا الميت مات موتاً طبيعياً أو إنه مات مقتولاً، وما هو نوع القتل مثلاً. وهذا المسوّغ الشرعي مبتنٍ على موجب قانوني تترتّب عليه مصلحة عقلائية، وبهذا جاز نبش القبر.

الرابع: نقله إلى جوار أضرحة الأنبياء عليهم السلام أو الأولياء

أي أن ينقل من البقعة التي دفن فيها إلى بقعة أفضل منها.. تلك التي يكون قد دفن فيها نبي أو إمام أو ولي صالح. وعلى هذا ـ جواز نبش القبر ونقل الميت إلى جوار قبور الأولياء ـ كثير من المسلمين، أي إضافة إلى الإماميّة الأحناف والمالكية والحنابلة والشافعية إلّا هذه المجموعة التي وُلدت مؤخّراً، والتي ترى عدم جواز هذا.

وهؤلاء لا يبتني عدم تجويزهم لهذا النبش والنقل على دليل بعد أن أفتى فقهاؤهم السابقون بهذا الأمر وبجوازه، فالأدلة كلها متضافرة على استحباب النقل وليس جوازه فقط، أي أن في النقل أفضلية على بقائه في مكانه الذي دفن فيه؛ لأن الله تبارك وتعالى قد كرّم أنبياءه عليهم السلام، وكرّم أولياءه، وأعطاهم من المنزلة

---

(١) فلا يُظلم إنسان اتهم بقتل هذا الميت بعد أن يُثبت التحليل أنه لم يمت بالسم بل إنه مات موتاً طبيعيّاً مثلاً، ولا يضيع حق أي حق الميت وورثته حينما يثبت أن هذا الميت قد قتل بالسمّ أو بأي أداة قتل أُخرى، كالخنق وما شابه.

والشفاعة ما أعطاهم. وبهذا فإن الميت حينما يدفن إلى جانب الولي أو إلى جانب النبي ﷺ ، فإنه سوف يكون في مواضع هي محالّ الرحمة، ومهابط الرأفة والبركة.. مواضع رحمة الله تبارك وتعالى ونعمته على من يحلّ بتلك البقاع التي تتشرّف بوجود النبي أو الإمام ﷺ ، أو الولي فيها. وهذه الرحمة والرأفة والنعمة سوف تعمّ من يُدفن إلى جانبهما.

وبهذا فإننا نرى أن المكان الذي يُدفن فيه الأنبياء ﷺ أو الأولياء هو مكان تتوفّر فيه أسباب الطمأنينة ودواعي الهدوء والقرب من الرحمة، والنفس بطبيعة الحال تميل إلى هذا وترتاح إليه. والروايات الواردة في هذا الخصوص أو في هذا الشأن كثيرة ومتواترة.

ثم إن دفن الميت إلى جانب الولي أو النبي ﷺ ـ فضلاً عما فيه من راحة نفسية للميت نفسه ـ فيه خاصّة أُخرى هي أنه يبعث عند أهل المتوفّى وفيهم شعوراً بالطمأنينة، ويوحي إليهم إحساساً بالاستقرار والراحة؛ لأنهم يعتبرون أنفسهم أنهم قد استودعوه جوار ذلك الإنسان المكرّم عند الله تبارك وتعالى. وهذا الأمر نجده في كلّ زمان وفي كلّ مكان؛ حيث نجد أن النفوس تهفو إلى أن يُدفن الموتى إلى جانب قبور الأنبياء ﷺ والأولياء، فهناك رغبة ملحّة عند الناس للتقرّب إلى هذه الأضرحة والدنوّ منها، وهي رغبة ليست خارج إطار الدين وتعاليمه، بل داخلة ضمن إطاره.

إذن فهناك الكثير من الآثار الصحيحة التي تنصّ على استحباب الدفن عند قبور الأنبياء ﷺ والأولياء، كما أن هناك أماكن معيّنة منصوصاً عليها شرعاً في هذا المجال، ومنها وادي السلام.. وادي الرحمة ومحلّ رضا الله.. الوادي الذي يعد مأوى أرواح المؤمنين:

حنيني إلى وادي الغريّ وتربه ... يغازلها نجم السما ويلاعبُ
عليها لعاب الشمس تِبرٌ وتحتها ... أيمّة عرفان وحبر وراهبُ
تقاة أصابوا من علي أخاهدى ... وحبر تقى والصالحات نسائبُ
وتاقوا إلى المثوى الأخير بجنبه ... ونعم علي في الشدائد صاحبُ
فلا زلت يا وادي الغريّ خميلة ... تمرّ عليها الغاديات السواكبُ(١)

وإلاّ بربك إن الإنسان حينما يُدفن قرب رسولنا الأكرمﷺ، أيكون أمره من حيث أمنُه وطمأنينتُه واستقرارُه كما لو أنه دُفن في أي منطقة أُخرى من مناطق الخليج؟ والجواب قطعا أنه ليس كذلك؛ فهناك فرق كبير دون شك بين المكانين؛ إننا حينما نعمد إلى دفن الميت عند رسول اللهﷺ فإنما نعمد إلى الوصول إلى مصدر ضخم وهائل من مصادر الرحمة الإلهية.

الخامس: استنقاذ الأموال

وهذا الأمر من المسوّغات لنبش قبر الميت أيضاً، وذلك كأن يكون قد وضع في يده حلية للآخرين أو له، فهذا يُعدّ تضييعا لحقّ الوارث؛ سيما إن كان له قيمة مالية كبيرة، ودفن هذه الماليّة مع الميت فيه ضياع لها دون فائدة تذكر، وحينئذٍ ففي مثل هذا المورد يجوز نبش قبر الميت لاستخراج ذلك المال منه.

إن الناس في الحضارات الأُخرى ـ سيما القديمة منها ـ كانوا يعمدون إلى حلي الميت ومقتنياته الخاصّة الثمينة من الجواهر وغيرها، فيدفنونها معه ظنّاً منهم أنه سوف يحتاج إليها في حياته الأُخرى ليتصرّف فيها. والمشرع الإسلامي يعتبر مثل هذا التصرّف تضييعا للثروة وهدراً لها؛ ولذا فإنه أوجب نبش القبر في مثل

---

(١) ديوان المحاضر ١: ١٢٦.

هذه الحالة، واستخراج هذا المال منه؛ ليستفيد منه ورثة الميت، أو من له حقّ امتلاكه من بعده.

مسألتان حول الدفن

وعلى العموم فهذه جملة من الموارد التي يجوز فيها نبش القبر لغايات أقرّها الإسلام وأمر بها. وهنا أود أن أذكر مسألتين متفرعتين عن الدفن، وتتعلّقان بالحكمة من تشريعه، هما

الأولى: حكم من يموت في سفينة منقطعة

ثم إنه لو أن هناك مجموعة من الناس على سفينة في عرض البحر، وقد انقطعوا عن اليابسة بحيث لا يستطيعون أن يصلوا إليها في فترة قليلة، ثم مات أحدهم، وخيف عليه من أن يتعفّن فيها قبل وصولهم إلى اليابسة، فإن في مثل هذه الحال يُعمد إلى الميت فيغسّل ويكفن ويصلّى عليه ثم يوضع في خابية وتغلق عليه ثم يرمى في البحر؛ كيلا تنتهك حرمته، وكيلا يتأذّى الآخرون به. فإن لم تكن هناك خابية أو حاوية كبيرة تسعه فإنه حينئذٍ يربط ثقل إلى جثته، ثم يلقى في البحر لتستقر في قاعه. وبهذا فإننا نكون قد حافظنا على كرامة الميت، وحافظنا على مشاعر الإنسان الحي الموجود معه على السفينة.

الثانية: حكم من خيف على جثّته من النبش والتمثيل

وكذلك يفعل به هذا الفعل فيما لو لم يكن الموجب له تعفّن الجثة، بل إنه يُخشى عليه مثلاً من أن يعتدى على جثّته، أو أن يمثل بها وتشوّه كما ربّما هو حال بعض من ينصبون العداء لصاحبها. ففي مثل هذه الحالة أيضاً يُعمد إلى الجثة فترمى في البحر وتُغيّب فيه؛ حتى لا تمتدّ إليها أيدي أصحاب النفوس المريضة والضعيفة، والتي تتّصف بأنها تمتلك هذه الخصلة الذميمة ـ أعني ظاهرة التمثيل بجثمان

الميّت ـ والتي اعتادت فعل ذلك [١].

لماذا أوصى أمير المؤمنينؑ بتورية قبره؟

ولهذا السبب عينه فإننا نقرأ في التاريخ أن أمير المؤمنينؑ قد أخفي موضع قبره عن الناس كيلا يعمد الأُمويّون من بعد ذلك إلى أن يخرجوا جثته الشريفة، ويمثلوا بها، ولهذا فإننا نجد بأنهؑ قد أوصى ولديه الحسنينؑ بقوله: «**أحسن الله لكم العزاء، ألا وإني منصرف عنكم وراحل في ليلتي هذه، ولاحق بحبيبي محمدﷺ كما وعدني، فإذا أنامت يا أبا محمد فغسلني وكفني وحنطني ببقية حنوط جدّك رسول اللهﷺ فإنه من كافور الجنة جاء به جبرئيلؑ إليه، ثم ضعني على سريري، ولا يتقدّم أحد منكم مقدم السرير، واحملوا مؤخّره واتبعوا مقدمه، فأي موضع وضع المقدّم فضعوا المؤخّر، فحيث قام سريري فهو موضع قبري. ثم يا بني بعد ذلك إذا أصبح الصباح أخرجوا تابوتاً إلى ظهر الكوفة على ناقة، وأؤمر بمن يسيّرها بما عليها كأنها تريد المدينة، بحيث يخفى على العامّة موضع قبري الذي تضعني فيه**» [٢].

وهذا هو الذي فعله أبناؤهؑ، وزيادةً في التعمية بعثوا بجنازة إلى البصرة إضافة إلى تلك التي أوصاهم أمير المؤمنينؑ بإرسالها إلى الحجاز. هذا في الوقت الذي ذهبوا بهؑ إلى ظهر الكوفة، وهو موضع قبره الشريف الحالي ودفنوه

---

(١) كما فعل الأُمويون بابن الزبير، وبزيدؓ، ولا ننسَ أنهم حطموا صدر الإمام الحسينؑ وصدور أصحابه (رضوان الله تعالى عليهم) بسنابك الخيل، وهو ما سيشير إليه المحاضرؒ في قادم كلامه. وكذلك فعل العباسيون مع مناوئيهم، وقد ندم الرشيد لأنه لم تصل قوّاته إلى الشاعر منصور النمري إلّا بعد موته، فقد سبقهم الموت إليه؛ ولذا فإنه أمر بنبش قبره وحرق جثّته. أمالي السيد المرتضى ٣: ٦٣ ـ ٦٤، وهناك شواهد أُخرى كثيرة غيرها.

(٢) بحار الأنوار ٤٢: ٢٩٢، ذكر أخبار إصبهان ٢: ٦٠.

هناك. وكل ذلك لأنهم﵈ يعلمون أن الأُمويّين إذا ما ظفروا بقبره فإنهم سوف ينبشونه ويمثلون بجسده الطاهر.

رجع

إذن فالله تبارك وتعالى بعث هذا الغراب ليعلّم قابيل ما الذي ينبغي عليه فعله بعد أن قتل أخاه هابيل﵇، وفي هذا التعليم امتنان من الله تبارك وتعالى على عباده بأن فتح لهم هذا الطريق وبينه لهم كي يتخلصوا من تناثر الجثث في حال عدم دفنها على وجه الصعيد وكذلك كيلا يتعرض البعض إلى التمثيل فيما لو لم يدفن، أو إلى نهش الجوارح والكواسر وأنيابها.

المبحث الرابع: تصرّف الأمويّين في الطفّ على ضوء آية المقام

وربما يقول قائل هنا: إن في هذا الأمر مبالغة وتصويراً مبالغاً فيه حول نسبة هذا الأمر البشع إلى الحكام الأُمويين.

والجواب أنه ليس كذلك البتّة؛ فسيرتهم خير شاهد على سوء فعالهم وعلى خساسة معدنهم، وإلّا فأليسوا هم من أخرجوا زيد بن علي بن الحسين﵈ بعد قتله ودفنه في قاع النهر ـ تحسّباً لفعل االأُمويّين هذا، وخوفاً منه ـ ثم صلبوه على جذع شجرة، وتركوه أربع سنين معلّقاً عليها حتى عشّشت الفاختة في جوفه، وحتى استرسل جلده على عورته فسترها؟ وأليس شاعرهم الذي يخاطب الهاشميّن أو العلويين فيقول:

صلبنا لكم زيداً على جذعِ نخلةٍ ... ولم نرَ مهدياً على الجذعِ يُصلبُ[1]

---

(١) البيت لحكيم بن عياش الكلبي الأعور. الإصابة ٢: ١٨٢ / ٢١١٠، النزاع والتخاصم (المقريزي): ٣٨، شرح نهج البلاغة ١٥: ٢٣٨، تاريخ مدينة دمشق ١٥: ١٣٤، وفيات الأعيان ٦: ١١١، الوافي بالوفيات ١٣: ٨١.

متشفّياً بذلك وشامتاً؟ وهذا الأمر عينه فعلوه مع عبد الله بن الزبير حينما صلبوه بعد مقتله في قلب الكعبة، وعبد الله هذا هو ابن ذات النطاقين. وهم أيضاً من فعل ما فعل في واقعة الطفّ والتمثيل بالأجساد بعد انتهاء المعركة ورضّها بحوافر الخيل وسنابكها. ومع هذا فإننا لا زلنا إلى الآن نسمع من يُسميهم خلفاء المسلمين، ولا زلنا إلى الآن نسمع من يتّهم الشيعة بأنهم يتجنّون على التاريخ ويتحاملون عليه، مع أننا لا نتحامل على التاريخ السليم والتاريخ الصحيح، بل إننا ننقد التاريخ العليل المزوّر الذي كُتب بأيدي صنائع الخلفاء وفق أهوائهم ورغباتهم.

إن التاريخ يحظى منا بالحبّ والاحترام، وهو عزيز علينا جدّاً، لكننا ـ في واقع الأمر ـ نولي عقولنا احتراماً أكبر، فهي أعزّ علينا منه، وكذلك الحال مع المقاييس الشرعية التي وضعها الله تبارك وتعالى، فهي أعزّ علينا منه. فالله تبارك وتعالى قد وضع لنا مقاييس عامة تنطبق على كلّ شخص في كلّ مكان وفي كلّ زمان، حيث قال عزّ من قائل: **﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾**[1].

فهذه المقاييس تنصّ على أن الكافر غير المسلم، وأن الفاسق العاصي غير المؤمن، وأن المصلح غير المفسد، وأن المعاند غير التقي. وكلّ هذه المقاييس هي من وضع الله تبارك وتعالى ومن صنعه، وهي مقاييس ترتبط من قريب أو بعيد بالأبعاد التاريخية كلها؛ ولذا فإننا حينما نستعرض التاريخ، ثم نعرضه على هذه المقاييس فإن لنا حينئذٍ أن نقول: هذا تاريخ صحيح، وهذا مشوّه، وهذا الأمر

---

(١) الحشر: ٢٠. وقال عزّ من قائل: **﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾** ص: ٢٨.

صواب، وهذا الأمر خطأ. وهذا وفق ما تمليه عليه عقولنا ومقاييس الله تبارك وتعالى التي لم ينزلها علينا عبثاً، بل إنه عزّ وجلّ إنما أنزلها علينا لنستفيد منها، ولنحكّمها في حياتنا بمعطياتها كافّة، ومنها الجانب التاريخي، وهذا وفق ما تمليه رغبات البعض وأهواؤهم عليهم.

الأمويّون وأهل البيت النبوي﵈

وبعد أن قدمنا ما قدمنا من توضيح وبيان لهذه المسألة على نحو الإيجاز، سوف نبيّن هذا الأمر بشيء من التفصيل إن شاء الله تعالى، فنقول: لقد فعل الأُمويون مع أهل بيت رسول الله ﷺ الأفاعيل الشنيعة التي تأباها النفس الإنسانية والطبيعة البشرية، بل يأباها حتى الحيوان نفسه؛ فقد عمدوا إلى الأجساد الشريفة الطاهرة التي سقطت في معركة الطف بعد انتهائها، فمثّلوا بها أشنع تمثيل، وكمثال على ذلك نذكر أُموراً منها:

الأمر الأول: قطع رؤوس القتلى

فهؤلاء نزلوا إلى ساحة القتال حيث الأجساد، فعمدوا أول ما عمدوا إلى الرؤوس فأبانوها عن الأجساد، وليست هي إلّا رأس الإمام الحسين﵇ سليل النبوّة، ورؤوس أهل بيته وأصحابه. لقد فعلوا هذا بهم وكأنما هم ليسوا أبناء رسول الله ﷺ، إن هؤلاء لم يستحوا من الله تبارك وتعالى ولا من نبيه الكريم ﷺ حينما عمدوا إلى قتل ذريّته وامتداده على الأرض ثم إلى احتزاز رؤوسهم.

ويروى في هذا المجال أن رجلاً مسيحيا كان في مجلس يزيد ـ وهو رسول ملك الروم إليه، وكان من أشراف الروم وعظمائهم ـ حينما جيء إليه برؤوس العترة الطاهرة فلما رأى ما رأى وسأل عن هذه الرؤوس وعرف أنها لأبناء رسول

الله ﷺ وبعض صحابته والتابعين لهم توجّه إلى يزيد بالقول: رأس من هذا؟ فقال له يزيد: هذا رأس الحسين بن علي بن أبي طالب. فقال: ومن أُمّه؟ فقال: فاطمة بنت رسول الله ﷺ. فقال: أُفّ لك ولدينك، لي دين أحسن من دينكم.

قال: ما تقول؟ قال: هل سمعت حديث كنيسة الحافر؟ فقال له: قل حتى أسمع. فقال: هي كنيسة في محرابها حقّة ذهب معلّق فيها حافر يقولون: إن هذا حافر حمار كان يركبه عيسى عليه السلام، وقد زيّنوا ما حول الحقّة بالديباج، ويقصدها في كل عام عالم من النصارى ويطوفون حولها ويقبّلونها، ويرفعون حوائجهم إلى الله تعالى عندها، هذا شأنهم ورأيهم بحافر حمار يزعمون أنه حافر حمار كان يركبه عيسى عليه السلام، وأنتم تقتلون ابن بنت نبيّكم؟ فلا بارك الله تعالى فيكم. فقال يزيد: اقتلوا هذا النصراني لئلّا يفضحني في بلاده. فقُتل[1].

بل إنهم عمدوا إلى طفل عمره ستة أشهر وعلى رواية أُخرى أنه بعمر شهر واحد، وكان الإمام الحسين عليه السلام قد دفنه؛ كي يجنّبه رضّ جسده بسنابك الخيل، حيث قصدوا موضع دفنه فنبشوه واستخرجوا الجثّة منه وقطعوا الرأس، ثم حملوه مع الرؤوس إلى يزيد بن معاوية.

الأمر الثاني: قطع بعض أعضاء الجسد

فهؤلاء حينما انتهت المعركة وجاؤوا إلى جثث أهل البيت عليهم السلام وأصحابهم أرادوا أن يسلبوها ما عليها من ملابس ومن خواتم، فعمد أحدهم إلى قطع إصبع الإمام الحسين عليه السلام الشريف؛ كي يأخذ خاتماً فيه كان عليه السلام يلبسه.

---

(١) اللهوف في قتلى الطفوف: ١١٠ - ١١٢، ينابيع المودّة ٣: ٢٩، وكان قد قال له من ضمن ما قال: إن أبي من حوافد داود عليه السلام، وبيني وبينه آباء كثيرة، والنصارى يعظّمونني ويأخذون من تراب قدمي تبرّكا بأني من حوافد داود عليه السلام، وأنتم تقتلون ابن بنت نبيّكم، وما بينه وبين نبيّكم إلّا أُم واحدة؟ فأي دين دينكم؟.

الأمر الثالث: رضّ الأجساد بسنابك الخيل

فقد أمر بن سعد أن يعمد جيشه إلى أن يطؤوا جثث أبناء رسول الله ﷺ وأصحابهم بالخيل فيرضوا صدورهم بعد انتهاء المعركة مباشرة.

الأمر الرابع: ترك السنّة بعدم دفنهم

فبعد انتهاء المعركة أمر ابن سعد بدفن من قُتل من جيش يزيد، ثم ترك جثث آل الرسول ﷺ عارية تسفي عليها الذاريات، وتصهرها حرارة الشمس ثلاثة أيام، حتى رجع الإمام السجاد عليه السلام بعد أن تخلّف عن السبي في طريقه إلى الشام، وجاء حيث وجد بني أسد واقفين عند هذه الأجساد، فسألهم: «ما وقوفكم هاهنا؟». فقالوا ولم يتعرّفوا شخصيته عليه السلام: جئنا نظر إلى هذه الجثث. قال: «لا، أخبروني بالذي انطوت عليه ضمائركم، وأضمرته سرائركم». قالوا: أو نحن في أمان؟ قال: «في أمان». قالوا: يا هذا، إنا جئنا لندفن هؤلاء القتلى من آل محمد ﷺ. قال: «إذن مالذي يمنعكم؟». قالوا: إن القوم أجساد بلا رؤوس، وسوف تصبح القبور غير معروف أصحابها.

فقال عليه السلام: «هلمّوا معي». ثم أقبل كهيئة المنحني إلى أن وصل إلى جسد أبيه الحسين عليه السلام، فألقى بنفسه عليه يحتضنه، ثم استدعى بحصير ووضع الجسد عليه، ثم قال لهم: «احتفروا هاهنا». فلمّا فرغوا وأراد أن ينزله إلى القبر، قالوا له: دعنا نعِنك. قال: «لا، فإنّ معي من يعينني». فأنزل أباه عليه السلام إلى القبر، يقول بنو أسد: ثم راح يبحث عن شيء في التراب، وكان منحنياً، فالتقط شيئاً، فإذا هو إصبع الحسين عليه السلام الذي قطعه أحد أفراد جيش يزيد، فحمله وأنزله إلى القبر:

لهفي على تلك الأنامل قطّعت ... ولوَ انها اتّصلت لكانت أبحرا[1]

---

(١) ديوان ابن معتوق: ٢١٣.

ثم قال يندب سبط رسول الله ﷺ: «أبتاه، طوبى لأرض تضمّنت جسدك، أما الدنيا بعدك فمظلمة، وأمّا الآخرة فبنور وجهك مشرقة. أما حزني فسرمد، وأمّا ليلي فمسهد، حتى يختار الله لي الدار التي أنت فيها مقيم».

ثم حفر حفيرة وارى بها الهاشميّين شهداء آل محمّد ﷺ، وحفر حفيرة أُخرى ووارى بها الشهداء من الصحابة، ثم أخذ يقلّب طرفه ويقول: «هل بقي أحد؟». قالوا: بلى، لقد بقي عند الفرات بطل، كلّما حملنا منه عضواً سقط العضو الآخر. قال: «واعمّاه واعبّاساه، السلام عليك يا عمّاه». وأقبل إليه واحتفر حفيرة عنده، وأنزله إلى قبره.

وبعد أن أتمّ دفنهم جميعاً رجع إلى قافلة السبي، أما زينب عليها السلام فلم ترَ عملية الدفن هذه، فبقيت في نفسها لوعة؛ لأنها لم تكن تعرف لمن هذا القبر ولمن هذا القبر ولذا فإنها بعد أن رجعت من السبا إلى كربلاء ولاحت لها أعلامها اتجهت إلى الإمام السجاد عليه السلام تسأله ومن يسكن في تلك الربوع:

يا نازلين بكربلا هل عندكم ... خبر بقتلانا وما أعلامُها

ما حالُ جثةِ ميتٍ في أرضِكم ... بقيت ثلاثاً لا يزار مقامُها

باللهِ هل واريتموها في الثرى ... وهل استقرّت في اللحودِ رمامُها[1]

فيجيبها أحد الأُدباء:

ما غسّلوهُ ولا لفّوهُ في كفنٍ

ثم طافت على القبور بأجمعها، وبقي عندها قبر واحد راحت تقلّب طرفها باحثة عنه، فجاءها الإمام السجاد عليه السلام ولسان حاله يقول لها: عمة، أنا أعلم عن أي قبر تبحثين، قالت: نعم، دلّني على نهر العلقمي. فأقبل بها على نهر العلقمي

---

(١) وفيات الأئمة: ١٦٧.

حيث جلست بجانب قبر أبي الفضل العباس عليه السلام:

خويه الساع وگع بيتي عليّه   خويه الساع عدوي شمت بيّه

خويه امنين اجت ليك المنيّه

* * *

لمن اللوا أُعطي ومن هو جامعٌ   شملي وفي ضنكِ الزحامِ يقيني

عبّاس كبش كتيبتي وكنانتي   وسري قومي بل أعزّ حصوني



﴿٢٢٠﴾

مواصفات القاضي والفقيه في نظر المشرّع الإسلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِي وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

توطئة: في مورد الآية الكريمة

تقول الآية الكريمة: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِي﴾، ويذكر المفسّرون أن هذا المقطع الشريف من الآية الكريمة موجّه إلى قضاة بني اسرائيل، على أنه ينبغي التنبّه إلى أن المورد لا يخصّص الوارد كما هوَ مذكور في علم الأُصول[2]. وهذا يعني أن هذه الآية الكريمة وإن كانت قد نزلت في هذا المجال، لكنها تمتدّ مساحتها لتشمل أي قاضٍ يمكن أن يقضي بين الناس. وهو يعني أنها تنطبق أيضاً على قضاة المسلمين؛ لأن كتاب الله تبارك وتعالى دستور شامل

---

(١) المائدة: ٤٤.

(٢) حقائق الأُصول (تعليقة على كفاية الأُصول) ٢: ٤١٢، بداية الوصول في شرح كفاية الأُصول ٥: ٣١٤.

للحياة كلّها، وللناس كلّهم.

وعلى أي حال فهذه الآية الكريمة موجهة ـ كما قلنا ـ إلى مجموعة من قضاة بني اسرائيل الذين كانوا في زمن النبي محمد ﷺ إثر حادث سوف نذكره في سبب النزول.

والقضاء يشترط فيه ألّا يتأثّر القائم به وعليه، وهو القاضي بمؤثّرات أُخرى غير المؤثّرات الواقعية والأدلّة المادّيّة، وغير اتّباع الحقّ وإظهاره[1] حتى لو كان الجاني من أشراف البلد أو من سراته[2]. فالقاضي إذا أصبح عرضة للتأثّر بهذه المميّزات الاجتماعية فإن هذا يعني أن حقوق الناس سوف تصبح في مهب الريح، بل سوف تتعرّض للضياع؛ وأن المجتمع سوف لن يأمن على دمه وعلى ماله وعلى عرضه وعلى حقوقه كافّة.

المبحث الأول: سبب نزول الآية الكريمة

يذكر المفسرون وأصحاب السير أن هذه الآية نزلت في جريمة قد وقعت بين اليهود زمن النبي ﷺ، ذلك أنّ أحد أشراف اليهود ومن بيوتهم العالية والمعروفة، وذات الصيت الغالب قد ارتكب جريمة الزنا، وكان حكم الزاني في التوراة كما هو عندنا، وذلك أن من ينحرف ويزنِ وهو محصن فحكمه الرجم، فإن كان غير محصن فحكمه الجلد. ولما عُرضت هذه القضية على قضاة بني إسرائيل توقّفوا في

---

(١) قال رسولنا الأكرم ﷺ: «لسان القاضي بين جمرتين من نار حتى يقضي بين الناس؛ فإمّا إلى الجنّة، وإمّا إلى النار». تهذيب الأحكام ٦: ٢٩٢ / ٨٠٨، الجامع الصغير ٢: ٤٠٣ / ٧٢٣٧.

(٢) قال رسولنا الأكرم ﷺ: «فإنما هلك الناس قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف فيهم تركوه، وإذا سرق الضعيف فيهم أقاموا عليه الحد». السنن الكبرى (النسائي) ٤: ٣٣٣ / ٧٣٨٥.

إصدار الحكم فيها على مرتكب الزنا؛ لأنه كما أسلفنا من سراتهم وأشرافهم وبيوتهم الضخمة. وهكذا تأثّر القضاة بهذا العامل الاجتماعي، وهو أن فلاناً ينتمي إلى البيت الفلاني، و فلانة تنتمي إلى البيت الكذائي؛ ممّا حال دون أن يصدروا حكم الله تبارك وتعالى بحقهما؛ ولذا فإنهم أرادا أن يحوّلوا هذه المادّة من الرجم إلى الجلد.

وهكذا وقع بينهم جدال، وأحدثوا في هذه المسألة أخذاً ورداً، ثم قرّ رأيهم على أن يتوجّهوا بها إلى نبيّنا الأكرم ﷺ، وأن يتحاكموا عنده، فلمّا جاؤوه طرحوا سؤالهم عليه ﷺ، وقالوا له: إن رجلاً منّا وامرأة زنيا، فقال لهم رسول الله: «ما تجدون في التوراة في شأن الرجم؟». فقالوا: نفضحهم ويجلدون؟ واختلفوا مع النبي ﷺ، فنزلت آية المقام الكريمة [١].

مناقشة سبب النزول

وللحقيقة نذكر أن قصر هذه الآية الكريمة على القضاة لا موجب له ولا وجه؛ لأن في الآية إطلاقاً وليس فيها تخصيص بجانب أو بجهة دون جهة، ولذا فإنه لا يختصّ بالقضاة بل يعمّ كل حقّ من الحقوق الإنسانية أو غيرها مما يمكن أن يتعرّض للضياع. وبالأحرى أن هذا يعني أن قوله تعالى: ﴿**فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِي**﴾ يأمر الناس بأن يخشوا الله تبارك وتعالى في كل شيء؛ وبهذا فإننا نستطيع أن نوسّع الحكم ليشمل حتى الإفتاء.

منشور ينتقد رواية احمرار الأفق يوم العاشر من المحرم

ولكي أُقرّب المعنى أكثر فإنني أذكر هنا أنه قبل فترة قريبة جداً لا تتجاوز

---

(١) قريب منه في أحكام القرآن ٢: ١٢١ ـ ١٢٢.

أصابع اليد أياماً رأيت منشوراً ينتقد روايات الشيعة في موارد منها نسبة الادّعاء إليهم بأن السماء قد احمرّت في اليوم العاشر من المحرم الحرام بعد مقتل سبط النبي الأكرم ﷺ، وسيد شباب أهل الجنة الإمام الحسين عليه السلام، وأنه ما رُفع حجر إلّا ووجد تحته دم.

فهذا المنشور ينتقد روايات الشيعة عندما يمر بهذا الأنموذج منها قائلاً: إن حمرة الأُفق هي ظاهرة كونيّة ليس لها علاقة بالحسين ولا بغيره، وعليه فإن من يروِ مثل هذه الروايات فهو مخرّف.

الرد على هذا المنشور

ويتمّ الرد على هذا المنشور عبر بيان أمرين، هما:

الأمر الأول: أن هذه المسألة مشهورة تاريخيّاً

إننا حينما نلج باب الردّ على مثل هذا التهافت الوارد في هذا المنشور وأمثاله فإننا نقول: إن مسألة احمرار الأُفق هذه لم تكن معروفة سابقاً، بل إنها ظاهرة ولدت ونشأت في تلك الفترة. وهذه الظاهرة قد أصبحت مبثوثة في أغلب النصوص الأدبية؛ سواء النثرية منها، أو الشعرية، وكدليل على هذا فإننا حينما نرجع إلى شعر أبي العلاء المعرّي فإننا نجده يقول:

وعلى الأُفق من دماء الشهيديـ ... ـن علي ونجلِه شاهدانِ

فهما في أواخر الليل فجرا ... ن وفي أُولَياتِهِ شَفَقَانِ

ثَبتَا في قميصه ليجيء الـ ... ـحشر مستعدياً إلى الرحمنِ[1]

---

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢١٣، درر السمط: ٩٣. قال ابن الأبار في (درر السمط)، وهو من كبار علماء القوم المعتمدين في الرجال: اقتسم السبطان على رغم أنف الشيطان خلق جدهما النبي ﷺ وخلق أبيهما الوصي، فردي أكبرهما بما أُوذي به الأكبر، ولقي

....

أصغرهما الموت الأحمر. ثم ذكر الأبيات الثلاثة، واستشهد بأبيات غيرها، ثم قال: «و أسفا، ألّب على الرسول أبو سفيان، ولاكت كبد حمزة هند، ونازع حقّ علي معاوية، واحتزّ هامة الحسين يزيد:

لقد علقوها بالنبي خصومة　　　إلى الله تغني عن يمين وشاهدِ

وعن علي بن مسهر قال: حدثتني جدتي قالت: كنت أيام الحسين جارية شابة، فكانت السماء أياما علقة. تهذيب الكمال ٦: ٤٣٢، تاريخ مدينة دمشق ٤: ٢٢٦، ١٤: ٢٢٦.

وعن خلف بن خليفة عن أبيه قال: لما قتل الحسين اسودّت السماء وظهرت الكواكب نهاراً، حتى رأيت الجوزاء عند العصر، وسقط التراب الأحمر. تاريخ مدينة دمشق ١٤: ٢٢٦.

وعن ابن سيرين قال: لم تبكِ السماء على أحد بعد يحيى بن زكريا إلّا على الحسين بن علي. تاريخ مدينة دمشق ١٤: ٢٢٦.

وعن خلّاد قال: حدثتني أُمي قالت: كنا زماناً بعد مقتل الحسين وإن الشمس تطلع محمرّة على الحيطان والجدر بالغداة والعشي، وكانوا لا يرفعون حجراً إلّا وجد تحته دم. ترجمة الإمام الحسين عليه السلام / القسم غير المطبوع من طبقات ابن سعد: ٩٠ / ٣٢٥، تاريخ مدينة دمشق ١٤: ٢٢٦ ـ ٢٢٧.

وعن علي بن مدرك عن جده الأسود بن قيس قال: احمرّت آفاق السماء بعد قتل الحسين ستة أشهر يُرى ذلك في آفاق السماء كأنها الدم. قال: فحدثت بذلك شريكاً فقال لي: سألت: من الأسود؟ قلت: هو جدّي أبو أُمّي. قال: أما والله إن كان لصدوق الحديث، عظيم الأمانة، مكرماً للضيف. ترجمة الإمام الحسين عليه السلام / القسم غير المطبوع من طبقات ابن سعد: ٩١ / ٣٢٨، تهذيب الكمال ٦: ٤٣٢، تاريخ مدينة دمشق ١٤: ٢٢٧.

وعن عيسى بن الحارث الكندي قال: لما قتل الحسين مكثنا سبعة أيام إذا صلينا العصر فنظرنا إلى الشمس على أطراف الحيطان كأنها الملاحف المعصفرة، ونظرنا إلى الكواكب يضرب بعضها بعضاً. تهذيب الكمال ٦: ٤٣٣، تاريخ مدينة دمشق ١٤، ٢٢٧.

وعن نصرة الأزدية ـ أو نظرة ـ قالت: لما أن قتل الحسين بن علي مطرت السماء دماً، فأصبحت وكل شيء لنا ملآن دماء. ترجمة الإمام الحسين عليه السلام / القسم غير المطبوع من طبقات ابن سعد: ٩٠ / ٣٢١، تهذيب الكمال ٦: ٤٣٢، تاريخ مدينة دمشق ١٤: ٢٢٧.

وقالت: لما قتل الحسين مطرنا مطراً كالدم على البيوت والجدر. تهذيب الكمال ٦: ٤٣٣، ترجمة الإمام الحسين عليه السلام / القسم غير المطبوع من طبقات ابن سعد: ٩٠ / ٣٢٢، تاريخ الإسلام ٥: ١٧، سير أعلام النبلاء ٣: ٣١٧، تاريخ مدينة دمشق ١٤: ٢٢٨ ـ ٢٢٩.

....

وعن أبي قبيل قال: لما قتل الحسين بن علي كسفت الشمس كسفة بدت الكواكب نصف النهار، حتى ظنّنا أنها هي. تهذيب الكمال ٦: ٤٣٣، السنن الكبرى (البيهقي) ٣: ٣٣٧، فتح العزيز ٥: ٨٣ ـ ٨٤، تلخيص الحبير ٥: ٨٤، تاريخ مدينة دمشق ١٤: ٢٢٨.

وعن محمد قال: تعلم هذه الحمرة في الأُفق ممّ هي؟ ثم قال: من يوم قتل الحسين بن علي. تاريخ مدينة دمشق ١٤: ٢٢٨.

وروي أنه لم تكن ترى الحمرة في السماء حتى قتل الحسين بن علي. ترجمة الإمام الحسين عليه السلام / القسم غير المطبوع من طبقات ابن سعد ٩١ / ٣٢٦، تاريخ مدينة دمشق ١٤: ٢٢٨، ٣٩: ٤٩٣، كنز العمّال ١٣: ٦٧٣ / ٣٧٧٢٢.

وعن بواب عبيد الله بن زياد أنه قال: لما جيء برأس الحسين ووضع بين يديه، رأيت حيطان دار الإمارة تسايل دماً. تهذيب الكمال ٦: ٤٣٤، تاريخ مدينة دمشق ١٤: ٢٢٩.

وعن أمّ حيان قالت: يوم قتل الحسين أظلمت علينا ثلاثاً، ولم يمسِ أحد من زعفرانهم شيئاً فجعله على وجهه إلّا احترق، ولم يقلب حجر ببيت المقدس إلّا أ صبح تحته دم عبيط. تهذيب الكمال ٦: ٤٣٤.

وعن معمر قال: أول ما عرف الزهري أنه تكلم في مجلس الوليد بن عبد الملك، فقال الوليد: أيكم يعلم ما فعلت أحجار بيت المقدس يوم قتل الحسين بن علي؟ فقال الزهري: زاد عبد الكريم وابن السمرقندي: بلغني، وقالوا: إنه لم يقلب حجر إلّا تحته دم عبيط. ترجمة الإمام الحسين عليه السلام / القسم غير المطبوع من طبقات ابن سعد – ص ٩١ – ٩٠ / ٣٢٣، تهذيب الكمال ٦: ٤٣٤، سير أعلام النبلاء ٣: ٣١٤، تاريخ الإسلام ٥: ١٦، تهذيب التهذيب ٢: ٣٠٥، البداية والنهاية ٦: ٢٥٩، ٨: ٢١٩، تاريخ مدينة دمشق ١٤: ٢٢٩، إمتاع الأسماع ١٢: ٢٤١، ٢٤٢، ١٤: ١٤٩، ١٥٠. وفي رواية أن عبد الملك قال له: إني وإياك في هذا الحديث لقرينان. المعجم الكبير ٣: ١١٩ / ٢٨٥٦.

وأرسل عبد الملك إلى ابن رأس الجالوت فقال: هل كان في قتل الحسين علامة؟ قال ابن رأس الجالوت: ما كشف يومئذٍ حجر إلّا وجد تحته دم عبيط. ترجمة الإمام الحسين عليه السلام / القسم غير المطبوع من طبقات ابن سعد: ٩١ / ٣٢٤، تاريخ الإسلام ٥: ١٦، البداية والنهاية ١٣: ٢٦٠، تاريخ مدينة دمشق ١٤: ٢٣٠، ١٩: ٤٥٠. ونقله السيد المرعشي في شرح إحقاق الحق ١١: ٤٨٢ ـ ٤٩٠ عن الگنجي في (كفاية الطالب): ٢٩٥ / ط الغري، وعن ابن حجر الهيتمي في الصواعق المحرقة: ١٩٢ / ط عبد اللطيف بمصر، وعن القندوزي في ينابيع المودّة: ٣٢٠ / ط إسلامبول، وعن الزبيدي في الإتحاف بحب الأشراف: ١٢ / ط

الأمر الثاني: أن مثل هذا قد روي لغير الإمام الحسين عليه السلام

أننا بالرجوع إلى الفصل الخاصّ بالخليفة الثاني في كتاب (حياة الحيوان الكبرى) للدميري فإننا سوف نرى العجب مما يرويه عند وفاة عمر، يقول الدميري: ولما توفي عمر أظلمت الأرض فجعل الصبي يقول: يا أُماه، أقامت القيامة؟ فتقول: لا يا بني، ولكن قتل عمر [1].

وكذلك دأب أُدبائهم أيضا كما ينقل الدميري نفسه في كتابه هذا في باب (سبنتى) [2] حيث إن المؤلف ذكر أبياتاً شعرية تنصّ على أن الدنيا قد أظلمت، وأن الأُفق قد تغيّر حينما قُتل الخليفة الثاني [3].

مصر، وعن ابن الصبّان المالكي في إسعاف الراغبين المطبوع بهامش نور الأبصار: ٢١٥ / ط مصر.

وعن يزيد بن أبي زياد قال: احمرت آفاق السماء، ونحروا ناقة في عسكرهم فكانوا يرون في لحمها النيران. تهذيب الكمال ٦: ٤٣٤ ـ ٤٣٥، تهذيب التهذيب ٢: ٣٠٥، تاريخ مدينة دمشق ١٤: ٢٣٠.

وعن أبي حميد الطحّان قال: كنت في خزاعة، فجاؤوا بشيء من تركة الحسين فقيل لهم: ننحر أو نبيع فنقسم؟ قالوا: انحروا. قال: فجعل على جفنة، فلما وضعت فارت ناراً. تهذيب الكمال ٦: ٤٣٥، تاريخ مدينة دمشق ١٤: ٢٣١.

وعن ابن شهاب قال: ما رفع بالشام حجر يوم قتل الحسين بن علي عليهما السلام إلّا عن دم. المعجم الكبير الطبراني ٣: ١١٣ / ٢٨٣٥، ونقله في شرح إحقاق الحق ١١: ٤٨٢ عن الشبلنجي في نور الأبصار: ١٢٣ / ط مصر، والقندوزي في ينابيع المودة: ٣٢١ / ط إسلامبول، وابن الصبّان المالكي في إسعاف الراغبين المطبوع بهامش نور الأبصار: ٢١٥ / ط مصر.

(١) حياة الحيوان الكبرى ١: ٧٥.

(٢) السبنتى أو السبندى: النمر الجريء، والأُنثى سبنداة. حياة الحيوان الكبرى ١: ٥٤٩.

(٣) قال الدميري في المورد عينه: قالت عائشة: ناحت الجنّ على عمر قبل أن يموت بثلاثة أيام:

أبعد قتيل بالمدينة أظلمت ... له الأرض تهتزّ العضاه بأسوقِ

جزا الله خيراً من إمام وباركت ... يد الله في ذلك الأديم الممزّقِ

ونحن في هذا ليس عندنا حساسية ازاء هذا النقل، وإذا كان مثل هذا قد حصل مع عمر بن الخطاب، فالحسين بن علي عليه السلام هو ابن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو سيد شباب أهل الجنة، فهو على اتّصال بالسماء لا ينقطع عنها أبداً، كما أن له ميزات كثيرة، فلماذا إذن يُقال: إن هذا تخريف[1]، ولا يقال كذلك في حقّ غيره من

فمن يسعَ أو يركب جناح نعامة ... ليدرك كما قدّمت بالأمس يسبقِ
قضيت أُموراً ثم غادرت بعدها ... بوائق في أكمامها لم تفتّقِ
وما كنت أخشى أن تكون وفاته ... بكف سبنتى أزرق العين مزرقِ

حياة الحيوان الكبرى ١ صفحة ٥٤٩).

(١) قال ابن كثير ـ بعد أن نقل أغلب ما نقلناه من علامات مهولة ساوقت قتل الإمام الحسين عليه السلام أو جاءت بعده ـ: «وفي كل من ذلك نظر، والظاهر أنه من سخف الشيعة وكذبهم؛ ليعظموا الأمر، ولا شك أنه عظيم، ولكن لم يقع هذا الذي اختلقوه وكذبوه. وقد وقع ما هو أعظم من قتل الحسين رضي الله عنه ولم يقع شيء مما ذكروه، فإنه قد قتل أبوه علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهو أفضل منه بالإجماع ولم يقع شيء من ذلك، وعثمان بن عفان رضي الله عنه قتل محصوراً مظلوماً ولم يكن شيء من ذلك، وعمر بن الخطاب رضي الله عنه قتل في المحراب في صلاة الصبح وكأن المسلمين لم تطرقهم مصيبة قبل ذلك ولم يكن شيء من ذلك. وهذا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو سيد البشر في الدنيا والآخرة يوم مات لم يكن شيء ممّا ذكروه. ويوم مات إبراهيم بن النبي صلى الله عليه وآله وسلم خسفت الشمس، فقال الناس: خسفت لموت إبراهيم. فصلّى بهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صلاة الكسوف، وخطبهم، وبين لهم أن الشمس والقمر لا ينخسفان لموت أحد ولا لحياته»...». تفسير القرآن العظيم ٤: ١٥٤.

وكلامه هذا مردود من وجوه، منها:

أولاً: أن قوله: «قد قتل أبوه علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهو أفضل منه بالإجماع ولم يقع شيء من ذلك»؛ فقد ورد حول مقتل أمير المؤمنين عليه السلام ما ورد في ابنه الإمام الحسين عليه السلام، فقد ورد في كتب التاريخ عن السري بن يحيى عن ابن شهاب أنه قال: قدمت دمشق وأنا أُريد الغزو، فأتيت عبد الملك لأُسلّم عليه، فقال: يابن شهاب، أتعلم ما كان في بيت المقدس صباح قتل علي بن أبي طالب؟ قلت: نعم. قال: هلم. فقمت من وراء الناس حتى أتيت خلف القبة، وحوّل وجهه، فأحنى علي وقال: ما كان؟ فقلت: لم يرفع حجر في بيت المقدس إلّا وجد تحته دم. فقال: لم يبقَ أحد يعلم هذا غيري وغيرك، فلا يُسمعن منك. قال: فما تحدثت به حتى توفي. تاريخ مدينة دمشق ٤٢: ٥٦٧ ـ ٥٦٨، ٥٥: ٣٠٥.

الصحابة أو غيرهم؟ ألأنه في حقّ الحسين عليه السلام؟

فتاوى يخالف فيها أهل السنّة السنّة

إن الباحث حينما يرجع إلى تاريخنا وإلى فتاوى علماء المسلمين يجد نمطاً

وقال المقريزي في (إمتاع الأسماع) بعد أن نقل الرواية الآنفة: قال البيهقي: هكذا روي في قتل علي بهذا الإسناد، وروي بإسناد أصحّ من هذا عن الزهري، أن ذلك كان في قتل الحسين بن علي (رضي الله تعالى عنهما). إمتاع الأسماع ١٢: ٢٤٢، ١٤: ١٥٠.

وفي قول البيهقي: «وروي بإسناد أصحّ» دليل على صحّة السند الأول، وإلّا فلا وجه للمفاضلة.

ثانياً: أما حول عمر فقد أورد المصنّف ما جاء في (حياة الحيوان الكبرى) للدميري.

ثالثاً: أن حديث «الشمس والقمر لا ينخسفان» لا يصمد أمام الأحاديث الكثيرة التي نقلناها عن علمائهم المعتبرين المعتمدين عندهم كالذهبي ـ وهو معتمدهم الأول في هذا المجال ـ والمزّي وابن حجر وغيرهم. ثم إن هذا الحديث ـ «الشمس والقمر لا ينخسفان» ـ قد ضعّفه الألباني مرّتين في صحيح وضعيف النسائي ٤: ١٣١، ١٣٤، وصححه مرّة واحدة في الكتاب نفسه ص ١٤١، وهو تناقض بيّن منه.

رابعاً: على فرض صحّة أنه لم يقع شيء عند قتل عمر وعثمان، فهل إن مقتل كل منهما كمقتل الإمام أبي عبد الله الحسين عليه السلام الذي ضحى بنفسه وأبنائه وإخوانه وأبناء عمومته وأصحابه جميعاً فداء للدين في ساعة واحدة، وقد جرى عليهم ما جرى ممّا تحدث العدوّ قبل الصديق عن بشاعته وفظاعته وأُسلوبه الإجرامي؟ مع أن رسولنا الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم قد بكى الإمام الحسين عليه السلام في روايات كثيرة، انظر تاريخ مدينة دمشق ١٤: ١١١ ـ ٢٦١ / ١٥٦٦. بل إن خبر قتله عليه السلام موجود حتى في كتب أهل الكتاب؛ فقد روي عن رأس الجالوت أنه قال: كنا نسمع أنه يقتل بكربلاء ابن نبي، فكنت إذا دخلتها ركضت فرسي حتى أجوز عنها، فلما قتل الحسين جعلت أسير بعد ذلك على هيأتي. المعجم الكبير ٣: ١١١ / ٢٨٢٧، سير أعلام النبلاء ٣: ٢٩١، تاريخ مدينة دمشق ١٤: ٢٠٠.

خامساً: ذكر المؤرّخون أنه عند ولادة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ارتجّ إيوان كسرى وسقط منه أربع عشرة شرفة، وغاضت بحيرة ساوة، وفاض وادي السماوة، وخمدت نار فارس ولم تخمد قبل ذلك بألف عام. أُسد الغابة ١: ١٩٢، ٥: ٥٢، الإصابة ٦: ٤١١. وفي بعضها خرق للنواميس الكونية، فإذا كان هذا عند الولادة وهي حالة سعد، فإن حصول هذا الأمر عند الوفاة يكون من باب أولى؛ لما في الوفاة من نحس.

من الفتاوى الغريبة التي تلفت نظر القارئ وتثير استغرابه. وهؤلاء إنما يعمدون إلى مثل هذا التصرّف لأنهم يحتجّون بدعوى أنها يُعمل بها عند الشيعة، مع أن في هذا مخالفة صريحة للسنّة النبويّة المطهّرة. ومن هذه الموارد نذكر:

الأولى: فتوى عدم جواز التسليم على الميت

يذكر العيني في كتابه (عمدة القاري في شرح صحيح البخاري) فيقول: يشرع السلام على الحي؛ أمّا الميّت، فإن كان مع النبيﷺ فإنه يجوز، وإن لم يكن معه لم يجز؛ لأن الرافضة يخاطبون أيمتهم بقولهم: السلام عليكم[1].

وهذا كلام غريب في بابه، فإذا ما اطّلع أحد على هذه الثغرات الموجودة في تاريخنا فإنه سوف يأخذ انطباعاً سلبياً ومشوّهاً عن الإسلام والمسلمين. وللحقيقة نقول: إن من حقّ أي باحث إذا ما وجد مثل هذه المهاترات أن يأخذ ذلك الانطباع؛ لأننا لسنا ندري أتأريخ هو أم تراشق، أم هي محاولة انتصار على

---

(١) ذكرنا في محاضرة: (من مسائل فقه الصيد) من ج ٢ من كتابنا هذا أن هناك الكثير من مثل هذه الفتاوى التي خُولف فيها صريح القرآن والسنة بحجة أننا نفعلها، وأنها قد أصبحت شعاراً لنا. ومن هذه الأُمور نذكر:

الأول: قال مصنّف (الهداية): «المشروع التختّم باليمين، لكن لمّا اتّخذه الرافضة عادة جعلنا التختّم باليسار». انظر المهذب ٤: ٣٤٠.

الثاني: قال ابن تيمية: «ولهذا يوجد في كلام أئمّة السنّة من الكوفيّين كسفيان الثوري أنهم يذكرون من السنّة ترك الجهر بالبسملة؛ لأن هذا من شعار الرافضة ولهذا ذهب أبوعلي بن أبي هريرة أحد الأيمّة من أصحاب الشافعي إلى ترك الجهر بها، قال: لأن الجهر بها صار من شعار المخالفين». كتب ورسائل وفتاوى ابن تيمية ٢٢: ٤٢٣، وانظر ٢٦: ٥٤.

والملاحظ هنا أن في قول مصنّف (الهداية)، وقول الغزالي في الهامش بعد التالي: «المشروع»، دليلاً على أنهم بهذا يكونون قد خالفوا السنّة والمشروع اللذين أمر الله تعالى بهما وبحفظهما.

حتى إن النووي صرح في المقام بأنه مخالفة للسنة، انظر الهامش بعد التالي.

الطرف الآخر ولو كان بالباطل؟ فلماذا يُخشى الناس ولا يُخشى الله تبارك وتعالى؟ ولماذا يُجامل بعض الناس من ذوي السلطة على حساب المبدأ والدين والعقيدة؟ ولماذا لا يُجنح إلى قول الحقيقة، بل أكثر من هذا يُجنح إلى قول الزيف والزور والبهتان؟ أن منهج القرآن الكريم يعلمنا في كل حرف من حروفه أن نقول الحق ولو على أنفسنا[١].

وهكذا فبمعارضة هذا على جوّ الآية، فإننا نجد أن مصادرة حقوق الآخرين وتضييعها لا يقتصران على جنبة القضاء والقضاة فقط، بل إن دائرها تتطوّر وتتّسع لتشمل حتى مجال الأحكام الشرعيّة الإفتاء.

الثانية: فتوى تسنيم القبور

يذهب بعض علمائهم إلى أن الأصل في القبور أن تسطّح، لكنهم قالوا: بما أن هذا صار من شعار الرافضة فنحن نعدل عنه[٢].

وبهذا فإننا نعطي هذا الباحث كبير حقّ في أن ينظر إلى المسلمين بتلك النظرة السلبيّة؛ لأنه لا يجد في مؤلفاتهم إلّا مثل هذه المهاترات التي تستهلك ببالغ

---

(١) قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لله وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوْ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ﴾ النساء: ١٣٤.

(٢) يقول النووي: «قال أبو علي الطبري‎ﷺ: الأولى في زماننا أن يسنّم ـ يعني القبر ـ لأن التسطيح من شعار الرافضة. وهذا لا يصحّ؛ لأن السنة قد صحّت فيه، فلا يضرّ موافقة الرافضة فيه». المجموع ٥: ٢٩٥، ٢٩٧.

وقال ابن تيمية: «كما ذهب جمع من أصحاب الشافعي إلى تسنمة القبور؛ لأن التسطيح صار من شعار أهل البدع». كتب ورسائل وفتاوى ابن تيمية ٢٢: ٤٢٣، وانظر ٢٦: ٥٤.

وقال الغزالي: «إن تسطيح القبور هو المشروع، لكن لما اتّخذه الرافضة شعاراً لهم عدلنا عنه إلى التسنيم». الصراط المستقيم ٣: ٢٠٦، وانظر المجموع شرح المهذب ٥: ٢٩٥، حلية العلماء ٢: ٣٠٧، نهاية المحتاج ٣: ١٠، المبدع ٢: ٢٧٣.

الأسف وحدة المسلمين ومصيرهم وكلمتهم. كما أن من حقّه أن يشعر بتفاهة هذه المناهج التي ينتهجها البعض من الفقهاء حينما يصل به الأمر إلى الإفتاء دون مراقبة الله تبارك وتعالى، وإلى أن ينزل إلى هذا اللون من الركّة والتسيّب في الفكر، والانحدار فيه إلى بؤرة الانسياق وراء أصحاب السلطة والرعاع من العامة.

ولكلّ هذا فإن القرآن الكريم يأمرنا بأن نكون ذوي أفكار عملاقة بعيدة عن التأثّر بكثير من المؤثّرات الاجتماعيّة أو السياسيّة أو العدائيّة حينما نريد أن ننطق كلمة حقّ أو أن نتفوّه بحكم شرعي أو بحكم قضائي. ولذا فإنه يحث الناس بقوله: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِي﴾؛ لأن خشية الناس وخوفهم على حساب خشية الله تبارك وتعالى وخوفه سوف يُبعدان الإنسان عن مقام الإيمان بالله تبارك وتعالى، وعن رحمته [1].

إذن فالصحيح هو أن يخشى الإنسان ربّه جلّ وعلا؛ لأنه لا يسعه التخلّص من ملاحقته [2]، فإذا أراد الله بعبد سوءاً فإنه لا يسع الإنسان أن يتخلّص من هذا إلّا برحمة منه تعالى [3].

وعليه فالآية الكريمة في مقام بناء الضمير الإنساني، وفي مقام بناء الشخصية

---

(١) وقد قال رسولنا الأكرم ﷺ: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق». شرح السير الكبير ١: ١٦٦، تاريخ بغداد ٣: ٣٦٢ ـ ٣٦٣ / ١٤٩٢، ١٠: ٢٣ ـ ٢٤ / ٥١٣٧، أسد الغابة ٢: ٣٧، تهذيب الكمال ٢١: ٤٤٣.

(٢) قال الله تبارك وتعالى: «من لم يرضَ بقضائي، ولم يصبر على بلائي فليلتمس له ربّاً سواي». تاريخ مدينة دمشق ٢١: ٦٠، ٥٤: ١٠١، أسد الغابة ١: ١٧٧، الإصابة ٧: ٣٦٤.

(٣) قال رسولنا الأكرم ﷺ لابن عبّاس ﵁: «اعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلّا بشيء كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضرّوك لم يضرّوك إلّا بشيء قد كتبه الله عليك». تاريخ مدينة دمشق ٤٩: ٣٧٤، أسد الغابة ٣: ١٩٤.

عند المؤمن؛ كيلا يحيف في حكمه ولا يظلم أو يجور في قضائه. فكأنها تقول لهؤلاء المتصدّين لأُمور القضاء والإفتاء: إنكم إنما تتولون أشرف منصب، فلا تعدوا حدود الله تبارك وتعالى ولا تعتدوها. يقول أمير المؤمنين‌عليه السلام لشريح القاضي: «**يا شريح قد جلست مجلساً لا يجلسه إلّا نبيّ أو وصيّ نبيّ، أو شقيّ**»[1].

أي يجب عليك أن تعرف كيف تنطق وكيف تتكلّم وكيف توجّه أفكارك، وعليك أن تكون موضوعياً في أحكامك؛ فلا تتأثّر بالآخرين، ولا تخاف من أحد منهم، بل ضع الله تبارك وتعالى نصب عينيك. وهذا هو الواقع الذي ينبغي أن يكون.

إذن فالخطاب لا ينبغي أن يقصر توجيهه على القضاة فقط، بل لابدّ من توسيع مداه ودائرة شموليّته ليضم كلّ الأشخاص القائمين على أمر إحقاق الحقّ، والبحث عنه لتطبيقه. فهؤلاء هم من ينبغي أن يكون القول بتوجيه الخطاب إليهم دون تخصيصه بمجموعة منهم. ثم إنه ينبغي الانتباه إلى أن على هؤلاء القائمين بأمر إحقاق الحقّ ألّا يتأثّروا بالأوضاع الاجتماعيّة أو السياسيّة أو الاعتبارات الأُخرى، وألّا يخشوا الناس في ممارستهم عملية البحث عن الحقّ وإحقاقه وتطبيقه، بل ليكن الله تبارك وتعالى نصب أعينهم.

وهذه هي مهمة الدين.. مهمة الدين الذي ينبغي ألا تُتجاوز حدوده الشرعيّة، وألّا تعطّل صياغة الضمير التي يأمر به الدين نفسه.

الله تبارك وتعالى والضمير الحي

وهنا تحضرني حادثة ربما أكون قد أكثرت من الاستشهاد بها؛ لأنها تهزني

---

(١) الكافي ٧: ٤٠٦ / ٢، الفقيه ٣: ٥ / ٣٢٢٣.

كلما تذكرتها، وهي أن جماعة قد خرجوا أيّام الربيع ليتنزّهوا، فجاعوا وأرادوا أن يأكلوا، فجاؤوا يبحثون عن طعام حتى وجدوا راعياً معه مجموعة من الأغنام والماعز، فقالوا له: أتبيعنا هذا الجدي؟ قال: إن هذه الحيوانات ليست لي، وإنما هي لسيدي، وأنا مملوك له. فألحّوا عليه، فقال: لا أستطيع؛ فهي ليست لي. قالوا: أين العلل؟ يعني يمكنك الاعتلال لسيّدك بأي علّة من العلل.

أي أن بوسعك أن تقول لمستأجرك: إن هذه قد أكلها الذئب مثلاً. فقال لهم: إذن أين الله؟

فتأمّل هذه الكلمة التي صدرت من أعماق هذا الإنسان الذي يتّقي الله جلّ وعلا، وهي كلمة تهزّ الإنسان كذلك من الأعماق، فهو يقول لهم صحيح أنني أستطيع أن أقول: ما ذكرتموه لي، لكن أين الله جلّ وعلا من كل ذلك؟ وكأن هذا الأعرابي الراعي ينظر إلى قوله تبارك وتعالى: **﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾**[1].

وهذه الظاهرة هي التي يسعى الشارع المقدّس إلى أن يقتلعها من نفوس الناس، وإلى توطيدها على مراقبة الله تبارك وتعالى؛ كي تُصبح نفوسا إسلامية عملاقة لا تخضع للمؤثّرات الخارجية؛ لأن المؤثرات الخارجية ينبغي ألّا تكون حائلاً بينها وبين الله جل وعلا، بل إن الله عزّ وجلّ ينبغي أن يكون في موضع منها هو الذي يحول بينها وبين هذه المؤثّرات جميعها؛ ولذا فإنه تبارك وتعالى يفتتح هذا المقطع الشريف من آية المقام بقوله عزّ وجلّ: **﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِي﴾**.

(١) ق: ١٦، أو قوله عزّ من قائل: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ الحديد: ٤.

المبحث الثاني: العقيدة بين التضحية وعرض الدنيا

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾، وشراء الآيات أو بيعها مصطلح ينبغي الالتفات إليه والوقوف عنده؛ لأن كلمة ﴿تَشْتَرُوا﴾ مشتقّة من الاشتراء، وهو من الألفاظ المشتركة التي تُطلق على البيع وعلى الشراء؛ فالبيع يسمى شراء، والشراء يسمى بيعاً. وبناء على هذا التقريب فإن معنى هذا المقطع من الآية الكريمة حينئذٍ: لا تبيعوا آياتي بثمن قليل.

والمراد بهذه الكناية مخاطبة المتصدّين للقيام على شؤون الناس وإحقاق الحق والعدل بأن عليهم ألّا يحرّفوا حكماً شرعيا أو قضائياً، أو فتوى من الفتاوى، أو نظرية من النظريات، أو مادّة من مواد القانون أو الدستور من أجل أن يأخذوا عليها حفنة من المال كأجر؛ لأن هذا بحدّ ذاته رشوة، والراشي والمرتشي في النار[1].

حقيقة الرشوة

وموضوع الرشوة في الواقع يتنوّع بلحاظ متعلّقه؛ ولذا فهو لا يعني بالضرورة رشوة مادية، فقد يكون رشوة معنوية، والرشوة بكل أقسامها هي أخذ الثمن إزاء شيء يفعله القاضي أو المفتي أو المقنّن. فالقرآن الكريم يخاطب هؤلاء جميعاً ويقول لهم: إن هذا الثمن مهما كان ومهما بلغ، فهو ثمن قليل؛ لأنه متاع الدنيا، ومتاع الدنيا كلّه قليل، ولا خطر له. وهذا الأمر واقع؛ لأننا حينما ننظر بعين البصيرة والاعتبار إلى الدنيا، فإننا نجد أن أي شيء فيها لا يمكن أن يدوم

---

(١) في القضاء طبعاً الذي يشمل الفتيا في بعض حالاته، كأن يُرشى فقيه أو مفتٍ من أجل إصدار فتوى تناسب الحاكم أو أهل الحلّ والعقد في البلد، أو تغيير مورد نزول آية أو حديث نزولاً عند رغبة أُولئك. وهو مورد حديث المقام.

لصاحبه، أو أن يعيش معه لفترة طويلة، فمهما يكن عند الإنسان من أموال أو خزائن أو متاع يعيش معه فإنه لا يمكن أن يعدو هذه السنوات القليلة التي يعيشها على هذه الأرض ثم يتركه ويذهب إلى لقاء ربّه.

الدنيا في القرآن الكريم وفي الشعر العربي

وهنا يجب أن نلتفت إلى الصورة التي يرسمها لنا القرآن الكريم وإلى روعتها، والهدف الذي يكمن وراءها.. إنها صورة حيّة تشي بحقيقة هذه الدنيا وما تمنحه لأصحابها.. صورة تعبّر خير تعبير عن واقعها الذي لا يخفى على عاقل مؤمن عارف بأحوالها وعارف بربه.

وهذا ما يعبر عنه القرآن الكريم في آية أُخرى حيث يقول: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى﴾[1]، وفي مقابل روعة هذا التعبير القرآني الذي ينصّ على ولوج الإنسان الحياة وخروجه منها فريداً وحيداً[2]، نجد أننا نعطي هذا الإنسان في الدنيا صفة ثنائية فنقول: فلان الغني، وفلان العالم، وفلان السلطان، إلى آخره ممّا يحقّق معنى الثنائيّة عنده. في حين أنه عند الله تبارك وتعالى غير ذلك، فبعد أن يأتي الإنسان إلى قبره ومستقرّه الأخير فإن هذه الثنائية تتلاشى وتضمحلّ وتختفي وتتحوّل إلى حالة أُحادية حيث يتجرّد عن العوارض، كما يعبّر عنها النص القرآني الشريف الآنف.

---

(١) الأنعام: ٩٤.

(٢) قال أبو الفرج الساوي:

هي الدنيا تقول بملء فيها ... حذارِ حذارِ من بطشي وفتكي

فلا يغرركم حسن ابتسامي ... فقولي مضحكٌ والفعل مبكي

يتيمة الدهر: ٤٥٨.

وبهذا فإن الإنسان يدخل على ربه تبارك وتعالى فرداً عاريا لا يملك شيئاً، ومتجرّداً من كل شيء إلّا من عمله، فيخرج من الدنيا بجلده الذي دخلها فيه. فكما دخلها عارياً وحيداً لا يملك من حطامها شيئاً، فكذلك يخرج منها عارياً وحيداً لا يملك منها شيئاً.

إذن فقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى﴾ يبين لنا أن الإنسان بعد أن ينتقل من دار الفناء إلى دار البقاء، أو من دار العمل إلى دار الحساب، فإنه سوف تنزع عنه صفة الملكيّة والعلميّة، بل تنزع عنه صفة الثنائية مطلقاً؛ فلا علم، ولا غنى، ولا ثروة، ولا سلطان أو جاه، ولا ما إلى ذلك من أُمور تحدّدها الطبيعة الثناية التي يسبغها الإنسان على نفسه في الحياة الدنيا، أو طبيعة مركزه ومنصبه. فكل هذه الألقاب، وكلّ هذه الصفات تبقى على صعيد الأرض، وينتقل الإنسان إلى ربه وحيداً فريداً، ليس له ما يواجه به أهوال العالم الآخر إلّا ذلك العمل الذي يمكن له أن ينجيه منه:

فذو الزَّهوِ خلّى الزهوَ عنه وقد مضى — وظلّت على الغبرا سِيادةُ أسيادِ
أغُقباكِ يا دُنيا قميصٌ وطِمرَةٌ — بحفرةِ أرضٍ من خَرابات زُهَّادِ
فكم كومةٍ للتُّربِ من بعدِ كُومَةٍ — مُعلَّمَة هذا الزعيمُ وذا الهادي

فتأمّل هذه الصورة التي تشرح واقع الإنسان شرحاً وافياً، وتعكسه بكل أبعاده الحقيقيّة، وبما لا مزيد عليه: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى﴾. فالإنسان بطبيعته حينما يفتقد شيئاً عزيزاً عليه، أو إنساناً عزيزاً على قلبه، أو يتركه، فإنه يظلّ يتلفّت نحوه حتى يغيب عن بصره[1]. وهكذا فمتاع الدنيا كله قليل، والدنيا كلها قليلة لا تعدو

---

(١) قال الشريف الرضي رحمه الله:

وتلفّتت عيني فمذ خفيت — عني الطلول تلفّت القلبُ

بضع سنوات يعيشها الإنسان ويذهب إلى لقاء ربه.

وحينئذٍ سوف لن تكون حصته من هذه الحياة ومن متاعها الفاني إلّا بضعة أرغفة معدودة من الخبز لاتكاد تسدُّ له رمقه، فإذا ما استهلكها وتم نصيبه منها انقطع حبله، وانتهى أجله، ففارق هذه الدنيا على الحال التي ولجها فيه، ودخل إليها عليه.

إن الإنسان بهذا إنما يترك الحياة ليفسح المجال والمكان لغيره كي يلجها ويشغله بعد غيابه عنها، وهذه هي متلازمة الحياة التي تنطوي على لابدّية إخلاف أي إنسان. وبهذا فإن على الإنسان أن يفكّر مرّات عديدة قبل أن يفارقها؛ كي يحصل ذلك الفراق وليس وراءه وزر يخلّفه فيها يحاسب عليه يوم القيامة، كما أنه ليس عنده تبعات فيها تؤدّي إلى إطالة وقوفه بين يدى الله تبارك وتعالى. فالمصيبة الأعظم والأدهى هي أن ينتقل الإنسان إلى الدار الآخرة وهو يخلف بعده تبعات كثيرة يلحقه وزرها، والعقاب المترتّب عليها، والمسؤولية الشرعية والقانونية الموضوعة إزاءها؛ فيطول وقوفه وحسابه، وتكبر مدة عذابه في نار جهنم.

إن الإنسان حينما يترك مالاً وراءه، وكان حراماً بعضه أو كلّه، أو إن كان قد تصرّف في حياته تصرّفات هو مطالب فيها شرعاً، فإنه بهذا إنما يوقع نفسه في مطبٍّ من مطبّات جهنم. وعليه فإنه ينبغي على هذا الإنسان الفاني قبل أن يترك الحياة أن يخلي ذمّته ويفرغها من كلّ حقّ متعلّق فيها بغيره؛ سواء كان بربه، أو بأبناء جنسه. فإذا ما ترك مالاً حراماً، أو كان قد أكل حقّاً من حقوق الناس،

الكشكول (البهائي) ١: ٤، سراج الملوك ١: ١٩، البديع في نقد الشعر ١: ٢٠.

فإنه يكون بهذه الأُمور أجمعها ـ بل بتحقّق واحد منها ـ في واقع الأمر عرضة للمساءلة يوم القيامة. وهذا الأمر لا يُنبئ إلّا عن شيء واحد هو أن متاع الدنيا قليل ولا قيمة ولا أثر ولا خطر.

إذن فهذه الآية الكريمة المارّة تخاطب الناس، وتقول لهم: إن الحياة كلها ثمنها قليل جداً نسبة إلى المكان الذي سوف تفدون عليه وتذهبون إليه، وقياساً به، فإن لم تلتفتوا إلى هذه الحقيقة فإنكم سوف توبقون كل أعمالكم. وعليه فإن عليكم أن توثّقوا عقيدتكم ودينكم وأخلاقكم؛ كي تذهبوا إلى مكان هو موضع الحساب والعقاب والثواب، وأنتم قد أخليتم ذممكم من كلّ تبعة وحقّ لله أو للناس عليكم، وأديتم ما فرض الله عزّ وجلّ عليكم. كما ينبغي عليكم ألّا توقعوا أنفسكم في معضلة تطالكم يوم القيامة من أجل هذا المتاع القليل الذي لا قيمة له ولا أثر؛ ولذا فإن آية المقام الكريمة قد أكدت على هذا المعنى بقولها: **﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنَاً قَلِيلاً﴾**.

سيرة بعض المسلمين على ضوء الآية الكريمة

إننا نقول ببالغ الأسف: إن في تاريخنا من عمد إلى بعض آيات الله تبارك وتعالى فباعها بثمن بخس وقليل، وهذا ما نجده واضحاً في كتب التفسير عند المسلمين؛ حيث إن هؤلاء المفسرين طالما حاولوا أن يصرفوا بعض الآيات عمّا هي عليه، وعما نزلت فيه، وعما وردت به إلى حقيقة أُخرى من أجل متاع قليل لا يُسمن ولا يغني[1]. فمثل هؤلاء قد حرّفوا آيات الله تبارك وتعالى، وأخذوا بها

---

(١) كما فعل سمرة بن جندب بعد أن بذل له معاوية أربعمئة ألف درهم ليروي أن قوله تعالى: ﴿وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ❊ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾البقرة: ٢٠٤ ـ ٢٠٥، قد نزل في أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، وأن قوله تعالى: ﴿وَمِنْ

متاعاً قليلاً بعد أن مدّوا أيديهم إلى أقدس كتاب في الوجود، فحرفوه. وسوف نعرض إن شاء الله فيما سيأتي من محاضرات بعض النماذج حول هذا المعنى الذي أشرنا إليه.

المبحث الثالث: المراد من الحكم بما أنزل الله

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: **﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾**، وفي آية كريمة أُخرى: **﴿فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾**[1]، وفي ثالثة: **﴿فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾**[2]. ولابدّ هنا من لفت النظر إلى نقطة هامّة هي أن الحكم الوارد في هذا المقطع الشريف يطلق ويراد به أحد معنيين أو كلاهما، وهما:

الأول: الإدارة

ويراد به إدارة شؤون الناس، وتطبيق قوانين الحياة بينهم على ضوء ما رسم الله عزّ وجلّ لنا. فكلّ ما يريده الله في هذا المجال، أو يختصّ بإدارة الموارد العامّة للناس والخلق يكون مراداً هنا وفق هذا المعنى.

الثاني: الجنبة النظرية

أي أن يعمل الفقيه أو المفسّر على تفسير الآية الكريمة، أو فهم الحديث الشريف، واستنباط الحكم الشرعي منهما.

وبهذا فإن الحكم هنا تارة يأخذ جنبة تنظيرية، وتارة يأخذ جنبة تطبيقية أو عملية، وكلا المعنيين مراد، ويتطلبان التقيّد بالنص. وهذا يعني أن على المسلم

النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ البقرة: ٢٠٧، نزل في عبد الرحمن بن ملجم؛ إذ باع نفسه لله عندما ضرب علي بن أبي طالب ﷺ. شرح نهج البلاغة ٤: ٧٣.

(١) المائدة: ٤٥.

(٢) المائدة: ٤٧.

أو عملية، وكلا المعنيين مراد، ويتطلبان التقيّد بالنص. وهذا يعني أن على المسلم أن يحكم بالنصّ الذي أنزله الله تبارك وتعالى من السماء على أنبيائه عليهم السلام. فكلّ مسلم بحكم كونه يدين بهذا الدين ويتبع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يجب عليه أن يحكم بما أنزل الله، وملزم بذلك.

نظريتان حول موارد تطبيق الحكم

إن الآية الكريمة إذ تقول: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللهُ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْكَافِرُونَ﴾ فإنها ترمي إلى ضرورة تطبيق هذا الحكم في الأرض. وهناك نظريتان في تاريخ التشريع الإسلامي حول كيفية تطبيق الأحكام الشرعيّة واستنباطها، هما:

الأولى: ضرورة تطبيق الحكم الواقعي

ويذهب أصحاب هذه النظرية إلى أن الفقيه عندما يريد أن يصدر فتوى من الفتاوى في واقعة من الوقائع الشرعية، أو حكماً شرعياً مناسبا لها فإن عليه أن يبحث عن الحكم الواقعي لها. وهؤلاء يتذرّعون بأنه ليس من واقعة إلاّ ولله فيها حكم، وليس هناك من مسألة المسائل التي يمكن أن يبتلي بها المسلم إلاّ ولله فيه تشريع سابق.

الثانية: تقليد الحكم الواقعي

وهذا يعني أن الفقيه بما يملك من أدوات فنية عليه أن يستعملها قدر الإمكان في استنباط الحكم الشرعي، وهذه الأدوات الفنية تتمثل بالأُصول التي ينبغي عليه تطبيقها حتى يصل إلى مراد الآية الكريمة، أو الحديث الشريف اللذين هو بصدد البحث عن الحكم عبرهما واستنباطه منهما؛ كي يخرج بحكم شرعي مستنبط استنباطاً صحيحاً مبتنياً على المدارك العلميّة الصحيحة، والأدلّة الإفتائية

يمتلكها وأن يستعملها قدر الإمكان دون أن يترك شيئاً منها تتمثّل بعلم الأُصول أو علم المعاني أو علم البيان أو اللغة ومشتقّاتها، أو معرفة الناسخ والمنسوخ، وأسباب علم التفسير، وما إلى ذلك[1].

---

(١) قال الفاضل التوني: فيما يحتاج إليه المجتهد من العلوم، وهو تسعة: ثلاثة من العلوم الأدبية، وثلاثة من المعقولات، وثلاثة من المنقولات.
ثم ذكر العلوم الأدبية، فقال:
الأول: علم اللغة. والاحتياج إليه ظاهر؛ إذ الكتاب والسنة عربيان، ومعاني مفردات اللغة إنما تبين في علم اللغة.
الثاني: علم الصرف. والاحتياج إليه لأن تغير المعاني بتصريف المصدر المبين معناه في علم اللغة إلى الماضي والمضارع والأمر والنهي ونحوها إنما يعلم في الصرف.
الثالث: علم النحو. والاحتياج إليه أظهر؛ لأن معاني المركبات من الكلام إنما يعلم به.
ثم ذكر المعقولات، فقال:
الأول: علم الأُصول. والاحتياج إليه لأن المطالب الأُصولية مما يتوقّف عليها استنباط الأحكام.
الثاني: علم الكلام. ووجه الاحتياج إليه أن العلم بالأحكام يتوقّف على أن الله تعالى لا يخاطب بما لا يفهم معناه، ولا بما يريد خلاف ظاهره من غير بيان.
الثالث: علم المنطق. والاحتياج إليه إنما هو لتصحيح المسائل الخلافيّة وغيرها من العلوم المذكورة؛ إذ لا يكفي التقليد سيما في الخلافيات مع إمكان الترجيح، وكذا لرد الفروع الغريبة إلى أُصولها؛ لأنه محتاج إلى إقامة الدليل، وتصحيح الدليل لا يتم بغير المنطق.
ثم ذكر المنقولات، فقال:
الأول: العلم بتفسير الآيات المتعلّقة بالأحكام وبمواقعها من القرآن أو من الكتب الاستدلالية، بحيث يتمكن من الرجوع إليها عند الحاجة.
الثاني: العلم بالأحاديث المتعلّقة بالأحكام بأن يكون عنده من الأُصول المصحّحة ما يجمعها، ويعرف موقع كلّ باب بحيث يتمكّن من الرجوع إليها، ويتصوّر في حقّ المتجزئ الغَناء عنها ببعض الكتب الاستدلالية كما لا يخفى.
الثالث: العلم بأحوال الرواة في الجرح والتعديل ولو بالمراجعة إلى كتب الرجال. ووجه الاحتياج إليه أن الاجتهاد بغير التمسّك بالأحاديث غير متصوّر. وليس كلّ حديث مما يجوز العمل به؛ إذ كثير من الرواة نقلوا في حقّهم أنهم من الكذّابين المشهورين؛ فلا شك في وجود

هذا إذا كان الفقيه ذا خلفية علميّة، وقابلية على استنباط الحكم الشرعي من مداركه المقرّرة، أما أن يحفظ كلمتين من كتاب الله تبارك وتعالى، وبضعة أحاديث من أقوال النبي الأكرمﷺ، ثم يدّعي الفقاهة والعلم، فهذا من لا يمكن قبول قوله، ولا يمكن اتّباعه، ولا الاعتراف باجتهاده وبعلميته، فهو مثله مثل من يقوله: إن الصلاة لا تجوز على الحصير؛ لأن سائلاً سأل عائشة: هل صلّى رسول اللهﷺ على الحصير، والله يقول: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً﴾[١]؟ فقالت له: لم يكنﷺ يصلّي على الحصير[٢].

نظريتان حول الاجتهاد

وهناك فتاوى كثيرة من هذا النوع[٣] خصوصاً في هذه الأيام. وإننا إذ نتأمّل هذا النمط من الفقهاء فإننا نجد أنهم ليسوا من العلم في شيء، وأنهم بمثابة من يشتري بآيات الله ثمناً قليلاً. فالذي ينبغي على الفقيه هو أنه إن توصّل إلى الحكم الشرعي من مداركه المقرّرة بالطرق الشرعية السليمة التي أمر بها الشارع فبها ونعمت، وإلّا فإن الواجب عليه حينئذٍ هو أن يبقى على الحكم الظاهري الذي انتهى إليه نتيجة إعماله الأدوات الفنية في هذا المجال. وبهذا يقال: إن فلاناً اجتهد، لكنه لم يصل إلى الحكم الواقعي؛ وبهذا فإنه يحصل على أجر واحد، فإن أصاب الواقع كان له أجران.

رواية الكذب، وربما لا يمكن التمييز بغير الاطّلاع على حال الراوي.

انظر هذا المبحث كاملاً في الوافية: ٢٥٠ ـ ٢٦١.

(١) الإسراء: ٨.

(٢) المبسوط (السرخسي) ١: ٢٠٦، فتح الباري ١: ٤١٣.

(٣) وقد ذكر المحاضرﷺ الغريب منها في باب العلاقات الزوجية ضمن كتابه من فقه الجنس: ٣٧ ـ ٤٠.

الأولى: نظرية التصويب

وهي نظرية يتبنّاها الأحناف، وتنصّ على أنه ليس هناك من حكم واقعي لله تبارك وتعالى في الأصل، بل إن الحكم الواقعي له تبارك وتعالى هو ما يتوصّل إليه الفقهاء أو القضاة؛ وهذا يعني أنه إذا قضى القاضي بحكم، أو أفتى العالم الفقيه بمسألة فإن الله تبارك وتعالى يجعلها حينئذٍ حكماً واقعياً عنده دون أن تكون مكتوبة عنده من قبل.

وبناء على هذا فإن كلّ أحكام الله تبارك وتعالى هي ما انتهى إليه علم القاضي أو الفقيه من الاستنباط أو القضاء. وإذا كان الأمر كذلك فإن ما توصّل إليه يحيى بن أكثم من فتوى حول قوله تعالى: ﴿أَوْيُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً﴾[١] حيث إنه يقول: إن معنى هذا تزويج الذكر من الذكر والأُنثى من الأُنثى[٢] بناء على نظرية التصويب يعني أن هذا هو حكم الله تبارك وتعالى الواقعي الذي يجب أن نتعبّد به، والذي يجب ألّا نعدوه أو لا نتجاوزه.

وهكذا فإننا نجد الشيء الكثير الكثير من هذه الأنماط من الفتاوى التي تعدّ في واقع الأمر تطفّلاً على مقام القضاء أو التفسير أو الإفتاء. وهذا اللون من النظريات ـ وما أكثرها! ـ لا يتماشى مع الخطوط العامة للإسلام، وعليه فادعاء أنها حكم الله تبارك وتعالى تجرّؤ واضح وصريح على تشريعه جلّ وعلا؛ لأن الواقع ليس

---

(١) الشورى: ٥٠.

(٢) انظر تفسير القمّي ٢: ٢٧٨ ـ ٢٧٩، تحف العقول ١: ٣٧٩. وفي قول الإمام الهادي عليه السلام له: «ومعاذ الله أن يكون عنى الجليل ما لبست به على نفسك؛ تطلب الرخص لارتكاب المآثم» دليل على قصده ذلك واعتقاده به. وهذا أمر معروف عنه، انظر: ثمار القلوب في المضاف والمنسوب: ٤٨، وقد عقد فيه باباً لهذا الأمر، نثر الدرر ١: ٤٢٦، التذكرة الحمدونيّة ٢: ٣٦٩، حياة الحيوان الكبرى ١: ٥٣٠، معجم الأُدباء ١: ٥٨، الوافي بالوفيات ٦: ١٠٦.

كذلك مطلقاً.

الثانية: نظريّة الإثابة

ولهذا فإننا نحكم ببطلان هذه النظرية، ونقرّر قبالتها أن الفقيه حينما يبحث عن مسألة شرعية فإن اهتدى إلى حكمها الواقعي ـ أي الحكم الموجود عند الله تبارك وتعالى ـ فبها ونعمت، وبهذا فإنه قد أصاب ويكون له أجران، وإن لم يصب الحكم الواقعي ولم يهتدِ إليه فإنه حينئذٍ يعتبر قد حكم بالحكم الظاهري، وهو حكم يثاب عليه الفقيه أجراً واحداً نتيجة ما بذل إزاءه من جهد في تحصيل الحكم الواقعي.

فالمجتهد أو الفقيه ـ وفق هذه النظرية ـ يكون قد استنفد وسعه واستفرغ طاقته، ولم يألُ جهداً في تحرّي الحقّ والصواب، لكنه لم يوفق إليه، بل وفّق إلى الوصول إلى خلافه وهو الحكم الظاهري. وبهذا فإنه يعوض عن الجهد الذي بذله بأجر واحد وإن لم يتوصّل إلى الحكم الواقعي. وهذا ما يقرّره القرآن الكريم بقوله: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْكَافِرُونَ﴾.

غير أن البعض يتعمد الانحراف عن حكم الله تبارك وتعالى، والمراد بالانحراف هنا: ما أشار إليه هذا المقطع الشريف من آية المقام، وهو الأمر أو الحكم بحكم ينافي حكم الله تبارك وتعالى، وليس عدم الوصول إلى الحكم الواقعي بعد بذل الجهد واستفراغ الوسع؛ فهذا لا تشمله الآية الكريمة. فالكفر[1] الذي أشار إليه هذا المقطع الشريف من آية المقام المنوط بعدم الحكم بما أنزل الله تبارك وتعالى يتمثّل بالقضاء على خلاف ما أمر الله جل وعلا؛ أو بإفتاء الفقيه بخلاف ما يتوصّل إليه بالدليل، أو بخلاف ما يوصل إليه الدليل، بل إنه يحكم أو يفتي بناء على هوىً أو رغبة أو حالة اجتماعية. وبهذا فإن هذا وأمثاله يُصبحون

---

(١) أو الظلم والفسوق في الآيتين الكريمتين الأُخريين.

مصداقا لهذا المقطع الشريف من آية المقام.

والمفسرون في معنى الكفر الوارد في الآية الكريمة على قسمين؛ فبعضهم يرى أنه كفر مخرج عن الملّة، وبعض آخر يرى أنه كفر غير مخرج عن الدين والملة، وأنه بمعنى الجحود.

حول اجتهاد النبي ﷺ

وهنا نقطة سأُشير إليها بشكل سريع قبل أن نرجع إلى الآية الكريمة، وهذه النقطة هي قضية اجتهاد النبي ﷺ، فالمسلمون إزاء هذا الأمر على طائفتين:

الأولى: ترى أن النبي ﷺ يمكن له أن يجتهد، وذلك في بعض الموارد الخاصة.

الثانية: ترى أن النبي ﷺ ليس له أن يجتهد في شيء، وأن القرآن الكريم قد غطى موارد الحياة واحتياجات الإنسان كافّة؛ وعليه فليس هناك من مورد للنبي ﷺ ليس فيه حكم حتى يمكن أن يجتهد فيه.

وتحقيق المسألة في هذا الباب أن يقال: إن جواز ذلك وعدمه على الرسول ﷺ يعتمد على المراد بالحكم هنا كما أشرنا إليه في أول هذه المحاضرة، فقد قلنا هناك: إن المراد بالحكم تارة هو استخراج الحكم عبر الدليل من النصوص، وتارة يكون المراد بالحكم هو إدارة شؤون المجتمع:

الأول: أن المراد استنباط الحكم

فإن كان الأول، فإنه حينئذٍ يقال: إن النبي الأكرم ﷺ لا يجوز عليه الاجتهاد في هذا المجال؛ لأنه إنما يحكم بالآيات دون أن يعطي رأيه في بعض النظريات، فهو يتقيّد بصلب النص ومحتواه.

فالنبي الأكرم ﷺ ـ كما عليه علماء الشيعة كافّة، وقسم من علماء المذاهب الأربعة ـ في مثل هذه الحال لا يجوز عليه ﷺ أن يكون مجتهداً، وإنما هو ﷺ

يتبع النصوص المنزلة إليه من السماء: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾[١].

وهذا طبعاً في حالات معينة، ثم إن هناك حالات أُخرى لا علاقة لها بهذا الموضوع؛ فهي لا تخضع لهذا الضابط، كحالاته الخاصة التي تتمثّل بأكله صلى الله عليه وآله وسلم وشربه ولبسه، وخروجه ودخوله، وما إلى ذلك من حركاته المختصّة به، فهو صلى الله عليه وآله وسلم في كل ذلك لا يخضع لهذا الضابط.

إذن فالنبي صلى الله عليه وآله وسلم لا يجوز له أن يجتهد، بل أن يحكم بالنص إن كان المراد بالحكم هنا هو الوصول إلى الحكم الشرعي عن طريق الدليل الذي يتبعه الفقهاء في عملية استنباط الحكم الشرعي: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾[٢]؛ وبهذا فإنه ليس له إلّا أن يحكم بالنص، في حين أن بعض الفقهاء كما أسلفنا يرون أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا لم يجد نصاً القرآن الكريم ولا في الأُصول العامة فإن له أن يجتهد. أما نحن فنرد هنا في هذا المجال بالقول: ليس هناك مسألة ليس فيها حكم في القرآن الكريم أو في السنة النبوية الشريفة لأن القرآن الكريم يقول: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾[٣]، وعليه فإنه من المستحيل أن يترك الله تبارك وتعالى بعض الأُمور غير مغطّاة بالأحكام، وعليه فالواجب يقتضي أن تغطى جميع متطلبات الحياة بالأحكام؛ حتى لا يبقى مجال لأن يدّعى أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم يجتهد فيه.

وهذا يعني أنه ليس هنالك من شيء لم يضع الله تبارك وتعالى إزاءه حكماً مختصّاً به.

---

(١) النجم: ٣ ـ ٤. (٢) الحاقة: ٤٤ ـ ٤٦.
(٣) المائدة: ٣.

الثاني: أن المراد إدارة شؤون المجتمع

وإن كان الثاني ـ أي أن هناك من يطبّق النصوص، لكن الخلل إنما يقع في التطبيق أحياناً ـ ففي مثل هذه الأحوال يمكن لأحد أن يقول: إن النبي الأكرمﷺ يجتهد فيها.

ولتقريب المعنى أذكر لك هذه الرواية، يروى أن الإمام أمير المؤمنينعليه السلام كان إذا وصلت إليه الغنائم أو الأموال من الخراج من البلاد الإسلامية التابعة لسلطانه فإنه يوزّعها مباشرة على مستحقّيها دون أن يبقيها إلى الصباح، فكان يأمر بأن ينادى كي يجتمع المسلمون ويأخذوا حقوقهم، ثم يوزعها عليهم، ولا يبقي في بيت المال شيئاً؛ وكانعليه السلام يعلل ذلك بالقول بأنه لا يضمن بقاءه حتى صباح اليوم التالي كي يتحمّل مسؤولية هذه الحقوق المتبقّية في بيت المال فيما لو تعرضت للضياع أو التلف[1].

نظرية العقوبة عند أمير المؤمنينعليه السلام

وحدث مرة أن جيء إليهعليه السلام بأشياء غير قابلة للتوزيع، ولم يتمكن من بيعها لتوزيع ثمنها، وكان من جملتها درع، فبقيت هذه الأشياء في بيت المال، وحينما أصبح الصباح لم يجدوا هذا الدرع، أي أنه قد سُرق.

وهنا أُريد أن الفت النظر إلى أن الإمام أمير المؤمنينعليه السلام كان يحرص على أن يجعل التقيّد بالقيم والأخلاق أمراً داخلياً نابعاً من نفس الإنسان ومن ضميره،

(١) وقد كانعليه السلام يكنس بيت المال كلّ جمعة ويصلّي فيه يتّخذه مسجداً رجاء أن يشهد له يوم القيامة أنه لم يحبس فيه من المال عن المسلمين شيئاً. مناقب أمير المؤمنين (محمد بن سليمان الكوفي) ٢: ٣٢، كنز العمال ١٣: ١٨٢ / ٣٦٥٤٦، تاريخ مدينة دمشق ٤٢: ٤٧٨، ينابيع المودّة ١: ٤٥٠، ٢: ٤١١.

وليس أمراً يفرضه عليه أحد من الخارج. وبتعبير آخر: إنه‌ عليه السلام أراد أن يربّي المجتمع تربية صالحة مستمدة من السماء، وقائمة على أساس من الدين، يتوفّر كلّ فرد فيه على شرطي داخله دون أن ينتظر الخوف من شرطي الدولة، فكل مسلم نفسُه شرطيُّه ورقيبه عليه؛ وبهذا فإنه يمتنع عن ارتكاب المحرمات؛ ويمتنع عن الإقدام على كل ما فيه نهي من الشارع المقدس دون أن يكون هنالك عليه رقيب من الخارج يحصي عليه حركاته وسكناته.

وهذه التربية العالية التي يرمي أمير المؤمنين‌ عليه السلام إلى ايجادها في المجتمع المسلم وفي دولته ترمي إلى ألّا يمدّ الإنسان المسلم المتأثّر بها يده إلى الحرام حتى وإن كان المأخوذ شيئاً تافها لا قيمة له؛ ولذا فإننا نرى أن السجون التي أسّسها أمير المؤمنين‌ عليه السلام كانت من القصب[1]، فيأتون بالسجين ليسجن نفسه فيها بمحض إرادته وإلّا فإن السجين يستطيع بكلّ سهولة أن ينقب هذا الكوخ القصبي ويهرب منه. لكنه‌ عليه السلام أراد من الإنسان أن يتقيّد بهذا الأمر بنفسه دون أن يكون عليه رقيب أو شرطي.. أراد له أن يوقظ ضميره بنفسه ليجعله رقيباً عليه دون أن يكون هناك رقيب آخر يقف على رأسه. وبهذا فإنه‌ عليه السلام أراد له أن تنبع هذه القيم الكريمة من نفسه هو وليس من شرطي يقف إزاءه ليراقبه؛ وهو الأمر الذي سوف يؤدّي به إلى أن يتقيّد بالآداب والأخلاق أينما كان وأينما حلّ؛ نتيجة هذه الرقابة الداخلية والضمير والنفس اللوامة التي تلومه على كل فعل خطأ يفعله.

وهذا كان من أول مناهج أمير المؤمنين‌ عليه السلام، وبناء على هذا فإن بيت المال كان

---

(١) الغارات ٢: ٧٢٧، بحار الأنوار ٢٤: ٤٢١، ٦٤: ٣٠٨، معجم ما استعجم ٤: ١٢٩٠ ـ نافع.

عبارة عن دار مشيدة ببناء عادي، وهكذا استطاع أحد اللصوص أن ينقبه ويأخذ ما فيه، ومن جملته هذه الدرع. وعلى عادة الإمام عليه السلام فإنه حينما يصبح الصباح كما يقول المؤرخون يخرج ليتفقد الناس والأسواق كأنه بدوي في شملة قد شمره إلى أنصاف ساقيه، وبيده عصاً وينادي: «**أيها الناس، أوفوا المكاييل والمقاييس، ولا تبخسوا الناس أشياءهم**».

وحينما راح يراقب الأوضاع العامة صبيحة ذلك اليوم الذي سرق بيت المال في ليلته، التفت فوجد هذا الدرع عند شخص، فأمسك به وسأله عن كيفية حصوله عليه، فادّعى الرجل بأنه قد اشتراه، فأخبره الإمام عليه السلام بأن هذه الدرع مسروقة من بيت المال، فقال الرجل: إنه بيدي، وأنا أملكه. فطالبه الإمام عليه السلام بالاحتكام إلى قاضي المسلمين. وفعلاً دخلا معاً على القاضي وكان شريحا أثناء تولّية الإمام عليه السلام له القضاء، وحينما دخلا عليه عمد شريح إلى تلقيب الإمام عليه السلام بإمرة المؤمنين، وطلب منه أن يجلس، فاستاء الإمام عليه السلام كثيراً وتألّم، وبعد أن انتهت القضية والمرافعة حكم شريح بالدرع للرجل، فالتفت إلى أمير المؤمنين عليه السلام وسأله قائلاً: لعلك استأت لهذا الحكم؟ فأجابه الإمام عليه السلام بأنه لم يستأ لهذا السبب بل لسببين غيره هما:

الأول: أنه قد كنّاه بوجود خصمه ولقّبه مع أنه قد كلم خصمه بخشونة وهذا ليس من آداب القضاء، بل إن آداب القضاء تقضي بأن تكون هناك مساواة باللحظ وباللفظ.

الثاني: أنه قد طلب من الإمام الجلوس، وفي هذا أخذ لشرف المجلس على الخصم، وهذا خلاف العدل. فعلى القاضي أن يوقف الخصمين معاً دون نظر للاعتبارات الأُخرى؛ اجتماعية كانت أو اقتصادية أو سياسية.

وهنا التفت الرجل إلى الإمام عليه السلام وقال له: أنا مسيحي، وهذه الدرع قد أخذتها من رجل سرقها من بيت المال، وإني لأستغرب كيف أن دينكم يأمر بأن يجعل رئيس الدولة مع الخصم العادي في القضاء على حدّ سواء، فلا يميّز بينه وبين عامّة الناس، بل إن رئيس الدولة يغضب لأن القاضي يريد أن يفضّله، أو يريد أن يرفعه عن خصمه، أو أراد أن يعطيه شرف المجلس عليه فيجلسه قبل الخصم. وبهذا فإني أشهد ألّا إله إلّا الله، وأن محمداً رسول الله، وهذه الدرع لكم [1].

وموضع الشاهد هنا أن تطبيق العدل بين الناس يعني إدارة شؤونهم بالعدل والمساواة، والتقيّد بمفاد النصوص، فإن لم يحكم الإنسان بذلك فإنه كافر جاحد بما أنزل الله تبارك وتعالى؛ لأن القرآن الكريم يريد أن تطبّق مواده بين الناس بالتساوي وبالعدل كما رسمها الله تبارك وتعالى؛ وأن تطبّق موادّه وقوانينه بالشكل الذي رسمه الله تبارك وتعالى.

المبحث الرابع: مبررات النهضة الحسينية المباركة

والعدل الذي تكلمنا عنه آنفاً في المبحث السابق هو الأمر الذي حدا بالامام الحسين عليه السلام إلى أن يخرج لتطبيقه بعد أن رآه قد صودر من أذهان الناس، ومن قوانين الدولة ومن دستورها ومن نظمها ومن مستوياتها كافّة؛ نظرية وتطبيقاً. وقد مر بنا أثناء عشرة المحرم السابقة ذكر المحاورة التي جرت بين مسلم بن عقيل عليهما السلام وبين عبيد الله بن زياد حينما سأله عبيد الله بن زياد قائلاً: إيه ابن عقيل، أتيت الناس وهم جمع فشتّتّ بينهم، وفرّقت كلمتهم، وحملت بعضهم على بعض. قال: كلّا، لست لذلك أتيت، ولكن أهل المصر زعموا أن أباك قتل خيارهم، وسفك

(١) لم نعثر عليها بهذا النص، لكن هناك نضير لها كما في الكافي ٧: ٣٨٥ / ٥، الفقيه ٣: ١٠٩ / ٣٤٢٨، تاريخ مدينة دمشق ٢٣: ٢٦، كنز العمّال ٧: ٢٤ / ١٧٧٩٠.

دماءهم، وعمل فيهم أعمال كسرى وقيصر، فأتيناهم؛ لنأمر بالعدل، وندعو إلى الكتاب.

فقال له ابن زياد: وما أنت وذاك يا فاسق؟ لِمَ لمْ تعمل فيهم بذلك إذ أنت بالمدينة تشرب الخمر؟ قال مسلم: أنا أشرب الخمر؟ أما والله، إن الله ليعلم أنك غير صادق، وأنك قد قلت بغير علم، وأني لست كما ذكرت، وأنك أحقّ بشرب الخمر منّي، وأولىٰ بها من يلغ في دماء المسلمين ولغاً، فيقتل النفس التي حرّم الله قتلها، ويسفك الدم الذي حرّم الله على الغصب والعداوة وسوء الظنّ، وهو يلهو ويلعب، كأن لم يصنع شيئاً.

فالتفت إليه ابن زياد وقال له: يا فاسق، إن نفسك منّتك ما حال الله دونه، ولم يرَك الله له أهلاً. فقال مسلم: فمن أهله إذا لم نكن نحن أهله؟ فقال ابن زياد: أمير المؤمنين يزيد. فقال مسلم: الحمد لله على كلّ حال، رضينا بالله حكماً بيننا وبينكم[1].

فمثل ابن زياد هذا هو اسلوبه، وموضع الشاهد هنا هو أن مسلم بن عقيل ﵁ يقول لهذا الطاغية: إن هذه الأفعال التي بدرت منكم هي التي حتمت على الحسين ﵇ الخروج، وكانت الدافع الكافي لأن يتحرك ضدكم، ولذا فإن الإمام الحسين ﵇ حينما نزل إلى المعركة يوم العاشر بسط رداءه أمام الجيش، وألقى خطبته الشهيرة التي قال لهم فيها: «أفهؤلاء تعضدون، وعنّا تتخاذلون؟»[2] مشيراً ﵇ إلى أنه ابن الرسالة وحامل كتاب السماء ونبعها.

والتاريخ يعرف ما الذي فعله هؤلاء بالإمام الحسين ﵇ وبعترته وأصحابه بعد

---

(١) الإرشاد ٢: ١٩٧ - ١٩٩، الملهوف في قتلى الطفوف: ٤٧ ـ ٥٠، بحار الأنوار ٤٤: ٣٥٦.
(٢) الاحتجاج ٢: ٢٤.

هذه الخطبة، وهو الذي يحدّثنا عن تلك الفظائع الغريبة والبعيدة عن روح الإسلام وروح الإنسانية، والتي ارتكبت ضدّ سبط رسول الله ﷺ؛ فقد سفكوا دماءهم، وانتهكوا أعراضهم، وسلبوا أموالهم، وقتلوا حتى الطفل الرضيع، واعتدوا بالضرب حتى على نساء الرسالة. ومع كل هذا فإن ما يحز في النفس ويدميها هو أن البعض من المسلمين لا يزال يرفع هؤلاء الذين انتهكوا حرمة رسول الله ﷺ فوق أكتافهم، وهي ظاهرة موجودة حتى الآن.

إذن فدوافع نهضة الإمام الحسين عليه السلام واضحة تتجلى في أن الحكم يجب أن يأخذ صفة العدالة، ولا يكون كذلك إلّا إذا كان حكماً بما أنزل الله. هذا هو هدف الإمام الحسين عليه السلام الأول والأخير من هذه الحركة المباركة، وهذا هو دافعه لهذه الثورة المباركة ولهذه الحركة العظيمة. وإلّا فهو لم يكن يريد أموالاً ولا مكانة ولا جاهاً ولا سلطاناً، فكل هذه الأُمور لم تكن تعوِزه ولم تكن تنقصه، وهذا ما بيّنه في قوله الذي هزّ به وجدان الكون وضمير الأُمّة حينما خرج متوجها إلى العراق: **«إني لم أخرج أشراً ولا بطراً، ولا ظالماً ولا مفسداً، وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أُمّة جدّي، وأن أسير فيهم بسيرة الحقّ»**[١].

هكذا نصّ عليه السلام في كلمته التي لا تزال مدويّة يمتدّ صداها إلى أعماق التاريخ. لكن من مرق عن الدين لم يكن له من موقف بعد هذه الكلمة وبعد خطبة يوم عاشوراء إلّا أن أوتروا له أقواسهم ورموه بسهام الجاهلية التي لا زالت تسيطر على مفردات حياتهم وعقولهم، ورشقوه رشقة واحدة، فأقبلت إليه كأنها المطر، فرفع عليه السلام رأسه إلى السماء وقال: **«اللهم إن هؤلاء قوم قد استولى عليهم الشيطان فأنساهم ذكرك؛ فتبّاً لهم ولما يريدون»**.

---

(١) بحار الأنوار ٤٤: ٣٢٩.

لقد رأى عليه السلام أنه لا مجال إلّا أن ينزل إلى القتال فنزل كالهزبر وقد وصف الشيخ الكعبي ﷺ ذلك بقوله:

خلط البراعة بالشجا عة فالصليل عن الدليلْ

أي أن الإمام الحسين عليه السلام قد استخدم أولاً البراعة اللفظية قبل أن ينزل إلى القتال، فوضح لهم الأمر فلم ينفع معهم، ولما لم يسمعوا ولم يعوا حدا به الأمر إلى أن اضطر إلى استخدام براعة السيف معهم:

لِسنانِه ولسانِه صدقان من طعن وقيلْ
وأبو المنية سيفه وكذا السحاب أبو السيولْ[1]

وهكذا رجع عليه السلام إلى المنهج الثاني وهو منهج الجهاد في سبيل الله تبارك وتعالى، فنزل إلى ساحة القتال، وانغمر في لهوات الحرب، حتى اعصوصبت عليه السيوف والرماح، فسقط على الأرض على الصورة التي رواها السيد ﷺ حيث يقول:

قد ضمّ قطريه الطعان فجسمه كالتاج في الطعن «التلود» مرصّعُ
تقع السهام على القنا ما لم يكن بين الأسنّة والأسنّة موضعُ

فكانت جراحاته تشخب دماً عبيطاً، وقد التهب فؤاده المقدّس عطشاً، فرمق السماء بطرفه الشريف وقال: «لك العتبىٰ يارب، صبراً علىٰ قضائك، ياغياث المستغيثين، إن كان هذا يرضيك فخذ حتىٰ ترضىٰ»[2]:

تركت الخلق طرّاً في هواكا وأيتمت العيال لكي أراكا
فلو قطّعتني بالحبّ إرباً لما مال الفؤاد إلى سواكا[3]

---

(١) ديوان الشيخ هاشم الكعبي: ٣٣.
(٢) انظر: شجرة طوبى ٢: ٤٠٩، مقتل الإمام الحسين عليه السلام (المقرّم): ٣٥٧، ينابيع المودّة ٣: ٨٣.
(٣) بيتان ينسبان لابنٍ لإبراهيم بن أدهم. تاريخ مدينة دمشق ٦: ٣٠٦، ولم نعثر على من

وهكذا انقطع من الدنيا صوت كان هو الواسطة بين الإمامعليه السلام وبين عياله، وباختفائه أدرك عياله أنهعليه السلام قد سقط صريعاً على أرض المعركة، ولم تتمكن زينبعليها السلام من أن تخرج إليه وقتها لأن الإمام الحسينعليه السلام قد أوصاها قائلاً: «أُخية لا تشمتي بنا الأعداء»، أي لا تخرجي حتى يجنك الليل، وهكذا لم تغادر الخيمة حتى انتصف عليه الليل، يقول بعض المؤرخين: حينما خرجت بعد أن هدأت الأصوات وسكنت النفوس، خرج من وراءها أكثر من عشرين امرأة وصبيّاً وصبية، وقد تعلّقوا بأطراف ثيابها؛ فهذا يقول: عمة أين أبي؟ وهذا يقول: عمة أين أخي؟ وهي تقوم ويقعدها الألم والحزن ما بين جثث الضحايا إلى أن وصلت إلى جسد أخيها أبي عبد الله الحسينعليه السلام:.

مظلومة مقهورة مضروبة ... مسلوبة حتى الخمار وبرقعي

أُأخي ما عوّدتني منك الجفا ... فعلامَ تجفوني وتجفو من معي

أنعِم جواباً يا حسينُ أمَا ترىٰ ... شمرَ الخَنا بالسوط ألهبَ أضلُعي

* * *

منه انصدع يا بين صدعي ... والنار تسعر تحت ضلعي

أخبّي عن الشمات دمعي ... واضم ونّتي حتى على سمعي

واذكرك بنص الليل والعي

* * *

وثواكل بالنوح تسعد مثلها ... أرأيت ذا ثكل يكون سعيدا

حنت فلم ترَ مثلهن نوائحاً ... إذ ليس مثل فقيدهن فقيدا

ينسبهما إلى الإمام الحسينعليه السلام، أو من يقول بأنهعليه السلام قد تمثّل بهما.



﴿٢٢١﴾

وظيفة التبليغ في الشريعة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لِتُنذِرَ قَوْماً مَا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: في فضل قراءة سورة (يّس)

هذه الآية الكريمة هي إحدى آيات سورة (يّس) المباركة، وسورة (يّس) قد ورد في فضلها وفي فضل قراءتها روايات كثيرة، حتى إنه ورد في بعض هذه الروايات أنها إذا قرئت على ميت هوّنت عليه ضغطة القبر ووحشته وما يترتب عليه من لقاء منكر ونكير[2]. كما أن لقارئها أجراً كبيراً وكذلك لسامعها كما هو شأن القرآن الكريم عامة. ولما ورد من روايات في فضل هذه السورة المباركة[3] نجد أن المسلمين كانوا يقرؤونها عند المحتضر إذا أرادوا أن يجددوا العهد به وهو راحل عن هذه الدنيا.

---

(١) يس: ٦.

(٢) الدعوات: ٢١٥، عنه في بحار الأنوار ٧٨: ٢٣٩.

(٣) بحار الأنوار ٧: ٢٩٤ / ١٧، وسائل الشيعة ٦: ٢٤٧ ـ ٢٤٨ / ب ٤٨.

موقف بعض المسلمين من الترحم على الميت

وهنا نقطة ينبغي إثارتها والانتباه إليها وهي أن هناك طائفة كبيرة من المسلمين ممّن يعتقدون بأن الإنسان إذا ما أسلم الروح انقطعت صلته بالعالم الدنيوي، بمعنى أنه قد أصبح حكمه حكم الحجارة، فلا يؤثّر ولا يتأثّر؛ وكل ذلك ليسلبوه تأثير ثواب قراءة القرآن له أو القيام ببعض الأعمال العبادية عنه، وإهداء ثوابها إليه. ومن هذا قراءة القرآن الكريم الذي يستحبّ بشكل كبير أن يقرأ منه على جنازة الإنسان أو على قبره بعد دفنه لما له من أثر إيجابي كما ذكرنا. فهؤلاء يصفون أي عمل يعمله الإنسان من أجل الميت سواء كان قراءة القرآن أو عملاً عبادياً بالعبثية؛ معلّلين ذلك بأن الإنسان بمجرّد أن يموت فإن علقته بهذه الحياة تكون قد انقطعت، وحينئذٍ فإنه سوف لن ينتفع بشيء من هذا الذي يعتقد الإنسان الحي أن فيه ثواباً له أبداً.

وهذا الأمر في الواقع هو تفكير بعيد تماماً عن أجواء الشريعة الإسلامية التي ترى أن الإنسان وإن اختطفه الموت فإنه لا يمكن أن تنقطع صلته بالحياة الدنيا أبداً، بل إن روحه تظلّ ترفرف فوق بيوت الأحياء؛ لأن الموت إنما يتناول الأجسام الترابية الظلمانيّة، ولا يتناول الروح التي هي من المجرّدات، فالمجردات لا يمكن أن تموت أبداً[1]. فالموت هو فراق الروح للجسد وخروجها عنه؛ ولذا فإن الوقوف على جنازة المتوفّى أو على قبره، وقراءة القرآن الكريم له، وتجديد العهد به إنما يقصد به التوجّه بكلّ ذلك العمل العبادي أو الثواب إلى الروح التي هي مناط التعذيب في النار أو التنعيم في الجنة.

---

(١) كما أشرنا إلى ذلك في أحد الهوامش السابقة.

وهذا ليس بدعاً من الشريعة؛ لأن الروايات الواردة في هذا المجال في باب تأكيده والحثّ عليه كثيرة جدّاً، وهو أمر ندبت إليه الشريعة الإسلامية المقدسة لأنه أساساً يلتقي مع شفافية هذه الشريعة وأجوائها وطبيعتها. إن التفكير الذي يرى أن الإنسان بمجرد أن يموت ويلقى في حفرته ثم بعد ذلك يهال التراب عليه يصبح كالحجارة لهو تفكير غير سليم وبعيد عن أجواء الشريعة الإسلامية ومتبنّيات التربية فيها.. المتبنّيات التي تحاول أن تربي الإنسان المسلم عليها. إن هناك آيات في القرآن الكريم تنصّ على أن الميت يحسّ بما يدور حوله، وقد وقف النبي ﷺ على قتلى بدر وقال لهم: «**يا أبا جهل بن هشام، يا عتبة بن ربيعة، يا شيبة بن ربيعة، يا أُميّة بن خلف، هل وجدتم ما وعدكم ربّكم حقّاً؛ فإني وجدت ما وعدني ربّي حقّاً؟**». فقال من حوله له: يا رسول الله، تنادي قوماً قد جيفوا! فقال ﷺ: «**والذي نفسي بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوا**»[1].

إذن فهذه الآية الكريمة تشير إلى أن هذه السورة المباركة كما ينص عليه المفسرون وغيرهم[2] فيها بركة عظيمة لقارئها ولسامعها ولمن تقرأ لأجله. ومن الآثار الإيجابية المترتّبة على قراءتها على الميت وتجديد العهد به ما ورد في خصوص الليلة التالية لانتقال الإنسان إلى ربّه والتي ينصون على تسميتها بـ«ليلة الوحشة»؛ ذلك أن الميت في مثل هذه الليلة ينتقل من عالم الدنيا إلى عالم آخر يفارق فيه أحبّاءه وأهله.. ينتقل من أُفق إلى أُفق، ومن حياة إلى حياة؛ ولذا فإنه

---

(١) مسند أحمد ٣: ١٠٤، ١٨٢، ٢٢٠، ٢٦٣، ٢٨٧، ٤: ٢٩، ٦: ٢٧٦، صحيح مسلم ٨: ١٦٣ ـ ١٦٤، السنن الكبرى (النسائي) ٤: ١١٠ .

(٢) انظر: مجمع البيان ٨: ٢٥٤، مجمع الزوائد ٧: ٩٧.

قد ورد ضرورة تجديد العهد به؛ لأن هذا الأمر يلعب دوراً كبيراً في إيناس روحه وهي في ظلمة القبر.

وكما هو معلوم فإن الروح تأنس بما يهدى إليها من عمل صالح أو من ثواب شيء من القرآن الكريم؛ سواء كان الميت شهيداً، أو كان قد مات موتاً طبيعياً.. تأنس تماماً بالوقوف عليها وتذكيرها بالقرآن الكريم وبالله تبارك وتعالى وباليوم الآخر. وفكرة تجديد العهد هي فكرة يرمى من ورائها إلى أن يستشعر الميت بأن صلته لم تنقطع عن الحياة أبداً، بل إن صلته مع أهله لا زالت قائمة مستمرّة[1]. وسنرى إن شاء الله من خلال تفسير هذه الآية الكريمة وشرحها وبيان معانيها وغامضها كيف أن هذا الأمر هو أمر حقيقي وشرعي وواقعي.

المبحث الثاني: في بيان وظيفة الأنبياء عليهم السلام

تقول الآية الكريمة مخاطبة النبي الأكرم ﷺ: ﴿**لِتُنذِرَ قَوْماً مَا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ**﴾، وهي صريحة في بيان وظيفة النبي ﷺ، فهي تقول له: إن رسالتك هي رسالة إنذار وتبشير، أي أن وظيفتك في هذه الحياة منحصرة في أن تبلغ الناس أحكام الله جل وعلا، وأن تبين لهم رسالته التي أرسلها إليهم عن طريقك. وعليه فإن عليك أن تنذر العاصي بالعذاب الأليم إذا ما استمرّ على عصيانه، وأن تبشّر المطيع بالثواب والجنة.

إذن فنبيّنا الأكرم ﷺ مبلّغ شريعة الله جل وعلا، وهو التبليغ الذي وظّفته آية

---

(١) روي عن أبي الحسن الأوّل عليه السلام أنه سئل عن الميت: يزور أهله؟ قال: «نعم». فقيل له: في كم يزور؟ قال: «في الجمعة وفي الشهر وفي السنة على قدر منزلته». فقيل له: في أي صورة يأتيهم؟ قال عليه السلام: «في صورة طائر لطيف يسقط على جدرهم ويشرف عليهم؛ فإن رآهم بخير فرح، وإن رآهم بشرّ وحاجة حزن واغتمّ». الكافي٣: ٢٣٠ / ٣.

قرآنية أُخرى إذ تقول: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾[1]. ومن هذه الآية الكريمة نستمدّ قانوناً واضح المعالم فيه ردّ كافٍ على من يذهب إلى أن الإنسان إذا كان ذا منزلة عند الله جل وعلا، أو كان عنده كرامة ومكانة، فإنه لا يمكن حينئذٍ أن تقدّر أعماله، أو أن يُنتقد أبداً؛ ذلك أنه ـ مع ما للرسول ﷺ من منزلة كبرى عند الله تبارك وتعالى، ومن مكانة عليا، ومن كرامة محفوظة لا تبلغها كرامة ـ نجد هذه الآية تقول له: إن وظيفتك الإنذار والتذكير وليس غير ذلك.

حصانة الحكم

فالنبي ﷺ مع ما له من منزلة عظيمة عند الله ممّا أشرنا إليه، ومع أنه معصوم لكنه ليس له من وظيفة إلّا هذه، فما حال غيره من البشر العاديّين الذين يخطئون ويصيبون؟ إن هذه الثلة التي اخترعت روايات متعددة تدور حول محور واحد هو أن من يحكم فإنه تصبح له منزلة عند الله وكرامة ومكانة مقدسة لا يمكن معها أن يقيم عمل من أعماله، أو أن ينقد شيء من تصرفاته، أو أن يطاله قانون التقييم الشرعي لهي ثلّة تسير في ركاب تلك التيارات السياسية التي حكمت باسم الإسلام. وهذا التفكير في واقع الأمر موجود عند بعض المذاهب الإسلامية الأُخرى، كان معنا أحد الأساتذة في جامعة القاهرة حينما يمر بدعبل بن علي الخزاعي ﵀ ينقده نقداً لاذعاً كبيراً، ويصفه بأنه شعوبي، ثم يغرق في نقده بشكل غريب، فقلت له: كيف عرفت أنه شعوبي؟ فقال: ذلك أنه هو الذي تجرّأ على المأمون وخاطبه قائلاً:

إني من القومِ الذين سيوفُهم ... قتلت أخاك وشرّفتك بمقعدِ

---

(١) الغاشية: ٢١ ـ ٢٢.

شـادوا بـذكرك بـعدَ طولِ خـمولِه واستنقذوك من الحضيض الأوهدِ[1]

مع أنه لا يمكن أن يُستدلّ على علاقة هـجائه المأمـونَ بـالشعوبية، ولا أن يُهتدى إلى وجهها هنا. ثم إن دعبل بن علي﵀ من صلب خزاعـة؛ فـهو عـربي متأصّل العروبة وإن كان هناك بعض الروايات التي وُضعت، والتـي أُريـد مـنها إظهاره على أنه مولى[2]، لكن واقع الحال أنه عربي بالصميم. وعليه فهو لم يتهم بالشعوبية إلّا لأنه انتقد المأمون، وذكر حقيقة واقعة وهي أن سيوفهم هي التي ثبتته في الحكم في معركته مع أخيه. فلمجرد ذكر هذا يتّهم بالشعوبية.

قدسية الحاكم عند المذاهب الإسلامية

كما أني رأيت فتوى لأحد العلماء يقضي بموجبها بقتل من يـقطع ذنب بـغلة السلطان، ويستدلّ على هذه الفتوى بأنها تسبب لوناً من الإهانة إلى السـلطان، وبالتالي هوانه، والسلطان لا يمكن أن يهان أو أن يُتسبب له بالهوان. وهكذا نجد أن أي إنسان حتى وإن كان لصّاً إذا ما أصبح سلطاناً فإنه يتمتع حينئذٍ بالقدسية والحصانة التي تفرض على الآخرين عدم التعرض له ووجوب طاعته وإكرامـه وحرمة سبه وانتقاده.

وهكذا فإن هؤلاء يعتبرون أن مجرد وصول الإنسان إلى كرسي الحكـم لهـو مبرر لأن يجعله إنسانا كاملاً وفي الطليعة؛ وبالتالي لا يجوز المساس به أو نقده. وقد سرى هذا ليصل حتى إلى المفسرين، حيث إن أحدهم حينما يتناول قـوله

---

(١) ديوان دعبل: ٦٤.

(٢) انظر: تاريخ مدينة دمشق ٣٦: ٢٠١ / ٤٠٥٠، لسان الميزان ٢: ٤٣٠ / ١٧٦٩، الأنساب ٢: ٤١٦، وفيات الأعيان ٢: ٢٧٠.

تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا﴾[١]، يقول: المقصود بالزينة هنا: الحكام الذين تولوا شؤون الناس وحكموهم[٢]. وهذا غريب فعلاً، فهل من الممكن أن يكون الحجّاج وأمثال الحجّاج رحمة من الله جلّ وعلا، وزينة منه في أرضه؟ ومعنى أنه تعالى قد جعله وأمثاله زينة للأرض هو أن يرحم به وبهم أهلها. إن من غير المعقول أنه تبارك وتعالى يجعل الحجّاج وأسياده وأمثاله ممّن ولغوا في دماء المسلمين، وهتكوا أعراضهم، واعتدوا على حرمات دين الله جلّ وعلا زينة للأرض أو أوتاداً لها.

إذن فنحن نرى إنه ليس في الأمر من شيء يقصد من ورائه إضفاء كل هذه القدسيّة والتبجيل سوى أن يُعطى هؤلاء الجبابرة والمتسلطون مبرّراً لكل ما يفعلونه من معاصٍ؛ فذه القدسية تحصنهم من أن تنالهم ألسن النقد أو تطالهم يد التغيير والخروج عليهم والتحرّك ضدّهم؛ ذلك أن وصولهم إلى الحكم هو مبرّر كافٍ لأن يتمتعوا بكل تلك الحصانة.

الميكافيلّية وتبرير الوسيلة

ولعلّ المتاقي يستغرب أكثر حينما أُطلعه على نظرية أكثر خطورة مما مرّ، وهي نظرية يتبنّاها بعض علماء أهل السنة، ومنهم القرطبي، وتتمحور هذه النظرية حول الحكم والإدارة وطريقة وصول الحاكم إلى كرسي الحكم. يقول القرطبي: إن الطرق التي يمكن أن يصل بها الإنسان إلى الخلافة أربعة، ومنها أن الإنسان إذا أخذ الحكم بالقوة والتعسف فإنه حينئذٍ يجب أن يطاع وأن يعامل على أنه حاكم شرعي لا يجوز رد كلامه ولا الانتقاص منه. ثم يقول: ومن مات في تلك الليلة

---

(١) الكهف: ٧.

(٢) الجامع لاحكام القرآن ١٠: ٣٥٤.

ولم يبايع ذلك الحاكم فإنه يموت ميتة جاهلية[1].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١: ٢٦٩، وقد ذهب إلى هذا جملة من علمائهم منهم:
١ ـ التفتازاني حيث يقول: «وتنعقد الإمامة بالقهر والاستيلا، فإذا مات الإمام وتصدى للإمامة من يستجمع شرائطها من غير بيعة واستخلاف وقهر الناس بشوكته انعقدت الخلافة له. وكذا إذا كان فاسقاً أو جاهلاً على الأظهر». شرح المقاصد ٢: ٢٧٢.
٢ ـ الشربيني حيث يقول: «وثالثها باستيلاء شخص متغلّب على الإمامة جامع للشروط المعتبرة في الإمامة على الملك بقهر وغلبة بعد موت الإمام لينتظم شمل المسلمين. أما الاستيلاء على الحي فإن كان الحي متغلّباً انعقدت إمامة المتغلّب عليه، وإن كان إماماً ببيعة لم تنعقد إمامة المتغلب عليه. وكذا الفاسق والجاهل تنعقد إمامة كل منهما مع وجود بقية الشروط بالاستيلاء في الأصح وإن كان عاصياً بذلك لما مرّ». مغني المحتاج ٤: ١٣٢، الإقناع ٢: ٢٠٥. وهنا نقول: إن كانا جامعين للشرائط ـ أي منها العدالة والتقوى والورع وغيرها ـ فكيف يعدو أحدهما على الآخر؟ وكيف يجتمع الفسق والجهل مع شروط الإمامة؟
٣ ـ الماوردي حيث يقول: «إن الخلافة تثبت بالقهر والغلبة، ولا تفتقر إلى العقد، من غلب عليهم بالسيف حتى صار خليفة وسمي أمير المؤمنين فلا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبيت ولا يراه إماماً برّاً كان أو فاجرا؛ فهو أمير المؤمنين». الأحكام السلطانية: ٧.
ولزيادة الاطّلاع انظر المصادر التالية: مآثر الإنافة في معالم الخلافة ٤: ١٦٩، الملل والنحل ١: ١٥٩، الفصل في الملل والأهواء والنحل ٤: ١٦٧، مقالات الإسلاميين: ٦٨، أُصول الدين (البغدادي): ٢٨١، التمهيد (الباقلّاني): ١٦٤ ـ ٢٣٩، المسامرة في شرح المسايرة: ٢٨٢، الإبانة عن أصول الديانة: ١٨٧، الإرشاد (الجويني): ٤٢٤، شرح سنن الترمذي (ابن العربي) ١٣: ٢٢٩، الاقتصاد في الاعتقاد: ٩٧، حاشية الباجوري على شرح الغزّي ٢: ٢٥٩، وانظر: صحيح مسلم ٦: ١٩ ـ ٢٠، السنن الكبرى (البيهقي) ٨: ١٥٨.
مع أن القرطبي عدّ قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ البقرة: ٣٠، أصلاً في نصب إمام وخليفة، قال: «الرابعة: هذه الآية أصل في نصب إمام وخليفة يسمع له ويطاع، لتجتمع به الكلمة، وتنفذ به أحكام الخليفة. ولا خلاف في وجوب ذلك بين الأمة ولا بين الأئمة إلّا ما روي عن الأصمّ حيث كان عن الشريعة أصمّ، وكذلك كل من قال بقوله واتّبعه على رأيه ومذهبه، قال: «إنها غير واجبة في الدين، بل يسوغ ذلك، وأن الأمة متى أقاموا حجهم وجهادهم، وتناصفوا فيما بينهم، وبذلوا الحقّ من أنفسهم وقسموا الغنائم والفيء والصدقات على أهلها، وأقاموا الحدود على من وجبت عليه، أجزأهم ذلك، ولا يجب عليهم أن

لكن الآية الشريفة: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ﴾[1] تريد أن ترفع هذا الاعتقاد من أذهان هؤلاء، وأن تخفف هذا الوقع، حيث تقول للنبي الأكرمﷺ: إنك منذر، فوظيفتك الإنذار، أي أن تنذر قومك فيتجنبوا معصية الله جل وعلا.

إذن فوظيفة الرسول الأكرمﷺ هي وظيفة تبشير وإنذار حتى يشعر الإنسان بأنه يمتلك حريته، وليس هنالك من إجبار له على اعتناق مذهب ما أو دين ما؛ لأن عندنا أن الأصل أن كل إنسان يولد حرّاً ليس لأحد عليه سلطان ولا ولاية. ولذا فإن عندنا أن الولاية الشرعية منصوص عليها، وهي متضيّقة في أفراد معدودين لهم ذلك الحق المنصوص عليه؛ لأنه حق لا يمكن أن يعطيه إلّا الله جل وعلا، وهو تبارك وتعالى لا يعطيه إلّا من يستحقّه، ومن هو أهل له، بحيث إنه لا يظلم ولا يجور ولا يصادر حريات الآخرين، وليس ذلك إلّا المعصومعليه السلام. وكل ذلك احتفاظاً بحرية الإنسان وحفظا لها ولكرامته؛ لأنه مخلوق مكرّم عند الله، وقد خلقه الله تبارك وتعالى وأراد له أن يكون حرّاً كما أراد له ألّا ينسلخ من ثوب الكرامة، وأن يحفظ مكانته التي وضعه الله جلّ وعلا فيها.

إذن فوظيفة الرسول الأكرمﷺ هي ما ذكرنا.. وظيفة تحدّدها الآية الكريمة التي تقول: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ﴾، وهذا ما تذكره آية المقام كذلك بقولها: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمَاً﴾، أي أن الهدف هو أن تأخذ دور الإنذار. وفي إطار هذا المعنى ما يروى من أنه دخل على أمير المؤمنينعليه السلام جماعة من الشيعة فقالوا له: يا أمير المؤمنين، لو أخرجت هذه الأموال ففرقتها في هؤلاء الرؤساء والأشراف، وفضّلتهم علينا،

ينصبوا إماماً يتولّى ذلك»...». الجامع لأحكام القرآن ١: ٢٦٤.

(١) الرعد: ٧.

حتى إذا استوسقت الأُمور عدت إلى أفضل ما عوّدك الله من القسم بالسوية، والعدل في الرعية.

أي أنهم يريدون أن يقولوا له عليه السلام: إن عدم فعله هذا سوف يخلق له كمّاً هائلاً من المشاكل التي سوف تعترض طريقه، وتعرقله عن إتمام مهمّته؛ ولذا فإن عليه ألّا يعدل في القسم في الظرف الراهن؛ لاقتضاء المصلحة هذا التصرّف؛ ذلك أنه لا يسع طلحة والزبير وجريراً الشاعر ورؤساء القبائل وأمثالهم القبول بأن يكون عطاؤهم كعطاء قنبر. فقال لهم أمير المؤمنين عليه السلام: **«أتأمروني ويحكم أن أطلب النصر بالظلم والجور فيمن وُلّيت عليه من أهل الإسلام؟ لا والله لا يكون ذلك ما سمر السمير، وما رأيت في السماء نجماً. والله لو كانت أموالي لساويت بينهم، فكيف وإنما هي أموالهم؟»**[1].

وقال عليه السلام في المقام أيضاً: **«والله لو أُعطيت الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها على أن أعصي الله في نملة أسلبها جلب شعيرة ما فعلت، وإن دنياكم عندي لأهون من ورقة في فم جرادة تقضمها. ما لعلي ولنعيم يفنى ولذّة لا تبقى؟ نعوذ بالله من سبات العقل وقبح الزلل وبه نستعين»**[2].

واللام في قوله عليه السلام: **«لهم»** هي لام الملكية، والملكية تقتضي التساوي، أما التفضيل ففي حالات خاصّة معينة يحدّدها الشرع المقدس نفسُه، وليس العلاقات أو الوضع الاجتماعي وما يدور في فلكها ومدارها.

إذن فالآية الكريمة تقول للنبي صلى الله عليه وآله وسلم: إن وظيفتك هي أن تنذر قومك كي يبتعدوا عن معصية الله جل وعلا.

---

(١) الكافي ٤: ٣١ ـ ٣٢ / ٣.
(٢) نهج البلاغة / الكلام: ٢٢٤.

متعلق الإنذار

وهنا قد يقول قائل: إن كلمة قوم تطلق على الذكور دون الإناث، والنبي صلى الله عليه وآله وسلم مبعوث لكلّ الناس؛ سواء كانوا ذكوراً أم إناثاً، وعليه فما معنى تخصيص الذكر بالرجال دون النساء بناء على تحديد كلمة (قوم)؟

والجواب هو أن هذا ممّا يسمى في اللغة العربية باب التغليب، أي أن الخطابات العربية تعتمد جانب التغليب في كثير من أساليبها، فتشمل الإناث دائماً بخطاب الذكور، وإلّا فإن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم قد بُعث إلى الأسود والأبيض، وإلى الناس جميعاً على حدّ سواء.

المبحث الثالث: في معنى ﴿مَا﴾ في الآية الكريمة

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿مَا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ﴾، و﴿مَا﴾ في هذا المقطع الشريف من الآية الكريمة تحتمل وجهين يذهب إلى كل واحد منهما طائفة من المفسّرين، وبهذا فإن المفسرين إزاء هذه الكلمة على قسمين:

القسم الأول: يرون أن ﴿مَا﴾ هنا نافية

وبناء على هذا فإن المقطع الشريف من الآية الكريمة: ﴿لِتُنذِرَ قَوْماً مَا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ﴾ يُصبح: أن وظيفتك يا محمد هو أن تنذر جماعة من الناس لم يُنذر آباؤهم من قبل. وعدم الإنذار هذا يحتمل معنيين:

المعنى الأول: أنهم لم ينذروا بصورة مباشرة

بمعنى أن الناس ليسوا كلّهم قد رأوا الأنبياء عليهم السلام، أو عاصروهم، ومن لم يعاصر الأنبياء عليهم السلام فإن شريعتهم سوف تصل إليهم عن طريق أوصيائهم عليهم السلام، أو عن طريق العلماء الذين يحفظون تلك الشريعة.

القناة غير النظيفة ودورها في التحريف

وعليه فوصول الشريعة لمن لم يعاصر النبي ﷺ عن طريق العلماء وعن طريق الرواة أو التاريخ يخلق في البين مشاكل عدة، بل إنه هو نفسه مشكلة بعينها؛ إذ أنه هنا تكمن المصيبة، فحينما تصل نصوص الشريعة عبر قنوات غير سليمة إلى الإنسان المكلّف، فإنه حينئذٍ يمكن أن يقال: إن هذا بلاء عظيم؛ لأن هذه القناة غير السليمة لا يردعها رادع عن أن تدسّ في تلك الأحكام أو أن تحرف تلك الشريعة.

أهل البيت النبوي ﻋﻠﻴﻬﻢ السلام ضحايا القنوات غير النظيفة

وهؤلاء كثر لا يرعوون في أن يدسّوا في الشريعة ما ليس منها. وكمثال على هذا فإننا نقول: أن من يبتدئ يومه بشتم علي بن أبي طالب ﻋﻠﻴﻪ السلام كلّ صباح سبعين مرة، فهل من الممكن أو المتوقع من مثل هذا أن ينقل الشريعة كما هي في خصوص الوارد منها في علي بن أبي طالب ﻋﻠﻴﻪ السلام؟ والجواب بالتأكيد لا؛ لأن مثل هذا النقل سوف يتعارض مع متبنّياته، وسوف يضرّ بمصالحه ويضربها؛ ولذا فهو يعمد إلى تشريه الحقيقة وتزويرها. وفوق هذا فإننا نجد في التاريخ كثيراً من المتملّقين والنفعيين الذين لا همّ لهم إلّا أن يصلوا إلى اشباع لذائذهم وغرائزهم مهما كلّف الأمر ذلك، فمثل هؤلاء لا يمتنعون عن أن يخترعوا رواية في مدح السلطة أو في ذمّ شخصية ورد فيها مدح من الشارع المقدس[١].

ومثل هذا ستنعكس كل شخصيّته ونفسيّته على ما يضع من الروايات؛ ولذا فإننا نجد أن العلماء قد بذلوا جهداً كبيراً في علمي الدراية والرجال؛ لكي يتمكنوا

---

(١) كما مرّ قبل قليل من أمر سمرة بن جندب.

من تخليص الروايات مما يلحق بها ومما يعتريها من شوائب وموضوعات. إن هنالك من يتهالك على أعقاب السلطات، وهناك من يتهالك على الأموال، وهناك من يبيع مقدّساته من أجل أن يحصل على شيء من حطام الدنيا؛ ولكل هذا نشأت الصعوبة في أخذ الأحكام عن طريق الرواية المنقولة لنا عبر هذا التاريخ؛ لأن العلماء الجادّين لم يعاصروا النبي الأكرم ﷺ حتى يتمكنوا من أخذ الرواية منه مباشرة، بل إنهم يجدون أن بينهم وبين النبي الأكرم ﷺ مساحة زمنية واسعة ملؤها سلسلة طويلة من الرواة الذين يتّصف بعضهم بالوضع والدسّ والكذب والتزوير.

ضرورة علم الرجال

وبناء على هذا فإن هؤلاء العلماء يواجهون مشاكل كثيرة وصعوبات جمّة من أجل تخليص الروايات من هذا الكمّ الهائل من الدسّ والتزوير الواقع فيها. ونحن لا نستغرب حينما نرى أن الكثير من الأحكام الشرعية الواردة عن النبي الأكرم ﷺ قد نُقلت إلينا بشكل مشوّه، وكمثال على هذا مع قربه من عصر الرواية ما يروى من أن أبا هريرة دخل على عائشة، فقالت له: «يا أبا هريرة أنت الذي تحدّث أن امرأة عُذّبت في هرّة لها ربطتها، لم تطعمها ولم تسقِها؟ فقال أبو هريرة: سمعته منه، يعني النبي الأكرم ﷺ. فقالت عائشة: أتدري ما كانت المرأة؟ قال: لا. قالت: إن المرأة مع ما فعلت كانت كافرة، إن المؤمن أكرم على الله من أن يعذّبه في هرة، فإذا حدّثت عن رسول الله ﷺ فانظر كيف تحدّث»[١].

فهذه المرأة إذن كانت مشركة تستحقّ العذاب، وهي مع ذلك عذّبت هرّتها،

---

(١) مسند أحمد ٦: ٢٩٩، المستدرك على الصحيحين ٣: ٥١٣، تحفة الأحوذي ١: ٢٦١.

فلحقها بذلك لون من ألوان العذاب الإضافي.

فإذا كان هذا الأمر مع قرب عهد الرواي من عصر الرواية، وممّن رأى النبي الأكرم ﷺ، وهو مع ذلك لم يعرف أن هذه المرأة لم تعذّب بالنار لأنها عذبت هرة، وأن الإنسان أكرم على الله تبارك وتعالى من الحيوان، وأنها كانت إضافة إلى ذلك مشركة؛ فهذا العذاب الواقع عليها وتخليدها في النار لأجل شركها أولاً، فكيف بمن لم يكن كذلك، وقد ابتعد بعداً زمنياً شاسعاً عن النبي الأكرم ﷺ؟. وكانت السيدة عائشة لها ملاحظات كثيرة على روايات هذا الرجل، فكانت تلاحقه بجملة من الروايات التي تصحّح فيها ما يرويه عن النبي ﷺ[1].

إذن فهناك جملة كثيرة من الروايات من هذا النوع، وعلينا أن نقف عندها وأن نتساءل عن الهدف من ورائها، وكيف وصلت إلينا، وهل هي صحيحة الصدور عن النبي الأكرم ﷺ. ثم إذا كانت صحيحة الصدور، فهل وصلت إلينا كما هي سالمة غير مشوّهة، أم أن يد الدسّ والتزوير قد طالتها وغيّرت ما غيّرت؟ وهل إن الرواي الذي رواها وقع في اشتباه في نقلها أوغفلة، أم لا؟ ومن كلّ هذا وجدنا أنفسنا إزاء مشكلة هي تمحيص الروايات الواردة لبيان الصحيح منها من غيره؛ ولذا فقد نشأ علما الدراية والرجال.

الثاني: أنهم لم يُنذروا مطلقاً

أي أن هؤلاء لم يُنذروا نهائياً، وبعبارة أُخرى أنهم لم يصلهم الإنذار؛

---

(١) كروايته عن النبي الأكرم ﷺ أنه قال: «إن الميّت يعذّب ببكاء أهله عليه». فلمّا بلغ السيدة عائشة خبر الرواية قالت: غلط، إنما هذه الرواية كانت في يهودي مات، ومرّ أهله يحملونه ويبكون عليه، فقال ﷺ: «إن هؤلاء يبكون عليه وهو يعذّب». انظر: منتهى المطلب ١: ٤٦٧ (حجري)، مسند أحمد ١: ٤٢، ٤٣، ٦: ٥٧، ١٠٧.

لا بالواسطة ولا بالمباشرة. والمراد بهم أهل الجاهلية الذين عاشوا ولم تصلهم أحكام أبداً ولم يصلهم صوت الأنبياء عليهم السلام؛ ولذا فإن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم حينما جاء وضع قانون: «الإسلام يجبّ ما قبله»[1].

لماذا «الإسلام يجبّ ما قبله»

ولبيان هذا سوف نضرب هنا مثلاً هو أنه قبل مجيء الإسلام كانت هناك علاقات اجتماعية وعلاقات جنسية قائمة على أساس من النظم والقوانين الجاهلية، وهي العلاقات الزوجية التي كانت تتمّ بناءً على العرف الجاهلي، وذلك كأن يأتي الرجل، فيفتح باب خبائه على باب المرأة التي يريد أن يتزوّجها؛ فتصبح بموجب هذا زوجة له. فكانت هذه العملية بمثابة عقد تحل به المرأة على الرجل، فإن أراد أن يطلّقها حوّل خباءه عنها.

وبناءً على القانون المارّ ـ وهو: «الإسلام يجب ما قبله» ـ فإن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم حينما جاء بهذا الدين الجديد لم يقل لأحد منهم: إن زواج آبائكم باطل، وليس شرعيّاً، وإنكم جميعكم أولاد غير شرعيّين، بل إنه صلى الله عليه وآله وسلم أثبت صحّة هذا الزواج عند آبائهم، واعتبرهم أبناء شرعيين. وكذلك فإنه صلى الله عليه وآله وسلم عالج هذه المسألة بقاعدة أُخرى هي: «لكل قوم نكاح»[2]، وبهذا فإنه صلى الله عليه وآله وسلم قد أجرى الأُمور على ما هي عليه.

---

(١) المجازات النبويّة: ٥٤ ـ ٥٥ / ٣٢، مسند أحمد ٤: ١٩٩، وفيه: «ما كان قبله». قال الشريف الرضي رحمه الله: وهذا القول مجاز؛ لأن أصل الجبّ هو اختزال السنام من أصله، فكأنه (عليه الصلاة والسلام) جعل الإسلام مستأصلاً لكلّ ذنب تقدّم للإنسان قبله، حتى لا يدع له جناية يحذر عاقبتها، ولا معرّة يسوء الحديث عنها، بل يُعفى على ما تقدم من السوءات، ويحنو على ما ظهر من العورات.

(٢) تهذيب الأحكام ٧: ٤٧٢ / ١٨٩١، المهذب (ابن براج): ٢٥٥.

وفي قبالة هذا كانت هنالك تعاملات تجارية فيها بيع وشراء وألوان أُخرى من المعاملة المبتنية على العرف الجاهلي، ومع كل ذلك فإن الرسول الأكرم ﷺ قد أمضاها لهم، واعتبرها معاملات صحيحة بناء على قانون: «**الإسلام يجب ما قبله**»، فهو ﷺ لم يعتبر تلك التعاملات تعاملات باطلة يجب إرجاع ما أُخذ بها إلى ذويه أو أصحابه؛ لأنه بذلك سوف يقلب عاليها على سافلها، ذلك أن تحريم تلك المعاملات من بيع وشراء وإجارة وما إلى ذلك، والحكم ببطلانها يستلزم أن كلّاً من المتعاملين لا يملك الثمن والمثمن، وبالتالي فإن هذا يعني ضرورة إرجاع الثمن والمثمن إلى صاحبيهما، وهو يعني أخيراً شلّ الكثير من مجالات الحياة ومرافقها، وتوقّفها عن سيرورتها.

«لا جريمة إلّا بقانون»

وهذا يتفرّع عليه أُمور كثيرة؛ فهناك النماء، والنماء نوعان: فهنالك نماء متّصل، وهنالك نماء منفصل، أي أن هذا يؤدي إلى عرقلة مسيرة الحياة، وإلى إيقافها، بل إلى خلق مشاكل كثيرة لعدم سهولة تحقيق كل ذلك. ولذا فإن الرسول ﷺ قد أبقى كل ما كان على ما كان، أي على حاله، ولم يتدخّل ليحكم ببطلان ما كان سائداً في أيام الجاهلية؛ لأن القاعدة الشرعية الثابتة تقول: ﴿**وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً**﴾[1]، فالعقاب يقبح من غير بيان، والحكم ببطلان الأشياء قبل أن يكون فيها تبليغ شرعي هو نفسه حكم باطل.

وهذا كما قلنا بناء على الفرض الثاني، وهو أن هؤلاء لم ينذروا مطلقاً، أي لا بصورة مباشرة ولا بصورة غير مباشرة، فلم يصلهم إنذار أبداً. وبهذا فإن

---

(١) الإسراء: ١٥.

الحكم ببطلان تعاملاتهم جميعاً هو حكم جائر وباطل، والإسلام ينأى بعيداً بأحكامه عن هذا المنحى.

ولتقريب الفكرة إلى الذهن أكثر نضرب مثالاً هو أنه لو أن هناك شخصا أراد أن يقطع شارعاً من شوارع المدينة من أحد طرفيه إلى الطرف الآخر دون أن تكون هنالك إشارة مرور أو يافطة معلقة تقول: يمنع قطع الشارع من هذا المكان، فإنه حينئذٍ ليس من حق شرطي المرور أن يجرّم هذا الإنسان، أو أن يحكم عليه بأن يدفع غرامة مالية نتيجة لمخالفته القانون؛ لأن هذا القانون لم يضع إعلاناً يشير إلى غرضه، ويبيّن به مراده.

إذن فالقانون إذا كان لا يريد لأحد أن يمرّ من هذه النقطة فإن عليه أن يبيّن ذلك للمارّة، وإلّا فليس من حقّه أن يجرّم الآخرين لأنهم فعلوا ذلك؛ فإنه حينئذٍ يكون ظالماً جائراً. وهكذا فعدم وضع يافطة أو إعلان أو إشارة في ذلك المكان تشير إلى أنه غير مسموح قطع الشارع منه يعني أمراً واحداً هو أنه يجوز للإنسان أن يمرّ منه دون حرج، فإن أراد منع الناس عن ذلك وجب عليه أن يبلغهم عن طريق إشارة كما ذكرنا تشير إلى مراده هذا. وهذا الأمر يمكن تلخيصه بقاعدة «لا جريمة إلّا بقانون».

وعليه فقوله تعالى: ﴿**لِتُنذِرَ قَوْمَاً مَا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ**﴾ يعني أن الله تبارك وتعالى يريد أن يقول للناس: إن هذا من رحمة الله بكم؛ فقد حصلتم على شريعة تهديكم وتوجّهكم وترشدكم إلى الطريق الصواب الذي يوصلكم إلى الجنة، ويمنعكم من دخول النار، في حين أن آباءكم لم يحصلوا على هذه النعمة؛ فهم لم يصلهم التبليغ؛ لأنهم لم يدركوا الإسلام، أو لم يعاصروا أحداً من الأنبياء عليهم السلام، فقد عاشوا في فترة الجاهلية.

كيف نستفيد من صحبة الأنبياء عليهم السلام؟

ونفهم من هذا أن وجود النبي ﷺ بين الناس هو وجود رحمة عظيمة ليس بعدها رحمة، ونعمة كبيرة ليس بعدها نعمة. وأن على هؤلاء الذين عاصروا النبي ﷺ أن يستغلّوا هذه الرحمة وهذه النعمة لصالحهم الدنيوي والأُخروي استغلالاً لا حدود له، فيستفيدوا من كل حركة من حركات النبي ﷺ ومن كل حرف يتفوّه به؛ ويستغلوا كل وجوده بينهم من أجل تحصيل البركة والرضا الإلهيّين عليهم؛ لأنه شخص بما يمتلك من ميزات وصفات رأته السماء أنه أهل للرسالة بموجبها يمكن أن يصل بهم إلى برّ الأمان بعد رحلة هذه الدنيا والحياة الشاقّة فيها.

لكننا ـ للأسف ـ مع ذلك نجد أن هناك من يمشي خلف الرسول ﷺ، ويقلّده في مشيته، ذلك أن الرسول ﷺ كان إذا مشى اختلج في مشيته، وكان هذا يفعل الفعل عينه مثله[1]. وكذلك نجد آخر يقول مخاطبا الرسول ﷺ: لقد آذيتنا بنتن حمارك[2]. وأكثر من هذا أنهم لم يغترفوا من هذا العطاء الثرّ الذي جعلته السماء رحمة لهم على الأرض، مع أن المفترض بهؤلاء أنهم إذ عاصروا الرسول الأكرم ﷺ وعايشوه، وهم يعرفون أنه نبي الرحمة وإمام الهدى أن عليهم أن يستغلّوا هذا الوجود المبارك أقصى استغلال؛ للرقيّ بحياتهم الدنيوية، ولتحصيل

(١) بحار الأنوار ١٨: ٦٨، أُسد الغابة ١: ٥٨٨، الفائق في غريب الحديث ٢: ٣٥٩ ـ وزغ، شرح نهج البلاغة ٦: ١٥٠، وهو الحكم بن العاص؛ ذلك أنه رسولنا الأكرم ﷺ التفت يوماً فرآه يمشي خلفه ويحكيه، فقال ﷺ له: «كذلك فلتكن». فكان الحكم مختلجاً يرتعش من يومئذٍ.

(٢) هو عبد الله بن أُبي. انظر: مسند أحمد ٥: ٢٠٣، صحيح البخاري ٧: ١٣٣، صحيح مسلم ٥: ١٨٣.

رضا الله جل وعلا في حياتهم الأُخروية، فكان عليهم أن ينهلوا وأن يعلّوا من عطاء الرسالة، وأن ينعموا بها في هذه الحياة؛ لأنها حتماً ستوصلهم إلى الجنة في الحياة الآخرة.

إذن فالآية الكريمة تخاطب هؤلاء الذين عاصروا الرسول الأكرم ﷺ، وتقول لهم: إن ما حصلتم عليه من نعمة كبيرة متمثّلة بهذا الرسول الكريم ﷺ وبهذا الدين الحنيف لأنتم به أفضل حالاً من آبائكم الذين لم يعيشوا هذه النعمة، ولم ينعموا بعطاء هذه الرسالة. فأنتم وحدكم من حصل على هذه النعمة؛ ولذا فقد وجب إنذاركم لتصلوا عبر هذا الإنذار إلى الجنة؛ لأنكم سوف تتّقون النار بترككم معصية الله جلّ وعلا.

وفعلاً فإن هناك جماعة اغترفوا من عطاء الرسول الأكرم ﷺ الذي هو نعمة لا توازيها نعمة، ولا تضاهيها رحمة، فحينما يواجه مسلم رسول الله ﷺ، ويأخذ أحكامه من فمه الشريف مباشرة، فإنه يكون قد وضع يده على النبع الصافي الطاهر دون أن يكون هنالك ما يكدّره أو ما يلوّثه. وكما نرى فإن هذه نعمة كبيرة ليس هنالك من نعمة أكبر منها. وكذلك جلوس المسلم بين يدي رسول الله ﷺ لينظر إلى وجهه الكريم؛ لأنه وجه من وجوه الجنة. فوجود النبي الأكرم ﷺ بين ظهرانيهم لهو أمر يغبطهم عليه الأولون والآخرون، ويحسدهم عليه الإنس والجنّ كافّة. يروى أن رسول الله ﷺ أعطى المهاجرين مرّة من الغنائم ولم يعطِ الأنصار منها شيئاً، فوجدوا في أنفسهم، حتى كثرت فيهم القالة، فدخل سعد بن عبادة على رسول الله ﷺ فقال له: يا رسول الله، إن هذا الحي ـ يعني الأنصار ـ قد وجدوا عليك في أنفسهم؛ لما صنعت في هذا الفيء. فقال ﷺ: «**فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة**».

فجمع سعد الناس له في تلك الحظيرة التي طلب منه أن يجمعهم فيها، فأتاهم رسول الله ﷺ فحمد الله تبارك وتعالى وأثنى عليه، ثم قال لهم من ضمن ما قال ﷺ: «**أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعون برسول الله في رحالكم؟**»[1].

أي أن هؤلاء سيرجعون إلى بيوتهم وكل واحد منهم يحمل معه بضعة دراهم، أما أنتم يا معشر الأنصار، فسترجعون برسول الله ﷺ، فعليكم أن تعرفوا قيمة العطاء الذي عندكم. ثم إن هؤلاء ـ المهاجرين ـ كانوا جياعاً وفقراء، وهو ما حدا برسول الله ﷺ أن يعطيهم دون الأنصار؛ لأنه ﷺ كان يريد أن يعيد بناء صرح التوازن داخل المجتمع.

القسم الثاني: وينصّ على أن ﴿مَا﴾ هنا موصولية

وبناء على هذا الرأي فإن المقطع الشريف من الآية الكريمة: ﴿**لِتُنذِرَ قَوْمَاً مَا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ**﴾يُصبح: لتنذر القوم الذين أُنذر آباؤهم، أو الذين أنذرت آباءهم من قبلهم. وبناء على هذه الرؤية، فإنه حينئذٍ لا يمكن لأحد أن يحتجّ على الله جلّ وعلا ويقول له: إنني لم يصلني منك بلاغ؛ حتى استحقّ التعرّض إلى عذابك. فإن هؤلاء قد أُنذروا، وإن آباءهم قد أُنذروا كذلك.

حكم من لم يعاصر الرسول ﷺ

وهنا يعترض سؤال أو إشكال هو: كيف تثبت الأحكام بحقّنا نحن الذين نعيش في زمن بعيد عن زمن الرسالة؟

وللجواب عن هذا الإشكال نذكر أن هناك حديثاً شريفاً يقرّر هذه الحال، ويبيّن كيف أن هذه الأحكام تثبت بحقنا، وذلك هو قول الإمام الصادق ﵇: «**حلال**

---

(١) مسند أحمد ٣: ٧٦ ـ ٧٧، الدرر: ٢٣٥ ـ ٢٣٦، كنز العمّال ١٢: ١٧ / ٣٣٧٦٤.

محمد حلال أبداً إلى يوم القيامة، وحرامه حرام أبداً إلى يوم القيامة، لا يكون غيره»[١]. وهذا يعني أن علينا أن نأخذ الأحكام عن طريق الروايات التي تردنا عن النبي ﷺ أو عن وسائط النبي.. أوصيائه عليهم السلام إلينا. وكما ذكرنا في أول المحاضرة فإن هذه الروايات تحتاج إلى تمحيص وإلى دراسة معمّقة ومتأنّية؛ كي نستطيع أن نمحّص هذا الكم الكبير من الروايات كلّها، ونخرج بالروايات الصحيحة منها دون الروايات الضعيفة.

لماذا نقدم أحاديث أهل البيت عليهم السلام على أحاديث غيرهم

وهذا ما يأخذنا إلى ذكر حقيقة هي أننا نقدم أحاديث أهل البيت عليهم السلام على أحاديث غيرهم. ولابدّ هنا من أن نبيّن السرّ الذي يكمن وراء إصرارنا على تقديم ما يروى عن آل بيت النبي ﷺ على أحاديث غيرهم. والسر واضح لا لبس فيه، وهو أننا نريد للخبر الذي نجعله مدركاً للحكم الشرعي عندنا أن يكون خبراً صحيحاً سليماً من العبث أو الدسّ، أو التزوير أو حتى الوضع. وهذا لا يمكن أن يتحقق إلّا إذا كان الخبر بأيدٍ أمينة.

الشيعة يشترطون وثاقة الراوي دون مذهبه

ولابدّ أن ننوّه هنا إلى أن هذا الأمر لا يعني أننا لا نريد أن نأخذ بروايات الآخرين، بل على العكس من ذلك، فإننا نعرف أن هنالك جملة من فقهائنا مشايخهم من أبناء المذاهب الإسلامية الأُخرى، كما أن عندنا الخبر الموثّق الذي نأخذ به، وهو ما كان في طريقه راوٍ غير إمامي، أي عامي، لكنه ثقة عدل. فإن من كان غير إمامي وهو ثقة فإننا نأخذ الخبر عن طريقه ولا ننكره، وهذا يعني أننا لا

---

(١) الكافي ١: ٥٨ / ١٩.

نشترط في سلسلة رواة الخبر أن يكونوا جميعهم إماميين، بل إننا لا نأخذ برواية الإمامي الضعيف، ونأخذ برواية غير الإمامي الموثق[1]. أما غيرنا فعندما يمرّون برواياتنا فإنهم لا يأخذون بها أبداً، بل يضربون بها عرض الجدار، وأكثر من هذا أن بعضهم يقول: هذه الرواية ضعيفة؛ لأن في طريقها فلاناً وهو شيعي[2]، وكأن

---

(١) وقد مر تحقيق هذا الأمر في ج ١١ / محاضرة (الوحدة الإسلامية) من كتابنا هذا.

(٢) ومن ذلك نذكر:

١ ـ الحسن بن الحسين. شيعي ضعيف، أو هو حسين بن الحسن الأشقر، وانقلب اسمه، وهو أيضاً شيعي ضعيف. نصب الراية ١: ٤٨١.

٢ ـ حكيم بن جبير. قال الذهبي في (الميزان): شيعي مقلّ. قال أحمد: ضعيف منكر الحديث. وقال النسائي: ليس بالقوي. وقال الدارقطني: متروك. وقال الجوزجاني: كذّاب. وقال الحافظ في (التقريب): ضعيف رمي بالتشيّع. تحفة الأحوذي ٣: ٢٥٣.

٣ ـ يحيى بن يعلى الأسلمي الكوفي. شيعي ضعيف. وقال الحافظ شيعي ضعيف. تحفة الأحوذي ٤: ١٦٢، ٦: ٧٠.

٤ ـ عمرو بن جابر الحضرمي المصري. ضعيف شيعي. تحفة الأحوذي ٧: ١٩.

٥ ـ وأما حديث أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى قالوا يا رسول الله من هؤلاء الذين أمر الله بمودتهم قال فاطمة وولدها عليهم السلام فقال ابن كثير إسناده ضعيف فيه منهم لا يعرف إلا عن شيخ شيعي مخترق وهو حسين الأشقر ولا يقبل خبره في هذا المحل. تحفة الأحوذي ٩: ٩١.

٦ ـ وقال الفتني: حمل علي باب خيبر وإن سبعة رجال وأربعين لم يطيقوه، فيه ليث ضعيف، والراوي عنه شيعي. تذكرة الموضوعات: ٩٦.

٧ ـ ثابت بن أبي صفية الثمالي. ضعيف رافضي. تحفة الأحوذي ١: ١٣٣ / ٦.

٨ ـ زيد بن الحارث الجعفي. ضعيف رافضي. تحفة الأحوذي ١: ٥٢١.

٩ ـ جابر الجعفي. قال زائدة: ضعيف رافضي لا يحتجّ به، كذا في (غاية المقصود). وقال في (التلخيص): وهو ضعيف جدّاً. وقال في (التقريب): ضعيف رافضي. قال المنذري: جابر الجعفي لا يحتجّ به. عون المعبود ٣: ٢٤٧، تحفة الأحوذي ٢: ٣٠٠.

١٠ ـ أبو حمزة الثمالي. كوفي ضعيف رافضي. تحفة الأحوذي ٥: ٤٦٦.

١١ ـ أبو الجارود الأعمى الكوفي. رافضي، كذّبه يحيى بن معين. تحفة الأحوذي ٧: ١٢٢.

١٢ ـ تليد ـ بفتح الفوقية، وكسر اللام، وسكون التحتية، وبدال مهملة ـ المحاربي الكوفي

التشيّع جريمة يرتكبها من يعتنق هذا المذهب، وكأنه كذلك ليس مذهب علي بن أبي طالب عليه السلام الذي تمتلئ كتب القوم بذكر فضائله.

وعلى أية حال فإننا ليس لدينا مثل هذا التطرّف الموجود عند غيرنا مطلقاً؛ فنحن نأخذ بالرواية حتى وإن كان راويها غير إمامي، لكنه ثقة، أي أننا نشترط وثاقة الراوي ولا نشترط مذهبه؛ فإن كان ثقة أخذنا بروايته؛ سواء كان إمامياً، أو غير إمامي، وإن كان ضعيفاً أو وضّاعاً أو غير ثقة لم نأخذ بروايته؛ سواء كان إمامياً، أو غيره.

وعليه فإذا كان الراوي ثقة، فإننا نحترمه ونحترم روايته، ونجعلها مدركاً لأحكامنا الشرعية. وبهذا فإن عندنا جملة من الأحكام التي يقع في طريقها رواة موثّقون من أهل السنة، ونحن إنما نأخذ برواياتهم لهذه العلّة. وهذا أمر لا يمكن أن ينكره أحد، لكننا كما ذكرنا إنما نقدم الروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام على غيرها من الروايات؛ لأنهم عدل الكتاب الذين شهدت لهم الرسالة والنبوّة بأنهم كذلك: «**إني مخلّف فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، ما إن تمسّكتم**

الأعرج. رافضي ضعيف. تحفة الأحوذي ١٠: ١١٤.

١٣ ـ وقال الآجري: سألت أبا داود عن تليد بن سليمان، فقال: رافضي خبيث. سؤالات الآجري لأبي داود ٢: ٢٨٧.

١٤ ـ جابر. رافضي واهٍ. تنقيح التحقيق في أحاديث التعليق ١: ٢٤٣.

١٥ ـ جعفر بن سليمان الضبعي. رافضي ضعيف. تخريج الأحاديث والآثار ١: ٢٨٦.

١٦ ـ عباد بن يعقوب الرواجني. قال ابن حبان فيه: رافضي داعية، يروي المناكير عن المشاهير، فاستحقّ الترك. تخريج الأحاديث والآثار ١: ٣٨٣.

١٧ ـ عبد الله بن عبد القدوس التميمي السعدي الرازي. قال ابن معين خبيث رافضي ليس بشيء. قال النسائي: ضعيف. خلاصة تذهيب تهذيب الكمال: ٢٠٥.

١٨ ـ عيسى بن مهران. قال في (الضعفاء): كذاب رافضي. فيض القدير شرح الجامع الصغير ٢: ٣٦١ / ١٨٥٤.

بهما لن تضلّوا بعدي أبداً. ولقد نبّأني اللطيف الخبير أنهما لن يفترقا حتىٰ يردا عليَّ الحوض»[١]، وإلّا ففي واقع الأمر هناك احترام منّا لرواة أهل السنة الثقات، ولبعض مشايخهم المعتدلين.

وهذا هو السبب في أننا نجد أن بعضاً من فقهائنا قد تلمذوا لمشايخ من أهل السنة كما ذكرنا، وكذلك فإن هنالك بعض من علماء أهل السنة قد تلمذوا لمشايخ من علماء الشيعة. وفي هذا المعنى فإنني أذكر أن السيد عبد الحسين شرف الدين ﷺ في كتابه (الفصول المهمة) ينقل فصلاً ممتعاً ورائعاً حول تبادل النقل والرواية والتلمذة بين المذاهب الإسلامية.

المبحث الرابع: كيف يغفل الإنسان عن ذكر ربه

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿فَهُمْ غَافِلُونَ﴾، وهذا يعني أن هؤلاء إنما أُنذروا؛ لأنهم أعرضوا عن الاستفادة من هذه الرسالة، وابتعدوا عن تعاليم السماء؛ ولذا فإنهم قد اعتبروا غافلين.

أقسام الغفلة

والغافل يمكن أن يتصوّر على نحوين:

الأول: الغافل القاصر ومصاديقه

وهذا لا اشكال في أنه لن يطاله العذاب؛ لأنه لم يمتنع عن الاستفادة من عطاء الله جل وعلا، ولم يعرض عنه لأنه يستطيع أن يستفيد لكنه مع ذلك امتنع وأعرض، بل إنه لا يتمكّن أساساً من الاستفادة من هذا العطاء السماوي. وذلك

---

(١) فضائل الصحابة (أحمد بن حنبل): ١٥، ٢٢، مسند أحمد ٣: ١٤ وغيرها، سنن الدارمي ٢: ٤٣٢، وغيرها.

له عدّة أشكال:

الأول: ما لو كان هذا القاصر يعيش في صحراء أو في مكان ناءٍ ليس فيه وسائل الاطّلاع على المعارف الإسلاميّة، الأحكام الشرعية، وليس هنالك من يبلغه بهذا الدين أو الدعوة أو الرسالة. أي ليس هنالك أي مصدر من مصادر المعرفة. فهذا بطبيعة الحال قاصر لأنه أساساً لم يتمكّن من أن يصل إلى المعلومة بحكم وضعه أو بحكم بيئته التي يعيش فيها.

الثاني: وكذلك يمكن أن يتصور الغافل بالنسبة للإنسان الذي لم يمتعه الله تبارك وتعالى بالقابلية على الفهم أو الاستيعاب أو المعرفة، مع وجوده بالقرب من مصادرهما.

الثاني: الغافل المقصّر

وهو الشخص الذي منحه الله تبارك وتعالى القابلية على الفهم والمعرفة والتعلّم، وإضافة إلى ذلك هو يعيش في مكان قريب من مصادر المعرفة، كالمكتبات أو العلماء أو الأشخاص المثقّفين الذين يمكن له أن يسألهم عن معالم دينه، وعن حدود شريعة الله جل وعلا، ثم لا يفعل كل ذلك. فهو هنا لا يستغلّ عقله ولا قابلياته الذهنية أو المعرفية التي وهبه الله تبارك وتعالى إيّاها، ولا يقصد عالماً ليسأله أو مكتبة ليقرأ فيها فيعرف الحق والحقيقة. وبهذا فهو لم يحاول حتى أبسط محاولة كي يستفيد من كلّ هذه الأُمور، أو هذه المنابع المعرفية. فمثل هذا لا يمكن إلّا أن يعتبر غافلاً عامداً مقصّراً بحقوق نفسه وبحقوق ربّه؛ لأنه إنما يتعمد ألّا يستفيد من هذه المنابع المعرفية الكثيرة التي وفرها الله تبارك وتعالى وهيأها له.

الجمود على الموروث

وفي حقيقة الأمر فإن هذه هي المصيبة التي ابتلي بها المسلمون؛ ذلك أن الفرد المسلم ينبغي عليه أنه عوضاً عن أن يأخذ عقيدته أو وجهة نظره عن الآخرين عن طريق وراثي، أو عن طريق كتاب هو ليس من كتب أُولئك الذين أخذ انطباعاً عنهم، فإن عليه أن يقرأ وأن يأخذ كل ذلك من مصادره الصحيحة. فما المانع في أن يقرأ الإنسان حتى يصل إلى الحقيقة دون أن يجمد على الموروث الذي أخذه عن آبائه؟ إن البعض يكفّرون طائفة كبيرة من المسلمين بمجرد أنهم يرونهم يقفون على قبر من القبور ليزوروه أو ليقرؤوا له شيئاً من القرآن الكريم، فيتهمونه بالكفر والإشراك؛ لأنهم يصوّرون الوقوف على القبر، أو على العتبات المقدّسة على أن فيه مظنّة العبادة لغير الله تبارك وتعالى، ومن يعبد غير الله فهو مشرك.

المساءلة الإلهيّة عما تخطّه أيمان القوم

وهؤلاء في واقع الأمر يضعون أنفسم في مطبّات هم في غنى عنها؛ لأنهم يكفّرون مسلماً لا لسبب سوى أنهم أخذوا هذا الحكم عن آبائهم وأجدادهم دون أن يقرؤوا كتبه، بل حتى كتبهم هم أنفسهم؛ لمعرفة حقيقة هذا الأمر[1]. ونحن نقول لمثل هذا: لماذا لا تقرأ في كتب الخصم وفي كتبك أنت لتعرف وجه الحق والحقيقة؟ إن عليك أن ترجع إلى المكتبات وإلى رجال الدين من المذاهب الإسلامية الأُخرى غير المذهب الذي أنت عليه لمعرفة ما يكتب عن العتبات المقدسة لتكوّن أنت من بعد ذلك وجهة نظرك الخاصة بك، وحينئذٍ ستكون وجهة

---

(١) سيأتي في محاضرة (القرآن والمنهجية الأكاديمية في البحث) بيان حديث رسولنا الأكرم ﷺ: «إذا قال الرجل لأخيه: يا كافر فقد باء بها»، وكذلك آراء بعض علماء أهل السنة في هذا المجال.

نظر صحيحة مبتنية على الدليل وعلى البرهان.

ثم إن عليك أن تتحقق من الحكم الشرعي الكذائي الذي وصلك لترى ما إذا كان صاحبه الذي نقله لك ذا دليل ناهض يعضد هذا الحكم الذي حكم به، أو تلك الفتوى التي أفتى بها أم إنه ليس عنده ذلك الدليل، ولترى هل إن من نقل هذا الخبر أو هذه الرواية عنده مصلحة في نقلها، أم إنه ليس كذلك. وإلّا فإن الإنسان بخلاف هذا لا يهمه شيء سوى أن يحرق الدنيا ويمزّق وحدة المسلمين، وكلّ هذا مقابل أن يحصل على حفنة من النقود يبيع من أجلها دينه، ويبيع الحق والحقيقة. إن على الإنسان المؤمن أن يقرأ؛ لأنه عندما يقرأ فإنه حتماً سيصل إلى نتيجة. والإنسان في يوم القيامة يحتاج إلى المعذرية في كل ما يفعله في الدنيا كيلا يعرضه جلّ وعلا إلى عذابه.

والمعذّرية هذه لا يمكن أن يحصل عليها الإنسان إلّا إذا قرأ آراء الآخرين، واطّلع عليها وعلى ما ينقل في كتبهم؛ لأنه غداً حينئذٍ فقط سوف يعذّر أمام الله تبارك وتعالى حينما يريد أن يحاسبه، إذ أنه سوف يقول: يا رب لقد قرأت كتب الطائفة الفلانية أو المذهب الفلاني، فوجدت فيه كذا وكذا، وعلى ضوئه فقد حكمت بكذا وكذا. وبخلاف هذا فإن الله تبارك وتعالى سوف يعنّف هذا الإنسان ويعرّضه لأليم عقابه وعذابه؛ لأنه جلّ وعلا سوف يقول له: ألم أُعطِك العقل وقد تعبّدتك بك لتستفيد به ولتنتفع، ولتطّلع على ما يكتب الآخرون، ولتحقّق فيما وصلك ووصل غيرك[1]؟

---

(١) لقد استشهد المحاضر أكثر من مرّة بقول الشاعر:

وما من كاتبٍ إلّا ستبقىٰ ... كتابتُه وإن فَنِيَت يَداهُ

فلا تكتُبْ بكفِّكَ غيرَ شيءٍ ... يَسُرُّكَ في القيامة أن تَراهُ

تأويل مختلف الحديث ١: ٥٩، كتاب الغرباء: ١٦.

إن الواقع أن هناك مقاطعةً عجيبةً بين فرق المسلمين بحيث إنه لا يجد الباحث منصفاً منهم ممّن يتناول وسائل المعرفة فيما بين هذه المذاهب أو عندها إلّا ما ندر، وهم قليل.

المبحث الخامس: أهل البيت عليهم السلام وسورة (يٓس)

وكما ذكرنا في أول هذه المحاضرة فإن لسورة ياسين فضائل كثيرة قد ذكرتها الروايات الواردة عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم أو عن أهل بيت العصمة عليهم السلام، وفي فضل قراءتها، والآثار الإيجابيّة المترتّبة على ذلك، وأنها تقرأ على من يفارق الحياة خصوصاً في الليلة الأُولى التي تعقب النهار الذي يتوفّى فيه؛ ولذا فإن الحوراء زينب عليها السلام حينما خرجت إلى ساحة المعركة ـ بعد أن خيّم الليل بظلامه ـ لترى جسد أبي عبد الله الحسين؛ ذلك أن بعض القتلى الذين استشهدوا مع الإمام الحسين عليه السلام قد أخلاهم أبناء عشيرتهم من ساحة المعركة، فسعد بن حنظلة السعداني قد أخرجته عشيرته من ساحة المعركة من بين القتلى وأخذوه إلى مكان ودفنوه فيه.

وكذلك فعلت بنو تميم مع الحرّ بن يزيد الرياحي، فقد انتزعوه من أرض المعركة وأخذوه إلى المكان الذي هو مدفون فيه الآن. وكذلك الحال مع الحسن المثنى بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام الذي جُرح في المعركة، حيث جاء أخواله فقالوا: والله لا يصل أحد إلى ابن خولة وفينا عين تطرف. ثم أخرجوه من بين القتلى.

وهكذا فعلت مجموعات أُخرى من القبائل التي كانت في معسكر ابن سعد؛ حيث إنهم دخلوا أرض المعركة، وأخذوا قتلاهم ممّن استشهد مع الإمام الحسين عليه السلام، أمّا جثث الهاشميين وغيرهم ممّن لم تكن لهم قبيلة أو عشيرة قريبة

منه لتأتي إليه وتدفنه، فقد بقيت هنالك على أرض المعركة؛ ولذا فإن عائلة الحسين عليه السلام بعد أن خيم الظلام، وبعد أن بسط جناحه على أرض المعركة، خرجت تقدمها زينب عليها السلام لتزور جسد أبي عبد الله الحسين عليه السلام الذي أوصاهن قبل بدء المعركة بألّا يخرجن إليه إلّا بعد حلول الظلام، فقد أوصاهن مخاطباً أُخته العقيلة زينب قائلاً: «**يا أُختاه، اتقي الله وتعزّي بعزاء الله**»[1].

وكأن لسان حاله عليه السلام يقول لها: أُخية، أدنين عليكن من جلابيبكن، وإن البكاء أمامكن، فسيصبح صباح غد وسترينني جديلاً وبدمي غسيلاً. وعليك بهؤلاء المذاعير من الأطفال والنساء. وعلى أية حال فالعقيلة جينما وصلت جسد أبي عبد الله الحسين جلست عنده وقرأت له سورة (يٓس).

ثم التفتت زينب عليها السلام فلم تجد الرباب أُم الطفل الرضيع عبد الله، فخرجت تبحث عنها، وبينما هي على هذه الحالة إذا بفارس يدور حول الخيمة، فصاحت به: من أنت؟ قال: سيدتي أنا من معسكر عمر بن سعد، أمرني أن أحرسكم هذه الليلة. فاختنقت بعبرتها، وقالت: أبعد عين أبي الفضل أنت الذي تتولّى حراستنا؟

ثم توجّهت إليه قائلة: هل مررت بأرض المعركة؟ فقال: نعم سيّدتي. فقالت: هل رأيت هناك امرأة؟ قال: لا يا سيّدتي، لكنني سمعت هناك أنيناً، ولعلّها هي. فهرولت نحو أرض المعركة، وهي تنادي: ربابُ، أين أنت؟ فوجدتها جالسة، وقد أخذت جثّة رضيعها وأدنتها إلى صدرها، وهي تقول: بني، صدري يؤلمني، وقد درّ عليك. فالإمام الحسين عليه السلام حينما قُتل طفله عبد الله الرضيع، احتفر له بجفن السيف، وواراه في أرض المعركة؛ تجنبيا للنساء عن منظر مؤلم معه هو رضّ صدره بسنابك الخيل. لكن عمر بن سعد سأل جنوده عندما جلبوا له

---

(١) الإرشاد ٢: ٩٤، تاريخ الطبري ٤: ٣١٩، البداية والنهاية ٨: ١٩٢.

الرؤوس فقال: هناك رأس مفقود، فأين هو؟ قالوا: رأس من هو؟ قال: إن الحسين قتل له طفل اسمه عبد الله الرضيع، فأين رأسه؟ قالوا: بلغنا أن أباه احتفر له بجفن السيف، وواراه في أرض المعركة. فقال: انبشوا الأرض برماحكم، وأخرجوه واحتزّوا رأسه وجيئوني به.

وعلى أية حال فالرباب قد درّ صدرها على ابنها، وهذه علامة عند النساء، فإذا ما درّ صدر إحداهن كان دليلاً على أن رضيعها يطلب الرضاع، فلما أقبلت الحوراء عليها السلام تنادي الرباب، أجابتها، فقالت لها زينب عليها السلام: ما أخرجك في جوف الليل؟ قالت: سيدتي صدري آلمني، فأقبلت إلى ولدي عبد اللّه لعل فيه رمقاً من الحياة ليرتضع، لكنني وجدته مذبوحاً من الوريد إلى الوريد. فرجعت بها الحوراء وهي تحتضنه إلى صدرها، وما إن وصلت إلى مهده في الخيمة حتى راحت تطوف حوله:

خذت سلوتي وظلّيت اسالي ... بـرويحتي والدمـع هـالي
أدورن على ايميني وشمالي ... أهـز بـالمهد والمهد خالي

* * *

ولو تـراه حـاملاً طـفله ... رأيت بدراً يحمل الفرقدا



﴿٢٢٢﴾

القرآن والمنهجية الأكاديمية في البحث

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: في تفسير الآية

تقول الآية الكريمة: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾، وهذا المقطع الشريف يلتمس له المفسّرون وجهين، هما:

الأول: الإيمان بأن القرآن رسالة السماء

فبعض المفسرين يرون أن المراد من هذا المقطع الشريف هو أن هؤلاء يؤمنون بأن القرآن الكريم قد أنزلته السماء دستوراً لأهل الأرض. وكأنما في هذا المقطع الشريف ردّ على تقوّلات قريش التي كان يطلقونها وتهريجهم الذي كانوا يحاولون إشاعته بين الناس ضدّ الإسلام، وهي لون من الممارسات التي استعملتها قريش في بدء الدعوة. فأهل مكة عامّة، وقريش خاصّة حينما بُعث

(١) البقرة: ٤.

النبي ﷺ وراح يتلو القرآن في كل مكان يحلّ فيه وجدوا أن تأثير القرآن كان قوياً على سامعيه، وهو تأثير أجبر قريشاً على معارضته. وقد سلكوا في ذلك طرق عدة لتحقيقه، ومن هذه الطرق أنهم أخذوا يشيعون أن هذا القرآن ليس نازلاً من السماء وإنما هو من عند الرسول الأكرم ﷺ، أو أنه عبارة عن نصوص أدبيّة ابتكرها هذا الشخص الذي ادّعى النبوة ـ على حد زعمهم ـ ويريد أن يحكم بها تلك المنطقة.

الطابع القراني

والواقع أن هذا كلام تافه لا يستحق الرّد؛ ذلك أن كلّ نص من النصوص القرآنية كان يحمل طابع الحالة السائدة، ولتقريب المعنى نضرب هذا المثال، وهو لو أن شخصاً قبل ما يقارب المئة سنة تحدث عن التلفاز، وبطبيعة الحال فإنه لم يكن في ذلك الوقت من يعرف ما هو التلفاز، لأنهم لم يكونوا قد رأوه حينئذٍ، فإن من يسمعه سوف يستنكرون هذا منه وينكرونه عليه، ويَسِمونه بالادّعاء. أما في وقتنا الحاضر فإن أي شخص يتحدث عن التلفاز فإنه لا يلاقي ذلك الاستهجان والاستخفاف أو التكذيب اللذين كان سيلاقيهما فيما لو أنه تحدّث عنه قبل مئة سنة كما ذكرنا؛ ذلك أنهم في عصر التلفزيون الذي يعرفه كل من على وجه هذه الأرض.

وهذا الحال وقع مع القرآن الكريم؛ ذلك أنه حينما أنزله الله تبارك وتعالى كان فيه معالجة لكثير من القضايا الإنسانية ومشاكل البشرية وهمومها، وهي معالجات لم تكن معروفة إطلاقاً آنذاك في شبه الجزيرة العربية؛ فعالج جوانب علمية، وأُخرى اجتماعية، وثالثة فلسفية وغيرها من الجوانب الأخلاقية التي كانت بجميعها مدعاة للتساؤل حول المصدر الذي استقى منه النبي الأكرم ﷺ

تلك المعارف، أو العلوم، وحول مكان دراسته.

ومعلوم أن الإنسان هو ابن محيطه وابن بيئته التي ينشأ فيها، وثقافته لا تتعدى ثقافة وجوه المحيط الذي يعيش فيه وذلك الجو الذي نشأ وترعرع تحت ظلّه. ولهذا فإننا نجد أن وجوه المحيط تؤثّر تأثيراً كبيراً على ثقافة الفرد، وسعة اطّلاعه ومنظومته المعرفية والفكرية؛ فمن المدرسة إلى المعهد إلى الشارع، وما إلى ذلك من وجوه المحيط التي عادةً ما يكون لها ذلك الأثر الكبير والبالغ في حصول كل ذلك عند الفرد. وبالرجوع إلى المجتمع الذي كان يعيش فيه الرسول الأكرمﷺ فإننا نجده مجتمعاً خالياً من كل هذه الموارد الثقافيّة والمعارف والعلوم، فكل هذه الأشياء لم يكن لها وجود؛ حتى يمكن أن يقال: إن النبي الأكرمﷺ قد أخذها من أهل مكة.

والجميع يعروفون أن الثقافة التي كانت عند الرسول الأكرمﷺ ثقافة عاليةً سابقة لزمنها، فإذا أضفنا إلى هذا أنهﷺ كان نبيّاً أُمّيّاً، وأن الأُمي عادة ليس عنده منافذ تطلّ به على خضمّ المعرفة إلاّ أن يلهمه الله تبارك وتعالى تلك المعرفة عن طريق منفذ غير طبيعي لعرفنا أن ذلك وحي وإلهام من الله تبارك وتعالى.

منافذ العلم

ومن هذا التقرير فإننا نجد أن المنافذ التي تطلّ بالإنسان على الكون المعرفي يمكن أن تقسم إلى قمسين:

القسم الأول: المنافذ الطبيعية

وهي المنافذ التي يلتمسها الإنسان بشكل طبيعي من خلال سعيه الحثيث لطلب العلم، ومن تتبعه ودراسته على أساتذة يجلس أمامهم فيقرّرون عليه

الدروس والعلوم والمعارف، فيتلقّاها ويختزنها ويكتنزها. وبتطوّر هذه المعرفة فإنه يكون قد ألمّ بقدرٍ كبير أو ضئيل حسب ما تكون عليه طاقته وتحمله وقابليته على استيعاب تلك المعارف.

الثاني: المنافذ الميتافيزيقية (الغيبية)

وهي المنافذ التي تكون عبارةً عن وحي وإلهام غيبيّين من الله تبارك وتعالى. وهذا هو الثابت في حقّ الأنبياء عليهم السلام، وفي حقّ أوصيائهم المعصومين عليهم السلام الذين ألهمهم الله تعالى المعرفة، وعلمهم كثيراً من المعارف والعلوم.

وعليه فإن القرآن الكريم بما يحتويه من معالجات ضخمة لحيثيّات الحياة كافّة ولمشاكلها فإن هذا يقودنا إلى القول بأنه كتاب سماوي. فهذه المعالجات الكبيرة التي يتوفّر عليها بطبيعة الحال تأخذ برقابنا إلى الإقرار بذلك، وبأنها دليل واضح وقوي تؤكّد أن هذا الكتاب هو من عند الله تبارك وتعالى، وقد أنزله على رسوله محمد صلى الله عليه وآله وسلم. وهذا المعنى ـ كما هو معلوم ـ واضح، ولا يحتاج إلى أخذ ورد، أو إطالة في الكلام حوله أبداً.

المعنى الثاني: إيمانهم بضخامة مضامين القرآن الكريم

إن هذه المسألة تعتبر مسألةً هامّةً، وينبغي التوقّف عندها، والإشارة إليها، وعدم إغفالها.

إشكال حول آية من القرآن

وهنا ربما يتساءل أحد فيقول: كيف يدعو أحد إلى ضخامة نصّ ضمن كتاب يقول: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾[1]، في حين أننا نرى الكثير من

---

(١) السجدة: ٧.

المخلوقات غير الحسنة بل القبيحة والبشعة من قبيل أبو الجعل وعجز القرد والخنفساء وغيرها من الحشرات والكائنات المستقبحة؟ وماهو الجمال في كل هذه الأشياء حتى يقول القرآن مثل هذا؟

وجواب هذا الإشكال هو أن يقال: إن الواقع يُملي علينا أن نقول بأن هذا الكلام ما هو إلّا مهاترة لا تستحقّ الالتفات إليها أبداً، لكن لمّا كان الأمر يدعو إلى أن يقال: إن هذا الاعتراض حقّ ولا يمكن الردّ ـ في حال أننا لم نردّ عليه ـ فإننا نجد أنفسنا مضطرّين بطبيعة الحال إلى أن نجيب عليه.

كلمة ﴿أَحْسَنَ﴾ من المشتركات اللفظية

إن المطّلع على أحوال اللغة يعرف أن كلمة (أحسن) من المشتركات اللفظية التي تصدق على أكثر من معنى، فمن معانيها:

الأول: الإتقان

إن من معاني هذه الكلمة الإتقان، فهي تستعمل في كلام العرب بهذا المعنى، أي أن معنى ﴿أَحْسَنَ﴾ هنا: أتقن. وبناء عليه يكون معنى النصّ الشريف: الذي أتقن خلق كلّ شيء. وهذا يعني أن كلّ ما خلقه الله تبارك وتعالى في هذا الكون المترامي الأطراف، الشاسع الأبعاد فهو متقن الصنع ليس فيه أي خلل أو نقص.

وعليه فما من شيء في هذا الكون ممّا خلق الله تبارك وتعالى إلّا وهو متقن الصنع لا ينقصه شيء مما فيه تحقيق لحياته ووجوده وتجاوبه مع البيئة التي يعيش فيها تأثّراً وتأثيراً. وعليه فهذا هو المعنى المراد من قوله تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾.

الثاني: الجمال

وكذلك من معانيها الجمال، فهي من الممكن أن تأتي بهذا المعنى. وهي حتى

وإن جاءت بهذا المعنى، فإننا يجب ألّا نغفل أن الجمال يخضع بطبيعته للذوق؛ ذلك أن كل شخص منا يحبّ لوناً خاصّاً من الجمال، وهذا ما يعبر عنه أحد الشعراء بقوله:

تعشّقتها شمطاء شاب وليدُها ... وللناس فيما يعشقون مذاهبُ (١)

فمقاييس الجمال مختلفة غير ثابتة، وليس هنالك مقياس يتفق عليه الناس جميعاً في تحديد حقيقة الحسن أو الجمال. وممّا يروى في هذا المجال أن عيسى ابن موسى كان يحبّ زوجته حبّاً شديداً، فقال لها يوماً: أنت طالق ثلاثاً إن لم تكوني أحسن من القمر. فنهضت واحتجبت عنه وقالت: طلقتني. وبات بليلة عظيمة، فلما أصبح غدا إلى دار المنصور، فأخبره الخبر، وأظهر للمنصور جزعاً عظيماً، فاستحضر الفقهاء واستفتاهم، فقال جميع من حضر: قد طلّقت. إلّا رجلاً واحداً من أصحاب أبي حنيفة، فإنه كان ساكتاً، فقال له المنصور: ما لك لا تتكلّم؟ فقال له الرجل: **﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ * وَطُورِ سِينِينَ * وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ * لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾** (٢)، فالإنسان أحسن الأشياء، ولا شيء أحسن منه. فقال المنصور لعيسى بن موسى: الأمر كما قال الرجل، فأقبل على زوجتك.

وأرسل أبو جعفر المنصور إلى زوجة الرجل أن أطيعي زوجك ولا تعصيه؛ فإنه لم يطلّقك (٣).

---

(١) ديوان الصبابة: ٨٥. (٢) التين: ١ ـ ٤.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٢٠: ١١٤، أحكام القرآن ٤: ٤١٥، تفسير الآلوسي ٣٠: ١٧٥. بل في (صبح الأعشى) ٢: ٧ قوله: قد نصّ أصحابنا الشافعيّة على أنه لو قال لزوجته: إن لم تكوني أحسن من القمر فأنت طالق. لم تطلق وإن كانت زنجية سوداء، فقد قال تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ غافر: ٦٤.

فهذه الآية الكريمة شاملة للقمر ولغيره، وبهذا فإن هذا الفقيه قد حكم بأن زوجته ليست بطالق.

إذن فمقاييس الحسن والجمال تختلف من شخص لآخر دون أن يكون هناك مقياس موحّد يُعطي به القرآن قاعدة عامّة؛ وبهذا فإن القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ يعني الإتقان، فالله تبارك وتعالى قد أتقن خلق كل شيء حتى الخنفساء؛ إذ أن لها رسالة في هذه الحياة. ولهذا فإننا بدأنا نسمع تصريحات لعلماء الحياة والبيئة تؤكّد على أنه لا ينبغي أن ينقرض أي نوع من أنواع الحيوانات، ومن ضمنها الحشرات؛ والسبب في هذا أن انقراض أي نوع سوف يؤدّي إلى حدوث اختلال في التوازن البيئي.

وهكذا فالعلم يؤكّد على أن أي جنس من الحيوانات يجب ألّا ينقرض؛ كي تبقى البيئة على طبيعتها وسلامتها، وإلّا فإن التوازن الكوني سوف يختلّ؛ لأنه توازن مرتبط بكلّ ما هو موجود ضمن هذا الكون وتحكمه معادلته الكونية الشاملة؛ حيث إن كلّ موجود له وظيفة في هذه الحياة هو ميسّر لها، وله رسالة موكول إليه أمرها فيبلّغها ويؤدّيها؛ سواء كان حيواناً مفترساً أو غير مفترس، أو ما إلى ذلك.

وهكذا فإننا نرى أن التوازن البيئي أو التوازن الكوني يتطلّب إبقاء الحيوانات وغيرها من النباتات على ما هي عليه. وهذه النظرية صحيحة لا تحتاج إلى مناقشة؛ ذلك أن الله تبارك وتعالى لم يخلق شيئاً عبثاً، بل إنه جلّ وعلا قد جعل لكل شيء خلقه رسالة ووظيفة في هذه الحياة. ومما يروى في هذا المجال أن الإمام الصادق عليه السلام كان جالساً بجانب المنصور، فجاءت ذبابة ووقعت على أنف المنصور، فدفعها عنه فرجعت، ثم دفعها عنه ثانية ورجعت، وهكذا ثلاث مرّات،

فقال للإمام عليه السلام: يا أبا عبد الله، لمَ خلق الله الذباب فقال عليه السلام له: «ليذلّ به الجبابرة»[1]. أي أمثالك.

فالواقع إن كلّ كائن له وظيفة ورسالة في هذه الحياة؛ لأنه لم يخلق عبثاً، بل إن الحكمة الإلهية اقتضت وجود مثله، وهذا الكائن الحيواني أو النباتي لا يمكن له أن يؤدّي دوره بالشكل الصحيح والواقع ما لم يكن هنالك إتقان في صنعه، وإلّا فإنه حتماً سوف لن يؤدّى وظيفته ورسالته اللتين خلقه الله تبارك وتعالى من أجلهما. وعليه فلابدّ من أن يكون هناك إتقان في عملية الخلق حتى يصار إلى هذا التقريب.

إذن فليس هنالك من شيء لم يتقن الله تبارك وتعالى صنعه، أما هؤلاء المعترضون فلا يعرفون سرّ الإتقان، أو بالأحرى لا يعرفون أسرار التعبير القرآني؛ ولذا فهم يعترضون على مثل هذه التعبيرات أو الأساليب القرآنية التي لا يمكن لأحد أن يعرفها إلّا من سبر غور اللغة العربية. وهذا هو السبب الذي من أجله مُنع أي إنسان من تفسير كتاب الله تبارك وتعالى، أو معالجة التعبيرات القرآنية الواردة فيه ما لم يكن مختصاً في هذا المجال ـ أي علم اللغة ودراساتها ـ ليتمكن من فهم النصّ القرآني فهماً صحيحاً، وإلّا فإن غير المختصّ سوف يُسيء القرآن الكريم، وإلى العلم وإلى الذوق.

وهذا الجانب في واقع الأمر هامّ جدّاً يجب الالتفات إليه أو الانتباه إلى خلفيّاته دون أن يكون هناك تحسّس تجاهه، فكل مسلم ينبغي أن تكون عنده غيرة على دينه وعلى كتاب الله، وعليه ألّا يثير القرآن ما لم يكن له إلمام كافٍ بجميع العلوم ذات العلاقة بالقرآن الكريم وتفسيره.

---

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٣٧٥، سير أعلام النبلاء ٦: ٢٦٤.

مبلغ العلم الإنساني

ثم إننا من ناحية أُخرى نقول: ما هو مقدار علم الإنسان الضعيف المتواضع المعرفة، المحدود القدرة بأسرار الكون والأشياء حتى يُعطي لنفسه صفة المشروعية في الاعتراض على التعبيرات الإلهية، ويُضفي على اعتراضاته صبغة علميّة؟ إن من الغرور أن يقول شخص: أي جمال ذلك الذي يوجد في الخنفساء؟ وهذا إنما عبرنا عنه بأنه غرور لأنه يجب على الإنسان أن يعرف قدره[١]، وأن يلتفت إلى حقيقة ما هو عليه من ضعف ومحدودية في العقل والتفكير والخبرات والإمكانيات قبل أن يُشكل مثل ذلك الإشكال، أو يستفهم مثل ذلك الاستفهام.

إن الإنسان كما هو معلوم ضعيف[٢] ومحدود القدرة على مستوياتها كافّة، ومادام كذلك فإنه ليس له الحق في أن يعترض ما لم يكن من ذوي الخبرات أو أصحاب الاختصاص في اللغة؛ حتى يكون اعتراضه علمياً وليس اعتراضاً ارتجالياً ناشئاً عن جهل أو من معاندة. يذكر الكاتب محمد الغزالي في كتاب له اسمه (ظلام من الغرب) أن «چارلز» ـ وهو ملحد، والذي يعبر عنه هو بأنه مهندس عبقري ـ كان يشرف على جملة من صناعات المحرّكات، وقد وضع من أمواله الخاصّة جائزة سنوية ضخمة تبلغ ثلاثين ألف دولار آنذاك لمن يقدر أن يعرف ماهو السرّ الذي يجعل الزرع يأخذ ثاني أوكسيد الكاربون والماء وبعض

---

(١) قال أمير المؤمنين عليه السلام: «رحم الله امرأ عرف قدره، ولم يتعدَّ طوره». عيون الحكم والمواعظ: ٢٦١، شرح كلمات أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: ٣٠ / ٣٥.

(٢) قال عزّ من قائل: ﴿يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الإِنْسَانُ ضَعِيفاً﴾ النساء: ٢٨، وقال جلّ شأنه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ الحج: ٧٣.

العناصر الأُخرى ويحوّلها ـ بمساعدة ضوء الشمس ـ إلى موادّ سكرية يستخدمه كوقود أو طاقة لإدامة حياته، أي أنه يعيش عليها. معتقداً بأنه لو تمكّن الإنسان من معرفة سر ذلك، فإنه سوف يتغيّر وجه العالم.

لكن لم يتمكّن أحد من تفسير الآلية التي يتمّ بها هذا الأمر، أو بيان الخطوات التي تتّم عبرها حتى الآن. صحيح أن العلماء عرفوا أن هذه العملية تتمّ بوجود الهواء ومساعدة الضوء، وأنهم أطلقوا عليها عملية البناء الضوئي أو عملية التركيب الضوئي، لكنهم حتى الآن لم يتمكّنوا من معرفة الخطوات التي تتم بها هذه الآليّة وكيف تتم. فالله تعالى حينما يقول: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾[1]، فإن هذه الآية الكريمة تقرّر أن الإنسان يجب على كل حال أن يقرّ بنقصه، وأن يعترف بقدرته المحدودة وعدم تمكنه من معرفة كل أسرار الكون، وأن يعترف بأن هناك خلف كل هذا الإبداع والإتقان خالقاً مبدعاً حكيماً عظيماً، ليس هناك من حدّ لإبداعه ولا لإتقانه.

وعليه فلا ينبغي أن يأتي أحد ما فيستهين بمخلوق من مخلوقات الله تبارك وتعالى؛ لأن هذه الاستهانة إن دلّت على شيء فإنما تدلّ على غرور ذلك الإنسان وجهله، وعدم فهمه ومعرفته بأساليب التعبير القرآنية، أو عدم فهمه بحقيقة نفسه. وهذا الغرور لا ينبغي أن يكون من الإنسان؛ لأنه مهما بلغ فهو ضعيف ومحدود القدرة[2]، بل هو غير قادر فعلاً.

وعليه فإن قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ يعني أن هؤلاء يؤمنون بالمضامين الضخمة للقرآن الكريم، ويؤمنون بأن في هذا الكتاب

---

(١) الإسراء: ٨٥.

(٢) يقول أحد علماء الفلك: كلما ازددنا اكتشافاً للكون ازددنا جهلاً به.

السماوي المقدّس علماً كثيراً، وبأنه دستور شامل فيه عطاء لا حدود له. وبطبيعة الحال فإن هذا العطاء يختلف باختلاف المتلقّي وقابليته على الفهم والاستيعاب والتحليل، فالكأس حينما يصار إلى ملئه بالماء، فإنه لا يمكن أن يستوعب إلّا بمقدار حجمه، أمّا ما فضل من الماء بعد ذلك فسوف يراق دون أن يتمكن ذلك الكأس من استيعابه، أو الحفاظ عليه.

وكذلك الناس في مسألة تلقّي القرآن الكريم؛ فهذا الكتاب المقدّس شأنه مع الناس لا يُخطىء هذا النوع من التقريب ولا يعدوه، فكل إنسان يفهم من القرآن شيئاً، وربما يكون هذا الفهم مخالفاً لمراد القرآن الكريم واستعمالاته؛ ولهذا السبب فإننا قلنا بأن القرآن يجب ألّا يثيره إلّا ذوو الاختصاص الذين يتوفرون على خلفية علمية ولغوية كافية للتعامل مع النصوص القرآنية وتوضيحها وبيانها وفهمها.

وكلما كانت القابلية البشريّة ضخمة كلّما استطاع صاحبها أن يأخذ عطاء ضخماً من القرآن الكريم؛ يقول تبارك وتعالى في كتابه الحكيم: ﴿**أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا**﴾[1]، فإن من يملك حجماً كبيراً من المعرفة، وقابليّة على الفهم أكبر، واستعداداً علمياً واسعاً فإنه حينما يتفاعل مع القرآن الكريم يتفاعل معه تفاعل المستفيد الذي يستذوق عطاءه، فيأخذ منه بقدر ما يمكن، وبالنتيجة فإنه سيكون عطاء ضخماً لا حدود له ولا غاية. وبعكسه ذو المعرفة المحدودة، أو ذو التفكير المتواضع، فإنه سوف يأخذ منه عطاء محدوداً على قدر ما يملك من قابلية عقلية أو ذهنية، أو استعداد فكري، أو المقدار الموجود عنده من العلم والمعرفة الذي يتعامل به مع القرآن الكريم.

---

(١) الرعد: ١٧.

وعليه فإن على الإنسان ألّا يغترّ أو أن يغرّ بنفسه، بل إن عليه أن يتواضع، وأن يرجع إلى ذوي الاختصاص قبل أن يُشكل على كلام الله تبارك وتعالى.

وبهذا فإن الله تبارك وتعالى في هذا المقطع الشريف من آية المقام الكريمة يريد أن يدعو الناس إلى أن يؤمنوا بهذا القرآن الكريم، وبما فيه من مضامين إيماناً مطلقاً ولو على نحو الإجمال من حيث قابلياتُهم آنذاك على فهم ما يتضمّنه القرآن الكريم.

نماذج من عقلية المساومة في الإيمان

وهنا نقطة لابدّ من إثارتها والإشارة إليها، وهي أن بعض من آمن أو أراد أن يؤمن في زمن النبي الأكرم ﷺ كانوا يريدون ثمناً لإيمانهم؛ فنجد أن بعضهم يساوم الرسول الأكرم ﷺ على إسلامه، أو يساوم الحكام على مساندته لهم إزاء عرض دنيوي، ومن ذلك نذكر ثلاثة نماذج هي:

أولاً: أنموذج عامر بن الطفيل مع رسول الله ﷺ

قدم كلّ من أربد بن قيس، وعامر بن الطفيل المدينة المنوّرة على رسول الله ﷺ، وهو جالس بين أصحابه، فجلسا بين يديه، فقال عامر بن الطفيل: يا محمد، ما تجعل لي إن أسلمت؟ فقال له رسول الله ﷺ: «**لك ما للمسلمين، وعليك ما عليهم**». لكن عامر بن الطفيل رفض ذلك وقال له ﷺ: أتجعل لي الأمر من بعدك إن أسلمت؟ فقال ﷺ: «**ليس ذلك لك ولا لقومك، ولكن لك أعنّة الخيل**». قال: لنا الآن أعنّة الخيل بنجد، اجعل لي الوبر ولك المدر. فقال ﷺ: «**لا**»[1].

---

(١) الطرائف في معرفة مذاهب الطوائف: ٣٩٥ ـ ٣٩٦. دلائل النبوّة ٤: ١١٣٧ ـ ١١٣٨. الفائق في غريب الحديث ١: ٢٥٢. الجامع لأحكام ٩: ٢٩٧.

وهذا في واقع الأمر لا ينمّ إلّا عن شيء واحد هو أن هؤلاء يملكون ما يمكن أن نسميه بعقلية المساومة، وهي التي يعبّر عنها القرآن الكريم بقوله: **﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾**[١].

ثانياً: أنموذج عمرو بن العاص ومعاوية

وهذه العقليّة بقيت سائدة حتى بعد ارتحال الرسول الأكرمﷺ إلى الرفيق الأعلى، ومن الشواهد على هذا ما حدث من مهازل في قضية التحكيم بعد أن اضطر معاوية إلى مخادعة ابن العاص، واضطرّ ابن العاص إلى مخادعة معاوية؛ مما أدّى إلى حصول مسألة التحكيم وما فيها من مهازل تأريخية حدثتنا عنها المصادر المختصّة. وهكذا استطاعوا أن يمرّروا كلّ خداعهم ومساوماتهم على السذّج والجهلة من الناس وإليهم عبر مخطّطاتهم التي تعتمد الخداع والمكر والغدر؛ حتى يتمكّنوا من أن يصلوا إلى مبتغاهم ولو كان ذلك على حساب الحقّ والحقيقة وعلى حساب الإسلام.

والمصيبة إنما تكمن في هذه القاعدة الجاهلة التي تصفّق وراء قادتها، وتطبّل لهم وتزمّر؛ فتضفي على كل تصرّفاتهم ـ سواء كانت سليمة أو غير سليمة ـ نوعاً من المشروعية التي كانوا يستمدّونها من رأي الجمهور، ويسعون إلى تحصيلها. وهكذا تحوّلت مسألة التحكيم إلى مبدأ مساومة، فمعاوية حينما رأى اشتداد الأمر، وأن جيش الإمامعليه السلام قد قارب النصر، أراد أن يفرّ من المعركة، فالتقاه عمر ابن العاص وقال له: إلى أين، وقد قتل عشرات الآلاف من أجلك؟ أي أنه لا

---

(١) الحجرات: ١٧.

ينبغي له أن يعتزل الأمر في هذه اللحظة، فعليه أن يتولّى الأمر، ويتحرك في إسقاط هذا النصر الذي أحرزه جيش الإمام ﷺ. يقول معاوية: فتذكّرت عند ذاك أبيات ابن الأطنابة:

أبت لي عفّتي وأبى بلائي ... وأخذي الحمدَ بالثمن الربيحِ

وإقدامي على المكروه نفسي ... وضربي هامةَ البطل المشيحِ

وقولي كلّما جشأت وجاشت ... مكانك تحمدي أو تستريحي

وهنا طلب معاوية من ابن العاص أن يدبّر له مكيدة يستطيع بها أن يحوّل انتصار أمير المؤمنين ﷺ إلى هزيمة، حيث إنه التفت إليه وقال له: ما في مخبأتك؟ قال: مُرْهم، فليرفعوا المصاحف. فلمّا رفعوها تغيّر الأمر[١]، وهكذا ابتكروا قضية رفع المصاحف وقضية الحكمين. وكما هو معروف فإن أبا موسى الأشعري قد دخل في هذه القضية ممثّلاً جيش الإمام أمير المؤمنين ﷺ، وأبو موسى مع ما له من هنات وما له من مواقف مخذّلة عن الخليفة الشرعي وارتداد في هذا المجال، فإنه لا يمكن الاقتراب منه على رأي كثير؛ لأنه يمتلك حصانة أو مناعة بما أنه صحابي؛ وعليه فإنه ـ بحكم هذه الصحبة ـ لا يمكن الاقتراب من حماه بل لا يجوز ذلك. ومما يروى هنا أن الفرزدق سمع أبا برده يقول: كيف لا أتبختر وأنا ابن أحد الحكمين؟ فقال: أحدهما مائق[٢]، والآخر فاسق، فكن ابن أيهما شئت[٣].

(١) شرح نهج البلاغة ٢: ٢٢٣، ٨: ٥٩، ١٨: ٢٠٣، تنزيل الآيات على الشواهد من الأبيات: ٣٥٩، تفسير الثعلبي ٤: ٥٢.

(٢) المائق: الهالك حمقاً وغباوة. لسان العرب ١٠: ٣٥٠ ـ موق.

(٣) شرح نهج البلاغة ١٩: ٣٥٣، وفيه أيضاً أن رجلاً نظر إلى بعض ولد أبي موسى يختال في مشيته، فقال: ألا ترون مشيته، كأن أباه خدع عمرو بن العاص؟

وفعلاً فإنه بمجرد أن رفعت المصاحف، حصل التمزّق في جيش الإمام أمير المؤمنين عليه السلام الذي نبّههم إلى أن هذه الحركة حركة مشبوهة، لا يهدف منها إلى إصلاح، وإنما هي خديعة وتصرّف سطحي وساذج الهدف منه السيطرة على عقول المقاتلين ومشاعرهم. ثم بيّن لهم أن كتاب الله جلّ وعلا يحكم بينهم منذ البداية، وهنا صرخ أحدهم قائلاً: الحكم لله لا لك يا علي. فقال أمير المؤمنين عليه السلام: «**كلمة حق أُريد بها باطل**»[1].

والواقع والتاريخ يقولان: إن عمرو بن العاص استغل معاوية واستغل أبا موسى الأشعري، وباستغلاله سذاجة أبي موسى الأشعري وسطحيّته استطاع أن يخلع الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، وذلك بقوله له: كلّ هذه الفتنة من رجلين؛ أحدهما صاحبي والآخر صاحبك، فإن أردت الإصلاح فعليك أن تخلع صاحبك، ثم أخلع أنا صاحبي. فقال أبو موسىٰ: تتقدّم أنت. قال: وكيف لي أن أتقدّم عليك وأنت صاحب الفضل والسابقة؟

فاتّفقا علىٰ هذا، فصعد أبو موسىٰ الأشعري فخلع أمير المؤمنين علياً عليه السلام، ثم صعد عمرو بن العاص فقال: أُشهدكم أني خلعت صاحبه كما خلعه، وأُثبتُّ صاحبي معاوية. فقال له أبو موسىٰ: غدرت، وإنما مثلك ﴿**كَمَثَلِ الكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ**﴾[2]. فقال ابن العاص: إنما مثلك ﴿**كَمَثَلِ الحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً**﴾[3]، فكان هذا دليلاً على عدم كفاية أبي موسىٰ لهذا الأمر[4].

---

(١) المبسوط (السرخسي) ١٠: ١٢٥ ـ ١٢٦.

(٢) الأعراف: ١٧٦.　　(٣) الجمعة: ٥.

(٤) شجرة طوبىٰ ٢: ٣٤٨، تاريخ الطبري ٤: ٥٢، شرح نهج البلاغة ٢: ٢٥٦، تاريخ مدينة دمشق ٤٩: ٢٩٣.

ولم يكن هذا الأمر عن عدم تخطيط أو عشوائية، كما أنه لم يكن عن فراغ، بل إنه في حقيقته مساومة قصد من ورائها معاوية وعمرو بن العاص نفع كلٍّ منهما ولذا فإن عمرو بن العاص كان يقول لمعاوية:

معاويَ لا أُعطيك ديني ولم أنل ... به منك دنيا فانظرن كيف تصنعُ

فإن تعطِني مصراً فأربِح بصفقة ... أخذت بها شيخاً يضر وينفعُ

وما الدين والدنيا سواء وإنني ... لآخذ ما تعطي ورأسي مقنّعُ

ولكنني أُغضي الجفون وإنني ... لأخدع نفسي والمخادع يُخدعُ

أتمنعني مصراً وليست برغبة ... وإني بذا الممنوع قدما لمولعُ [1]

فكان الثمن أن أعطاه مصر طعمة له، كما طلب هو منه ذلك. وهكذا تتّضح لنا حقيقة المساومة في هذا الأمر. وحينما عزل معاوية عمرو بن العاص بعد ذلك من مصر وولّى عبد العزيز بن مروان عليها، أرسل إليه عمرو بن العاص في ذلك يخاطبه:

وأعطيت مصر لعبد العزيز ... وأعطيتني زِنة الخردلِ

وهو من قصيدته اللّامية التي كتبها إلى معاوية وبعث بها إليه، حيث يخاطبه فيها ويقول له:

معاويةُ الفضلَ لا تنسَ لي ... وعن موطن الحقّ لا تعدلِ

نسيتَ محاورةَ الأشعري ... ونحنُ على دومةِ الجندلِ

ولولاي كنت كمثل النساء ... تخاف الخروج من المنزلِ

تبعناك من جهلنا يابن هند ... على البطلِ الأعظمِ الأفضلِ

---

(١) تاريخ اليعقوبي ٢: ١٨٦، كتاب الفتوح ٧: ١٣٦، أنساب الأشراف: ٢٨٨، شرح نهج البلاغة ٢: ٦٦، وفيات الأعيان ٧: ٢١٥، وقعة صفين: ٣٩.

وحيث تركناك أعلى النفوس نـزلنا إلى أسفلِ الأرجـلِ
وإن كـان بـينكما نسـبةٌ فأين الحُسامُ من المـنجلِ
وأين الثريا وأين الثرىٰ وأين معاوية من علي[١]

وبالمناسبة أذكر أن هناك تعليقاً على هذه القصيدة لأحد علماء مصر، وهو محمد الأمير صاحب الحاشية على (المغني)، يذكر فيها هذه الحادثة حيث يعقّب عليها بقوله: كأن عمراً قد أدرك خطأ اجتهاده.

وعلى أية حال فإن عملية المساومة هذه لم تكن حكراً على عصر دون عصر بل إن لها أصحابها وأتباعها ورجالاتها في كل زمان وكل مكان؛ مع أن الذي ينبغي التوجّه إليه هو أن اتّباع الحقّ هو الثمن عينه، والثمن لا ثمن له، فلا يحتاج أن يطلب أحد ثمناً من الله تبارك وتعالى عندما يهديه إلى اتّباع الحقّ، أو يرزقه الاستقامة. فكل ذلك ثمن بنفسه؛ ولهذا فإنه لا يحتاج إلى ثمن. لكن كيف يمكن أن يكون العمل مع أصحاب عقليّات المساومة والنفوس المريضة، الذين كانوا يقولون للنبي الأكرمﷺ: إننا إنما نؤمن بك لأجل أن تعوّضنا عن ذلك، فما هو العوض الذي سوف تدفعه إلينا؟ هل هو الأموال، أم غيرها مما يمكن أن يدفع إزاء إيماننا؟ وهذا من وجهة نظرهم طبعاً.

ثالثاً: أنموذج الأعرابي مع رسول اللهﷺ

ومما يروى في هذا المجال: أن النبي الأكرمﷺ سأل أحد الأعراب أثناء

---

(١) شرح نهج البلاغة ٢: ٦١ – ٦٦. قال ابن أبي الحديد: «قال شيخنا أبو القاسم البلخيﷺ: قول عمرو له: «دعني عنك»، كناية عن الإلحاد، بل تصريح به، أي دع هذا الكلام لا أصل له؛ فإن اعتقاد الآخرة أنها لا تباع بعرض الدنيا من الخرافات. وقالﷺ: وما زال عمرو بن العاص ملحداً، ما تردّد قط في الإلحاد والزندقة، وكان معاوية مثله، ويكفي من تلاعبهما بالإسلام حديث السرار».

توزيع الغنائم: «هل تراني عدلت؟». فقال: لا والله، ما عدلت ولا قسطت. فتألّم الصحابة من هذا الردّ، لكنه ﷺ دخل إلىٰ الدار فأخرج حصّته الخاصّة به من الغنائم، فأعطاها للأعرابي، ثم سأله: «هل عدلت الآن؟». فقال له: أما الآن، فنعم[1].

وهذا هو المزاج السائد آنذاك عند الكثير من أصحاب العقليّات النفعية الذين جاؤوا إلى الإسلام لأجل مصلحة دنيويّة. وهذا التفكير يحتاج الإسلام إلى مدّة طويلة من الزمن ليتمكّن من أن يقتلعه من جذوره ويقضي عليه، أو أن يغيره، أو أن يغسل أدمغة هؤلاء لتخليصهم من هذا الراسب الجاهلي الذي يسيطر على عقولهم وتفكيرهم.

المبحث الثاني: الإيمان برسالات الأنبياء عليهم السلام

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾، والمقصود بهذا المقطع الشريف منها هو رسالات الأنبياء عليهم السلام الذين سبقوا الرسول الأكرم ﷺ. ومن خلال هذا المقطع الشريف نستوحي بضعة نِقاط، منها:

الأولى: المنهجية الموسوعيّة للقرآن الكريم

إن القرآن الكريم يتّسم بأنه ذو منهجية حقّة يخرج بنا عبرها عن مستوى التقوقع إلى مستوى الموسوعيّة بما يمكن أن توصف به من فضاء معرفي رحب وواسع. وهذا يعني أننا لسنا منغلقين على أنفسنا ولا منطوين عليها؛ فرسالة الإسلام ليست رسالة ضيّقة، بل هي رسالة شاملة عامّة تعطي كلّ ذي حقّ حقّه، وتعترف لكلّ ذي حقّ بحقّه، ولكل ذي إنجاز بإنجازاته. وهذا في الواقع أمر مهم

---

(١) لم نعثر عليه بنصه، وقريب منه ما في مسند أحمد ٢: ٢١٩.

جدّاً، وهو بهذا على العكس من أهل الأديان الأُخرى الذين يقول القرآن بحقهم: **﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ﴾**[١].

والقرآن الكريم إنّما يتحدّث عن هاتين الطائفتين الكبيرتين أعني بهما: اليهود والنصارى، مع أن رسالات السماء من أصل واحد ومن منبع واحد، وأن الأنبياءعليهم السلام كلّهم كما يقول عنهم الحديث الشريف بأنهم أبناء عَلَّة[٢]. وإذا كان الأمر كذلك فينبغي أن تكون روح الرسالات روحاً موسوعيّة؛ لأن المفروض أن الهدف من كل هذه الرسالات السماويّة هو أن تهدي البشر كلّهم، فيتّفق الأنبياءعليهم السلام بالغاية وإن اختلفوا في المنهج؛ تبعاً للعصر الذي يعيشون فيه، وطبقاً لمتطلّبات الزمن الذي هم أبناؤه.

إذن فأول شيء يُراد وفق هذا المقطع الشريف من آية المقام الشريفة أن الدين الإسلامي هو دين موضوعي ليس عنده فرق بين دين من الأديان التي سبقته وبين دين سماوي غيره. كما أنه دين سمح لم يأتِ لمحاربة الأديان الأُخرى، وإذا كان يريد تغيير أبنائها؛ فلأنه قد نسخ تلك الأديان، وهو وإن نسخها باعتبار أنها ليست صالحة للعصر الذي ولد هو فيه ونزل به، لكنه لا يريد أن يقاتلهم حتى يلجئوه إلى ذلك. فمعلوم أن الأديان السابقة التي أعقبها الإسلام فيها تشريعات كثيرة لم تعد خاضعة لاحتياجات المجتمع، ولم تعد صالحة له في الوقت الذي نزل فيه هذا الدين الجديد.

---

(١) البقرة: ٩١.

(٢) أي أنهم أبناء نساء متعدّدات لأب واحد، والمرادبالأب الواحد هو الرسالة الواحدة التي تربطهم جميعاً، والتي مصدرها السماء.

ولهذا فإن الله تبارك وتعالى قد عمد إلى استبدال بعض القوانين التي كانت معمولاً بها في الأديان السابقة بقانون آخر أكثر تجاوباً منها، ويتماشى مع حاجات العصر، ويتناغم مع متطلّباته، ويتجاوب مع تطوّر العقل البشري عبر هذه القرون العلمية وغيرها، وهو تطوّر حاصل في مجالات مسيرة الحياة التكامليّة كافّة، ويستوعب جميع المشاكل والقضايا العالقة التي تعترض حياة الإنسان في الدنيا والآخرة.

وهذا يقودنا إلى الاعتراف بأن القرآن الكريم رائد الموسوعية والموضوعية في مجاله، حيث إن في هذه الآية الكريمة موسوعيّة واضحة تشير إلى هذا المعنى الذي ذكرنا آنفاً.

الثانية: افتقار المسلمين إلى هذه الموسوعية

لقد جاءتني رسالة يوم أمس[1] من شابّ يبدو عليه أنه مثقّف واعٍ، يقول فيها: إن الذي لاحظته وتبيّن لي من خلال تتبّعاتي معالجاتك لقضايانا أنك تحاول أن تقرّب ما بين أبناء الأديان، فلماذا لا تحاول أن تقرّب ما بين أبناء الدين الواحد؟ إننا الآن مسلمون لكننا مع ذلك ممزّقون. ثم عقّب ذلك بقوله: ومن قال إننا لا نحاول؟ إننا كشباب نحاول هذا لكن لا استجابة من بعض الأطراف التي يخصّها الكلام أو التي تكون مقصودة به. وهذا الكلام واقعي؛ لأن الشخص الذي يوجّه إليه الكلام، والذي يحاول الإنسان أن يناقشه ليتواصل معه فكريّاً أو حضاريّاً يكون على نحوين:

فهو تارة يكون طالب حقّ وحقيقة، ومثل هذا بمجرّد أن تضع يده على الحقيقة فإنه ينقاد إليها طائعاً غير مكره، منقطعاً عن إيمان ويقين واعتقاد صالح؛ لأنه

---

(١) تاريخ هذه المحاضرة السابع عشر من المحرم الحرام عام ١٤١٩ هـ.

أساساً يريد أن يصل إلى هذا الطريق[1].

وتارة هو ليس كذلك، أي أنه ليس طالب حقّ ولا طالب حقيقة أبداً، ومثل هذا بمجرّد أن يضع أحد ما يده على حقيقة فإن عناده والعزّة بالإثم يأخذانه ويدفعانه إلى رفضها، وإلى عدم الاعتراف بها، بل ربما يدفعه إلى ذلك بضعة دريهمات يقبضها أجراً على بثّ بذور الفرقة بين المسلمين.

الثالثة: أن المذاهب قنوات لا غايات

إن عليّ أن أُوضّح لكلّ شخص أن المذاهب ليست غايات، بل إنها طرق وقنوات توصل إلى الغاية الأسمى والأبعد، وهي حكم الله تبارك وتعالى، فكلّ رجل يسلك طريقاً يقصد به الوصول إلى الغاية العظمى دون أن يتلبّس مع ذلك الطريق لباس التكبّر على الآخرين، أو الاستهزاء بطرقهم الاستنباطيّة لهو طالب حقّ وحقيقة في الوقت نفسه، بل هو من حملة الإسلام كذلك؛ لأنه لا يريد من هذا

---

(١) وهذا هو الذي حدا بالكثير من الذين تشيعوا من ابناء المذاهب الإسلامية الأُخرى من حملة الشهادات العليا وغيرهم أن يتشيّعوا، ونذكر منهم: الدكتور محمد التيجاني في كتابه (ثم اهتديت)، محمد مرعي الأنطاكي في كتابه (لماذا اخترت مذهب أهل البيت، لمياء حمادة في كنابها (أخيرا أشرقت الروح)، محمد بيومي مهران في كتابه (الإمامة وأهل البيت)، إدريس الحسيني المغربي في كتابه (لقد شيعني الحسين عليه السلام)، سعيد أيوب في كتابه (الطريق إلى المهدي المنتظر عليه السلام)، الدكتور أحمد راسم النفيس في كتابه (الطريق إلى مذهب أهل البيت عليهم السلام)، مروان خليفات في كتابه (وركبت السفينة)، معروف عبد المجيد، عبد المنعم حسن في كتابه (بنور فاطمة اهتديت)، أسعد وحيد القاسم في كتابه (أزمة الخلافة والإمامة)، مروان خليفات في كتابه (قراءة في مسار الأموي)، صالح الورداني في كتابه (مدافع الفقهاء؛ التطرف بين فقهاء السلف وفقهاء الخلف)، أحمد حسين يعقوب في كتابه (أين سنة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم؟ وماذا فعلوا بها؟)، صائب عبد الحميد في كتابه (منهج في الإنتماء المذهبي). وغيرهم كثير، ومن أراد الاطّلاع أكثر فلينظر في (موسوعة المستبصرين) الكومبيوتريّة، وهي من إنتاج المركز العقائدي التابع لمؤسّسة أهل البيت عليهم السلام لإحياء التراث.

المذهب أن يكون غاية له يوم القيامة، بل يريد منه أن يكون له طريقاً وقناة توصله إلى حكم الله تبارك وتعالى، وإلى رضاه.

وهذه العقليّة هي التي ينبغي أن تسود بين الناس جميعاً. وبعبارة أُخرى إن المفروض بحملة الإسلام والدعاة إليه، الذين يريدون خدمته، ونشر مفاهيمه وقيمه وأساسيّاته وأخلاقيّاته يجب أن يعرفوا بأن ما يدعون إليه ماهو إلّا طريق معيّن هم اختطّوه، وأن عند غيرهم أيضاً طريقاً خاصّاً بهم هم اختطّوه مع أنه ينبغي عليهم أن يلتفتوا إلى أن الطريقين كليهما ينبغي أن يوصلا إلى غاية واحدة هي ابتغاء وجه الله تبارك وتعالى باستنباط أحكامه كما أسلفنا، والوصول إليها بواسطة الطرق المشروعة التي أمر بها، والتي جاءنا بها النبي الأكرم ﷺ، والأيمّة المعصومون ﵈ خلفاؤه الشرعيون بعده.

الرابعة: معضلة التكفير

وبناء على هذا التقريب فإن المسلم إذا رأى من أخيه المسلم من أبناء المذاهب الإسلامية الأُخرى أن طريقه غير مرضي من وجهة نظره، فعليه أن ينبّهه لا أن يكفّره، وعليه ألّا يسلك طريق التكفير، وألّا يعتمد منهج المهاترة مع الآخرين، بل إن عليه أن يحاول قدر ما استطاع أن يتعرّف على دليل الآخرين، وأن يعتمد هذا جهد الإمكان، وأن يحاول الوقوف على مدى صلاحيّته ليكون مدركاً ناهضاً لاستنباط الحكم الشرعي، وعلى مدى موضوعيته في إثبات الحكم وما له مدخليّة في تحقيق هذا العلم والاستنباط وما إلى ذلك مما يتوجّب توفّره في كلّ فقيه موضوعي عادل يريد أن يستنبط حكماً شرعياً من مداركه المقررة مهما اختفلت تلك المدارك؛ قلّة وكثرة، وكماً ونوعاً أو كيفاً بين الفقهاء أو علماء المذاهب الإسلامية.

فعلى كلّ منصف يعمل لأجل الإسلام، ويريد للإسلام رفعة شأن وعلوّ منزلة،

ويرغب له في ألّا ينحطّ من بين الأديان الأُخرى أو بين المجتمعات أن يحاول جهد إمكانه التقريب بين المذاهب وبين أبنائها؛ حتّى يتّحدوا ولا يتفرّقوا؛ لأن تفرّقهم يعني ضياعاً للدين، واشتمالاً على مفاسد كثيرة نهى الله تبارك وتعالى عن التقرّب منها وإليها. ومن هذا أن يحاول الفقيه قبل تكفير طائفة إسلامية بسبب فتوىً تفتيها أن يدرس ملابسات تلك الفتوى والجوّ الذي كانت فيه، وكذلك ملابسات موضوعها، ويعالج الأمر بروح علمية أكاديمية وموضوعية قبل أن يصدر حكماً عليهم. بل إن الواجب يقضي بأنه حتى وإن كان ذلك الحكم باطلاً فإن عليه أن ينبّه إلى مورد بطلانه، لا إلى تكفير من يفتي به[1].

ابن العربي والتكفير

ومن هؤلاء ابن العربي الذي يذهب إلى أن الإمام الحسين عليه السلام قد قتل بسيف جدّه[2]؛ ذلك لأن جدّ الإمام الحسين عليه السلام ـ وهو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ قد أمر بقتال

---

(١) وهذا هو دأب علمائنا الأبرار (رضوان الله عليهم) في كل كتبهم وموسوعاتهم الفقهية في مجال الفقه المقارن كـ(المبسوط) للشيخ، و(تذكرة الفقهاء) للعلّامة وغيرهما، حيث إنهم يلجؤون إلى ذكر آراء علماء المذاهب الإسلامية الاخرى ثم يردون عليها بالدليل العلمي دون أن يتطاولوا أو يتجاوزا على أحد منهم، ودون أن يكفروا طائفة منهم أو علماً من أعلامهم.

(٢) انظر: فيض القدير شرح الجامع الصغير ١: ٢٦٥ ـ ٢٦٦، ٥: ٣١٣، تفسير الآلوسي ٢٦: ٧٢. قال الآلوسي: «وأبو بكر بن العربي المالكي (عليه من الله تعالى ما يستحق) أعظمَ الفرية، فزعم أن الحسين قتل بسيف جدّه صلى الله عليه وآله وسلم، وله من الجهلة موافقون على ذلك، ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً﴾ الكهف: ٥.

وقال ابن الجوزي (عليه الرحمة) في كتابه (السرّ المصون): من الاعتقادات العامّة التي غلبت على جماعة منتسبين إلى السنّة أن يقولوا: إن يزيد كان على الصواب، وأن الحسين عليه السلام أخطأ في الخروج عليه. ولو نظروا في السير لعلموا كيف عقدت له البيعة وأُلزم الناس بها، ولقد فعل في ذلك كلّ قبيح. ثم لو قدّرنا صحّة عقد البيعة، فقد بدت منه بوادٍ كلّها

البغاة، وهذا معناه أن الإمام الحسين﵇ باغٍ (تنزّه﵇ عن ذلك). وكأن ابن العربي هذا قد نسي أو تجاهل أن في هذا نسبةَ الجهل أو عدم الحكمة لرسول ﷺ ـ وهو ﷺ منزّه عنه ـ قبل أن يكون فيه نسبة الجهل إلى الإمام الحسين﵇؛ لأن النبي الأكرم ﷺ حينما عبّر عن الإمام الحسين﵇ بقوله: سيّد شباب أهل الجنة[١]، فإنه ﷺ لا يخلو عن أحد أمرين:

الأول: أن يكون ﷺ يعلم بأن الحسين﵇ سيخرج على يزيد، وسيقاتله، ثم وصفه بهذا الوصف. وبهذا فإن ﷺ يكون قد خرج عن الحكمة (تنزّه عن ذلك)؛ لأنه يصف باغياً بأنه سيّد شباب أهل الجنّة.

الثاني: أنه ﷺ لم يكن يعلم بكلّ ذلك، وهذا جهل مطبق، والنبي الأكرم ﷺ منزّه عنه؛ فإنه ﷺ يعلم الغيب بتعليم من الله تبارك وتعالى[٢]؛ فلا يغيب عنه ﷺ مثل هذا.

وعليه فلا معنى لكلام ابن العربي هذا؛ لأنه كلام لا ينمّ إلّا عن حقد وبغض ونصب عداء لهذه الشخصية الإسلامية العظيمة، ولإمام سواء قام أو قعد[٣]. ولو تتبّعنا ما الذي يتفوّه به ابن العربي حتى على بقية المذاهب الإسلامية الأُخرى، لوجدنا منه العجب؛ فهو مثلاً حينما يمر بالفقه الشافعي، فإنه يعبّر عنه بالقول بأنه

توجب فسخ العقد، ولا يميل إلى ذلك إلّا كلّ جاهل عامّي المذهب يظنّ أنه يغيظ بذلك الرافضة».

(١) مسند أحمد ٣: ٣، ٦٢، ٦٤، ٨٤، وغيرها كثير.

(٢) يحدثنا التاريخ عن كثير من الموارد التي أرهص فيها النبي ﷺ، فقد تنبأ ﷺ بكثير من الحوادث والأُمور التي تحقّقت فيما بعد. ومن أراد ذلك فليرجع إلى كتاب رائق الضمير ج ١ / مجلس: علم الرسول ﷺ.

(٣) قال رسولنا الأكرم ﷺ: «الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا». دعائم الإسلام ١: ٣٧، علل الشرائع ١: ٢١١، الإرشاد ٢: ٣٠.

ليس بشيء، وحينما يمر بفقه الأحناف يعبّر بالقول: هذا فقه بارد لا يعدل شيئاً، أما إذا مرّ بالشيعة فالويل لهم منه؛ فهو لا يصفهم إلّا بكلمتين اثنتين ليس غيرهما، هما: الكفر والإلحاد.

وحينما نتأمّل أُسلوب هذا المتفيقه وأمثاله من الذين يشابهونه في السيرة والمنهجيّة، فإننا سوف نجد أنه ليس هناك من موضوعية عند بعض المسلمين أبداً، فالقرآن الكريم يعلمهم منهجاً معيّناً وهو عدم ضرب أديان الآخرين أو اعتقاداتهم مادامت ذات أصل سماوي، إلّا إن هؤلاء يختطّون لهم منهجاً آخر بعيداً عن القرآن وغريباً عن أجوائه ومعالجاته وأوضاعه. ولو أننا نلاحظ القرآن الكريم فإننا نجد أنه لم يكن ليشجب الأديان السابقة؛ فلا المسيحية عاداها، ولا اليهودية أنكرها.

نعم، نحن لا ننكر أنه قد نسخهما؛ لأن الأمر كما ذكرنا قبل قليل يعتمد على قاعدة عقلية هي أن حاجات المجتمع بتطوّر مستمرّ؛ فهي تتطوّر بتطوّر وسائله، وأساليب معيشته وطرقه الحياتية، وما إلى ذلك. أما أن ينقض تلك الأديان من رأس، أو أن ينكرها أو أن يقول بأنها أديان غير سماوية، أو أنها غير نازلة من الله تبارك وتعالى، وهذا ما لم يكن، ولم يحدث، وهو مع المذاهب الإسلاميّة من باب أولى[١].

إذن فالنسخ شيء، والشجب شيء آخر، وهما لا يلتقيان أبداً. ومعنى هذا أن الإسلام حينما نسخ الأحكام الشرعية التي كانت سائدة عند اليهود والمسيح فهو إنما نسخها لأنه ارتأى أن المصلحة الحالية تتطلّب حكماً جديداً وأن الحكم

---

(١) ولذا فإن عندنا تفريقاً بين المشرك والكتابي في الأحكام، والتعاملات، وفي الحروب، وما إلى ذلك؛ فالكتابي له صفات تميّزه عن المشرك. وله امتيازات أُخرى لا تُعطى للمشركين، كدفع الجزية مع البقاء على دينه، وما ذلك إلّا لأن الإسلام يعترف بأديانهم ويقرّ بها لهم.

السابق صالح لوقت معيّن مضى وانقضى، أمّا الآن فهو وقت آخر بصفات مختلفة وامتيازات أُخرى، ومتطلّبات أُخرى واستحقاقات أُخرى. وهذه كلّها أُمور يجب أن تؤخذ بالحسبان في عملية التشريع[١]. وعلى أية حال فالمجتمع بطبعه يريد أحكاماً أفضل من الأحكام التي كانت سائدة في ذلك الوقت؛ لما لتلك الأحكام من خصوصية بذلك الوقت لم تكن لتتعدّى إلى هذا المجتمع؛ لما هو عليه من خصائص جديدة.

وبناء على كل هذا فإن مراعاة هذا الأمر داخل الدين الواحد تكون أولى من مراعاته مع الأديان الاخرى، وإذا كان الأمر كذلك فإنه لا حاجة لأن يُلجأ إلى الشتم والتهريج على الآخرين، وإلى تكفيرهم، وإلى إخراجهم عن ربقة الإسلام؛ لأن من يعمد إلى قول هذا أو فعله إنما يكون هو نفسه قد خرج بهذا عن ملّة الإسلام[٢]، وليس من يرميه هو بالكفر والخروج عن الإسلام.

---

(١) لأن المعلوم الذي لا خلاف فيه أن الأحكام الشرعية مبتنيه على المصالح والمفاسد وجوباًواستحبابا أو تحريماً وكراهة وهذا ماهو مأخوذ هنا فإن المصلحة أو المفسدة تقتضيان أن يغير هذا الحكم لأن الناس قد أصبحوا لا يوافقهم تلك المصلحة التي كانت توافق أبناء الأديان السماوية السابقة أو لم تعد تلك المفسدة مفسدة بالنسبة لهم بما وصل اليهم أمرهم.

(٢) ذلك أن رسولنا الأكرمﷺ قال في الصحيح: «إذا قال الرجل لأخيه: يا كافر فقد باء بها». مسند أحمد ٢: ١٨، ٤٧، ٦٠، ١١٢، ١١٣، ١٤٢، وفي: صحيح البخاري ٧: ٩٧، الأدب المفرد: ٩٩ / ٤٤٤، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٤: ١٣٢ / ٢٧٧٤، مسند الحميدي ٢: ٣٠٦، مسند ابن الجعد: ٢٤٢، بزيادة قولهﷺ: «أحدهما» بعد قوله: «فقد باء بها»، وكذلك هي صحيح مسلم ١: ٥٦ ـ ٥٧، لكنه عقّبه في الصفحة نفسها وفي مورد آخر بقولهﷺ: «إن كان كما قال، وإلّا رجعت عليه».

وقال البكري الدمياطي بعد نقل الحديث الشريف حول قولهﷺ: «فقد باء بها»: «أي رجع بكلمة الكفر». وقال: «قوله ـ يعني الماتن ـ: «وكتكفير مسلم» أي بأن قال له: يا كافر، وقوله لذنبه، أي لأجل ارتكابه ذنباً من الذنوب. وهو ليس بقيد، بل مثله بالأولى ما

إن على مثل هذا الذي يحاول أن يتمسّك بقشّة ليخرج منها بنتيجة هي كفر طائفة أو تسفيه أحكام طائفة بكامله أن يطّلع على الآفاق العلمية لأبناء تلك المذاهب، وأن يطّلع على الصفحات التي يدوّن بها علماء المسلمين كتاباتهم؛ لينظر ما الذي يجري وما الذي يحدث، وهل هي ما يسطره عنهم أم هي ما يكتبونه في كتبهم ومؤلّفاتهم ومدوّناتهم، مع مراعاة اتّباع الدليل ومناقشته، وأخذ المدرك بنظر الاعتبار في هذه العملية التنقيحية، بعيداً عن التعصب والتحزّب، بل جرياً وراء المنهجية الأكاديمية التي يقتضيها الفن، والتي يجب أن يتّصف بها أهله، بل وكلّ عالم منصف.

إننا حينما نلج في هذا الموضوع لنبحث عن الأسباب والدواعي التي أدّت ببعض الفقهاء إلى تكفير طوائف من المسلمين، أو إلى تسفيه تشريعاتهم وأحكامهم وفتاواهم، أو إلى دفعها بغير حجّة أو دليل، فإننا إنما نلمس أن هناك طائفة من هؤلاء العلماء ممّن لا همّ لهم سوى العزف على أوتار الحقد والكراهية، وبث التفرقة بين المسلمين. وإنني إذ أقول هذا فإنني لا أنكر أن هناك ثلة ـ وإن كانت نادرة ـ على خلاف ما يجري عليه هؤلاء؛ فهي تتمسّك بالموضوعية في معالجاتها للأُمور الفقهية، أو للأدلّة والقواعد. ولذا فإننا نلمس عندهم روحاً من

إذا كفره من غير ذنب. وقوله: «بلا تأويل»، أي فيكفر به إن كفره بلا تأويل للكفر ككفر النعمة مثلاً، وإلّا فلا يكفر. قوله: «لأنه سمى الإسلام كفراً»، علة لمقدّر، أي فيكفر من كفر مسلماً من غير تأويل؛ لأنه سمى الإسلام المتلبّس به كفراً». إعانة الطالبين ٤: ١٥٤.

وقال: «قوله: «تنبيه: ينبغي للمفتي» أي يتعيّن عليه. وقوله: «أن يحتاط إلى آخره» أي أن يسلك طريق الاحتياط في الافتاء بتكفير أحد؛ فلا يفتي بذلك إلّا بعد الفحص الشديد واليقين السديد. قوله: «لعظم خطره»، أي التكفير؛ وذلك لأنه ربما كفّر مسلماً بلفظ غير مكفّر فيكفر». إعانة الطالبين ٤: ١٥٦.

وقال البيهقي: «وإنما يكفر من كفّر مسلما بغير تأويل». السنن الكبرى ١٠: ٢٠٨.

التسامح والإنصاف والتقييم الإيجابي ـ وليس السلبي ـ القائم على أساس مناقشة الدليل مناقشة علميّة واعية، والأخذ بما يوصل إليه وإن كان دليلاً لأبناء مذاهب إسلامية أُخرى.

وإلّا فبربّك حينما يكون الإنسان طالباً للحقيقة، فهل ينافي أن يأخذ هذه الحقيقة من أبناء مذهب آخر إن كانت هي الحقيقة فعلاً؟ إن على هذا الطالب الحقيقةَ من أي مذهب كان أن يأخذها من أين مذهب كان ـ إن كانت حقيقة ـ دون أن يفرّق بين فقهاء هذا المذهب وفقهاء ذلك المذهب ما دام قد توسّم فيهم أنهم إنما قد بذلوا الجهد واستفرغوا الوسع، وقد أتعبوا أنفسهم وبذلوا طاقة في سبيل تحصيل هذا الحكم الشرعي. إن فقهاءنا السابقين كالشريف الرضي ﷺ كان عنده أساتذة من الشوافع ومن غير الشوافع أيضاً من مختلف مذاهب أهل السنة، وكذلك كان لبعض علماء أهل السنة أساتذة من الشيعة، ومن يرغب في أن يعرف المزيد عن هذا الأمر فليرجع إلى كتاب (الفصول المهمة) للمرحوم السيد عبد الحسين شرف الدين العاملي؛ فإن فيه بحثاً حول هذا الأمر.

والغريب أن هذا الرجل كلما مرّ أحدهم بكتبه، فإنه يصفه بأنها مختلَقة، وبأن صاحبها مختلِق، حتى إن مراجعاته[1] ومحاوراته مع سليم البشري شيخ الأزهر آنذاك لم تخرج إلى الوجود إلّا بعد موته. ولكي يكون الباحث منصفاً فإن عليه أن يدرك أن السيد شرف الدين قد استند في كلّ محاوراته تلك مع الشيخ سليم

---

(١) كما أنه ﷺ ذكر في هذا الكتاب (المراجعات) جملة من علماء الشيعة الذين وثّقهم أهل السنة وقد عدّ منهم مئة عالم وراوٍ شيعي قد وثقهم علماء من أبناء المذاهب الأُخرى، مع أن هذا العدد هو الذي استطاع أن يصل إليه في ذلك الوقت مع ما كان الأمر عليه من صعوبة الوصول إلى المعلومة وعدم سهولتها كما هو عليه في هذا الزمان.

البشري إلى روايات أهل السنّة، واستدل بها في محاوراته معه ومناقشاته ومطارحاته.

والمنصف من يتناول إلى تلك الروايات التي ذكرها السيد شرف الدينﷺ بالدراسة والبحث؛ لينظر هل إن هذه الروايات فعلاً موجودة في كتبهم، أم إنها غير موجودة وقد افتراها عليهم السيد شرف الدينﷺ؛ أو اختلقها؟ فإن كانت موجودة في كتبهم فإنه حينئذٍ لا يجوز له أن يفتري عليه، وأن يطلق عليه لفظ مختلِق أو مفترٍ، بل إن عليه أن يذعن إلى الحق والحقيقة وأن يخضع لها، وأن يكون على مستوى المسؤولية الشرعية التي أناطها الله تبارك وتعالى به. وإن كان ما ذكره غير موجود فإن له الحقّ في أن ينقده، وأن ينعته بتلك النعوت التي نعته بها سابقاً. فإن لم يكن الأمر كذلك فإنه يكون قد ظلم غيره؛ لأنه قد تكلّم بغير علم، كما أنه نسب إلى إنسان عالم فقيه ما ليس فيه.

ثم إنه ما الفرق حينئذٍ بين نشر هذه الحقائق التي ذكرها السيد (رضوان الله تعالى عليه) فيما إذا كان السيد حيّاً وبين أن يكون في ذمّة الله تبارك وتعالى حتى يُفرج عن كتابه ويُخرج إلى النور؟ فالسيدﷺ رضى الله عنه مثلاً حينما يبيّن للشيخ سليم البشري في المحاضرة الثانية أن أهل البيتﷺ عدل الكتاب بدليل حديث الثقلين، وهو الحديث المروي في أغلب مصادرهم فهو إنما يستشهد بما جاء في كتب أهل السنة وليس ممّا ترويه الشيعة. وهذا نمط واحد من أنماط ما جاء في تلك المراجعة[1].

وهذا من قبيل شخص يعترض علينا فيقول: لماذا تكذبون فتقولون: إن قول

---

(١) انظر المراجعات: ٧١ ـ ٧٨ / المراجعة: ٧.

النبي ﷺ: «فاطمة بضعة منّي؛ فمن أغضبها أغضبني»[١]، بأنه موجود في الصفحة الكذائيّة من (صحيح البخاري)، وهو غير موجود فيها؛ لأنني قد بحثت عنه في تلك الصفحة فلم أجده، وإنما وجدته في صفحة أُخرى؟ وهذا والله أمر غريب، بل هو تصرّف بعيد جدّاً عن الإسلام وعن روحه، فإلى متى نبقى نخضع لعقليّة الجاهلية وهي تتحكّم في مسيرتنا وحياتنا؟ وإلى متى نظلّ نعيش حبيسين داخل إطار عقليّة القبيلة البدويّة التي لا تراقب الله تبارك وتعالى، وهي تتّهم الآخرين؟ لقد قرأت اليوم عبارةً في صحيفة القبس[٢] لأحد الكتّاب يقول فيها: ببالغ الأسف نحن عندنا فقه بدوي.

وهذا الأمر هو بالفعل كذلك؛ إذ نحن في واقع الأمر نحتاج إلى أن نتعامل مع روح الكتاب بموضوعية وعلميّة، لا أن نتعامل مع عقليّات بدائية تتعامل بالقوانين البدائيّة؛ فلا تُنصف الآخرين، ولا تعطيهم الحقّ في أن يكتبوا ما يوصلهم إليه الدليل: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾، مع أن المفروض بكلّ مذهب إسلامي أن يتحرّى ليأخذ الحكم الشرعي من مصادر الإسلام المشروعة.

بهذه العقلية الأكاديميّة ينبغي معالجة الموضوعات الفقهيّة وغيرها من المسائل الدينية والشرعية، وليس بالبدائل البدائيّة، أي بعقليّة أن أحدهم يحمل روحاً جهنمياً في داخله، يريد أن يحرق الناس، بل الوجود بأسره به؛ فيكفّر على هواه، ويخطّئ على هواه، ويصرّح بما يريد دون أن يكون عنده دليل، أو دون أن يردعه رادع.

---

(١) صحيح البخاري ٤: ٢١٠، ٢١٢، ٢١٩، ٦: ١٥٨.

(٢) ذكرنا أن تاريخ هذه المحاضرة هو السابع عشر من المحرم الحرام عام ١٩١٤.

المبحث الثالث: كيف يوقن المرء بما لم يرَه؟

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾، وهنا يرد سؤال هو: ما المراد من اليقين؟ اليقين هو العلم الذي لا يخالطه شكّ أبداً، لكن هنا يرد إشكال وهو كيف أن الإنسان يكون عنده يقين بالآخرة وهو لم يرَها؟ فالإنسان ما دام لم يرَ الشيء لا يمكن أن يكون عنده يقين به، ومورد الآية الكريمة من هذا النوع، فهي تصرّح بأن هؤلاء يؤمنون بالآخرة ويوقنون بها وهم لم يروها من قبل، فكيف يتم التوفيق بين هذين الطرفين من المعادلة؟

مضمار العلم هو المعلومات فقط

وأود أن أُنبّه هنا إلى أنه ينبغي الالتفات إلى أن العلم إنما يتناول المعلومات، ومثل هذا الأمر (عالم الآخرة) ليس من موضوعات العلم حتى يمكن أن يُثبَت بواسطته، بل هو من الموضوعات الفلسفية، أي إثبات مسألة المعاد التي تعدّ الأصل الخامس من أُصول الدين. وأمر المعاد والآخرة لا يتمّ إثباته بأدلّة علميّة تطبيقيّة، بل لابدّ من الوصول إليه بأدلّة عقليّة أو نقليّة؛ فالعلم يعتمد على المحسوسات، وهذه الأشياء لا يتناولها الحس. فمسألة أن الإنسان حينما يموت أين يكون، وإلى أي شيء يصير مآله بعد الموت، وما هي طبيعته، وكيف يحاسب، وكيف يعاقب، كلّ هذه الأُمور لا يمكن أن نراها ولا أن نلمسها بأيدينا، ولا أن نقيم عليها أدلّة علميّة تطبيقيّة، وإنما هي أُمور يتناولها العقل والنقل المتمثّل بالقرآن الكريم والسنة النبويّة المطهّرة؛ ولذا فإننا نجد في القرآن الكريم: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي

أنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾[١].

فهذا المتسائل حول كيفية إعادة الجسد الفاني أو البالي من جديد عليه أن يخضع إلى عقله وإلى تفكيره وإلى أوّلياته العقلية، ومقاييسه التي تنصّ على أنه قد خُلق من تراب أوّل الأمر، فلماذا إذن يصعب على خالقه أن يعيده من التراب ثانية؟ يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «**عجبت لمن أنكر النشأة الأُخرى وهو يرىٰ النشأة الأولىٰ**»[٢].

فالإنسان قد أدرك النشأة الأُولى، وهي أنه قد تخلّق وتصوّر من هذه المادّة المنويّة، فعليه ألّا يُنكر النشأة الأُخرى؛ لأن الذي أنشأه تلك النشأة الأُولى من المادّة المنوية إنما أنشأه من طعام، والطعام قد جاء من التراب، وعليه فالإنسان مهما كان إنما هو مخلوق من تراب. فالذي يقدر على أن يخلق من التراب أول مرة هل يعجز على أن يخرجه من التراب مرّة اخرى؟ إذن: **﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾**[٣].

وهكذا فإن المسألة إذن هي أن العلم يعتمد على المحسوسات، أما الفلسفة فتعتمد على المعقولات في إثبات المطالب الفلسفية أو الغيبية. والقرآن الكريم إذ يقول: **﴿وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾** فإنه يدعونا إلى أن نُدلي بدلو البحث في مختلف أبعاد العلم؛ لنتمكّن من أن نعرف هل إن العلم يستدلّ بالمحسوسات على المغيبات أم لا؟ إن علماء الآثار مثلاً يبحثون في الأرض حول كل ما يمكن أن يكون من مخلّفات الأُمم السابقة، فيستخرجون قطعاً أثريّة، أو يعثرون على أبنية مطمورة تحت الأرض، ومن خلال ما يعثرون عليه من قطع فنيّة، أو تحف أو بناء

---

(١) يس: ٧٩. (٢) نهج البلاغة / الحكمة: ١٢٦.
(٣) الأنبياء: ١٠٤.

يستنتجون الحالة الاجتماعية لتلك الأُمّة التي بادت، والتي عاشت قبل آلاف السنين. وبالنظر بدقّة إلى فعل هؤلاء فإننا نجدهم ينتقلون من عالم المحسوس إلى عالم المجهول؛ ليعطوا عنه صورة واضحة وشرحاً وافياً كاملاً حول حياتهم في ذلك الوقت وتعاملاتهم ومسيرتهم.

إذن في واقع الأمر إن هذا العالم قد انتقل من المحسوس إلى غير المحسوس، وكذلك هو شأن كثير من فروع العلم الأُخرى، فالبعض يُدرك المشاعر من خلال ملامح الوجه فيما إذا كان صاحبه خائفاً أو فرحاً أو حزيناً أو على أي انفعال آخر كان. فكل انفعال من الممكن أن ينطبع على قسمات وجه صاحبه، فيستنطقها من يراقب قسماته.

الجواب على هذا الإشكال

وبهذا فإننا من خلال هذه القسمات نعرف مشاعره الداخلية. وما دامت هذه هي المناهج العلمية المتبعة، فمثل هذا الإشكال ـ وهو الإشكال القائل: كيف يؤمن الإنسان بالآخرة وهو لم يرها، ولم يتحسّسها، وأنها غير واقعة تحت طائلة الحس؟ ـ إذن مردود.

وهكذا فإننا في معرض الردّ على هذا الإشكال نقول: إن مصادر العلم ليست فقط ما كانت من طريق الحسّ، بل إن من مصادره العقل، بل هو المصدر الأول والأساس له؛ لأن الله تبارك وتعالى عندما خلق الإنسان سلّحه بالإدراك العقلي، وهذا الإدراك هو الذي يجعل من الإنسان يصل إلى استنتاج أي مسألة يريدها، وإلى استكناه المجهول الذي هو بصدد الكشف عنه. وبهذا فإننا ننتقل من المعلوم إلى المجهول، وهو ما ترمي إليه الفلسفة.

إذن فالله تبارك وتعالى يقول لنا: إن عند هؤلاء يقيناً قطعياً بأن الله تبارك

وتعالى سوف لن يترك الناس سدىً دون أن يحاسبهم، ودون أن يقتصّ لضعيفهم من قويّهم، ومن مظلومهم لظالمهم؛ حتى يتحقّق عدله. وعليه فمن غير المعقول بمكان أن يُترك الناس على الأرض موتى دون أن يُبعثوا ليحاسبوا وليوفّوا أُجورهم وأعمالهم وفق ما عملوه في هذه الحياة الدنيا. وهم بهذا إنما ينتقلون من عالم المحسوسات إلى عالم المغيّبات في عمليّة الاستدلال هذه.

فالتراب في واقع الأمر إنما يتناول الجسد. ولهذا فإن البعض حينما يفقد عزيزاً يجلس على التراب ويبدأ بندب عزيزه ذاك؛ لأن البعض منهم يرونه هذا الهيكل الذي أمامهم، والذي سلبهم إياه التراب، مع أن الواقع غير ذلك؛ فالقبر قد أخذ نصفه وترك النصف الآخر.. قد أخذ النصف الظلماني الفاني، وهو الجسد الترابي، وترك النصف النوراني الباقي، وهو الروح والعقل؛ إذ ليست له سلطة عليهما. ثم إن هذا التراب من غير المعقول أن يضمّ العقل بين ذراته، نعم إن من الممكن أن يضمّ الجسم، لكن العقل ليس من الأشياء التي من الممكن أن يضمّها التراب أو أن يُدفن بين ذرّاته، وكذلك الروح؛ إذ أنها ليست من عالم الفناء كي تطمر تحت ذرّات من التراب، فهي خارجة عن نطاقه وبعيدة عن سيطرته.

فالقبر إنما أخذ الهيكل الذي تعوّدنا على رؤيته، وإلّا فإن واقع الأمر أن الإنسان ليس في القبر، بل الذي في القبر هو هذه الحبّات المتناثرة من التراب، والتي خُلقت من تراب. والإنسان بروحه أكبر من القبر وأضخم من أن يضمّه بين طياته، لكن هذا الحال إنما أصبح عند الإنسان لكثرة ما أِلف الناس من أنه إذا فقد أحدهم عزيزاً عليه فإنه يجلس على تراب قبره، ويروح يندبه، فيُجري عليه دموعه، ويستعيد الذكريات عنده؛ باعتبار أن فيه شيئاً منه؛ حيث إنه يرى كيف أسلم هذا الجسد الذي عاش معه مدة طويلة إلى التراب.

وبهذا فإن الإنسان حينما يذهب عنه أعزّاؤه وأحبّاؤه، يتحوّل عنده الأُنس من الدار إلى القبر، فتصبح القبور هي الديار وتصبح الديار هي القبور. فالإنسان حينما يدخل إلى داره، ولا يجد فيها عزيزاً من أعزّائه، ولا حبيباً من أحبّائه، فإنه يرى هذه الدار وقد أصبحت كالقبر[1]؛ ولذا فإنه يعود أدراجه إلى حيث دفن عزيزه، فيجلس هناك يسكب مشاعره. وهذا عين ما صنعه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام حينما وقف على قبر فاطمة الزهراء عليها السلام، فقد كان عليه السلام يخرج إلى قبرها حينما ينتصف الليل بعد أن يهدأ الحسنان عليهما السلام، وتهدأ زينب وأُمّ كلثوم، فيجلس عند القبر، ويقرأ شيئاً من القرآن الكريم لفاطمة عليها السلام التي كانت تملأ عليه حياته.. يجلس على القبر فيبلّ ثراه من دموعه، ثم يدور حول تلك الرملة:

ما لي وقفت على القبورِ مسلماً	**قبرَ الحبيبِ فلم يردَّ جوابي**
أحبيبُ مالك لا تردّ جوابَنا	**أنسيت بعدي خلّة الأحبابِ[2]**

وأقول له: سيدي أنت تجلس على قبر فاطمة عليها السلام وهو قبر واحد، لكن ليتك تنظر إلى ابنتك زينب عليها السلام حينما رجعت إلى كربلاء فقد جلست على أكثر من قبر.. لقد كانت تقوم من قبر وتجلس عند آخر، حتى وصلت إلى قبر أبي عبد الله عليه السلام، فأطالت الجلوس عنده، واحتضنت قبره وبلّته بدموعها:

وعيونك يابو السجاد	**لون يسمّك يخلّوني**
أحط راسي على گبرك	**وارشّه ابدمعة عيوني**
أگضي العمر كلّه وياك	**وگولن لا تلوموني**

---

(١) قد مرّ بنا قول الشاعر:

إن قبرَ الحبيبِ دارٌ وداراً ليس فيها الحبيبُ قبرٌ كئيبُ

(٢) ديوان الإمام علي عليه السلام: ٤٠، بحار الأنوار ٤٣: ٢١٧.

شـلي بـالعمر بـعدك   وشلّي بعيشتي ابلياك

* * *

وحگك لو چـهبت الدار   أنـاجيها بـدمع سـچّابْ

أشـوف ارسـومكم بـيها   واشـتَم ريـحة الأحـبابْ

واتـذكّر ثـناياكـم   واتكـوّم گـبال البـابْ

* * *

بـالأمس كـانوا مـعي واليـومَ قـد رحـلوا   وخـلّفوا فـي سـويدا القـلب نـيرانـا

نـذر عـلي لئـن عـادوا وإن رجـعوا   لأمـلأن طـريقَ الطـفّ ريـحانا[1]

---

(١) شجرة طوبى ١: ٩١.

﴿٢٢٣﴾

وحدة العامل والهدف

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

توطئة: حول الهدف من الآية الكريمة

إن الهدف الذي ترمي إلى إثباته هذه الآية الكريمة ينصب على بيان أمرين:

الأول: أن العوامل وإن كانت واحدة، لكن نتاجاتها ليس ضرورياً أن تكون موحّدة؛ لأن هذه العوامل ليست هي العلّة الأساس في حصول هذه النتاجات، بل إن العلّة في ذلك هو الله تبارك وتعالى.

الثاني: أن الأمثلة التي يقدّمها القرآن الكريم، والتي يريد أن ينتهي بنا إليها،

---

(١) الرعد: ٤.

أو يوصلها إلينا هي أن الناس جميعاً وإن كانوا متّحدين خلقاً، لكنهم يختلفون في صفاتهم الأُخرى كما يختلف ما في الوجود من أشياء.

وسنرى إن شاء الله من خلال المباحث القادمة كيف سيتم تحقيق هذين الهدفين وبيانهما.

المبحث الأول: اختلاف العامل والهدف

تقول الآية الكريمة: ﴿وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ﴾، وهذا يُشير إلى أن الله تبارك وتعالى قد نوّع الأرض، وسرّ ذلك التنويع هو أن الأرض أُمّنا، وهي وسيلة الإنتاج الأُولى؛ ولذا فإننا نجدها تحظى بعناية كبيرة جدّاً في الفقه الإسلامي؛ لأن منها يُخلق الإنسان، ومنها يأكل، وإليها يرجع حيث يدفن فيها، ومنها يُخرج مرة أُخرى. وبهذا فإنه ليس هنالك شيء أكثر شفقة علينا من الأرض، فهي أولاً مصدر خلقنا، وثانياً مصدر معيشتنا وطعامنا، وثالثاً تحنو علينا وتسترنا فتضمّنا بين أضلاعها وتكتنفنا بعد أن نتحول إلى قطعة هامدة لا حراك فيها. ولهذا فإننا نقول: في واقع الأمر ليس هنالك من هو أرأف بنا، وأشفق علينا من الأرض؛ وبهذا الاعتبار فإنها قد أصبحت عزيزة جدّاً على الإنسان.

وقد سبق أن أشرت إلى العلّة التي من أجلها لم تعطَ المرأة حصّة من الأرض في الفقه الإسلامي فيما لو كانت زوجة، مع أنها ترث من البناء ومن الشجر. ومع ذلك فإن هناك نظرية تنصّ على أن الأرض تقوّم وتعطى للمرأة حصتها منها نقداً وليس عيناً؛ فرقبة الأرض لا تعطى منها الزوجة شيئاً أبداً.

لماذا لا ترث الزوجة من الأرض، وترث البنت منها؟

والسبب الذي من أجله وضع هذا التشريع هو أن المرأة بعد أن يُتوفّى عنها

زوجها ربما تتزوّج من شخص آخر، وهذا الزوج ربما يكون من قبيلة أُخرى؛ وبهذا فإن ورثة الزوج الأول سيرون أن أرضهم قد انتقلت إلى رجل آخر غريب عنهم. وهذا أمر معيب عند العرب خاصّة، وعند المجتمعات الشرقيّة عامّة، فهم لا يفرّطون بالأرض أبداً. إن زواج المرأة من هذا الرجل الأجنبي عن عائلة زوجها الأول يعني انتقال أرض زوجها الأول إلى زوجها الثاني، وهذا ما لا يتقبّله أحد سيّما إن كان هناك عداء بين عائلتي الزوجين.

وربما يقول قائل: إن هذا المعنى تشترك فيه البنت كذلك، أي أن البنت لو ورثت شيئاً من الأرض ثم تزوّجت من أجنبي فإن هذه الأرض سوف تنتقل إلى ذلك الزوج الأجنبي.

والجواب أن يقال: إن هذا قياس مع الفارق، لأن هذه الفتاة التي تزوجت من أجنبي إذا أعقبت من زوجها الأجنبي ولداً فإنه سوف يكون جزءاً من البنت، والبنت في حقيقة الأمر جزء من الأب، أما الزوجة فليست كذلك، وبهذا الاعتبار فإن البنت سوّغ لها أن ترث من الأرض دون الزوجة.

إذن فمسألة الأرض مسألة هامّة جداً، والله تبارك وتعالى يريد أن يلفت نظرنا ـ بما أنها أُمّنا الأُولى، وبما أننا متكوّنون من ترابها ـ إلى الواقع الذي يقول: إن هذا التراب له طبائع متنوّعة؛ ولذا كان الإنسان ذا طبائع متنوعة أيضاً.

وبالرجوع إلى قوله تعالى: ﴿وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ﴾، فإننا نجد أن هذه القطع يشملها اسم الأرض ومادتها وشكلها، ومع ذلك فإننا نجدها متنوّعة؛ فمنها السبخ ومنها العذب، ومنها الجبلي ومنها السهلي، وما إلى ذلك من مختلف الأراضي وأنواعها وأنماطها. وهذا التنوع والاختلاف في الأنماط الأرضية يحقّق للإنسان أهدافاً كثيرة. ولذا فإننا نجد أن النبات الجبلي غير النبات السهلي من

حيث خصائصُه ومن حيث فوائدُه، وكذلك نجد نباتات المناطق القريبة من خطّ الاستواء تختلف في أنواعها وخصائصها عن نباتات المناطق البعيدة عن خط الاستواء.

وبهذا فإننا نرى أن المناخ والتربة والموقع أُمور كلّها تتضافر من أجل أن تُعطي النبات خصائصه وصفاته وفوائده الرئيسة؛ وبهذا اللحاظ كان المناخ الفلاني صالحاً لنوع من النباتات دون أن يكون صالحاً لنوع آخر. وكذلك بقية المناخات الأُخرى. وهذا التنوّع الذي يعبر عنه القرآن الكريم ـ مع اختلاف الصفات والأنماط ـ بأنها أرض واحدة، فإن حالها يشبه حال البشر؛ حيث إنهم وإن كانوا بشراً جميعاً، ومن طينة واحدة، ومن نسل واحد إلّا إنهم متنوّعون؛ فمنهم المشرك، ومنهم المؤمن، ومنهم الكافر، وما إلى ذلك. ومع كل هذا فلا يمكن لأحد أن يقول: إن هؤلاء لا يشملهم اسم البشر.

إن غاية ما يدلّ عليه هذا هو أن البارئ عزّ وجلّ مختار غير مجبر، أي أنه تبارك وتعالى لا يمكن أن يكون قد خلق هذه الأشياء بتوجيه أو بتأثير خارجي، أو أن أحداً غيره هناك هو من قام بخلقها. وهذا لأن بعض الناس مثلاً يقولون: إن جميع هذه الموجودات أو المخلوقات قد أوجدتها الطبيعة؛ فما في الأرض من حيوانات ونباتات، وما في الكون كلّه من أجرام ومجرّات كلّها قد أوجدتها الطبيعة وهي التي خلقتها. ونحن في هذا المقام يحقّ لنا أن نسأل فنقول: هل إن هذه الطبيعة التي يدّعى أنها قد خلقت كلّ هذه الموجودات جامدة أم عاقلة؟ ثم لنا الحق في أن نعقّب على ذلك في أن نقول: فإن كانت جامدة، فهي في ذلك شأنها شأن المعمل الذي لا ينتج إلّا شكلاً واحداً، ولا يمكن إلّا ذلك حسب الهيكلية المضمّمة له، فكل معمل مخصّص لإنتاج نوع

معين واحد من موارد الإنتاج التي يمكن أن تنتج، وكذلك بقية المعامل أو المصانع الأُخرى.

فالمعمل إذن لا يمكن أن ينتج نوعاً آخر غير النوع الذي قد خصّص له، أو هُيكل لأجله، وكذلك لا يمكن له أن ينتج نوعين إلّا إذا غيّر في تصميماته الأساس، والتي تكون ذات تأثير رئيس في عملية الانتاج.

وبالرجوع إلى الخالق تبارك وتعالى فإننا نجد أن هذا الأمر يختلف اختلافاً كبيراً لا حدود له عما هو عليه الحال مع المصانع أو المعامل، فالله تبارك وتعالى بناء على هذه الرؤية هو خالق مختار يخلق ما يشاء، ويفعل ما يشاء، وينوع تنويعاً لا حدود له بالشكل وبالطباع وبالخصائص والامتيازات، كما سيمر علينا خلال هذا البحث إن شاء الله تعالى.

وخلاصة القول أن هذه الطبيعة لمّا كانت جامدة فإنها لا يمكن لها أن تنتج كلّ هذا التنوّع، فالمصنع بما أنه جامد لا يمكن له أن يخلق بهذا التنوع لكنه يمكن أن يخلق نوعاً واحداً أو أن يصنعه.

وإن قلنا: إن الطبيعة تخلق هذا التنوّع بأشكاله كافّة، فإننا لابدّ أن نقرّ وأن نذعن حينئذٍ بأن عندها وعياً وتخطيطاً وإدراكاً وعلماً ومعرفةً وإحاطة بالأشياء، وهذا هو الذي يريد الإنسان المؤمن أو الرسالات السماوية إثباته.

ويحنئذٍ نقول: إن هذا الذي تسمونه الطبيعة نسميه نحن الله سبحانه وتعالى [١]، فالله تبارك وتعالى هو القوة المحيطة بالكون، والتي تديره وفق وعي وإدراك وتخطيط وحكمة وإحاطة لا حدود لها جميعاً. أما مع القول بأن الطبيعة جامدة وليس لها إدراك أو وعي أو إحاطة أو أي فاعلية من هذه الفاعليات التي يكون لها

---

(١) ويتحوّل النزاع حينئذٍ إلى نزاع لفظي فقط دون أن يكون نزاعاً مبنائياً.

مدخليّة كبيرة الاختيار، وفي عمليّة التنويع في الخلق فإن هذا ما لا يمكن الإقرار به مطلقاً؛ لأنها حينئذٍ سوف تكون أعجز من أن تنتج كلّ هذه الأعمال المتقنة. وإلّا هل من الممكن لمجنون أن يصنع جهاز كومبيوتر مثلاً؟ الجواب بطبيعة الحال أن هذا غير ممكن أبداً، بل مستحيل[1].

بين الأفغاني وداروين

إذن فالقرآن الكريم يريد أن يضع أيدينا على هذه الحقيقة، وأن يؤكّدها بالقول: إن هذا اللون يفنّد نظريتكم التي تقول: إن الأُمور جميعها خاضعة إلى الطبيعة، بل وأكثر من ذلك أنه يثبت أن هذه الطبيعة نفسها من ورائها مدبّر وخالق ومبدع هو الذي أوجدها وأبدعها وخلقها وهو الله عزّ وجلّ. وهذا هو أحد الهدفين اللذين أرادت الآية الكريمة أن تشير إليهما هنا، وهو هدف ضخم، ومضامينه عالية جداً. يذكر السيد جمال الدين الأفغاني في كتابه (الردّ على الدهريّين) فيقول: لو أردنا أن نسأل داروين فنقول له: إن هذه الأشجار القائمة في غابات الهند هي ذات أُصول تضرب في تراب واحد، وتشرب من ماء واحد، وفروعها تضرب في هواء واحد، وهي مع كلّ ذلك تختلف فيما بينهما بالطعوم وبالألوان والرائحة والطول والقصر، فما هو العامل الذي سبب كلّ هذا الاختلاف؟

العلل بعيدة وقريبة

ثم يعقّب الأفغاني بالقول: لو سألنا داروين هذا السؤال لما وجدنا عنده إلّا الحصر والسكوت. ولو فرضنا أنه أجاب فإنه إنما يجيب عن العلّة القريبة، أمّا

---

(١) وبعبارة أُخرى فإن فاقد الشيء لا يعطيه.

العلّة البعيدة فلا يجيب عنها. ويراد بالعلّة القريبة ما يحويه هذا التراب من أملاح متنوّعة؛ حيث إن كل شجرة تأخذ حاجاتها، وما تريد من هذا التراب وفق معادلة خاصة، فتمتصّ ما فيه حاجة لها وتترك ما لا حاجة لها فيه، فشجر الليمون مثلاً يأخذ معادلته الخاصّة، وكذلك شجر الرمان وغيرهما من الأشجار الأُخرى التي تمتصّ ما تحتاج إليه من أملاح ومركّبات كيميائيّة أُخرى دون أن تمتصّ ما لا تحتاج إليه. فهذا هو الذي أوجب تنوّع هذه الثمار، وهذا هو ما نسميه بالسبب القريب.

لكن لنا أن نسأل ونقول: من الذي أعطى هذه النباتات القابلية على أن تأخذ الأملاح التي تحتاجها من الأرض وفق هذه المعادلة؟ ومن الذي جعل هذه المعادلة تختلف من شجرة إلى أُخرى؟ إن من الطبيعي أن نجد صيدليّاً يعمل في مهنة الصيدلة لمدّة تزيد على عشرين سنة، ثم بعد ذلك يخطئ في تركيب أحد العقارات أو الأدوية، فهذا محتمل الوقوع وممكنه، لكن مثل هذا الخطأ لا يمكن أن يقع في حالة هذه الأشجار، بحيث إن هذه الشجرة تمتصّ ما تحتاجه الشجرة الأُخرى وتترك ما تحتاجه هي مع أن الأملاح جميعها موجودة في هذه التربة. إن هذا بطبيعة الحال غير ممكن أبداً، وذلك هو قوله تعالى: ﴿**أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ * أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ**﴾[1].

فالله تبارك وتعالى يريد أن يلفت أنظارنا إلى أن هذه العلل القريبة ـ أو بتعبير آخر المؤثرات القريبة ـ يجب أن تقودنا إلى النظر في المؤثّر الأبعد، وهو الله تبارك وتعالى.

ويُكمل جمال الدين حديثه عن هذا التنوع فيقول: لو أننا ذهبنا إلى بحيرة

---

(١) الواقعة: ٦٤.

الأورال أو بحر قزوين للاحظنا أن المياه واحدة، ودرجة الحرارة واحدة، لكننا مع ذلك نجد فيها مختلف ألوان الأسماك. وهذا الأمر حقيقي وفعلي، وهو يصدق على كل بحيرة أو بحر على وجه الكرة الأرضية. وهذا إن نمّ عن شيء فإنما ينمّ عن تخطيط عجيب وغريب يوحي إلى الإنسان العاقل بأن هناك مصمّماً قديراً، وأن وراءه ريشة مبدعة قد أبدعته وأوجدته وأخرجته من سكون العدم إلى روعة الوجود والحركة.

فما في الكون من أشكال متناسقة رائعة تخلب الألباب، وما فيه جمال لا حدود له ولا مجال لحصره وتصوّره لابدّ أن يكون من صنعة صانع حكيم هو الله تبارك وتعالى. ولو كان الماء أو الطين أو البحر هي التي أوجدت هذه الأشياء أو الكائنات الحيّة وغير الحيّة التي فيها لما وجدنا مثل هذا التنوّع. فمع تعدّد الأشكال والألوان والأنماط وتكثّرها إلى درجة يصعب معها إحصاؤه، فإننا نجد أن من المستحيل حصول وجه شبه بين كائن وآخر، سيما إذا أردنا أن نتعامل بالنسب الرياضية، وأن ذلك يكون مئة بالمئة مطلقاً؛ فكل واحد له أُسلوبه الخاصّ ونمطه الخاصّ، وطريقة حياته وعيشه الخاصّة، وصفاته التي تميّزه عن الآخرين من صوت ولون وقابليات وما إلى ذلك.

وهذا اللون من التنوع إنما يدلّ على وجود مهندس مختار قدير يقف وراء كلّ هذه الظواهر الغريبة والعجيبة التي تأخذ برقاب الناس إلى الإيمان به، وهو الله تبارك وتعالى.

الناس متّحدون خلقاً مختلفون هيئة

إذن فالآية الكريمة تنصّ على هذا الجانب ومنصبّة عليه، وهي إذ تقول: ﴿وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ﴾ فإنها إنما تريد أن تبيّن لنا أنه حتى على

مستوى الأحكام فإن البشر متّحدون، لكنهم يختلفون باختلاف الهيئات والأشكال والقابليّات والمميّزات، وما يدور في هذا الفلك. ولتقريب هذا الأمر نضرب مثالاً هو ما يسمى في عرف الفقهاء بـ«مهر المثل»، وهو لو أن رجلاً عقد على امرأة ولم يسمِّ المهر لها، ثم مات قبل أن يدخل بها أو أن يدفع إليها مهرها، فما هو المهر الذي يمكن أن تأخذه هذه المرأة على فرض أنه غير محدّد؟ في مثل هذه الحالة يقول الفقهاء: إن الواجب هو أن تُعطى هذه المرأة مهر مثلها أي مهر إحدى قريباتها أو بنات بيئتها أو وسطها الاجتماعي الذي تنتمي اليه عن طريق الأب. فبالمقدار التي تأخذ تلك الفتاة تأخذه هذه الفتاة.

ومهر المثل هذا هو وإن كان في منطقة واحدة، لكنه مختلف ومتنوّع باختلاف البيئات والأوساط الاجتماعيّة التي تسكن في تلك المنطقة، أو في ذلك المكان. وهذا يعني أن كلّ فتاة تأخذ مهر مثل بيئتها، مع أنهن كلّهن بشر، ويرجعن إلى أب واحد وإلى أُمّ واحدة، لكن الاختلاف هنا جاء باعتبار الجمال أو المركز الاجتماعي، أو الوسط الثقافي، أو ما إلى ذلك ممّا له مدخليّة في تحديد هذا الأمر. وبعبارة أُخرى فإن صورة فتاة تختلف عن صورة فتاة أُخرى، وكذلك عقلها وذهنيتها وخصائصها الأُخرى.

وبما أننا في هذا الصدد فالواجب ألّا نغفل دور السنّ في هذا الموضوع، فهو يلعب أيضاً دوراً كبيراً في تحديد مهر المثل. فالفتاة الشابّة يختلف مهر مثلها عن تلك المرأة العجوز، أو تلك التي في مرحلة الهرم مع وجود ذلك الاشتراك فيما بينهن، وهو الذي أشرنا إليه، ونعني به الاشتراك في الأصل من كونهن من أب واحد وأُمّ واحدة ومن تراب واحد وأرض واحدة.

نظريّة التفريق في العقاب

إن هذا التمايز الذي يوجد في حياة الإنسان، أو يوجد في الأرض ككلّ هو أمر ضروري ومهمّ، ومتفرّع عن ضرورة ذلك التنوّع الذي أشارت إليه آية المقام الكريمة. كما أنني من هنا أودّ أن أُلفت النظر إلى قضية أُخرى هي مسألة التفريق في العقاب، وهي نظرية يبحثها فقهاء القانون، أو علماء الفقه الجنائي. وهؤلاء إذ يناقشون هذه النظرية فإنهم يخلصون إلى ضرورة التفريق في العقاب بين من تربط بينهم جريمة واحدة متماثلة، بمعنى أنه لو جيء بأكثر من جانٍ، وكان كلٌّ منهم قاتلاً، فإن هؤلاء من الممكن أن يفرّق بينهم بالمعاملة باختلاف ظروف كلّ واحد منهم، ودوافعه إلى القتل وأسبابه التي أدت به إلى ارتكاب الجريمة، وذهنيته، ومستوى عقله، وما إلى ذلك مما دفعه إلى الإقدام على القتل.

وبعبارة أُخرى تلحظ في عملية محاكمتهم تلك الظروف المحيطة بجوّ الجريمة؛ سواء كانت ظروفاً نفسية؛ أو عقلية؛ أو اجتماعية؛ أو غيرها. وهذا ما يطلق عليه علماء الفقه الجنائي كما أسلفنا نظرية التفريق في العقاب، مع أن كلّاً من هؤلاء إنسان، وقد ولدوا من أب واحد وأُمّ واحدة، لكن الظروف التي دعت هؤلاء إلى ارتكاب الجريمة لم تكن قطعاً واحدة، فلكلٍّ دافعه، ولكلٍّ حافزه وأسبابه وظروفه التي أدّت به إلى ارتكاب مثل هذا الجرم. وهذا الأمر بطبيعة الحال مبتنٍ على اختلاف كل إنسان عن غيره في كلّ خواصه، بل حتّى في خلاياه التي تختلف من إنسان إلى آخر.

وهكذا فإن القرآن الكريم يريد أن يستنتج لنا بأن الطبيعة الجامدة ليست هي من خَلَق هذا الكون، وإنما من خلَقَه يد تتّصف بالحكمة والقدرة والإبداع

والإحاطة، وهي يد الله تبارك وتعالى الذي لا يقف دون قدرته شيء.

المبحث الثاني: لماذا خصّ القرآن التمر والعنب بالذكر؟

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ﴾، والمفسّرون يتساءلون هنا فيقولون: لماذا اقتصر القرآن الكريم على ذكر هذه الأشياء من المأكولات فقط دون غيرها؟ وهل هو من باب التمثيل، أم إنه من باب الحصر؟ أم إن هناك سبباً آخر كامناً وراء ذلك؟ إن المفسّرين هنا على رأيين هما:

الرأي الأول: أن العرب كانوا أكثر انتفاعاً بهما

فهؤلاء يذهبون إلى أن هناك سبباً كامناً وراء ذلك وهو أن العرب كانوا أكثر ما ينتفعون انتفاعاً مباشراً بهذين النوعين من الفاكهة، وهما التمر والعنب (الزبيب)؛ لأنهم كانوا يستخرجون منهما الشراب والخمر. والعرب ـ كما هو معلوم ـ كان عندهم ولع غريب بالخمر؛ ولهذا السبب فإن القرآن الكريم حينما أراد أن يحرّمها، لم يعمد إلى تحريمها دفعة واحدة، بل إنه استعمل أُسلوب التدريج في التحريم؛ كي يتمكّن من اقتلاعها من نفوسهم.

ومثَل هذه المعالجة الكريمة التي أرادها القرآن الكريم مثَل من يؤخذ إلى المستشفى في هذه الأيام لمعالجته من إدمانه الخمرة أو المخدّرات، فإنهم لا يمنعونه عن ذلك بشكل مباشر ومفاجئ، بل إنهم يتبعون معه علاجاً تدريجياً من أجل جعله ينفر منها أو ينظر إليها على أنها شيء لا يجب التهافت عليه، أو الاقتتال من أجله. وهكذا يستمرّون معه حتى يمتنع عمّا كان يفعله. وبهذا اللحاظ نجد نهي القرآن الكريم المسلمين عن الخمرة؛ فقد نهاهم أول الأمر عنها

في أوقات الصلاة فقط[١]، ثم حاكم عقولهم فقال: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنْ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا**﴾[٢]، وهذا هو مفهوم التدريج الذي لجأ اليه الإسلام في تحريم الخمر، حتى عالجها معالجة تامّة.

وولع العرب بالخمر غير خافٍ ولا يحتاج إلى إثبات؛ ولهذا فإننا نقرأ في شعرهم قول أحدهم:

إذا مت فادفنّي إلى أصل كرمة ... لتروي عظامي بعد موتي عروقُها

ولا تدفنّني في الفلاة فإنني ... أخاف إذا ما متّ أن لا أذوقُها[٣]

ومما يروى في هذا المجال أن أحد الأشخاص جاء ليُسلم على يد النبي ﷺ، فلمّا دخل عليه قال له: يا رسول الله، إني أتيتك وأنا عارف بمحاسن الإسلام، وأنا أُريد أن أُسلم، لكن على أن تعطيني شيئاً واحداً. فقال له النبي ﷺ: «ما تريد؟». قال: أنا أشرب الخمر، وأُريد منك أن تعطيني رخصة في أن أشربها إلىٰ سنة. فرفض الرسول ﷺ ذلك، وطالبه بتركها من ساعته تلك إن هو أسلم[٤].

فهؤلاء في واقع الأمر كانوا يتصفون بولع عجيب وغريب في هذا المجال وفي حب هذا الداء وهذا المرض؛ ولهذا فإنهم كانوا يزرعون هاتين الثمرتين (النخيل

---

(١) وذلك في قوله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ النساء: ٤٣.

(٢) البقرة: ٢١٩.

(٣) البيتان لأبي محجن الثقفي. الاستيعاب ٤: ١٧٤٩ ـ ١٧٥٠ / ٣١٦١، مغني المحتاج ٤: ١٨٩. وفي الاستيعاب قوله: وزعم هيثم بن عدي أنه أخبره من رأى قبر أبي محجن الثقفي بأذربيجان ـ أو قال: في نواحي جرجان ـ وقد نبتت عليه ثلاثة أُصول كرم، وقد طالت وأثمرت، وهي معروشة على قبره، ومكتوب على القبر: هذا قبر أبي محجن الثقفي. قال: فجعلت أتعجّب، وأذكر قوله: إذا متّ فادفني...

(٤) قريب منها ما في بحار الأنوار ٨٩: ١٣٢، قصص العرب ٢: ١٩٧ ـ ١٩٨، عن أعشىٰ قيس، وقد مرّت الإشارة إليه.

والأعناب)؛ لأنهم يستثمرون ما يجنونه من ثمارها في صناعة الخمر، كما أنهم كانوا يقولون: إن من الخطأ أن نشرب الماء مع وجود الخمرة، يقول عمر الخيّام في إحدى رباعياته:

مُذِ ازْدهَرَتْ بِالْبَذْرِ وَالزُّهْرَةِ السَّمَا ... إِلَى الآنَ لَمْ يُوْجَدْ أَلَذُّ مِنَ الْخَمْرِ

فَيَا عَجَبِي مِنْ بَائِعِ الرَّاحِ هَلْ يَرَى ... أَعَزَّ مِنَ الصَّهْبَاءِ إِنْ بَاعَهَا يَشْرِي[1]

أي أن الذي يبيع الخمرة مخطىء كثيراً؛ إذ أنه ليس هناك ما هو أحسن من الخمرة لكي يشتريه عوضها. فهؤلاء كانوا من هذا النوع، وعلى هذا الولع الكبير بارتشاف الخمرة وشربها. يروى أن أبا نؤاس خرج في بعض أسفاره، فمرّ بكروم بقرية يقال لها: طيذ ناباد، وكانت يعصر فيها الخمر، فأنشد يقول:

بطيذناباذ كرم ما مررت به ... إلّا تعجبت ممّن يشرب الماء[2]

فكان للخمرة مكانة عندهم بشكل لا يمكن أن يوصف خصوصاً المنطقة التي كانت مشتهرة بالخمر ابتداء من النجف إلى الحيرة حتى الكوفة، هذا المثلث الحضاري الذي كان حاضرة المسيحية في تلك المنطقة. لقد كان هذا المثلث معروفاً بصناعة الخمر وباحتسائه، فهؤلاء كانت عندهم أديرة خاصّة يتناولون فيها الخمر. وبعبارة أُخرى فإن الشراب كان قائماً عندهم على قدم وساق إلى درجة أصبحت معها متأصّلة في نفوسهم ومجالسهم.

---

(١) رباعيات الخيّام: ٨.

(٢) التخويف من النار: ١٥٧، معجم البلدان ٤: ٥٥، وفيه أنه له بيتاً ثانياً هو:

إن الشراب إذا ما كان من عنب ... داء وأي لبيب يشرب الداء

قيل: فهتف به هاتف، فقال:

وفي الجحيم حميم ما تجرعه ... خلق فأبقي له في البطن أمعاء

المصدر نفسه.

الخلفاء والخمر

وببالغ الأسف فإن هذه الحالة البعيدة عن الدين والقيم والأخلاق قد انسحبت إلى بعض من يطلق عليهم تاريخنا اسم خلفاء المسلمين، ومن هذا ما فعله المتوكّل حينما أرسل خلف الإمام الهاديعليه السلام فرقة من جنوده ليكبسوا عليه بيته ليلاً، وليأتوا به إليه على الحالة التي هو فيها، فوجدوه في بيت مغلق عليه، وعليه مدرعة من صوف جالساً على الرمل والحصى ومتوجّهاً إلى الله تبارك وتعالى، يتلو آيات من القرآن الكريم. فحملعليه السلام على تلك الحال إلى المتوكّل، وكان المتوكّل يعاقر الخمر حينها، وحينما أُدخل الإمامعليه السلام عليه ـ وكان جالساً في مجلس الشرب، والكأس في يده ـ ورآه هابه وعظّمه وأجلسه إلى جانبه، ثم التفت المتوكّل إلى الساقي القائم على شرابه، وقال له: ناوله الكأس. فقالعليه السلام: «**والله ما خامر لحمي ودمي قط، فاعفني**». فأعفاه، ثم قال: أنشدني شعراً. فقالعليه السلام: «**إني قليل الرواية للشعر**». فقال: لابدّ من ذلك. فأنشدهعليه السلام:

« باتوا على قلل الأجبال تحرسهم	غلب الرجال فلم تنفعهم القللُ
واستنزلوا بعد عز من معاقلهم	وأُسكنوا حفراً يا بئسما نزلوا
ناداهُمُ صارخ من بعد دفنهِمُ	أين الأساور والتيجان والحللُ
أين الوجوه التي كانت منعّمة	من دونها تضرب الأستار والكللُ
فأفصح القبر عنهم حين ساءلهم	تلك الوجوه عليها الدود يقتتلُ
قد طالما أكلوا دهراً وقد شربوا	وأصبحوا اليوم بعد الأكل قد أكلوا »[1]

---

(١) كنز الفوائد: ١٥٩، بحار الأنوار ٥٠: ٢١١ ـ ٢١٢، تاريخ الإسلام ١٨: ١٩٩ ـ ٢٠٠، الوافي بالوفيات ٢٢: ٤٨ ـ ٤٨.

الشيعة والتاريخ

يقول صاحب كتاب (كشف الجاني محمد التيجاني): لا أحد يسبّ تاريخ المسلمين إلّا الشيعة. ولسنا ندري ما الذي يبتغيه هذا المزوّر بقوله هذا، مع أننا جميعاً نعلم أن الله تبارك وتعالى قد منحنا عقولاً لنفكّر بها، وأذهاناً لنميّز بها، ونحن إذ نمرّ بهذا التأريخ فإن علينا ألّا نغفل دور العقل، بل علينا أن نُعمل هذه الهبة الإلهية العظيمة في هذه الأُمور؛ كي نقطع بالحقّ، وكي نتوصّل إلى النتيجة الصواب. وإننا إذ نعمل عقولنا ونحن نمرّ بتاريخ المتوكّل، ونجده غارقاً في كؤوس الخمر فإننا لابدّ أن نوجّه إليه النقد؛ لأنه يدّعي أنه خليفة المسلين، وأن البعض يسميه محيي السنة ومميت البدعة، وهذا يعني أنه يعطيه صفات القدّيسين مع ماهو عليه مما يرويه التاريخ عنه ـ من بُعد عن الدين ـ على ألسنة الخصم نفسه وليس على ألسنتنا.

ونحن إذ نجد كل هذا فما الذي ينبغي علينا فعله حينئذٍ، والعقل يأمرنا بأن نتّخذ موقفاً معيّناً من هؤلاء المارقين عن الدين، والخارجين عن الإسلام؟ ثم إنه أليس المتوكّل هو من مات بين كؤوس الخمر وأحضان البغايا حينما تناثر لحمه ودمه في تلك الكؤوس؟ إن هذا ما أثبته بعض الشعراء حينما وقف عليه فقال:

هكذا فلتكن منايا الكرام	بين نايٍ ومزمرٍ ومُدامِ
بين كأسين أرداه جميعاً	كأس لذّاته وكأس الحمامِ[1]

إذن فالخمرة كانت تستأثر بشكل كبير بمجالس العرب وسمرهم، وكانوا

---

(١) البيتان لإبراهيم بن أحمد الأسدي. ثمار القلوب (الثعالبي) ١: ١٩١ ـ ١٩٠، زهر الآداب (الحصري) ١: ٨٧.

يعتصرونها من هاتين الثمرتين اللتين هما التمر والعنب.

الرأي الثاني: أنه من باب التغليب

وذلك من باب الغلبة التي أشار إليها القرآن الكريم بقوله: ﴿وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ﴾.

أمران حول هذا الرأي ينبغي التنويه إليهما

وهنا لابدّ من الإشارة إلى أمرين هامين:

الأول: أن تخصيص الجنات بالأعناب والنخيل هو من باب التمثيل لا الحصر.

الثاني: أن القرآن الكريم يريد أن يقدم لنا أُنموذجاً يراد منه لفت نظر القارئ إلى هذا العامل الذي ذكرناه قبل قليل، وهو اختلاف الزروع على الرغم من أنها تنبت في بيئة واحدة وفي قطعة من التراب واحدة، أي أن فيه دليلاً على أن اليد القديرة التي خلقته هي التي جعلته يتنوّع هذا التنوع، وليس التراب نفسه أو الماء أو الهواء، أو ما إلى ذلك من العوامل الطبيعية ذات المدخلية في عملية النمو والبناء والحياة.

المبحث الثالث: في سبب التسمية بالجنات

ثم إننا في قوله تعالى: ﴿وَجَنَّاتٌ﴾ نرى أنه تعالى يعبّر عن الحدائق أو الزروع بأنها جنات؛ وقد عبر عنها تبارك وتعالى كذلك لأن الإنسان يستجنّ بها عن الحرّ. ونحن نعرف أن المهد الذي نزل به القرآن الكريم هو الجزيرة العربية، وهي منطقة تعطى فيها الشجرة منزلة هامّة، بل تعتبر ذات قيمة، خصوصاً في الأيام الأُوَل عندما لم يكن هناك تنظيم لمسألة المياه أو الزراعة. وبهذا فإن العيش في تلك الصحراء اللّاهبة يكسب الشجرة طابعاً مقدّساً، ودوراً ضرورياً؛ كونها مما يمكن

أن يستظلّ به الإنسان من حرّ الشمس، ويتفيّأ ظلالها حينما يريد أن يستريح أو أن يريح راحلته.

الفرق بين جنان الدنيا وجنان الآخرة

هذا مع ملاحظة أن هناك فرقاً بينها وبين الجنة الموعودة في الآخرة؛ لأن الجنة الموعودة في الآخرة ليست مأخوذة من الإجنان وهو الاستظلال، ولا مشتقةً منه، وإنما هي مشتقّة من الجُنّة ـ بضم الجيم ـ والجُنّة بهذا الرسم هي الدرقة أو الدرع الذي يتّقي به المحارب الضرب بالسيوف أو السهام المتوجّهة إلى صدره. وهذا المعنى إنما كان للجنّة؛ لأن هذه الجنة غداً في حقيقة الأمر أمن للإنسان من المكاره، وظلّ له من الخوف والأذى، فما يأكله الإنسان في الدنيا، وما يتناوله، وما يشتريه كلّه مهدّد بالمكروه أوبالزوال والانحسار عنه، وبالذهاب بمرض أو خسارة أو موت أو ما إلى ذلك. فهذه الحياة لا تعرف الهناء أو الراحة والدعة في أية لحظة من لحظاتها، بل يمكن لها أن تنغّص صاحبها في كلّ شربة، ففي كلّ شرب غصص إلّا إذا أدركت الإنسان رحمة من الله تبارك وتعالى.

وكلّ هذه الأُمور غير موجودة في الجنة الموعودة في الآخرة؛ لأنها نعيم دائم كلّها، فلا غصص فيها ولا تنغيص، ولا موت ولا استلاب، ولا مكاره ولا تفكير في أن يأخذ أحد ما نعمة إنسان غيره، أو يستلبه لقمته أو مكانه الذي يتبوّؤه؛ فهي جنة خالية من الخوف والفوت، والمرض واغتصاب الحق والملك، والإبعاد عن الرحمة، وكذلك هي جنة كلها نعيم وعطاء من غير منغصات. وبهذا فهي جُنة ـ بضم الجيم ـ لأنها يُدفع فيها جميع المكاره عن الإنسان بخلاف جنة الدنيا التي هي من الاستجنان، أي أن الإنسان يستجن بها؛ فيتقي بها الشمس والحرّ والعطش، وما إلى ذلك.

وبهذا فإننا نقول: إن مفهوم الجنة في الآخرة يختلف عنه في هذه الحياة الدنيا.

المبحث الرابع: هل يخرج الضدّ من الضدّ؟

وكذلك في قوله تعالى: ﴿**وَجَنَّاتٌ**﴾ إشارة إلى أنه تبارك وتعالى يخرج الضدّ من الضدّ، وهذا يعني أن هناك هدفاً ضمنياً آخر هو هذا الإخراج. إننا نعرف أن النبات كائن حي متحرّك لكن لا بإرادة، أي أن حركته حركة قسرية بغير اختياره وغير إرادته، كما هو الأمر عند الحيوان. وهو يعني أن نموّه نموّ غير إرادي. وهذا النمو والحركة يجعلانه يختلف عن البيئة التي ولد فيها وهي التراب؛ أي أنه يدلّ على وجود حياة فيه، وهذه الحياة تعني حياة ضمن الموت. وكأن هنا رسالة موجّهة إلى الإنسان تخاطبه بالقول: لماذا تظنّ أنك إذا دخلت القبر، فسوف لن تخرج منه مرّة أُخرى؟ أي أنه يظن بأن لن يحيا، أفلا ترى أن الأحياء يخرجون من الأجسام الميتة وهو التراب؟ وألا تنظر إلى النباتات كيف يحييها الله تبارك وتعالى، ويبعثها من جماد، أي من بيئة ميتة؟

إن هذا كله لا يعني إلّا أمراً واحداً هو إخراج الضدّ من الضدّ، وهذا أحد مصاديق قوله تعالى: ﴿**الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنْ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ * أَوَ لَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ * إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾(١).

فتأمّل هذه الأهداف التي يمرّ بها القرآن الكريم ليعبّر عن مثل هذه الكائنات الحيّة بأنها جنّات، وأنها جاءت من أعناب وزرع ونخيل.

---

(١) يس: ٨٠ ـ ٨٣.

المبحث الخامس: في معنى الصنوان

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾، والصنو هو عبارة عن شجرتين تنبتان من أصل واحد، أو أن يكون هناك أصل واحد تتفرّع منه فروع كثيرة. إذن فكلمة صنوان تعني نخلتين من أصل واحد.

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأمير المؤمنين عليه السلام من صنو واحد

وفي هذه المناسبة أودّ أن أُشير إلى أن من يرغب أن يطلع على تفسير هذه الآية الكريمة عند القرطبي في تفسيره فلينظر؛ فإنه يذكر فيه قول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: «**خلق الناس من شجر شتّى، وخلقت أنا وابن أبي طالب من شجرة واحدة**»، ثم قرأ النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿**وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ**﴾، حتى بلغ قوله تبارك وتعالى: ﴿**يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ**﴾...[1].

وهنا نودّ أن نقول أيضاً: إذا كان الأمر كذلك، فلماذا لا يعطى أمير المؤمنين عليه السلام حقّه من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ وهذه المسألة من المفارقات الغريبة التي يعجّ بها تراثنا التفسيري والحديثي والتاريخي، ومن ذلك ما يرويه أحد المحدثين فيقول: قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «**لا تصلوا عليَّ الصلاة البتراء، إذا أردتم أن تصلوا عليَّ فقولوا: اللهمَّ صلِّ على محمد وآل محمد**». وبعد أن يذكر الراوي هذه الرواية يقول: «هكذا قال صلى الله عليه وسلم»!

فلماذا هذه العقدة من آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم؟ إنني في واقع الأمر لا أفهم إلّا أن هناك علة واحدة موجبة لكلّ هذا التصرّف إزاءهم، ولكل هذا الغمط لحقّهم، مع أنهم ما

(١) الجامع لأحكام القرآن ٩: ٢٨٣، وانظر: الخصال: ٢١ / ٧٢، تفسير الثعلبي ٥: ٢٧٠، المستدرك على الصحيحين ٢: ٢٤١، المعجم الأوسط ٤: ٢٦٣ ـ ٢٦٤، نظم درر السمطين: ٧٩ ـ ٨٠: كنز العمّال ١١: ٦٠٨ / ٣٢٩٤٤.

هم عليه ممّا صرحت عليه الأحاديث الشريفة، ومن قبلها الآيات الكريمة. إن آل محمد ﷺ هم عطاء للمسلمين جميعاً فهم ليسوا أبناء عمّ لنا، ونحن إنما نتّصل بهم بالشكل الذي يتّصل عن طريقه بهم المسلمون كافّة، لكننا نرى أن لهم حقّهم ومكانتهم وموقعهم السياسي والاجتماعي والديني المتميّز؛ حيث إنه تبارك وتعالى قد جعلهم عدل القرآن الكريم على لسان نبيّه العظيم [1] (صلواته وسلامه عليه وعلى آله).. النبي الكريم ﷺ الذي قال: «**أحبّوا أهل بيتي لحبّي**» [2].

---

(١) حيث إنه ﷺ قال: «إني مخلّف فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا بعدي أبداً. ولقد نبّأني اللطيف الخبير أنهما لن يفترقا حتىٰ يردا عليّ الحوض». انظر: فضائل الصحابة (أحمد بن حنبل): ١٥، ٢٢، مسند أحمد ٣: ١٤ وغيرها، سنن الدارمي ٢: ٤٣٢، وغيرها.

(٢) تاريخ بغداد ٤: ٣٨١، المستدرك على الصحيحين ٣: ١٥٠، المعجم الكبير ٣: ٤٦ / ٩، ١٠: ٢٨١ / ٤، تهذيب الكمال ١٥: ٦٤ ـ ٦٥ / ٣٣٢٠، سير أعلام النبلاء ٩: ٥٨٢ / ٢٢١، عن الترمذي في مناقبه برقم (٣٧٨٩)، ميزان الاعتدال ٢: ٤٣٢ / ٤٣٦٧، تاريخ الإسلام ٨: ٢٢٤، ١٠: ٢٩٦، ١٧: ٤٠٦، الدر المنثور ٦: ٧، الجامع الصغير ١: ٣٩ / ٢٢٤ كنز العمّال ١٢: ٩٥ / ٣٤١٥٠، تفسير السمعاني ٢: ٤٥٣، الكامل ٧: ١١٢، تاريخ مدينة دمشق ٥٤: ٣٦٣ / ١١٥٢٦، الأربعين البلدانية (ابن عساكر): ٧٦، نظم درر السمطين: ٢٣١، ٢٣٣.

وورد عنه ﷺ أنه أخذ بيد الحسنين ﵉، قال: «من أحبني وأحب هذين وأباهما وأمهما كان معي في درجتي في الجنة يوم القيامة». مناقب آل أبي طالب ٣: ١٥٣ ـ ١٥٤، مسند أحمد ١: ٧٧ ـ ٧٨، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٥: ٣٠٥ / ٣٨١٦، الذرية الطاهرة النبوية: ١٦٧ / ٢٢٥، أُسد الغابة ٤: ٢٩ ـ ٣٠، تهذيب الكمال ٦: ٢٢٨، ٤٠١، ٢٠: ٣٥٤ـ ٣٥٥، تهذيب التهذيب ٢: ٢٥٨، ١٠: ٣٨٤، كنز العمّال ١٢: ٩٧ / ٣٤١٦١، ١٣: ٦٣٩ / ٣٧٦١٣.

أمّا الذهبي، فقد ذكره في سير أعلام النبلاء ٢: ١٣٥، لكنّه ضعفه في تاريخ الإسلام ٥: ٩٥، غير أنه أعقبه بالقول: وفي المسند بإسناد قوي عن أبي هريرة﵁ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «من أحبّهما فقد أحبّني، ومن أبغضهما فقد أبغضني».

ميراث أمير المؤمنين عليه السلام ذحول لقريش

وإذا كان الأمر كذلك فإن الإمام علياً عليه السلام والنبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم هما من مصدر واحد، ومن سنخ واحد، وعليه فلماذا لا يعطى هذا الرجل العظيم مساحته الحقيقيّة التي يعطاها سائر الناس ممّن عاصر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم؟ إني أُؤكّد هنا أن تعليل هذه المسألة ربما يكون واضحاً فيما إذا عرفنا أن لهذا الرجل تركة ثقيلة على المسلمين لا يمكن أن تنسى، فالذين كتبوا التاريخ هم رجالات قريش والأُمويون منهم بالخصوص، ثم من بعدهم العباسيون، وإذا كان هؤلاء يحملون ذلك الحقد الدفين على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، وعلى أبنائه وآله عليهم السلام، فإننا سوف لن نستغرب حينئذٍ حينما نجد أن حقّ هذا الرجل العظيم قد غُمط، وأن مكانته قد سلبت واستبيحت.

إن قريشاً تطلب هذا الرجل العظيم بديون ثقيلة؛ فهذا يطلبه بثأر لأنه عليه السلام قد قتل أباه، وهذا يطلبه بثأر لأنه قد قتل أخاه، وثالث يطلبه بثأر لأنه قد قتل ابن عم له، وهكذا. والكلّ يعلم أنه عليه السلام في واقعة بدر لوحدها كان له نصف عدد القتلى حيث إن عددهم فيها كان سبعين رجلاً، خمسة وثلاثون رجلاً منهم كانوا بسيف أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، وما تبقى كان بسيوف الملائكة وسائر الصحابة. وحتماً فإن مثل هذه التركة الثقيلة التي ظلّت تلازم هذا الرجل ملازمة الظلّ له حتى انتقاله إلى مقعد صدق عند الرفيق الأعلى، بل وانسحبت من بعده على أبنائه لا يمكن أن تُنسى في يوم من الأيام، سيما إذا علمنا أن الموتورين بسيفه لا زالوا يعيشون الحياة الجاهلية، بل لا زالت آثار الجاهلية وعاداتها وقيمها وموروثاتها متغلغلة في رؤوسهم.

إن من الصعب على إنسان لم يهضم الإسلام أن يرى قاتل أبيه، ثم يحبّه

أو يخضع له وإن كان أميراً للمؤمنين بأمر من الله تبارك وتعالى. فهؤلاء لا يمكن أن تطيب أنفسهم حتى يروا من وترهم صريعاً قتيلاً.

وهكذا فإن هذه التركة الثقيلة قد انعكست على الانطباعات التي كوّنها كتّاب التاريخ عنه، وقد بقيت إلى يومنا هذا مفعّلة لا تهدأ معها النفوس إلّا مع ذكره بتلك النبرة الجارحة أو المتّهمة.. بقيت تمشي بالقوّة والإصرار أنفسهما، بل ربما زادت أكثر من أي وقت مضى. إن الإنسان حينما يُلقي بحجر في الماء فإنه يلاحظ نشوء دائرة صغيرة حول مكان سقوطه، ثم تبدأ دوائر أُخرى بالتولّد والنشوء، فيما تبدأ تللك الدائرة الصغيرة بالاتّساع أكثر فأكثر، وهكذا حتى تصل إلى دائرة كبيرة جدّاً حسب قوة رمي الحجر وكتلته. والمشكلة التي وُضع فيها أمير المؤمنين عليه السلام مع هذا النمط من الناس هي من هذا النوع.. من هذه الدوائر التي يرسمها ذلك الحجر على صفحات الماء، والتي سرعان ما تتّسع وتكبر، بل تزداد كثرة مع الزمن.

وعلى أية حال فوفق تفسير القرطبي أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم أرسل خلف أمير المؤمنين وقال للمسلمين عنه: «**خلق الناس من شجر شتّى، وخلقت أنا وابن أبي طالب من شجرة واحدة**»؛ ولهذا فإن أحد شعرائنا يقول:

لو رأى مثله النبيّ لآخا ... ه وإلّا فأخطأ الانتقادُ[1]

وفعلاً فهناك وحدة في السنخ؛ ولذا فإنه صلى الله عليه وآله وسلم عبّر عنه بأنه أخوه. ومن هذا أنه صلى الله عليه وآله وسلم كان يقول لأُم سلمة حينما طلب منها أن تهيّئ حجرة لفاطمة الزهراء عليها السلام،

---

(١) البيت للسيد محمد الهندي. الأنوار العلوية: ٣٤٠. وقد قال له رسولنا الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم في حديث المؤاخاة: «إنما ادّخرتك لنفسي، أنت أخي في الدنيا والآخرة». الطبقات الكبرىٰ ٣: ٢٢، المعجم الكبير ١١: ٦٣، تاريخ مدينة دمشق ٤٣: ٨، كنز العمّال ١١: ٥٩٨ / ٣٢٨٧٩، ٦٠٨ / ٣٢٩٣٩، ٦١٠ / ٣٢٩٥٥، ١٣: ١٤٠ / ٣٦٤٤٠.

« يا أُمَّ سلمة، هيّئي حجرة لأخي وابن عمي، ولابنتي فاطمة». فتقول له أُم سلمة: يا رسول الله، تسميه أخاك، وتزوّجه ابنتك؟ فقال لهاﷺ: «إن علياً أخي في الدنيا والآخرة، إن علياً أخي في الدنيا والآخرة، إن علياً أخي في الدنيا والآخرة»[1].

فكان النبي الأكرمﷺ يوليه كلّ هذا التشريف، ويمنحه كلّ هذا العطاء، ويعبّر عنه بأنه أخوه في الدنيا والآخرة. وفعلاً فإنه لم يؤاخِه في السرّاء فقط بل إنهعليه السلام كان أخاً لرسول اللهﷺ في السرّاء والضرّاء؛ لأنه لم يفارقه في لحظة من لحظات حياته، فقد خرج أمير المؤمنينعليه السلام إلى الوجود ليتلقفه النبي الأكرمﷺ بصدره الحاني وكفّه الكريمة.. الصدر واليد اللذين لا يوكفان إلّا عطاء وحناناً وإيماناً، فكانﷺ يطوف به شعاب مكّة وهو على كتفه؛ ولهذا فإن المرحوم عبد الباقي العمري يخاطبه بقوله:

لقد ترعرعت في حجرٍ عليه لذي	حجرٍ براهينُ تعظيمٍ بها قطعا
ربيبُ طه حبيبِ الله أنت ومن	كان المربي له طه فقد برعا
سقتك أُمك بنتُ الليث حيدرةً	أكرم بلبوةِ ليثٍ أنجبت سبُعا[2]

فكانﷺ يحمله على صدره، ويوجره اللبن عندما يريد أن يشرب، وكانﷺ يهزّ مهده بيده، وبعد ذلك كان يخرج به ليطوف به شعاب مكّة. فما فارقه منذ يومه الأول حتى آخر اللحظات الشريفة من حياتهﷺ، فقد انتقلﷺ إلى الرفيق الأعلى ورأسه في حجر علي بن أبي طالبعليه السلام. فأي أُخوّة

---

(١) انظر: مناقب الإمام أمير المؤمنينعليه السلام (محمد بن سليمان الكوفي) ١: ٣٥٥، فيض القدير شرح الجامع الصغير ٤: ٤٦٨ / ٥٥٨٩، أُسد الغابة ٤: ٢٩، وليس فيها قول أُم سلمة.

(٢) الأنوار العلوية: ٣٩، ٣٤٥.

أعظم من هذه الأُخوّة؟ وأي إخاء أكبر من هذا الإخاء؟

المبحث السادس: أُخوّة الحسين والعباس عليهما السلام

ولنرَ كيف أن هذه الأُخوّة وهذا الإخاء قد انحدرا من رسول الله صلى الله عليه وآله وأخيه أمير المؤمنين عليه السلام إلى ابنهما الإمام الحسين عليه السلام وأخيه العباس عليه السلام، فالحسين وإن كان ابن علي بن أبي طالب عليهما السلام إلّا إنه ابن رسول الله صلى الله عليه وآله. لقد وقف العباس عليه السلام يوم الطفّ يجسّد الموقف الذي جسّده الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في حياة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله؛ ولذا فإن الإمام عليه السلام يعطيه تلك المنزلة العظيمة التي أعطاها رسول الله صلى الله عليه وآله لأمير المؤمنين عليه السلام في زيارته الشريفة، فالإمام عليه السلام يخاطبه ليبيّن لنا بانه عليه السلام إنما نزل يوم الطف إلى ساحة الشرف والقتال؛ ليقاتل عن إمام هو امتداد لرسول الله صلى الله عليه وآله، ولم ينزل ليقاتل عن أخ؛ أو ابن أبى. فإخاؤه له هو إخاء التابع للمتبوع، فكما أن أباه أمير المؤمنين عليه السلام كان ألزم للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله من ظلّه، وكان ساعده وتابعاً له، وكان إخاؤه له إخاء التابع للمتبوع، فالعبّاس عليه السلام كذلك؛ فقد جاء لينصر امتداد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، وهو الحسين عليه السلام. وهكذا فإننا نجد أنه عليه السلام يخاطب عمّه العبّاس في زيارته الشريفة بالقول: «**أشهد لك بالتسليم والتصديق والوفاء والنصيحة لخلف النبي صلى الله عليه وآله**»[1].

وبالفعل وقف العباس عليه السلام يوم الطفّ يجسّد هذا المعنى تجسيداً كاملاً، وذلك حينما جاء إلى الفرات وأراد أن يحمل الماء إلى حرائر رسول الله صلى الله عليه وآله، إننا لا زلنا حتى الآن نسمع أُرجوزته يتردّد صداها في الآفاق وهو يقول:

واللّه إن قطعتمُ يميني ... إني أُحامي أبداً عن ديني

(١) مصباح المتهجّد: ٧٤٢/ ٨١٤.

وعن إمام صادق اليقين نجل الإمام الطاهر الأمينِ[1]

لقد أبى عليه السلام أن يذوق الماء، ومثل هذا الأمر غير مستغرب من العبّاس عليه السلام الذي عاش مع الإمام الحسين عليه السلام، وله معه امتداد روحي ونفسي طويل لا حدود له. لكن ما تقول في ضرّة تعامل ابن ضرتها معاملةً أفضل ممّا تعامل به ابنها.. تعامل ابن ضرّتها عين تلك التي تعامله بها أُمّه النسبيّة، وعين تلك المعاملة التي عامل بها العبّاس عليه السلام أخاه الإمام الحسين عليه السلام؟ وهكذا بالنظر إلى ما كانت تقوم به السيّدة أُمّ البنين (رضوان الله عليها) تجاه الإمام الحسين عليه السلام فإننا نرى أنه كان موقفاً يثير العجب والاستغراب؛ فهذه المرأة الصالحة قد وقفت بعد أن جاء إلى المدينة نعي الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه موقفاً جسّدت فيه النبل بأسمى معانيه؛ فهي لم تفكر بأولادها طرفة عين أبداً، بل إنها قدّمت أولادها الأربعة وهم أقمار تلك العشيرة فداء لأبي عبد الله الحسين عليه السلام.

يقول بشر: سألتني امرأة فقالت: يا هذا أخبرني عن الحسين. يقول: فسألت رجلاً كان إلى جانبي: من هذه؟ قال: كأنك تجهلها؟ فقلت له: إي والله، فإني لا أعرفها. فقال: هذه أُمّ البنين.. هذه أُم العباس وإخوته. يقول بشر: فلمّا سمعتها تسألني وتقول: أخبرني عن الحسين، أحببت أن أشغلها قليلاً فنعيت لها أولادها وقلت لها: عظم الله لك الأجر بولدك جعفر. فقالت: هل سمعتني سألتك عن جعفر؟ يقول بشر: فرحت أتخطّى أولادها واحداً بعد الآخر إلى أن وصلت إلى أبي الفضل العباس، فقلت لها: عظم الله لك الأجر بأبي الفضل العباس. يقول بشر: نظرت لها وقد انحنت وسقط طفل من على كتفها إلى الأرض، ثم قالت: يا هذا لقد قطّعت نياط قلبي، أخبرني عن ولدي أبي عبد الله الحسين، أهو حي أم لا؟ يقول

---

(١) شرح الأخبار ٣: ١٩٢، مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٥٦، ينابيع المودة ٣: ٦٨.

بشر: عند ذلك التفتّ إليها وقلت لها: عظّم الله لك الأجر بأبي عبد الله. فرجعت مولولة صارخة:

أنـــا أم البـــنين اللــي ... سطرني الدهر واتعبني
أخذ كل فرح من گلبي ... وعلى درب الحزن ذبني
أنـــا أم البـــنين اللــي ... كـنت بـيهم يـندهوني
مـا ظلّ لي بـعد واحـد ... منهم بـاسمه يسموني
نـاموا بـالثرى وظـلّيـ ... ـت بس الدمـع بـعيوني

وهكذا كان موقفاً مشرّفاً جسّدت فيه النبل والأخلاق وحب أهل البيت﵈، حتى إن زينب﵍ لمّا أرادت أن تندب قتلاها في مـدينة جـدّها ﷺ، أوقـفت جارية على باب الدار، وأمرتها ألّا تدخل عليهن امرأة؛ فإنهن ـ أي الفاطميات ـ يردن أن يندبن قتلاهن هنّ ومسبيّات الطفّ، وبينما هنّ كذلك وإذا بالباب تطرق، فقالت الجارية: من على الباب؟ فعلمت أنها أُم البنين، فجاءت إلى زينب وقالت: سيدتي إن على الباب أُم البنين. فقالت لها زينب﵍: ويْحك افتحي لهـا؛ فـإنها شريكتنا في العزاء. ولمّا وقع بصرها على زينب صاحت: وا ولداه وا حسـيناه. فأجابتها زينب﵍: وا أخاه وا عبّاساه:

بعد هيهات دهري بيكم يعود ... أرد اشيل راسي بـيكم ردود

* * *

بـالأمس كـانوا مـعي واليـومَ قـد رحـلوا ... وخـلّفوا فـي سـويدا القـلب نـيرانـا
نـــذر عـلي لئـن عـادوا وإن رجـعوا ... لأمـــلأن طـــريقَ الطـــفّ ريـحانا[1]

---

(١) شجرة طوبىٰ ١: ٩١.

﴿٢٢٤﴾

دور المرأة الصالحة في بناء المجتمع

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

تتضمن هذه الآية الكريمة مباحث عدة سوف أعرض لها تباعاً إن شاء الله تعالى بعد ذكر مقدمة ممهّدة لذلك.

مقدمة: في ثقل المرأة

ورد في الأثر الشريف: «ليس لامرأة؛ لا لصالحتهن ولا لطالحتهن؛ أمّا صالحتهن فليس لها خطر الذهب ولا الفضة، وأما طالحتهن فليس لها خطر التراب، والتراب خير منها»[2]. ومعنى «خطر»، أي قيمة. وأمّا قوله عليه السلام: «فليس لها خطر الذهب ولا الفضة»، أي أن قيمتها أكبر من الدنيا؛ فهي لا حدّ يقف عند ثمنها. ونريد بالمرأة الصالحة: المرأة الطيّبة الجامعة للشروط التي رسمها الشارع المقدّس، حيث تصبح حينئذٍ لا حدود إزاء ثمنها. أما الطالحة فلا ثمن لها، وهي لن تعدل شيئاً ذا قيمة وإن صغر أبداً؛ ذلك أنها عادة تكون خارج حدود الشرع

---

(١) ص: ٤٤.

(٢) دعائم الإسلام ٢: ١٩٥ / ٧٠٧.

ونطاقه وآدابه، فتصبح متعبة لمجتمعها ولزوجها من قبل.

وبهذا الاعتبار فإنها لا تعدل شيئاً إطلاقاً ممّا يمكن أن يكون ذا قيمة وإن صغر. وهذه القصّة التي تناولها القرآن الكريم في آية المقام تدور حولها مباحث ترتبط ارتباطاً مباشراً بهذا الموضوع الذي ذكرته لك، وهو موضوع المرأة. وكما هو معلوم وواضح للقارئ فإن الآية الكريمة تدور حول النبي أيوب عليه السلام وقصّة ابتلائه ومرضه. وهي قصّة أشار إليها القرآن الكريم على نحو الإجمال، لكن كتب التفسير على العادة حينما تناولتها تفسيراً وتأريخاً، فقد أدخلت فيها الغثّ والسمين في تحديد معالمها وخيوطها. ولهذا فإننا نقول: إن هذه التفاصيل المذكورة في كتب التفسير لا علاقة لنا بها؛ لأنها ليس لها سند أو مدرك يمكن أن تستند إليه. وسوف نتناول هذه الاُمور بما يسمح به المقام ويقتضيه في مباحث متعدّدة إن شاء الله تعالى:

المبحث الأول: في مرض النبي أيوب عليه السلام

إن الحقيقة التي أشار إليها القرآن الكريم والتي لا يمكن إلّا أن تكون كذلك هي أن محنة النبي أيوب عليه السلام قد استمرّت فترة طويلة معه؛ فهي على بعض الروايات قد طالت ثماني عشرة سنة حتى أصبح جسمه كأنه الثوب البالي، إذ أنه كان كتلة من القروح والجروح، وحتى تساقط شعره. وقد جفّت قروح جسمه، فكان عليه السلام لا يقوى على التحرك. كما أنه عليه السلام ابتلي كذلك بالفقر ابتلاء شديداً؛ حيث إن الله سبحانه وتعالى قد سلبه كل ما أنعم عليه به من ضروع وزروع، وهو ما اضطرّ زوجتَه «ليا» ابنة يعقوب معه ـ وكانت من الصالحات ـ إلى أن تعمل لتأتي بقوتها وقوت زوجها. ولصعوبة الوضع المعيشي آنذاك، وصعوبة حياة العمل والحصول على فرص عمل كانت تحصل على ذلك القوت عن طريقه بعد لأي وشدّة، فكانت

لا تكاد تحصل على عمل إلّا بعد إصرار منها على البحث الدائب عنه؛ كي تعيل زوجهاﷺ وكي تقوّته.

ومن نتائج هذا الظرف أنها اضطرّت في إحدى المرات بعد أن لم تجد عملاً في ذلك اليوم أن تدخل إلى البيت وتقص ضفائرها وتبيعها؛ لتأتي لزوجها بطعامه. لكنهﷺ حينما وضعت له الطعام لمحها فلم يرَ شعرها، وحينما سألها عن جلية الأمر أجابته بأنها قد باعته لتحضر له به طعاماً، وهنا أقسم النبي أيوبﷺ على أن يجلدها مئة جلدة. هذا هو ملخّص القصة التي تدور حولها الآية الكريمة.

المبحث الثاني: الملابسات التي ترتبط بآية المقام

وبعد أن استعرضنا القصّة التي وقعت للنبي أيوبﷺ إجمالاً وبشكل موجز كما أشار إليها القرآن الكريم، لابدّ هنا من أن نمرّ بمجموعة من الملابسات التي ترتبط بهذا الموضوع من قريب أو من بعيد؛ وذلك وفق التسلسل التالي:

الملابسة الأولى: هل توحي الآية الكريمة بحيلة شرعيّة؟

تقول الآية الكريمة: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِبْ بِهِ﴾، والضغث هو عبارة عن عذق التمر، وهذا العذق بطبيعة الحال يحتوي على عيدان قد يصل عددها إلى أكثر من مئة عود. وهنا في هذه الآية الكريمة إشارة إلى ما ارتأى الفقهاء أن يسموه حيلة شرعية يفتون بموجبها بأن يُضرب من وجب عليه الحدّ مئة جلدة أو أقل من ذلك وكان مريضاً لا يحتمل الضرب بأن يؤخذ مثل هذا الضغث ويضرب به؛ لأن هذه حيلة شرعية قد أقرّها الشارع المقدس عبر هذه الآية الكريمة. والغرض من اللجوء إلى هذه الحيلة هو عدم تعطيل حدود الله سبحانه وتعالى بسبب مرض الشخص المراد حدّه، أو عدم تمكّنه من تحمّل الحد، بحيث إنه يؤدّي به إلى الموت؛ لطبيعة جسمه.

الحيل وأقسامها

وما دمنا قد مررنا بهذا الموضوع فإننا نودّ أن نبيّن عرضاً أن الحيل تنقسم إلى قسمين، هما:

الأول: الحيل الشرعية التي يقرّها الشارع المقدّس ويجيز التعامل بها.

الثاني: الحيل غير الشرعية، والتي لا يقرّها الشارع المقدّس ولا يجيز التعامل بها. مع أن هناك بعضاً من الفقهاء يجيز التعامل بالحيل كافّة مادامت من الممكن أن تدخل في نطاق الحيل الشرعية ولو مع التعمّل.

نماذج من الحيل غير الشرعية

وهذا الأمر طبعاً لا يمكن قبوله، ولا يجوز استعماله، ومن هذا ـ الحيل غير المشروعة ـ أضرب بعض الأمثلة؛ ليتّضح للمتلقّي حقيقة هذه الحيل، وكيف أن فيها استخفافاً بالأحكام الشرعية وبالشارع المقدّس:

الأولى: حيلة التهرب من الحقوق

فبعض الأشخاص مثلاً حينما تقارب الزكاة أن تجب عليه ـ ومعروف أن شرطاً من شروط تعلّق الزكاة هو أن يحول عليها الحول كالأنعام والغلّات والنقدين ـ وأراد أن يحتال ليتخلّص من دفع زكاة أمواله فإنه يعمد إلى هبتها إلى شخص قريب منه كابنه أو زوجته مثلاً قبل أن يحول عليها الحول وهي عنده، فإذا ما مرّ الحول وابتدأ حول جديد استعادها منه كيلا تؤخذ منه الزكاة على تلك الأموال التي كانت عنده.

الثانية: حيلة المرأة المختلعة

ذلك أن بعض النساء يحاولن أن يختلعن من أزواجهن (والاختلاع هو أن تبذل

المرأة مالاً لزوجها في سبيل أن يطلّقها، فإذا فعل فقد بانت منه)، فإذا أبى أزواجهن أن يخالعوهن فإنهن حينئذٍ يبقين زوجات مرتبطات بهم. وهنا يتدخّل البعض فيقول: إن هناك حيلة شرعية يمكن لهذه المرأة أن تطلّق من هذا الزوج دون أن تبذل شيئاً من الأموال عبر المخالعة؛ وذلك أنها تعلن ارتدادها عن الإسلام، فإذا ما فعلت ذلك فقد بانت منه بينونة كبرى بشكل تلقائي، ثم بعد ذلك تعود إلى الدين الإسلامي. وبهذا فإنها تحافظ على دينها، وتتخلّص من زوجها الذي يأبى أن يطلقها.

وهذا في واقع الأمر تصرّف غريب وشاذّ، ولا يمكن القبول به مطلقاً؛ فعلى مستوى المتخلّف عن دفع الحقوق فإننا نقول: إن الإنسان إنما يتعامل مع الله تبارك وتعالى وليس مع إنسان عادي، ومعلوم أنه سبحانه وتعالى لا يمكن أن تغيب عنه هذه الأشياء أو هذه التصرّفات، أو طريقة اللجوء إلى هذه الحيل. والإنسان عندما يريد أن يتهرّب من دفع الحقوق الشرعية المفروضة عليه والتي أكّدها الشارع المقدس عبر هذه الطريقة الملتوية فإنه يجب عليه أن يعلم أنه إنما يتعامل مع إله عالم محيط بكلّ الأشياء التي يفعلها، بل بالوجود بأسره وبالكون كلّه؛ وبهذا فإنه تبارك وتعالى لا يمكن أن تغيب عنه مثل هذه التصرّفات، أو مثل هذه الحيل.

وإذا كان الأمر كذلك ـ وهو أن الهدف منصب على التهرّب من أداء الحقوق ـ وهذه الحقوق مما يجب دفعه ـ فإن هذا الإنسان يجب أن يعلم بأنه غداً سوف لن يخلصه شيء من الله عزّ وجل إذا ما عُرض على الحساب.

وخلاصة القول هي أن الله تبارك وتعالى يعلم مثل هذه التصرفات، فهي

لا يمكن أن تغيب عنه ولو للحظة؛ وعليه فإن هذا التصرف لا يمكن قبوله أبداً.

وأما بالنسبة للمرأة التي تؤمر بالارتداد عن الدين، فإن هذه الوسيلة التي يراد منها تخليص المرأة من الزوج هي وسيلة محرّمة، ومعلوم أن الطريق المحرّم أو المقدمة المحرمة تؤدّي إلى نتيجة محرمة. وهكذا فإذا كان الارتداد أمراً محرماً عليها فإن ما تفعله بواسطته هو أمر محرّم ولا يمكن أن يقع.

إذن فهذا اللون من الحيل يأباه الشارع المقدّس؛ لأنه محرّم كما ذكرنا، فاللجوء إلى الارتداد عن الدين عمل باطل لا يقرّه الإسلام بحال من الأحوال، وهو وإن كان حيلة، لكنها ليست شرعية، بل إنها ممّا يأباه الشرع إباء كاملاً. وعليه فالحيل التي تكون من هذا النوع لا تصمد أمام الأدلّة ولا أمام روح التشريع؛ فالتشريع له نصوص وألفاظ وروح، فروح التشريع هي روح الحكم وهي غير التمسّك بظواهر الأشياء التي عادة يكون الاهتمام منصبّاً على غيرها.

وبهذا فإننا نخلص إلى نتيجة هي أن هذا اللون من الحيل أو هذا النمط من التصرّفات لا يمكن أن يقبل بحال من الأحوال على مستوى التشريع، يروى عن يحيى بن عباد المكي أنه قال: قال لي سفيان الثوري: إني أرى لك من أبي عبد الله ﵇ منزلة، فسله عن رجل زنى وهو مريض، إن أُقيم عليه الحدّ مات، ما تقول فيه؟ فسألته فقال: «هذه المسألة من تلقاء نفسك أو قال لك إنسان أن تسألني عنها؟». فقلت: سفيان الثوري سألني أن أسألك. فقال﵇: «إن رسول الله ﷺ أُتي برجل مستسقي البطن، قد بدت عروق فخذيه، وقد زنى بامرأة مريضة فأمر رسول الله ﷺ بعذق فيه مئة شمراخ، فضرب به الرجل ضربة، وضربت به المرأة ضربة، ثم خلّى سبيلهما، ثم قرأ هذه الآية: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ

ضِغْثاً فَاضْرِب بِهِ وَلَا تَحْنَثْ ﴾...[١].

رأي الفقهاء في المسألة

ومن خلال تتبعي لهذه المسألة وجدت أن الفقهاء يقسمون من يراد إقامة الحدّ عليه إلى قسمين، هما:

الأول: أنه ممّن يمكن برؤه وشفاؤه من مرضه، وفي مثل هذه الحال يقول الفقهاء: إن للحاكم أن ينتظره إلى أن يبرأ من مرضه، ثم يقيم الحد عليه.

الثاني: من لا يمكن برؤه، بل لا يرجى برؤه وشفاؤه ولا يتوقع منه حصول ذلك، فإنه حينئذٍ يلجأ إلى الطريقة التي ذكرناها وهي أخذ ضغث وجلده به حتى لا تعطّل الحدود التي أمر الله تبارك وتعالى بإقامتها، ولا تسقط عن شخص قد ارتكب جرماً يوجب عليه قيام ذلك الحدّ.

حقيقة الأمر وجليته

وفي واقع الأمر إن اللجوء إلى مثل هذه الطريقة لا يمكن أن نسميه حيلة؛ ذلك أنه في حقيقته يعتبر مرتبة من مراتب الحكم التي ردّد الشارع بينها وبين الجلد كاملاً في حالي الصحة والمرض، وذلك في تفصيل لا يسعه المقام هنا. فالأمر لم يكن حيلة شرعية أبداً وإنما هو أحد أفراد الحكم الشرعي الذي ردّده الشارع بين أن يكون بالجلد بعصا واحدة مئة جلدة فيما لو كان من يراد أن يقام عليه الحدّ صحيح الجسم سليماً، وبين أن يلجأ إلى طريقة الضغث في حال كون الشخص المراد إقامة الحد عليه مريضاً. ومع ذلك فإننا نجد أن البعض حينما يمر بهذه الآية الكريمة فكأنما يريد أن يثبت بأن هناك حيلاً شرعية يمكن الرجوع إليها.

---

(١) الكافي ٧: ٢٤٣ ـ ٢٤٤ / ١، مجمع البيان ٨: ٣٦٥.

الأثر السلبي للحيلة الشرعية

ونقول في مقام الرد على هذا الأمر: إن الحيل الشرعية غالباً ملاكها تعطيل ملاك الحلال والحرام اللذين أمر بمراعاتهما الشارع المقدّس، وإذا كان الأمر كذلك فليس من المعقول أن يسمح لنا الشارع بأن نعطّل ملاك الحكمة من الأحكام التي شرعها لنا، خاصّة إذا عرفنا أن هذه الأحكام مبتنية أبداً على المصالح والمفاسد. فإذا كان الشارع المقدّس قد أوجب علينا أمراً لمصلحة فيه، أو حرم أمراً لمفسدة فيه، فإن من غير المعقول أن يقبل بأن نلجأ إلى حيلة نبطل بها العمل بهذه المصلحة أو الابتعاد عن هذه المفسدة؛ لأنه حينئذٍ يكون لوناً من العبثيّة المنزّه عنها المقام الأقدس، وخلاف الحكمة التي أرادها الشارع المقدس، وهو رب الحكمة. وعليه فإن الشارع المقدّس إذا ما رأى أن تطبيق هذا الحكم (الحيلة الشرعية) سيفوت هدفه فإنه سوف لن يقبله بحال من الأحوال وإن كانت شكلياته محفوظة.

الملابسة الثانية: التشريع الإمضائي في الإسلام

إن الإسلام قد أمضى الكثير من تشريعات الديانات السابقة، والذي يظهر من الرواية الواردة عن الإمام الصادق﵇ والتي يرويها الطبرسي في (مجمع البيان) أن هذا الحكم باقٍ وجائز العمل به في الإسلام وإن كان من تشريعات الديانات السابقة[1]، وذلك أنه لم يرد فيه ناسخ فينسخه. وإذا كان الأمر كذلك فإن الحكم يبقى مستمرّاً، والعمل به يظل باقياً وجائزاً ما لم يرد فيه ذلك الناسخ الذي أشرنا إليه، وهذا هو الذي عليه الفتوى كما مرّ.

---

(١) مجمع البيان ٨: ٣٦٥.

المبحث الثالث: أنه ليس هناك من بديل للضرب

إن الآية الكريمة إذ تقول: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِبْ بِهِ﴾ فإنما تشير إلى أنه ليس هنالك بديل لهذا اليمين الذي حلف به، ولهذا السبب فإن السماء أمرته بأن يلجأ إلى هذا الحكم، وهو أن يأخذ عذق نخلة فيه مئة شمراخ فيضرب به امرأته. وهذا يعني أن الكفارة لم تكن موجودة كبديل للوفاء باليمين آنذاك، ولا أقلّ من أن هذا هو ما يوحي به جو آية المقام الكريمة. ثم إن امرأة النبي أيوبﷺ لم تكن في الواقع ذات هدف سيّئ، أو لم تفعل شيئاً سيّئاً تهدف إليه من وراء بيع شعرها، وإنما كلّ ما كانت تريده هو أن توفّر الطعام لزوجها، ولتخفّف من آلامه ومرضه. ولذا فإن الحكم جاء بهذا التخفيف عنها؛ لأنها أساساً لم تكن قد ارتكبت معصية تستحق عليها الجلد.

إذن فالموضوع كلّه من الأساس موضوع رحمة؛ ولذا فإن السماء قد أمرت النبي أيوبﷺ بأن يلجأ إلى هذا اللون من العقاب، وأن يستعمله؛ كيلا يحنث بيمينه، وكيلا يسقط ما توعّد به زوجته.

مشروعية ضرب الزوجة

واستناداً إلى هذا المقطع الشريف من آية المقام الكريمة، وبناء على ما ورد فيه يذهب البعض من الفقهاء أو المفسرين إلى القول بأنه يجوز للإنسان أحياناً أن يضرب زوجته ضرباً خفيفاً من باب التأديب. وللحقيقة نقول: إن هذه المسألة ترتبط ارتباطاً مباشراً بجوّ التربية الذي يوفّره المجتمع للزوج وللزوجة. وبعبارة أُخرى فإننا نقول مثلاً: إن المشرّع الإسلامي يضع نمطاً معيّناً من التربية للمرأة وللأُسرة؛ كي يهتدي على ضوئه من أراد أن يسلك طريق الإسلام في تهيئة

المجتمع وإعداده وبنائه. فمن أراد أن يعتمد طريقة الإسلام في تربية ابنه وتوجيه زوجته بل وحتى نفسه فإن عليه أن يخضع لضوابط التربية الإسلامية التي وضعها الشارع المقدس في هذا المجال، والتي يجب أن تكون هي المقياس الأول والأهمّ في تطبيق بنود هذه التربية.

وعليه فإذا ما توفّرت أجواء التربية هذه توفّراً كاملاً، وعُمل بها عملاً كاملاً، فإنه حينئذٍ لا يمكن أن يصار إلى القول بجواز ضرب المرأة أبداً، يروي البخاري عن نبيّنا الأكرمﷺ أنه قال: «**بم يضرب أحدكم امرأته ضرب الفحل، ثم لعلّه يعانقها؟**»[1]. ذلك أن هذا ليس جوّاً أسرياً يريده الإسلام؛ لأنه غير مبتنٍ على ضوابط التربية الإسلامية. ثم إن المرأة أولاً و آخراً ليست حيواناً حتى يمكن أن يقال بأنها يجب أن تضرب، بل ربما إن الضرب يثمر العكس ممّا يراد به. فإذا ما ضربت فإن هذا يعني أن أُسلوب التهديد الذي يلجأ إليه زوجها هو أُسلوب غير صحيح وغير كافٍ في تحقيق منهج التربية الإسلامية؛ لأن الضرب لا يؤدّي إلّا إلى نتائج سلبية، وهو لا يؤدي إلى نتائج إيجابية إلّا في حالات معينة.

وهكذا فإن الإنسان إذا أراد أن يحترم زوجه، فعليه ألّا يلجأ معها إلى مثل هذا الأُسلوب. إن الله تبارك وتعالى قد أعطى الإنسان إمكانات كثيرة، وجعلها تحت يده وتصرّفه، وعليه فبوسعه استخدام هذه الإمكانات كافّة في سبيل تحقيق الهدف التربوي الذي يرمي إليه الإسلام؛ وحينئذٍ سوف لن يكون بحاجة إلى الضرب أبداً؛ لأن الضرب لا يمكن أن يحقّق الجوّ التربوي الكريم الذي ينبغي أن يخيم على الأُسرة وأن يخلق فيها الانسجام والوئام والوفاق.

---

(١) صحيح البخاري ٧: ٨٣، السنن الكبرى (البيهقي ٧: ٣٠٥، السنن الكبرى (النسائي) ٥: ٣٧١ / ٩١٦٦، تغليق التعليق ٥: ٩٣ / ٦٠٤٢، كنز العمّال ١٦: ٣٧٧ / ٤٤٩٨٢.

إن المرأة ـ كما يعبّر القرآن الكريم ـ سكن للرجل، وإذا كانت كذلك فلابدّ أن يكون هناك تبادل للعواطف بين الزوجين، وهو تبادل يجب أن يكون قائماً على المودّة والاُلفة والرحمة؛ لأنه ما من زوجين إلّا ويخوضان في واقع أمرهما تجربة شراكة؛ وهذه الشراكة هي عبارة عن تربية أطفال وإنشاء نشء سليم وجيل صحيح مهذّب يعيش الجوّ الإسلامي، ويتمتّع بذهنية سليمة. أما إذا كان الجو الذي يعيش فيه الأطفال والزوج جوّاً ملغماً فإنه سوف لن تحصل كلّ تلك الاُمور التي يريدها الإسلام أبداً.

فأن يضرب الإنسان زوجته كما يضرب الحيوان لهو معنى تأباه الشريعة والتربية الإسلامية والإنسانية. إن المفروض هو أن تخاطب المرأة على أنها شريك في الحياة له دوره وله أثره، فتناقَش الاُمور معها لتبادل الرأي والمشورة بعد أن ينشئها الرجل ويربّيها وفق التربية الإسلامية. إن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم كان في بعض الحالات يسمع كلمات من بعض نسائه، لكنه صلى الله عليه وآله وسلم كان يعالجها معالجة نفسيّة غريبة، تدلّ على أنه عظيم قد أدّبته السماء بأحسن الآداب، وخلّقته بأجمل الأخلاق.

الضرب الشرعي

إذن ليس من المفروض أن تضرب المرأة، مع أن البعض يقول: إن في حالات معينة ينبغي أن تضرب المرأة على ألّا يتعدى الضرب رتبة الأدب، أي أنه ضرب تأديبي رمزي، أما أن يترك الضرب أثراً أو دماء أو عاهة، فهذا طبعاً ما لا يقرّه الإسلام أو الشارع المقدّس بحال من الأحوال أبداً، بل إنه يأباه. كما أن الجوّ الاُسري نفسه يأباه تماماً؛ لأنه يؤدّي إلى خلق عاهة نفسية أو اجتماعية داخل الاُسرة، وهو ما لا يريده المشرّع الأقدس؛ ذلك أن الإسلام في تربيته يريد أن

تكون المشاعر التي تربط بين الزوجين مشاعر رقيقة مرهفة تتأثّر بالكلمة الحسنة تأثراً إيجابياً كبيراً ينعكس بدوره بشكل إيجابي على مضمار التربية التي يخوض فيها، ممّا يعني أن تصبح تلك المشاعر غاية في الرقة.

وعليه فإن على الإنسان ألّا يتحوّل مثلاً إلى جوّ من البداوة أو الغلظة، مع أننا حتى لو رجعنا إلى الأجواء البدوية التي كانت سائدة قبل الإسلام وإلى تاريخ الجزيرة آنذاك فإننا نجد أن من النادر أن يضرب الرجل المرأة؛ سواء كانت زوجته أو غيرها. بل إنهم على العكس من ذلك، فقد كانوا يعتبرون هذا الأمر معيباً جداً.

وعلى أية حال فإن بعضاً من المفسّرين يستفيد من هذه الآية الكريمة جواز تأديب الزوج زوجته بشيء من الضرب الذي لا يتعدّى حدود الأدب. لكن في واقع الأمر هذا في النفس منه شيء، أي أنه ليس من المفروض أن تصل الأُسرة إلى مستويات الضرب، بل يجب اللجوء إلى معالجة المشاكل عبر النقاش واللسان والتربية والرعاية، وإن فشل كلّ ذلك فالمقاطعة والهجر. أي أن هناك وسائل أُخرى يمكن أن يستعملها الإنسان دون أن تصل المسألة معها إلى حدود الضرب[1].

---

(١) ليس غرض المحاضرﷺ هنا هو رفع حكم الضرب الوارد في الآية الكريمة (٣٤) من سورة النساء، والتي تقول: ﴿وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيّاً كَبِيراً﴾، بل إنه يريد أن على الزوج عبر بناء شخصية زوجته بناء إسلامياً صحيحاً ألّا يصل معه الأمر في تعامله معها إلى حدود الضرب الذي هو المرتبة الثالثة من مراتب التأديب التي نبّهت إليها الآية الكريمة موضع الحكم. وهذا يعني أن على الزوج أن يستعمل الأُنموذج الإسلامي في التعامل مع الزوجة، ونهج السماء في تربيتها، فإن كان كذلك لم يكن بحاجة حينها إلى أن ينتقل إلى المرحلة الثالثة من مراتب التأديب التي تقرّرها الآية الكريمة، وهي مرحلة الضرب.

المبحث الرابع: في بعض شطحات الصوفية

تقول الآية الكريمة: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾، وعلى ضوء هذه الآية الكريمة فإن البعض من الصوفيين حينما يمر بقصة النبي أيوبعليه السلام، ويقرأ كيف أن الله تبارك وتعالى أرد أن يبرئه حيث قال له: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾، فإنهم يذهبون إلى أن معنى ﴿ارْكُضْ﴾: ادفع أو اضرب، أي ادفع برجلك الأرض أو أضرب برجلك الأرض. وفي هذا الأمر دلالة على جواز الإيقاع والرقص[١]. وأذكر أن أبا الفرج الجوزي عندما يمر هنا بهذا الكلام يعبر عنه بالقول: إنه احتجاج بارد[٢]. فلو فرضنا أنهعليه السلام ضرب الأرض برجله فرحاً فإن من الممكن أن تكون هناك شبهة، لكن الواقع هو أن القرآن الكريم إنما أمره أن يضرب الأرض برجله لكي ينبع منها الماء، فيغتسلعليه السلام منه ويشفى. وهي بهذا لا علاقة لها بالفرح وأجوائه، أو السرور وحالاته من قريب أو بعيد، حتى يمكن أن يقال: إن القرآن الكريم إنما قال له: اضرب الأرض برجلك فرحاً؛ كي نستدلّ منها على جواز الإيقاع والرقص.

ضرب الحجر والرقص

ونظير هذا أذكر أني رأيت أيضاً أن بعضاً من العلماء حينما يتناول قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾[٣] فإنه يقول: إن هذا يدل على جواز استخدام المحاديل، المسمّاة عند البعض بالكركت. وهكذا نجدهم يحشدون أشياء أُخرى من أجل هذا، ويقولون بأن هذا جائز عبر إلصاقها بآيات القرآن الكريم مع أنها

---

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن ١٥: ٢١٥، المجموع شرح المهذّب ١٨: ٨٣.
(٢) عنه في المصدر نفسه. (٣) البقرة: ٦٠.

بعيدة عنها وبهذا فإنه يستدلّون بهذه الآيات على جواز الرقص والإيقاع من خلال هذه الآيات.

إضافات مفتعلة

مضافاً إلى هذه الآيات الكريمة يروون بعض الحوداث التي تؤيّد مذهبهم هذا، حيث إنهم يستدلّون بها على ما يذهبون إليه. ومن هذه الحوداث:

الأولى: حديث المنزلة

فهم حينما يروون مثلاً حديث المنزلة، وهو الحديث الذي يقول: إن النبي الأكرم ﷺ لما أراد أن يخرج إلى غزوة تبوك أخرج الناس معه وخلف الإمام علي عليه السلام في المدينة نائباً عنه عليها، فجاء أمير المؤمنين عليه السلام إلى رسول الله ﷺ وقال له: «**يا رسول الله، تخلّفني في النساء والصبيان؟**». فقال ﷺ: «**أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى غير أنه لا نبيّ بعدي؟**»[1].

يروون عليه إضافة فيقولون: لقد حفّزت هذه العبارة الإمام عليه السلام حينما سمعها من رسول الله ﷺ، فراح يحجل. ثم يعقّفون على ذلك بالقول: وهذا أدل دليل على جواز الرقص في المناسبات المحبوبة.

الثانية: رواية «أشبهت خَلقي وخُلقي»

يقول الرواة: إن النبي الأكرم ﷺ قال لجعفر بن أبي طالب عليه السلام: «**أشبهت خلقي وخلقي**». فمرّ يحجل فرحاً[2].

---

(١) فضائل الصحابة (أحمد بن حنبل): ١٣ ـ ١٤، صحيح مسلم ٧: ١٢٠، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٥: ٣٠٢ / ٣٨٠٨، ٣٠٤ / ٣٨١٣ ـ ٣٨١٤، السنن الكبرى (النّسائي) ٥: ٤٤ / ٨١٣٨ ـ ٨١٤٣، فتح الباري ٧: ٦٠، المستدرك على الصحيحين ٣: ١٠٨.

(٢) شرح نهج البلاغة ١: ٢٩ ـ ٣٠.

والإمام عليه السلام وجعفر عليه السلام كلاهما ممّن يقتدى بفعله، فهذا دليل على أن هذا اللون من الحركة أو الرقص أو الإيقاع جائز شرعاً ولا بأس فيه.

الثالثة: رواية رقص الأحباش في مسجد النبي صلى الله عليه وآله وسلم

ومن ذلك أيضاً ما يروونه عن أنس من أنه قال: كانت الحبشة يزفنون بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في مسجده، ويرقصون ويقولون: محمد عبد صالح. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما يقولون؟». قالوا: يقولون: محمد عبد صالح.

وفي رواية عائشة أنها قالت: جاء حبش يزفنون في يوم عيد في المسجد، فدعاني النبي صلى الله عليه وآله وسلم حتى وضعت رأسي على منكبه فجعلت أنظر إلى لعبهم، حتى كنت أنا التي انصرفت عن النظر [1].

وحينما لم ينههُم النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، ولم ينهَ عائشة عن النظر إليهم فإن هذا يدلّ على جواز هذا الفعل وإتيانه، وعلى جواز الرقص والإيقاع والتواجد. وهذا كما ذكرت لك فإنه من شطحات الصوفية.

(١) مسند أحمد ٣: ١٥٢، صحيح مسلم ٣: ٢٢ ـ ٢٣، المحلّى ٤: ٢٤٦ / المسألة: ٥٠٠، ٩: ٦٢. وقال ابن حزم: «والغناء واللعب والزفن في أيام العيدين حسن في المسجد وغيره... عن عائشة قالت: دخل عليّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعندي جاريتان تغنيان بغناء بعاث، فاضطجع على الفراش وحول وجهه، فدخل أبو بكر فانتهرني وقال: مزمارة الشيطان عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ فأقبل عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «دعها». فلما غفل غمزتهما فخرجتا. وكان يوم عيد، يلعب السودان بالدرق والحراب؛ فإما سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وإما قال: «تشتهين تنظرين؟». فقلت: نعم. فأقامني وراءه، خدّي على خدّه، وهو يقول: «دونكم يا بني أرفدة». حتى إذا مللت قال: «حسبك؟». قلت: نعم. قال: «فاذهبي»... وعنها أيضاً أن أبا بكر دخل عليها وعندها جاريتان في أيام منى تغنّيان وتضربان، ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مسجّى بثوبه فانتهرها أبو بكر. فكشف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عنه وقال: «دعهما يا أبا بكر؛ فإنها أيام عيد». المحلّى ٥: ٩٢ ـ ٩٣ / المسألة: ٥٥٣.

مشكلة النقل عن الآخرين والادّعاء عليهم

وأنا من باب الحقيقة أقول هنا بصريح العبارة: إن ما ينسب إلى الصوفية لا يمكن التصديق به والأخذ به مسلّماً ما لم يكن قد كتبه أبناء الصوفية أنفسهم، وإلّا فأن يدّعي أحد شيئاً وينسبه إليهم دون أن يذكروه هم في كتبهم ومؤلّفاتهم فهذا مما لا يمكن تصديقه والأخذ به، أما إذا كتب أحد الصوفيين ذلك فإنه حينئذٍ يمكن أن يستند إلى هذا القول، وأن يقال: إن الصوفية يعتمدون هذا القول، أو يذهبون هذا المذهب ويرون هذا الرأي. والسبب الذي يدعوني إلى قول هذا هو أن هناك أقلاماً أخذنا منها خبرة وعبرة؛ لأننا بالغ الأسف قد تعلّمنا ألّا نثق بمثل هذه الأقلام، ولا نصدّق بما ينقل عن طائفة إلّا إذا تأكّدنا بأنفسنا من ذلك الأمر عن تلك الطائفة من أبنائها أنفسهم أو علمائها أو روّادها.

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾[1]

وهذا الأمر قد وقعنا نحن الشيعة فيه كذلك؛ لأننا قد اتّهمنا باتّهامات كثيرة، وقد أُلصق بنا كلّ ما هو شائن، وكل ما هو غير سليم وغير صحيح. وحينما يسأل ذلك المفتري علينا أو المدّعي أننا نقول كذا: أنّى لك هذا؟ فإنه يردّ بالقول: قد أخذته من كتب علمائنا. ولهذا فإنني أستغرب جدّاً حينما أرى شخصاً ضخماً مثل القرطبي، أو الفخر الرازي[2]، وهما ينسبان إلى الشيعة أنهم يقولون بعد انتهائهم من الصلاة وهم يلتفتون يميناً وشمالاً عبارة «خان الأمين، خان الأمين»؛ لأن

---

(١) الأنعام: ١٦٤.

(٢) لم نعثر عليها إلّا عند الأيجي في المواقف ٣: ٦٨٢، ذخائر العقبى: ٩٣.

جبرائيلعليه السلام كان من المفترض به أن يذهب بالرسالة التي كلفه الله سبحانه وتعالى بها إلى عليعليه السلام، لكنه مع ذلك خان تلك الثقة و الأمانة، وذهب بها إلى النبي الأكرمصلى الله عليه وآله وسلم.

ونحن من على هذا المنبر نقول لهما: على أي شخص اعتمدتم وأنتم ترويان مثل هذا عنا؟ ومن هو العالم الذي قال به من علمائنا؟ وبعضهم يقول: إن هذا مما ينسب إلى الخطّابيّة. ونجيبه بالقول: لو أن شخصاً شذّ وافترى وكذب فهل من المفترض أن تتحمل الأُمّة بكاملها نتيجة شذوذه وافترائه وكذبه؟ إن الثوار الفلسطينيين قد قتلوا حتى هذه الساعة ما يقارب الأربعة آلاف فلسطيني؛ لأنهم تعاونوا مع اليهود، فهل من الممكن أن يقال: إن أهل السنة متعاونون مع اليهود لأن أربعة آلاف منهم قد مالؤوهم وسالموهم وتعاملوا معهم وتعاونوا؟ إن هذا الكلام لا يستحقّ الوقوف عنده، بل لا يستحقّ صاحبه الاحترام.

وهكذا فعندما يخطئ فرد في هذه الأُمة فإن هذا لا يعني أن ينسحب هذا الخطأ على كلّ أفرادها؛ لأن ذلك الفرد لا يمثّل تلك الأُمة، ولا يمثل المذهب، ولا يمثّل الدين.

إذن الشاهد من هذا هو أنني لا أطمئن إلى أي نقل منسوب إلى جماعة ما لم يكن الذي ينسب ذلك النقل إليها أحد أبناء تلك الجماعة؛ لأننا قد ابتلينا كثيراً بمثل هذه الافتراءات والادّعاءات. فإذا ما رأينا أشياء بأقلام أبناء تلك الطائفة أو الجماعة فإننا نقول حينئذٍ: نعم إن هذا الكلام فعلاً منسوب إليهم، وبخلافه فإنه لا يمكن الركون إلى هذا الكلام أو إلى التصديق به أو إلى التعامل معه على أنه كلام صادر عنهم أو عن علمائهم.

المدينة لا يدخلها الوباء وفقه أبي حنيفة

وبعد هذا التقريب فإنني أقول: إن هذا المعنى الذي يُذكر عن الصوفية لا سبيل إلى قبوله ما لم يشاهد مكتوباً بأقلامهم؛ لأن الكثير من الناس ليس لهم من دأب ولا من شأن إلّا أن ينسب إلى الآخرين ما ليس فيهم، وإلّا أن ينسب إليهم ما ليس من أفكارهم أو معتقداتهم أو مصنّفاتهم أو مدوّناتهم. وهذا التراشق بين الفرق الإسلامية موجود بشكل كبير وعلى نطاق واسع، وهو أمر يدعو إلى الأسف؛ لأنه تراشق ربما يصل في بعض الأحيان إلى درجة إن فقيهاً يقف ويقول: إن المدينة المنورة قد حفظها الله من أثنين: الوباء وهو الطاعون، ومن فقه أبي حنيفة [1]. وهذا ليس بأُسلوب صحيح ولا هو كلام فقيه، فحتى لو كان عند أبي حنيفة بعض الأحكام التي هي تستحقّ أن تنقد وأن تعتبر غير ناهضة الدليل، أو هي عن دليل غير صحيح فإنه لا يصح بحال من الأحوال أن يقال عنه بأنه كذلك، أو يعبر عنه بأنه مثل الطاعون.

فالمفروض أن هذا فقيه مسلم، والفقيه المسلم يجب أن تحترم آراؤه بأن تناقش نقاشاً علمياً، وتردّ ردّاً علمياً؛ فإن كان عنده خطأ رُدّ خطؤه عليه عن طريق لغة العلم، وإن لم يكن عنده خطأ أُذعن لذلك الرأي؛ لأنه ناشئ عن الدليل الشرعي أو العلمي الصحيح.

(١) لم نعثر عليه بهذا النص. وفي بعض المصادر أن حمدويه قال: قلت لمحمد بن مسلمة: ما لرأي النعمان دخل البلدان كلّها إلّا المدينة. قال: إن رسول الله ﷺ قال: «لا يدخلها الدجّال ولا الطاعون». وهو دجّال من الدجاجلة. وعنه أنه قال: قال محمد بن مسلمة المديني ـ وقيل له: ما بال رأي أبي حنيفة دخل هذه الأمصار كلّها، ولم يدخل المدينة؟ قال ـ لأن رسول الله ﷺ قال: «على كل نقب من أنقابها ملك يمنع الدجّال من دخولها». وهذا من كلام الدجّالين؛ فمن ثم لم يدخلها. تاريخ بغداد ١٣: ٣٩٥ ـ ٣٩٦ / ٦ ـ ٧، أخبار القضاة ١: ٢٥٩ ـ ٢٦٠.

شعار «تكفير بغير دليل»

وهذه هي المشكلة فإننا بدلاً من أن نناقش آراء بقية المذاهب الأُخرى نقاشاً علميّاً أكاديمياً تخرج جماعة فتكفّر تلك الطائفة وتسبّ هذه الطائفة، وتعبر عن أبنائها بتعبيرات غير لائقة وغير سليمة. وهذا يعني أنه ليس عند أُولئك على ألسنتهم من الله تبارك وتعالى ولا من الإنسانيّة رقيب، مع أن الذي ينبغي أن يكون هو أن يوجد ذلك الرقيب على ألسنتهم من الله سبحانه وتعالى، فلا ينسبون إلى أحد ما ليس عنده، ولا يلصقون به شيئاً لم يكن يقول به، ولا يتحاملون عليه؛ لأن هذا هو أدب الإسلام الحنيف؛ وهذه هي سماحته ورحمته وأخلاقياته، وليس الإسلام غير هذا، والله تبارك وتعالى لا يريد منّا غير التعامل بهذا النمط من الأخلاق أبداً[1].

إذن ما ينسب إلى الصوفية من التواجد والرقص وتحريك الرؤوس أو الأبدان بحركات مريبة ربما ينسى أحدهم نفسه معها، ويذوب في ذلك الموقف الذي هو فيه، كما يصوّره البعض حتى ليخيل لمن يراه أو يشاهده بأنه قد فقد وعيه، أو فقد اتّزانه لا يمكن أن يقبل بحال، ما لم يثبت عنهم هم أنفسهم بأنهم قد فعلوا ذلك بغضّ النظر عن دوافعهم وبواعثهم، وفيما إذا كان ذلك مقبولاً أو غير مقبول في حال من الأحوال، وفيما إذا كان باختيار منهم أم بغير اختيار، بل كل ما يجب هو أن تخضع تلك التصرّفات ـ على فرض صحّة ثبوتها عنهم ـ إلى الشرع الحنيف، وإلى النقاش العلمي، وهل هو صحيح أو غير صحيح دون الحاجة إلى

---

(١) ولذا فإن الرسول الأكرم ﷺ قد حصر الإسلام والدين بأنه حسن المعاملة، كما ورد عنه ﷺ في الأثر: «الدين المعاملة». عجائب الآثار ٣: ١٠٣. وقال ﷺ: «يا أبا ذر، الكلمة الطيّبة صدقة». مسند وسائل الشيعة ٥: ٢٣٣ / ٦٤٢١، مسند أحمد ٢: ٣١٦.

اللجوء إلى التهريج والمهاترات وغيرها.

المبحث الخامس: في بعض فضائل النبي أيوب﵇

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ، ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾، ونحن هنا إزاء فضائل ثلاثة للنبي أيوب﵇ قد قرّرتها آية المقام الكريمة، ينبغي التنبيه إليها؛ لما فيها من مطالب أخلاقية عالية، وهي:

الفضيلة الأولى: فضيلة الصبر

تقول الآية الكريمة: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً﴾. إن الحقيقة التي لابدّ من أن يُذعَن إليها هي أن مرتبة الصبر مرتبة عظيمة جداً، وهو ـ الصبر ـ من الأُمور العسير على النفس التعامل معها؛ فليس من السهل أن يحصل أي إنسان على هذه المرتبة[1]. ومعنى كلامنا هذا أنه ليس كل أحد يستطيع أن يصمد أما البلاء، فهناك نوع من الناس إذا ما تعرّض إلى قليل من الأذى أو إلى أبسط أنواع الشدّة فإنه يفقد اتّزانه، ويروح ملوّحاً بيده إلى السماء جازعاً مبتعداً به عن فضيلة الصبر، فتصدر منه كلمات نابية عجيبة غريبة.

إن هناك القليل من النماذج التي يمكن أن توصف بأنها قد وصلت إلى مرتبة الصبر العظيمة عند الله سبحانه وتعالى، وحازت عليها، كما هو الحال مع أبي ذر الذي يقول: «لو جعلني الله جسراً على جهنّم، وعبر علي الأولون والآخرون من الخلائق، ودخلوا الجنة، ثم يلقي بي في النار، ويملأ بي جهنم لأحببت ذلك من حكمه، ورضيت به من قسمه، ولم يختلج ببالي أنه لم كان كذا؟ وليت لم يكن كذا،

---

(١) ولذا فإن الله تبارك وتعالى جعلها وسيلة إلى الجنة فقال عزّ من قائل: ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ فصلت: ٣٥.

ولم هذا حظي وذاك حظهم؟» [١].

لكن الناس ببالغ الأسف أغلبهم ضعفاء، فإذا ما أصاب أحدهم مرض تذمّر وجزع، واشتكى إلى ربّه متسائلاً عن الأسباب التي من أجلها أمرض جسمه. وهذا اللون من الجزع ينمّ عن نفس ضعيفة تنهار تحت ضغط أبسط المؤثّرات؛ ولهذا فنحن نقول: إننا نادراً ما نجد أحداً يصمد ويصبر أمام المصائب والابتلاءات الدنيوية الكثيرة.

متعلّقات الصبر

إن الصبر بطبيعة الحال له متعلّقات عدة وأقسام عدة، فهناك صبر عند المصيبة، وهناك صبر على الطاعة، وهناك صبر عن المعصية، ونحن سوف نتناول هنا متعلّقاً واحداً من هذه المتعلّقات الثلاث، وهو ما يرتبط بموضوع بحثنا هذا، أعني الصبر عند المصيبة.

والصبر عند المصيبة هو أن يصبر الإنسان ويتحمّل الألم والابتلاءات من مرض أو فقر أو ما شاكل ذلك من عوارض الدنيا، ويسترجع [٢] ويقول: إن اللّه تبارك وتعالى إذا أحبّ عبداً ابتلاه [٣]. فالإنسان سواء صبر أو جزع، وسواء رضي أم لم يرضَ فإنه لا يستطيع أن يدفع البلاء والابتلاء. صحيح أنه ضعيف، وربما تمرّ به ساعات لا يقوى فيها مع ما يحمل من إيمان على مواجهة

---

(١) جامع السعادات ٣: ١٦٣، مسكّن الفؤاد: ٨٨، وقد نقلاه عن بعض العارفين.

(٢) قال عزّ من قائل مادحاً الصابرين المحتسبين المسترجعين عند المصائب: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ البقرة: ١٥٦ ـ ١٥٧.

(٣) ورد في الحديث الشريف عن رسولنا الأكرم ﷺ قوله: «إذا أحبّ الله عبداً ابتلاه». الكافي ٢: ٢٥٣ / ٨، الجامع الصغير ١: ٥٧ / ٣٥٣.

صعوباتها، لكنه مع ذلك ينبغي عليه ألّا يقع تحت طائلة سوء الظن بالله تبارك وتعالى، بل عليه أن يقدّر ذلك وأن يقول: إن الله تبارك وتعالى إنما ابتلاني لمصلحة يريدها هو.

ثم إنه صحيح أن الله سبحانه وتعالى يأمر الإنسان بأن يدفع البلاء عن نفسه، لكنه ماذا يمكن أن يفعل إذا لم يستطع أن يفعله؟ إن الأمر حينئذٍ سوف ينحصر بشيء واحد هو التسليم المطلق إلى الله تبارك وتعالى لا غير، والرضا بقدره وقضائه دون أن يكون ذلك سبباً للخروج عن آداب الصبر وآداب الدعاء وآداب الخطاب مع الله تبارك وتعالى. يروي العلماء والمؤرخون أن النبي إبراهيم عليه السلام حينما أُلقي به في النار، اعترضه جبرائيل عليه السلام وقال له: «**هل لك من حاجة؟**». فقال: «**أمّا إليك فلا**». قال: «**فاسأل الله**». قال عليه السلام: «**حسبي من سؤالي علمه بحالي**»[1]. أي أنه تبارك وتعالى مطلع عليّ، وهو أرحم بي من نفسي، وهو الذي أفاض عليّ الوجود؛ فهو أرأف بنفسي مني، وعليه فأنا لست بحاجة إلى مساعدة من أحد غيره تبارك وتعالى.

وهذا اللون من رباطة الجأش والصلابة والصبر وتوطين النفس على التحمّل ينبغي أن يتأمله الإنسان كلما وقع في شدة أو في ضراء أو في مصيبة. ولما للصبر من مرتبة عالية ومنزلة سامية فقد مدح الله تبارك وتعالى نبيه أيوب عليه السلام بقوله: ﴿**إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً**﴾.

أيهما أفضل: الشكر على النعمة أم الصبر عند النقمة؟

يتساءل البعض من المفسرين وعلماء الأخلاق حول أي طرفي المعادلة أفضل

---

(١) بحار الأنوار ٦٨: ١٥٦ / ٧٠، وانظر: الخصال: ٣٣٥ ـ ٣٣٦ / ٣٦، الدعوات: ١٦٨، تفسير الثعلبي ٦: ٢٨١.

وأحسن: هل هو شكر الإنسان على النعمة التي ينعم بها الله تبارك وتعالى عليه، أم صبره عندما يبتليه ببليّة أو نقمة؟ وهنا فإنهم ينقسمون إلى قسمين:

الأول: ويرى أن الشكر على النعمة أفضل من الصبر عند البلية؛ لأنهم يقولون: إن الشكر على النعمة هو وضعها في موضعها، وبهذا فإنها تصبح أفضل بكثير من الصبر عند المصيبة؛ ذلك أن الصبر عند المصيبة لا تكون إلّا حيث يعرف الإنسان أنه لا طريق له إلّا الصبر عليها دون أن يستطيع أن يفعل شيئاً إزاءها أو تغييرها، فهو واقع في تلك البلية؛ سواء صبر أو لم يصبر. وعليه فإنه إن صبر فلا يكون بمنزلة الشاكر؛ لأن الشاكر هو من يضع النعمة في موضعها دون أن يفرط فيها، أو دون أن يتصرّف فيها تصرفاً شرعيّاً.

إن تقرير هذا الرأي هو أن السيطرة على النفس بحد ذاتها نعمة، فإذا سيطر الإنسان على نفسه مع وجود النعمة الأُخرى، وتمكّن من أن يتغلّب على أهوائها ومشتهياتها ورغباتها ومطالبها، فإنه حتما سوف يكون كذلك؛ لأنه حينئذٍ فقط سوف يكون قد وضع النعمة في مواضعها. لكن للحقيقة نقول: إن السيطرة على النفس مع وجود النعم العظيمة لابد أن يصحبه لون خاصّ من ألوان ترويض النفس؛ ذلك أنه يتعلّق بالسيطرة على الأموال الكثيرة التي ربما تدفعه وتشدّه إلى أن يرتكب المعصية. وهذا معناه أنه في حالة اختيار، فعليه أن يختار كيف يتصرّف بتلك الأموال التي وهبها الله تبارك وتعالى له دون أن تكون آلة ووسيلة لدفعه إلى ارتكاب المعصية، كأن يلعب بها القمار، أو يشرب بها الخمر، أو ينفقها فيما لا يرضي الله تبارك وتعالى.

الثاني: ويرى أن الصبر عند المصيبة أو البلية والنقمة أفضل؛ ذلك أن الصبر هو في حقيقته عبارة عن الألم والحرمان، وشعور الإنسان بأنه قد أُخذ منه ما أُعطي

لغيره، بخلاف من ينعم عليه فإنه يتنعّم بتلك النعمة. فإذا ما صبر الإنسان كان أفضل من الإنسان الشاكر.

هذا هو تقرير رأي القسمين، مع أن الواقع يفرض علينا أن نقول: إن كلتا الحالين فيهما تربية للنفس؛ فالنعمة تربية للنفس بالعطاء الذي يمنّ الله تبارك وتعالى به عليها، والصبر تربية للنفس بالألم الذي يصبر الإنسان عليه [(١)].

الفضيلة الثانية: العبودية

ثم قالت: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ﴾، فإنها إنما تشعر الإنسان بأنه يجب أن يعرف قدره، وأنه في كلّ حال من أحواله لا يخلو من كونه عبداً من عبيد الله سبحانه وتعالى، ليس له من أمره شيء إلّا ما يرتضيه الله تبارك وتعالى له. والإنسان ما لم يشعر كذلك فإنه يكون ممّن يواجه الله سبحانه وتعالى ويعانده. وقد مر بنا قضية بشر الحافي؛ ذلك الإنسان الطالب اللهوَ واللذات الدنيويّة، والذي عرف عنه بعد ذلك زهده حيث أصبح من الزهاد المعروفين. لقد كانت لياليه كلّها حمراء؛ تعزف فيها الأعواد، وترقص فيها القيان، وتراق فيها الخمور، حتى جاء ذلك اليوم الذي مرّ به من أمام بابه الإمام موسى بن جعفر ﵉، فسمع ضرب الأعواد وأدوات الطرب، فقد كان يعيش حينها ليلة صاخبة من ليالي الطرب، وكان أن خرجت جارية له من الدار وبيدها ما تبقّى

---

(١) وقد أجاب بعض علماء الأخلاق عن ذلك بالقول: إن مثل هذا السؤال مثل سؤال من يسأل: أيهما أفضل للإنسان الخبز أم الماء؟ وهنا يجيب أولئك العلماء بالقول: إن الإنسان إن كان جائعاً كان الخبز أفضل له من الماء، وإن كان عطِشاً كان الماء أفضل له من الخبز. وإن كان جائعاً وعطشاً معاً في آن كانا كلاهما ضروريين له؛ لأنه ربما ينعم عليه بنعمة بجهة، ويبتلى بمرض من جهة أُخرى فيكون حينئذٍ أحوج إلى الشكر على تلك النعمة التي أنعم الله تبارك وتعالى بها عليه، وأحوج إلى الصبر على تلك البلية التي ابتلي بها.

من طعام موائد اللهو وشرابها ممّا خلّفه هؤلاء السكارىٰ، فسألها الإمام عليه السلام: «لمن هذه الدار؟». فأجابته الجارية: هي لسيدي. فقال عليه السلام: «سيدك حرّ أم عبد؟». قالت: بل حرّ. قال عليه السلام: «صدقت؛ لو كان عبداً لله لاستحىٰ من اللّه»[١].

وما ذلك إلّا لأن الكلمة قد خرجت من قلب متّعظ وواعظ، وأخذت طريقها حتى فعلت فعلها في قلب بشر.

إذن فالإنسان حينما يكون عبداً لله تبارك وتعالى، ويقرّ بتلك العبودية، ويذعن بها أمامه عزّ وجل؛ فإنه سوف يستحي من الله تبارك وتعالى، ويطيعه ويطبّق أوامره؛ لأن المفروض بالعبد أن يتّبع أوامر سيّده.

الفضيلة الثالثة: الرجوع إلى الله تعالى

وأخيراً قالت: ﴿إِنَّـهُ أَوَّابٌ﴾، والأوّاب هو الذي يرجع إلى الله سبحانه وتعالىٰ في كل أحواله وأوقاته، ويسلّم إليه أبداً؛ إذ أنه يؤوب إلى ربّه تبارك وتعالى؛ لأنه يعلم بأن لا أحد يمكن أن يضرّه أو أن ينفعه غيره تبارك وتعالى الذي بيده كل شيء؛ فهو النافع وهو الضارّ وهو المعطي وهو المانع[٢]، وهكذا كان النبي أيوب عليه السلام. وفي هذا إشارة إلى أن على الإنسان أن يعرف أنه ليس له من طريق سليم يمكن أن يكون مناراً له في حياته غير الأوبة إلى الله جلّ وعلا والرجوع إليه في كل ما يعتريه من خير وشر؛ فإذا مرّ به الخير رجع إلى ربّه بالشكر، وإذا مرّ به الضرّ والألم رجع إلى ربّه بالصبر. ولهذا فإن الآية الكريمة تمجّد النبي أيوب عليه السلام، وتمدحه؛ إذ تصفه بهاتين الصفتين، وتنعته بهاتين

---

(١) الكنى والألقاب ٢: ١٦٨.

(٢) قال عزّ من قائل: ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾ الشعراء: ٧٩.

الفضيلتين، وهما فضيلتا الصبر والأوبة.

وهكذا فالآية الكريمة في الواقع تتوّج النبي أيوب عليه السلام بهذه الفضائل الثلاث، فتعطيه تاج الصبر، وتاج الأوبة، وتاج العبودية حينما تنعته وتقول: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾.

المبحث السادس: عاقبة صبر أيوب عليه السلام وأوبته

يقول المفسرون: أراد الله عز وجل أن ينهي محنة النبي أيوب عليه السلام، وأن يخلّصه من آلامه ومتاعبه، ولذا فإنه تعالى أمره بأن يقوم بأُمور عدة:

الأول: أن يركض الأرض برجله، أي أن يضربها بها كي ينبع منها الماء.

الثاني: أن يغتسل من تلك العين بعد أن نبعت من الأرض. فاغتسل عليه السلام منها فعادت إليه عافيته وصحته.

الثالث: أن يلبس الثوبين اللذين أرسلها الله تبارك وتعالى له، فقد أرسل له ثوبين أبيضين ناصعين. فلما لبسهما عليه السلام عاد كأجمل ما يكون، وبرأت نفسه بعد أن برأ جسمه، وذهبت عنه جميع الآلام التي كانت تعتصره.

وبعد أن مَنّ الله جلّ وعلا عليه بذلك خرج يمشي، فلقيته زوجته «ليا»، وهي حاملة الطعام له، فقالت له: هل رأيت الرجل المبتلى ؟ والله إني ما رأيت رجلاً أشبه به منك. فقال عليه السلام: «**من هو؟**». قالت: أيوب. فقال عليه السلام: «**أنا أيوب**». فلما سمعت ذلك منه أخذتها الفرحة و ابتهجت، لكنه أراد أن ينفذ اليمين الذي حلف به والذي أوعدها به، فأخذ شمراخاً وضربها فيه ضربة واحدة، فكان فيه وفاء لعهده وبرّ ليمينه. ثم إن الله تبارك وتعالى أعاد إليه أهله، وجمع شمله بهم، فرجع بهم وبزوجته إلى داره.

المبحث السابع: أبناء الإمام الحسين وأبناء النبي أيوب عليه السلام

ولم تشاهد زوجته (رضوان الله عليها) يوماً من الأيام أكثر سعادة من ذلك اليوم؛ لأنها رجعت إلى دارها مع أولادها وزوجها. فبطبيعة الحال أن الدار حينما تمتلئ بأهلها، وتغصّ بساكنيها فإن الفرح سوف يعمّها، والسرور سوف يخيم عليها، والبهجة سوف تظلّها وترفرف عليها، سيما إذا عاد إليها أهلها بعد اغتراب أو سفر أو غياب. والعكس يحدث لو أن تلك الدار قد فقدت أهلها إذ خرجوا منها ولم يعودوا إليها؛ فإنها تصبح دياراً خالية باكية بلسان الحال. ولست أدري والله ما حال ديار آل محمد صلى الله عليه وآله حينما رجعت إليها عائلة أبي عبد الله الحسين عليه السلام من السبا، وهي تراها خالية من ساكنيها، ليس فيها إلّا الأرامل واليتامى، ولم يكن أشدّ ألماً وأسى تلك الساعة من أُخت الحسين زينب عليها السلام حينما دخلت إلى دار أخيها أبي عبد الله الحسين عليه السلام، ووجدت محرابه خالياً، فأخذت تجول في الدار وهي تقول:

مـنازل كـانت نـيّرات بـأهلها　　　تـولّى عـليها غـبرة وقـتامُ

ألا لا تـزان الدار إلّا بـأهلها　　　على الدار من بعد الحسين سلامُ

ثم راحت تدور من دار إلى دار، وكيف كانت تلك الديار؟ يقول أحد الأعراب: مررت بالمدينة بعد واقعة الطفّ حتى جئت إلى حي من أحيائها، فسمعت بكاء وأنيناً كانا ينبعثان من أحد المنازل، وسمعت عتاباً سمّر قدميَّ إلى الأرض، ولما سألت عن هذه الدار قالوا: هذه دار الحسين عليه السلام، وهذه الباكية ليلى أُمّ عليٍّ الأكبر، حيث كانت تجول في الدار لا تهدأ الليل والنهار، فكانت مع العقيلة زينب تتجاوبان المحنة:

خوية أثنعش ساعة الليل　　　لـچنّه عـليَّ سـنين

أشـــوف أديـــاركم وحشـة   تـــهل ولا تـــنام العـين

بـــين الولم والحســـرة   يـــمر ليـل وولم وونـــين

ومــا عــاول يــروح الليل   بــلجي الصــبح يــلهيني

* * *

أحـسبْتنا مـن للـظعائن بـعدكم   فليت فداكم يـا كـرام الظـعائنُ

﴿٢٢٥﴾

عاقبة السوءى

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: الاستفادة من القصص القرآني

يتعلق هذا المقطع من الآية الكريمة بقصة ناقة النبي صالح عليه السلام، ونحن نعرف بداهة أن القرآن الكريم حينما يضمّن سوره قصصاً تاريخية فإنه إنما يهدف إلى غرض معين من جميع تلك القصص التي يوردها. وغير خفي أنه لا غرض من تلك القصص إلّا الاستفادة من تجربة الآخرين وأخذ العظة والعبرة منهم؛ ذلك أن الحياة ملأى بالتجارب والمعطيات، وعلى الإنسان أن يستفيد من هذه التجارب الخاصّة به، أو تجارب الآخرين بما منحه الله تبارك وتعالى من عقل ومعرفة.

ولهذا فإننا نجد أن الله تبارك وتعالى قد أعطى الإنسان نوعين من العقل:

---

(١) هود: ٦٥.

الأول: العقل المطبوع

وهو عقل مفطور عليه الإنسان، ويعني القوة الإدراكية التي تولد مع الإنسان والتي عبرها يؤسّس منظومة المعلومات التي سوف يستفيد منها عبر العقل المسموع. كما أنه العقل الذي يراد منه تحقيق عملية الإدراك وتحصيلها عند الإنسان. وهذا يعني أن الله تبارك وتعالى لا يخلق إنساناً إلّا ويضع عنده استعداداً وقابلية للإدراك والتقبّل والمعرفة والاستفادة؛ لكي يصحّ منه التكليف، ولكي يجب أن يقع عليه؛ فالله تبارك وتعالى لا يكلّف إنساناً ما لم يكن عنده عقل: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[1].

فالأفئدة هي العقول، والسمع والأبصار هي وسائل الحسّ التي يستطيع الإنسان عن طريقها وبمساعدة الوسائل العقلية أن يصل إلى فهم الأشياء التي حوله، أو التي يريد أن يفهمها فهماً صحيحاً.

إذن فالله تبارك وتعالى لا يخلق إنساناً ما لم يصلحه بالإدراك والقابلية على الفهم والاستفادة واختزان التجربة.

الثاني: العقل المسموع

وهو ما يستفيد الإنسان عبره من تجارب الآخرين. والإنسان مهما كانت قابلياته الذهنية عالية فإنه يكون مفتقراً إلى التجربة؛ ولهذا فإن أمير المؤمنين عليه السلام يقول: «رَأْيُ الشَّيْخِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ مَشْهَدِ الْغُلَامِ»[2]. وهذا يعني أن الصبي الغلام حتى وإن أخذ سلاحاً وقاتل لكن رأي الإنسان الكبير السنّ، الذي يمتلك حنكة في الحياة، والذي قد عركته تجارب الدهر وصروفه يظلّ له ذلك التأثير الكبير،

---

(١) النحل: ٧٨.

(٢) نهج البلاغة / الحكمة: ٨٦.

والقسط الأكبر في هذه الحياة من سلاح ذلك الغلام المقاتل. وهذا شيء بديهي؛ لأن سلاح الصبي عادة يكون محدوداً، أما رأي الشيخ فيكون ذا مساحة تأثير واسعة وكبيرة؛ وبهذا يكون أشدّ فتكاً من سلاح الصبي. والسلاح حينما لا يستخدم في مكانه الصحيح، أو أنه يستخدم في مكانه الصحيح لكن بطريقة أو أُسلوب غير صحيحين، أو حتى غير كافيين فإنه سوف لن يؤدي إلى تلك النتيجة المرجوّة منه، بل ربما أدّى إلى نتيجة سلبيّة، وهو عكس ما لو أستخدم في موضعه الصحيح أو السليم؛ لأنه حينئذٍ يأخذ أثره الطبيعي المراد له.

إذن فالعقل له تأثيره، والتجربة والفكرة لهما تأثيرهما، والإنسان عادة بمسيس الحاجة إلى الاستفادة من تجارب الآخرين في هذه الحياة؛ ولهذا فإننا نجد أن الإنسان صاحب التجارب في الحياة يتمتّع بنضوج فكري وعقلي واضح؛ لأنه عادة يكون ذا قوّة إدراك عالية بعيدة، كما أنه يمتلك القابلية على الاستفادة من قوة الإدراك تلك[1]. ومع هذا فإننا نقول: لو أن شخصاً كان ذا قوّة إدراك واسعة، وقابلية على الإدراك عالية، لكن تجاربه قليلة في الحياة فإن هذا حتماً يكون مصيره الفشل؛ لأنه سوف لن يستفيد من خبرات الآخرين ولن يتّعظ بتجاربهم ومنها، وهو عكس الإنسان الذي عادة يكون ذا تجارب كثيرة.. تجارب تعطيه صفة المناعة والحصانة ضدّ مشاكل الحياة وقساوتها.

وعليه فالقصص الموجودة في القرآن الكريم لا تريد إلّا هذا الهدف الذي تكلّمنا عنه آنفاً، وهذا يعني أن القرآن الكريم يعرض علينا تجارب الناس

---

(١) قال المتنبي:

الرأي قبل شجاعة الشجعانِ هو أولٌ وهي المحلُّ الثاني

شرح نهج البلاغة ٢٠: ٤٣.

السابقين لنا؛ كي نستفيد منها، فيأخذها ويقدّمها لنا كخلاصة؛ حتى نتمكّن من الاتّعاظ بها بشكلٍ سهلٍ يسيرٍ هضمُه. وبهذا فإن القرآن الكريم يسوق لنا جهود الآخرين ليضعها بين أيدينا ناضجة على طبق من ذهب؛ كي نستفيد منها، ثم يقول لنا: إن الإنسانية قد مرّت بتجارب كثيرة منها الصحيح ومنها المخطوء، وعليكم أن تأخذوا بالتجربة الصحيحة التي تترك أثراً إيجابياً، وعليكم أن تتركوا التجربة المخطوءة التي تترك أثراً سلبياً حتى تتربّوا على هذا اللون السامي من التربية العالية التي تريدها السماء لكم.

إذن فالقصة القرآنية تهدف إلى خلق الجانب التربوي عند الإنسان، وتستهدف إعطاء الإنسانية عطاء علمياً أو عطاء فكرياً على حساب تجارب الآخرين.

المبحث الثاني: في الصحيح من قصة ناقة نبي الله صالح عليه السلام

إننا حينما نرجع إلى كتب التفسير حول هذه الآية الكريمة فإننا سنجد الأثر الإسرائيلي واضحاً فيها، فأغلب متناولات التفسير المتعلّقة بهذه القصة وأمثالها لا يخلو من إسرائيليات تعيث فيه. ومن هذه الإسرائيليات ما نجده عند البعض حول آية المقام الكريمة فيما يتعلّق بطول ناقة النبي صالح عليه السلام مثلاً، وبعرضها، وكيف أنها كانت تشرب الماء لوحدها في يوم، وما إلى ذلك من أُمور أُخرى. وخلاصة القول أن هناك كلاماً طويلاً عريضاً حول هذه الصفات الخرافية لهذه الناقة، ونحن لا يمكن أن نقبل بكل ما هو موجود في هذه الكتب؛ لأننا عادة نأخذ بالروايات الواردة عن المعصوم عليه السلام بالطرق الصحيحة التي رسمها عليه السلام نفسه لنا، فنعمل بها، وإلّا فإننا سوف نطرح تلك الروايات إذا كانت مخالفة لتلك الطرق التي تعدّ عبرها الرواية صحيحة أو موثوقة أو حسنة.

إذن فكل ماهو ثابت الصحّة صدوراً أو سنداً عن المعصوم عليه السلام فإن علينا أن نأخذ به، وهذا بخلاف ما إذا كان غير مقطوع الصحّة أو مقطوع الصدور، أو أنه لم يرد عن طريق المعصوم، فإننا حينئذٍ سوف لن نأخذ به ما دام القرآن الكريم لم يبيّنه لنا. وهذا يعني أن القرآن الكريم إذا تكرّم ووضّح لنا بعض الجزئيات فإننا حتماً سوف نأخذها أخذ المسلّمات بما أنه كتاب قطعي الصدور.

وخلاصة القول أننا نسكت عمّا سكت عنه القرآن الكريم أو النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم أو الإمام المعصوم عليه السلام، ولا نتطرّق إلى التفاصيل إلا إذا كان لهما ـ النبي صلى الله عليه وآله وسلم أو الإمام عليه السلام ـ فيها رأي واضح، وكانت قد وردت عنه بطريق صحيح. وبخلاف هذا التقرير فإننا بالرجوع إلى النمط الإسرائيلي من الروايات سوف ندخل أنفسنا ونلج بها متاهات طويلة عريضة نحن في غنى عنها؛ لأنها ليست من الأُمور التي سيسألنا الله تبارك وتعالى عنها يوم القيامة؛ فالله تبارك وتعالى من غير المعقول أن يسألنا غداً في يوم المحشر ونحن واقفون بين يديه للحساب عن ناقة صالح من حيث لونُها وطولُها وعرضُها وكمّيّةُ ما تشربه من ماء، وما إلى ذلك من صفاتها الأُخرى.

إن كل هذه الأُمور ما هي إلّا أشكال تكميلية ومعارف عامّة، ونحن من خلال هذه المعارف العامّة نعمد إلى أن نأخذ الصورة الإجمالية التي يرسمها لنا القرآن الكريم عبر آياته الشريفة، ثم بعد ذلك تأتي الصورة التفصيلية. ونحن كما أسلفنا إنما نأخذ بها فيما لو كانت واردة من المعصوم بالشكل الصحيح الثابت؛ فنحن لا نأخذ بكلّ رواية ليس لها من شرف إلّا أنها تنسب إلى المعصوم عليه السلام. إننا نشترط ـ وهذا ما نؤكّد عليه في كلّ زمان ومكان ـ في الرواية أن تكون سليمة صحيحة مقطوعة الصدور؛ فإن كان الطريق إليها غير صحيح، أو كان مضمونها غير سليم

ويتنافى مع المقاصد العامة والقواعد الصحيحة لأساسيّات الدين، فإننا سوف لن نأخذ بها أبداً.

وبعد تحقّق كلّ هذا فإننا نقول: إننا نعرف على الإجمال أن الله تبارك وتعالى قد أعطى كل نبيّ معجزته؛ كي تكون علامة له على صحّة مدّعاه ونبوّته، ولكي تكون سبباً وداعياً لتصديق الآخرين له. وعن طريق هذه المعجزة يؤمن الكثير من الناس بالأنبياء عليهم السلام؛ ولهذا فإنه إذا كان البناء أن كلّ من هبّ ودبّ يأتي فيدلي بدلوه ويدّعي النبوة دون أن يقدّم عليها برهاناً، فإننا سوف نجد كلّ يوم العشرات ـ بل المئات والآلاف ـ ممن سيخرجون علينا ويدّعون بأنهم أنبياء.

الدجّالون خطر حقيقي محدق بالمجتمع

إذن لو كان كلّ من ادّعى النبوّة يصدّق لمجرّد دعواه تلك دون أن تكون معه تلك المعجزة لوجدنا أننا إزاء آلاف الأنبياء في كلّ يوم؛ لأن أغلب الناس ممّن لا وازع عنده يحبّ أن يكون كذلك. وبهذا فإننا سنقع أمام مشكلة عويصة. وفي هذا المجال أذكر أن في تاريخنا الكثير من القضايا الطريفة التي تصبّ في هذا المورد، وهي قضايا عجيبة تلفت النظر؛ لما فيها من كثرة ادّعاءات النبوّة. فهناك الكثير من الناس ممّن ادّعوا النبوّة في الأزمنة السابقة، بل حتى في أيامنا هذه، لكن بشكل آخر وبنمط مختلف؛ كأن نجد شخصاً يدّعي أنه يعلم الغيب دون أن يصرّح بأنه يدعي النبوة.

وعادة يكون ضحايا هؤلاء الإنسان الحائر الذي وقع في مشكلة عويصة من مشاكل الحياة، والتي لم يقوَ على إيجاد حلّ لها، كأن تكون مرضاً لا يبرأ منه، أو فقراً لا غنى معه، أو مشكلة أُخرى لا يجد لها حلاًّ ولا يستطيع الاهتداء إلى

طريق للخلاص منها. وبهذا فإن هؤلاء يستغلون هذه الحيرة عنده، وهذه الحاجة للخلاص من هذه المشاكل التي تجلببه؛ ليستلبوا أمواله بحجّة أنهم يعلمون الغيب، وبدعوى أنهم قادرون على فكاك رقبته من هذه المشاكل. وهذا منتهى البؤس؛ لأن هؤلاء بدلاً من أن يقيلوا عثرة هذا الإنسان البائس أو الحائر والمحتاج، وبدلاً من أن يرحموه، أو أن يقولوا: إن هذا الإنسان واقع في شدّة، ويجب أن نساعده وأن نعينه على الخلاص منها بأن نقدّم له الرأي الصحيح والمشورة المسؤولة.. بدلاً من هذا كلّه يأتونه بصفة انتهازية فيستغلونه إلى أقصى مجالات الاستغلال.

وهكذا فإننا نجد أن البعض من الناس ذئاب، وهذا يعطي حقيقة أن الإنسان لا يزال يتصرّف بوحي من غرائزه ورغباته إلّا من عصم الله تبارك وتعالى، وذلك هو الإنسان الملتزم ذو الدين والتقوى وخشية الله سبحانه وتعالى. وإلّا فما عدا هؤلاء فإن الإنسان ومن غير هذه الصفات يتصرّف تصرّف الحيوانات؛ فيحاول أن يستعمل مخالبه كالوحش لنهش الآخرين كلّما حصل على فرصة لفعل ذلك. وليس من الضروري أن تكون هذه المخالب على شكل أظفار، بل أحياناً تكون مخالب فكرية.. مخالب حيلة ودجل.

وعليه فهؤلاء بدلاً من أن يقيلوا عثرة هذا الإنسان ويرحموه نجدهم يستغلونه إلى أقصى وأبعد غايات الاستغلال، فيسيّرونه في متاهات الدجل، مع أن تلك المشكلة التي يعيش فيها ربما لم تكن مشكلة واقعية، وإنما هي من وهم خياله ونسج أفكاره، لكنهم يعمدون إلى تعميقها عنده وترسيخها وتثبيتها في رأسه بشكل عجيب غريب كي يحتلبوه عبرها ويستلبوا كل ما عنده بغض النظر عن تلك المشكلة ـ كما قلنا ـ فيما إذا كانت واقعية أو غير واقعية؛ وإن كانت واقعية فيما إذا كانت مشكلة صحية أو اجتماعية أو أخلاقية أو غيرها.

فنجد مثل هؤلاء يخاطبون ضحاياهم بالقول: نحن على استعداد تامّ لأن نحلّ لكم مشاكلكم كافّة، وهذا هو البلاء المبرم الذي يحيق بالناس في كل عصر وزمان. فادّعاء الدجل والشعوذة، وادعاء علم الغيب والاتّصال بالجن كلّها أُمور لا يمكن إلّا أن تكون وسائل لامتصاص عرق الآخرين وتعبهم، والعيش على دمائهم. ومثل هذه المشاكل تقع فيها الشعوب البدائية أو الشعوب المتدنّية الثقافة وإن كان هناك البعض حتى من أصحاب الثقافة المتوسّطة بل العالية ممّن يقعون تحت فخاخ هؤلاء وسيطرتهم.

إذن فالشعوب المتدنّية الثقافة بشكل عامّ، والتي لا تمتلك كمية كافية من العلم أو الوعي نجدهم يقعون ضحايا استغلال هؤلاء عبر هذه الظاهرة. وهكذا فإن ظاهرة تدني الثقافة عند الشعوب تجعلنا نسمع كل يوم عن شخص يقع ضحية لهذا النوع من الدجّالين والمستغلّين، فيسلبونه ما عنده. ومن هنا فإننا يتعيّن علينا أن ننبّه إلى خطر هؤلاء، وأن ينبّه الناس بعضهم بعضاً إلى الابتعاد عن هذا الداء، وإلى ضرورة أن يعتصموا بالله تبارك وتعالى وأن يبتعدوا عن هذه الأجواء، ويرجعوا إليه جلّ شأنه، وإلى المصادر الموثوقة، والعلم الموثوق، والعالم الموثوق؛ ليهديهم إلى دعاء صحيح، أو إلى أثر نبوي أو معصومي صحيح يستطيعون عبره أن يتخلّصوا من وساوسهم، أو ابتلاءاتهم حتى وإن كانت ابتلاءات واقعية؛ سواء كانت على مستوى الحالة الصحّية، أو الحالة الاجتماعية من فقر أو ما إلى ذلك.

المخدّرات وخطرها على المجتمع

إن على الإنسان قدر الإمكان أن يتوخّى الحذر في تعامله مع أمثال هؤلاء، كما أن عليه أن يتنبّه إلى أن هؤلاء وحدهم ليسوا هم آفة المجتمع الوحيدة التي

تعيث به والتي تحاول أن تنخر بناءه. إن عليه أن يدرك أن هناك خطراً آخر كبيراً يهدّد وجود المجتمع كلّه. وهذا الخطر أيضا ربما يكون تابعاً لتدنّي المستوى العلمي أو الثقافي للشعوب أو الأفراد، ألا وهو خطر المخدّرات التي تعيث في جسد الإنسان وجسد الأُسرة وجسد المجتمع فساداً، فتنخره وتجعله بناء خاوياً متهالكاً.

وفي واقع الأمر فإن هذه الآفة هي كارثة حقيقة قد حلّت بالمجتمعات كافّة في هذه الأيام، ومصدر خطورتها أنها تصيب أول ما تصيب غالباً فئة الشباب الذين يحسّون بفراغ قاتل يعيشونه، وفي الوقت نفسه فإنهم يجدون فرص الحياة متعثّرة أمامهم؛ ولهذا فإنهم يبرّرون هذا اللجوء إلى المخدّرات بدعوى أنهم يريدون أن يهربوا من الواقع عن طريق تخدير العقل وشلّه عن أداء وظائفه. إن الذي يستزرع المخدّرات ثم يقوم بتسويقها وتوزيعها مجرم محترف لا مانع عنده من أن يقتل المئات من الناس من أجل حفنة من الدولارات التي يستولي عليها بعد أن يدسّ في أيديهم ذلك السمّ القاتل الذي ينخر أجسادهم فيحيلها إلى بقايا متهالكة لا تقوى على الصمود أمام مشاكل الحياة الصحيّة وغير الصحيّة.

فمثل هؤلاء يجب على الإنسان كذلك أن يحذرهم كما يحذر الدجّالين الذين يريدون أن يستغلّوا عنده عقدة الحاجة في هذه الحياة أو غيرها. إن هؤلاء الشباب عليهم أن يدركوا قبل أن ينجرفوا في هذا السبيل المتهالك، وأن ينحطّوا من برج الأُسرة الإسلاميّة السليمة إلى هذه الهاوية التي لا قرار لها أنهم إذا ما تعاطوا هذه الموادّ فإنهم حتماً سوف يتحوّلون إلى مدمنين، وبالتالي فإن حياتهم سوف تتلاشى، وأن أُسرهم كلّها سوف تمرض بسبب شخص يريد أن ينتفع مادياً من السحت الحرام على حساب صحة الآخرين، وعلى حساب

وجودهم، وعلى حساب مكانتهم الاجتماعية.

ولكلّ هذا فإننا نقول: إن هذا يستدعي أن يتضافر المجتمع كله على إبعاد شبح هذا الخطر والقضاء عليه قبل أن يعمه والوجود كلّه. وحينئذٍ لا يمكن دفعه، ولا التخلّص منه، ولا ينفع معها الويل أو الندم.

إن المخدرات مما لا يحتاج إلى أن يقال فيها: إنها من أعظم الأخطار؛ ولذا كان من واجب الجميع أن يشدّ بعضهم أزر بعض لمحاربته والقضاء عليه. فكل فرد في المجتمع مسؤول عن نفسه، وعن قبيله، وعن مجتمعه؛ لحمايته من هذا الخطر الداهم الذي يحاول أن ينقضّ عليه، ويحيله إلى كتلة متهالكة لا تقوى على الصمود أمام أدنى مشكلة، أو أدنى كارثة يتعرّض لها الأفراد أو المجتمع ككلّ. فعلى كل فرد يرى شبح هذا المرض أو البلاء ألّا يسكت عنه، ومن يستطع أن يدافع فعليه أن يدافع، ومن يستطع أن يدفع فعليه أن يدفع. فالمسألة خطرة جدّاً، وفي ضميمتها الكثير من المضاعفات التي كلّها تقف لتقضي على وحدة المجتمع وقوته وتماسكه.

ولسنا بحاجة بعد كل هذا إلى القول: إن هذا الداء قد وقع ضحيته الكثير من الأبرياء الذين تتعثّر بهم فرص الحياة؛ لأنهم لا يجدون ما ينفقون منه، أو ما يستطيعون أن يشقّوا به مسالك هذه الحياة الوعرة، أو ما يبدّد به شظف العيش وقساوة الواقع الذي يعيشون فيه.

المبحث الثالث: «لأحملن ذنوب سفهائكم على علمائكم»

أن آية المقام الكريمة كما هو واضح تتحدث عن أن الناقة هي معجزة النبي صالح عليه السلام. وينبغي أن نلتفت هنا إلى أنه ليس في هذا من ضير أبداً؛ ذلك أن الله

تبارك وتعالى عادل لا يفعل إلّا العدل، والعدل هو وضع الشيء موضعه، فإذا أعطى سبحانه وتعالى نبيه موسى عليه السلام اليد البيضاء أو العصا، وإذا أعطى نبيه وروحه عيسى عليه السلام إبراء الأكمه والأبرص، وإذا أعطى نبيه صالحاً عليه السلام الناقة فإنه تبارك وتعالى قطعاً قد أخذ بنظر الاعتبار المجتمع الذي عاش فيه أولئك الأنبياء عليهم السلام، وما الذي يصلح ليكون معجزة عندهم.

إذن فالقرآن الكريم إذ يتكلّم عن معجزة النبي صالح عليه السلام فإنما يذكر أنها الناقة، وإذ يعبّر عن مصيرها فإنه يقول: ﴿فَعَقَرُوهَا﴾. والذي يلفت النظر هنا أنه قد عبّر عن هذا الفعل بصيغة الجمع، مع أن الذي قام بعقرها واحد، وهذا مورد يستحقّ أن يتوقّف عنده الباحث، وأن يلتفت إليه ويتنبّه إلى الحكمة التي وجدت فيه، فنقول: إن هنا موضوعاً مهمّاً جدّاً وضخماً يكمن في مطاوي هذه الحادثة أوجب التعبير عنه بهذا الأُسلوب. ومن هذا القبيل ما يعبر به الإمام في مخاطبته لأحد أتباعه فعن الحارث بن المغيرة قال: لقيني أبو عبد اللّه عليه السلام في طريق المدينة فقال: «مَنْ ذَا أَحَارِثٌ؟». قلت: نعم. قال: «أَمَا لَأَحْمِلَنَّ ذُنُوبَ سُفَهَائِكُمْ عَلَى عُلَمَائِكُمْ». ثمّ مضى، فأتيته، فاستأذنت عليه فدخلت، فقلت: لقيتني فقلت: «لَأَحْمِلَنَّ ذُنُوبَ سُفَهَائِكُمْ عَلَى عُلَمَائِكُمْ». فدخلني من ذلك أمرٌ عظيمٌ. فقال عليه السلام: «نَعَمْ، مَا يَمْنَعُكُمْ إِذَا بَلَغَكُمْ عَنِ الرَّجُلِ مِنْكُمْ مَا تَكْرَهُونَ، وَمَا يَدْخُلُ عَلَيْنَا بِهِ الأَذَى أَنْ تَأْتُوهُ فَتُؤَنِّبُوهُ وَ تَعْذِلُوهُ، وَتَقُولُوا لَهُ قَوْلاً بَلِيغاً؟». فقلت: جعلت فداك، إذن لا يطيعونا ولا يقبلون منّا. فقال عليه السلام: «اهْجُرُوهُمْ وَاجْتَنِبُوا مَجَالِسَهُمْ»[1].

ذلك أن المجتمع يجب أن يكون فيه توافق وتواؤم وانسجام، وأن يسيطر عليه

---

(١) الكافي ٨: ١٦٨ / ١٦٩، الاختصاص: ٢٥١.

حسّ من التضامن بأن ينهى بعضهم بعضاً عن المنكر ويأمر بالمعروف، وأن يستنكر بعض آخر الأفعال المنكرة التي يقوم بها البعض من العصاة أو المارقين، وأن يشير بعض آخر إلى مكامن الخطر التي تهدّد المجتمع وحياته ووجوده وهكذا؛ مما يؤدّي إلى حصول حالة من التضافر داخل المجتمع على دفع الباطل وإحقاق الحقّ محلّه. وهذا هو معنى قول النبي الأكرم ﷺ: «**كلّكم راعٍ وكلّكم مسؤول عن رعيته**»[1].

وهو حديث يعني أنه يجب أن يكون هناك تضامن بين أفراد المجتمع، فيستشعر كل فرد فيه أنه مسؤول عن الآخرين بهذه المسؤولية الأخلاقية أو الدينية أو الوعظية؛ لأن الفرد حينما يرى منكراً ثم لا يحفل لأمره، أو لا يتدخّل لدفعه وللقضاء عليه؛ كيلا يوقع نفسه في مشاكل مع الآخرين، فإن هذا التصرّف يعدّ أمراً غير مقبول وغير مرضي سيما مع الإنسان المؤمن الواعي[2]. وعليه فإن الصحيح هو أنه يجب أن يقال للمنكر: هذا منكر، قال ﷺ: «**لتأمرُنّ بالمعروف ولتنهُنّ عن المنكر، أو ليسلطن عليكم شراركم؛ فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم**»[3].

وفعلاً فإن هناك الكثير الكثير من الناس ممن يدعون فلا يستجاب لهم، بل إن

---

(١) عوالي اللآلي ١: ١٢٩ / ٣، صحيح البخاري ١: ٢١٥.

(٢) وكما هو معلوم فإن الهدف من إعداد الإسلام للأفراد الواعين هو إعدادهم دعاة لحمل رسالته ونشر ثقافته وتعاليمه بين الناس، وهذا لا يتم إلّا بالانتقال من مرحلة الحصول على المعرفة والمعلومة إلى مرحلة الوعي بها، ثم بعد ذلك إلى مرحلة الدعوة إليها، وهي المرحلة الثالثة والأخيرة في مراحل الثقافة والدعوى الإسلاميتين.

(٣) الكافي ٥: ٥٦ / ٣، تهذيب الأحكام ٦: ١٧٦ / ٣٥٢، وقد رواه عن أبي الحسن ﵇، ورواه عن رسول الله ﷺ في مجمع الزوائد ٧: ٢٦٦.

هناك شعوباً فيها أخيار وفيها أبرار، فسلط الله عليهم سخطه؛ لأنهم لم يأمروا بمعروف، ولم ينهوا عن منكر، بل إن هؤلاء قد سُلّط عليهم الظلمة والأشرار، ولم يخلّصهم الله تبارك وتعالى منهم؛ لأنهم لا يمتلكون ذلك الحسّ الجماعي الذي يعني أنه يجب على المجتمع ككل أن يشير إلى المنكر ويصفه بأنه منكر، فينهى عنه ويقاتل من يفعله، ويقف بوجه المنكر ولو بكلمة أو بموقف طبيعي، مع أن المفروض أن المجتمع كلّه وحدة مترابطة متآصرة، ويجب أن يتضافر للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

إذن لهذا السبب كان التعبير القرآن: ﴿فَعَقَرُوهَا﴾؛ لأن السفهاء حينما قرّروا أن يدفعوا أحدهم إلى عقر الناقة وقتلها لم يتصدَّ لهم صلحاء تلك المنطقة، أو الملتزمون منهم فيها، أو الطيّبون، ولم يقولوا لهم: إنكم مخطئون بفعلكم هذا، ويجب أن تحاسبوا. بل إنهم سكتوا عنهم، ولم يعنّفوهم بعد فعلهم هذا، فلما سكتوا عمّهم الله بالعذاب.

السكوت والجريمة

وهذا يجرّنا إلى تقرير حال وهو أن المجرم تارة يكون مجرماً بفعل معين يقوم به مخالفاً لأوامر الله تبارك وتعالى أو لشرائع السماء، وتارة يكون مجرماً بالسكوت. وهذا ما يسمّى بـ«الإجرام العدمي» أو «الإجرام السلبي»؛ ذلك أن الذي يسكت عن الباطل فلا ينهى عنه، وعن المعروف فلا يأمر به، ولا يقول للباطل: هذا باطل، ولا يقول للحق: هذا حق، لهو حري بأن يعمّه العذاب. إن على الإنسان ـ إذا أراد ألّا يكون مجرماً بسكوته ـ أن يقول: للظالم أنت ظالم وإن كانت

الأُمّة كلها تهاب ذلك الظالم وتخافه وتخشاه[1] وإن كلّفه ذلك حياته.

وربما يقول قائل: إن عندنا تياراً يعيش في قلب الأُمّة الإسلامية يقول عكس ذلك، ويصرّح بأن على الإنسان ألّا يعرض نفسه إلى الوبال: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾**[2].

والجواب عن هذا أن يقال: إن من يقل بهذا فهو حتماً لم يفهم الآية فهماً صحيحاً، لأن هذه الآية الكريمة لا علاقة لها إطلاقاً بمسألة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإلّا فإن هذا يعني أن هناك تضارباً وتناقضاً واختلافاً في القرآن الكريم. إن هذه الآية الكريمة لها معنى آخر ومجال آخر سوف أعرض له لاحقاً إن شاء الله تبارك وتعالى[3].

---

(١) قال رسولنا الأكرم ﷺ: «سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله». أحكام القرآن ٢: ٤٣، تفسير السمعاني ٤: ٢٣٣.

(٢) المائدة: ١٠٥.

(٣) الظاهر أنه ﷺ يقصد تناولها في محاضرة مستقلّة. وتأسيساً على هذا فإننا نقول: سبق أن ذكرنا في أحد الأجزاء الماضية أنه قد ورد في كتب التفسير والحديث عن أسلم أبي عمران أنه قال: كنا بالقسطنطينيّة وعلىٰ أهل مصر عقبة بن عامر، وعلىٰ أهل الشام فضالة بن عبيد، فخرج صف عظيم من الروم فصففنا لهم، فحمل رجل من المسلمين علىٰ صفّ الروم حتّىٰ دخل فيهم، فصاح الناس وقالوا: سبحان الله يلقي بيده إلىٰ التهلكة. فقال أبو أيّوب الأنصاريّ الصحابي: يا أيّها الناس، إنكم تتأوّلون هذه الآية هذا التأويل، وإنما نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار، إنا لمّا أعزّ الله دينه وأظهر نبيّه وكثر ناصروه، قال بعضنا لبعض سرّاً دون رسول الله ﷺ: إن أموالنا قد ضاعت، وإن الله قد أعزّ الإسلام وكثر ناصروه، فلو أقمنا في أموالنا فأصلحنا ما ضاع منها. فأنزل الله علىٰ نبيّه ﷺ يردّ علينا ما قلنا: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾، فكانت التهلكة إقامتنا في أموالنا وإصلاحها، وتركنا الجهاد والإنفاق في سبيل الله. جامع البيان ٢: ٢٧٩، الجامع لأحكام القرآن ٢: ٣٦١ ـ ٣٦٢، التفسير الكبير ٥: ١١٧، المستدرك على الصحيحين ٢: ٢٧٥، السنن الكبرى

وبناء على هذا فإن مثل هذا المعترض هو أول من يعترض على خروج الإمام الحسين عليه السلام بدعوى أنه عليه السلام لو لم يخرج لما حصل له ما حصل، ولما سبيت عائلته، ولما قتل هو وأهل بيته وأصحابه.

ونقول في الرد على هذا: إنه تأسيساً على هذا المفهوم فإن على الأنبياء عليهم السلام ألّا يخرجوا ليعلنوا دعوة الحقّ؛ لأنهم قد تعرّضوا إلى شتى أنواع التعذيب والتقتيل والمحاربة من أقوامهم [1].

إذن فالأنبياء يجب ألّا يخرجوا؛ لأن هذا يؤدّي بهم إلى القتل والتنكيل والتعذيب. وليس الأنبياء وحدهم في ذلك الشأن بل إنه شأن الصلحاء كافّة الذين غيّروا لنا الدنيا. ومعلوم إن الدنيا لا يتغيّر وجهها، وأن العدل لم يحقّ إلا بخروج هؤلاء الأنبياء والصلحاء من ذوي الحركة، أما النيام فليسوا هم أهل أمثال هذه النهضات والحركات الفكرية التي تجدّد وجه الحياة، بل هم أصحاب فتنة وجلوس عن نصرة الحق وقعود عن طلبه. وبهذا فإن الدنيا لو ظلّت وتظلّ منوطة بهؤلاء النيام لتوقّفت الحياة، ولم يتغير وجهها من الباطل إلى الحق أبداً. إن كلمة الحقّ وموقف الحقّ والقيام بالحق ينبغي أن تأخذ أثرها جميعاً في الحياة، ولهذا

(النسائي) ٦: ٢٩٩، صحيح ابن حبّان ١١: ٩، معرفة السنن والآثار ٦: ٥١٤، تخريج الأحاديث والآثار ١: ١١٩، موارد الظمآن ٥: ٢٦٨.

(١) فقد أُلقي بالنبي إبراهيم عليه السلام في النار، واستهزئ بالنبي نوح عليه السلام تسعمئة وخمسين سنة، وحورب النبي لوط عليه السلام وأتباعه، وكذا مع غيرهم من الأنبياء كالنبي موسى عليه السلام والنبي عيسى عليه السلام الذي حاولوا صلبه، وما إلى ذلك مما ينضم إلى هذا المساق، حتى إنه ليروى أن اليهود قد قتلوا في يوم واحد سبعين نبياً، كما في تفسير الثعلبي ١: ٢٠٧، تفسير البغوي ١: ٧٨، البحر المحيط ١: ٤٦٩. وورد في سبب تسمية ذا الكفل عليه السلام بهذا الاسم أنه كفل سبعين نبياً وخلّصهم من القتل بعد أن أراد اليهود فعل هذا بهم كما في مجمع البيان ٢: ١٣٣، تفسير الثعلبي ١: ٣٠٣.

فإننا نجد أن الآية الكريمة تشنّع على من لم يفعل ذلك، وتعبّر عنه بقوله تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا﴾، مع أن الشخص الذي تصدّى إلى فعل هذا هو واحد وليس أكثر من ذلك، وما هذا إلا لأن المجتمع ككل قد أسهم بشكل أو بآخر مباشر أو غير مباشر بهذه الجريمة التي تستنكرها هذه الآية الكريمة.

المبحث الرابع: استنتاجات على ضوء الآية الكريمة

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾. وهنا استنتاجات عدّة ينبغي الالتفات إليها، منها:

الاستنتاج الأول: لماذا ثلاثة أيام؟

تقول الآية الكريمة: ﴿ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾، فهل هناك خصوصية لهذا العدد؟ وهل من الممكن التساؤل حول ما إذا كان بالإمكان القول: إنه هل يمكن أن يقع بأقلّ من ذلك أو أكثر؟ الحقيقة أن مثل هذين التساؤلين غير واردين؛ لأننا لو فتحنا الباب أمام مثل هذين السؤالين أو غيرهما فإنه سوف يرد السؤال تلو السؤال حول هذه الأُمور وغيرها، وعلى كل شيء يمكن أن يدخل في باب التشريع من قبيل أنه لماذا كان عدد الركعات في الفرض الكذائي ثلاثة أو أربعة؟ ولماذا شرع الصيام في شهر رمضان وليس في شهر غيره؟ وهكذا فإننا سوف نفتح الباب عريضاً أمام سيل متدفّق من التساؤلات لا حدود له ولا معنى.

ونحن في هذا المقام نكتفي بالقول: إن البارئ جلّ وعلا هو الأعرف بالمصلحة، وعلى ضوء هذه المصلحة تتمّ التشريعات أو تسنّ القوانين والعقوبات، وكمثال من الواقع على هذا: الطبيب الذي يصف دواء معيناً لمريض ثم يشترط عليه أن يستمرّ على هذا الدواء لفترة معينة من الأيام، فإن المريض في مثل هذه

الحالة ليس له الحق في الاعتراض عليه؛ لأن الطبيب أعرف بهذا العلاج وأعرف بالفترة الكافية التي يحتاجها ليبلغ مفعوله كاملاً في جسم الإنسان. وبهذا فإن تحديد تلك الفترة العلاجيّة تكون مبتنية على مصلحة معيّنة تقتضيها المعالجة، الطبيبُ أعلم بها. وإن كان البعض يسعى إلى تعليل مثل هذه الأُمور بأشياء بعيدة عن الواقع ولا علاقة لها بالموضوع أبداً، كما رأيت من البعض حيث إنه يقدم تعليلاً بارداً جدّاً يقول فيه: إن الله تبارك وتعالى قد حدد أيام المهلة بثلاثة أيام؛ لأن الفصيل قد رغى ثلاث مرات، فأعطاهم الله تبارك وتعالى في كل مرة رغى فيها الفصيل مهلة يوم[1].

إن تعليق أمر المهلة على عدد المرّات التي رغى فيها الفصيل هو أمر أجنبي عن المقام، كما أنه تعليق غير وارد؛ لأنه ليس هناك علقة بين هذا الموضوع وهذا الموضوع. وعليه فلا بد من أن يصار إلى القول: إن الله تبارك وتعالى إنما أمهلهم ثلاثة أيام لمصلحة هو تبارك وتعالى أعلم بها؛ ولهذا فإنه لا ينبغي لنا أن نأخذ كلّ شيء بالتعليل؛ لأنه ليس كلّ شيء يدرك بالتعليل، بل إن بعض المصالح قد أخفاها الله تبارك وتعالى، وهو أعلم بها من غيره.

الاستنتاج الثاني: الفترة التي يصحّ أن تنوى معها الإقامة

إن بعض المحقّقين يرى أن هذه الفترة التي أعطاها الله تبارك وتعالى لهؤلاء القوم وأمهلهم بها هي فترة معقولة، وقد منحهم الله إياها لكي يخرجوا ويتبرؤوا من دار الظلم، ويعلنوا توبتهم عن ذلك الأمر الذي حدا إلى إيقاع العذاب بهم. ويربط بعض علماء المالكية بهذه المسألة مسألة الإقامة بالنسبة للمسافر، وينسب هذا

---

(١) تفسير مقاتل بن سليمان ٣: ٤٨٩.

الأمر إلى ابن العربي المالكي المفسّر الذي كانت وجهة نظره إنه إذا قصد إنسان بلداً يبعد عن محلّ إقامته مسافة شرعية، وأراد أن ينوي الإقامة فيه، فإنه ليس له الحقّ في أن ينوي تلك الإقامة إلّا بعد مرور ثلاثة أيام فيه؛ لأن هذه الأيام الثلاثة قد أخّر الله تبارك وتعالى فيها نزول العذاب على جماعة النبي صالح﵇؛ وبهذا فإنها سوف تكون القدر المتيقّن التي يؤخر فيها نزول العذاب.

ومن يرغب في تفصيل أكثر حول هذا الأمر فليرجع إلى تفسير القرطبي حول تفسير الآية (١٠١) من سورة (النساء)؛ حيث إنه يتناول المدد التي تكون فيها الإقامة[١]. إن عندنا أن الإنسان حينما يقصد بلداً تفصله عن مكان إقامته مسافة شرعية[٢] فإن له أن ينوي الإقامة لمدة عشرة أيام[٣] بشكل مباشر إن كان يريد أن يقيم فيه تلك المدة. وعليه فإن حكمه الشرعي هو إتمام الصلاة والصيام، بل إنه إن كان يعلم أنه يحتاج إلى فترة عشرة أيام أو أكثر للإقامة في ذلك البلد فإن عليه أن ينوي الإقامة لحظة وصوله ثم يصوم ويصلّي تماماً.

حكم المتردّد في السفر

فإن كان لا يدري أنه سوف تكون فترة احتياجه فترة إقامته، أو أنه بقي متردّداً بين الإقامة وعدم الإقامة، فإنه حينئذٍ يبقى شهراً كاملاً حاله فيه حال أي مسافر غير مقيم؛ لأنه حينئذٍ متردّد بين الإقامة وعدمها، فيبقى شهراً كاملاً دون أن يصوم أو أن يصلّي تماماً، فإن أتمّ الشهر فإنه حينئذٍ يصلّي تماماً ويصوم وإن بقي له يوم واحد ثم يرجع إلى بلده، بل إنه يصلي تماماً وإن بقي له فترة تتّسع لأداء صلاة

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٥: ٣٥٧. (٢) المسافة الشرعية عند المذاهب عامّة.

(٣) أدنى فترة الإقامة عند المذاهب الإسلاميّة.

واحدة؛ ذلك أن عليه بعد إتمام الشهر أن ينوي الإقامة وإن لم يكن يقصد الإقامة عشرة أيام، بل ـ كما قلنا ـ وإن كان ينوي الإقامة لفترة تضم فريضة من الصلاة واحدة[١].

وبعض المذاهب الإسلامية يشترط أن تكون الفترة خمسة عشر يوماً[٢]، وبعضهم يشترط فيها أن تكون أربعة أيام[٣]، وبعضهم ثلاثة أيام[٤]، في حين يذهب بعض منهم إلى أنه يظل يقصر ولا يصوم حتى ولو بقي سنين طويلة، يقول أبو مجلز: سألت عبد الله ابن عمر فقلت له: أنا أدخل إلى المدينة وأبقى فيها ستة أشهر أو سبعة. فقال لي: صلِّ ركعتين ولا تنوِ الإقامة[٥].

إذن فهناك اختلاف في موضوع الإقامة، لكن ما هي العلاقة بين الإقامة هذه وبين ما نحن بصدده من فترة إمهال قوم النبي صالح عليه السلام هذه الأيام الثلاثة؟ أعتقد بأنني لم أتمكن من إيجاد طريق للربط بين هذه الأيام الثلاثة التي أمهل الله تبارك وتعالى فيها قوم النبي صالح عليه السلام، وبين موضوع الإقامة. والقرطبي إذ يستعرض كل هذه الآراء في هذا الموضوع في تفسيره، فإنه ينقل ضمنها عن ابن العربي المالكي هذا الرأي الذي ذكرناه.

الاستنتاج الثالث: في موقف المتوكل من الإمام الهادي عليه السلام

والذي يهمّني من هذا المقطع الشريف من الآية الكريمة حادثة وقعت للإمام

---

(١) شرائع الإسلام ١: ٧٦، المختصر النافع: ٥٢، كشف الرموز ١: ٢٣٧.

(٢) المجموع شرح المهذّب ٤: ٣٥٩، وفيه سبعة عشر يوماً، فتح الوهاب ١: ١٢٤، وفيه ثمانية عشر يوماً.

(٣) فتح العزيز ٤: ٤٤٦، المجموع شرح المهذّب ٤: ٣٥٩، ٣٦١.

(٤) بدائع الصنائع ١: ١٠٤.

(٥) الجامع لأحكام القرآن ٥: ٣٥٧.

الهادي عليه السلام مع المتوكل، هذا الرجل العباسي الذي تضفى عليه الألقاب الضخمة من أمثال «محيي السنة ومميت البدعة»، لا لشيء سوى أنه كان يسبّ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، وإلا فإن من يتتبع تأريخه فإنه يجده مليئاً بالخمور والفجور والقيان والغناء، وكان مجلسه عبارة عن مجلس أُنس وطرب. ومن يرغب أن يطلع على تاريخ هذا الرجل وعلى ترجمته فعليه بملحق في ذيل كتاب (الفرج بعد الشدّة) للقاضي التنوخي بقلم الكاتب عبود الشالجي، ففي هذا الملحق ترجمة جمع فيها نتفاً من أوثق المصادر عن حياة المتوكّل وكيف كانت، وكيف كان مجلسه وشرابه، ومن هم ندماؤه، وما هو موقفه من الشريعة ومن تطبيق أحكامها.

والإنسان إذا ما قرأ هذا الملحق فإنه سوف يعرف حقيقة التزوير الحاصل في تأريخنا؛ ذلك أن من كان بهذه الصفات التي كلّها محض بعد عن الله تبارك وتعالى، وعن دينه ثم مع ذلك يجد أن هؤلاء يسبغون عليه صفات من قبيل «محيي السنة ومميت البدعة»، فإنه حتما سوف يتوقّف عندها؛ لأنه يرى أن في هذا الأمر تناقضاً كبيراً، وهذا التناقض مبتنٍ على أنهم أعطوا صفات عالية وشريفة لشخص لم يكن ليتّصف بها ـ بل بمقدار ضئيل منها ـ في واقعه ولا قيد شعرة. وكما ذكرنا فإنه لم يكن لهذا الأمر من وجه سوى أنه كان يسبّ أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب عليه السلام.

وأنا لا أُحبّ أن أجعل منبري منبر الكلمة البذيئة، لكن للحقيقة أقول: إن هذا الخليفة إذا مرّ أحد بتاريخه ورأى ما يكتب عنه وما لُقّب به، وما منح وأُضفي عليه وأُسبغ من ألقاب شريفة فإنه حتماً سوف لن يبقى عنده شيء من الوثوق بما يكتب في هذا التاريخ الزائف؛ لأنه سيرى هناك تناقضاً واضحاً

وفظيعاً في هذا الأمر. وإذا كان البعض من الشعراء يمدحونه من أجل الحصول على حفنة من الدنانير، فإن هذه الحالة موجودة في كلّ زمان ومكان، فهما لا يخلوان من هذا النمط من الشعراء المتكسّبين بشعرهم، أو الذين رصدوا شعرهم للاتّجار أو للبيع. ومثل هؤلاء لا مانع عندهم من أن يرفعوا أي شخص من وهدة المستنقعات إلى الذروات والقمم في سبيل الحصول على بضعة دراهم أو دنانير يعتاشون بها.

إن هذا الأمر لا يهمّنا، والذي يهمنا هو أن يأتي من يفترض به أن يكون عالماً منصفاً، أو مؤرّخاً ليس له من دور سوى نقل الحقائق نجده ينقل هذه الحقائق مشوهّة، أو ينقل الدسّ والتزوير في التاريخ، فيعبّر عن مثل هذا بأنه «محيي السنة ومميت البدعة»، ويسبغ عليه تلك الألقاب الطويلة العريضة. إن هذا الرجل كما ذكرنا في سبب إسباغ هذه الألقاب عليه أنه كان يكنّ عداء غريباً للإمام أمير المؤمنينعليه السلام ولأهل بيته الكرامعليهم السلام؛ ولذا فإنه عمد إلى محاولة ما يظنّه إذلالاً للإمام الهاديعليه السلام في عدة مرات منها أنه كان بين فترة وأُخرى يكبس على الإمام بيته ويداهمه وهو فيه، أو كان يتتبع أصحابهعليه السلام الذين كانوا يتردّدون عليه، ثم جاءت حادثة أراد أن يلحق عبرها الأذى، أو ما يظن أنه أذى أو إذلال للإمام الهاديعليه السلام.

وقبل أن نذكر هذه الحادثة نذكر ما يرويه البعض من أن المتوكل قد أصابته دمّلة ذات يوم، فآذته كثيراً وقد أعيا الأطبّاء أمرها، فلم يهتدوا إلى علاج لها مع كثرة ما وصفوا له من دواء، وهنا قال له الفتح بن خاقان: لم لا ترسل خلف علي الهادي لترى وجهة نظره في المسألة؟ وفعلاً أرسل أحد غلمانه إليه، فمضى

الرسول ورجع معه، فقال عليه السلام: «**خذوا كسب**[١] **الغنم، فديفوه بماء ورد، وضعوه على الخراج؛ فإنه نافع بإذن الله**».

فأخذ من بحضرة المتوكل يهزأ من قوله، فقال لهم الفتح: وما يضرّ من تجربة ما قال؟ فوالله إني لأرجو الصلاح به. فأُحضر الكسب، وديف بماء الورد، ووضع على الخراج، فانفتح وخرج ما كان فيه، وبشرت أُم المتوكّل بعافيته، فحملت إليه عليه السلام عشرة آلاف دينار، مختومة بختمها[٢].

والشاهد من هذه الحادثة أنني أُريد أن أُبين أن دار الإمام عليه السلام كانت معرّضة للمداهمة باستمرار، وكان المتوكّل يحاول جاهداً وفي كلّ الأوقات أن يلحق الأذى بالإمام عليه السلام، أو ما يظن أن فيه إذلالاً له. وإحدى الوسائل التي كان يظن أن فيها نوع إذلال له عليه السلام أنه فكر يوماً أن يقيم استعراضاً عسكرياً، وهنا أمر منادياً فنادى بأن يخرج الناس مشياً علىٰ أقدامهم، ولا يركب إلّا المتوكّل والفتح بن خاقان. فخرج الناس مشاة، وخرج معهم الإمام الهادي عليه السلام ماشياً أيضاً. وكان الإمام بديناً، فكان العرق يتصبّب منه. يقول زرافة الحاجب: دنوت إليه، فقدمت له كتفي فوضع يده عليها، فسمعته يقول: «**والله، لست بأقل من ناقة صالح**»، ثم قرأ قوله تعالىٰ: ﴿**فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ**﴾[٣].

فلم أدرِ ماذا أراد الإمام بذلك، فلما انتهىٰ العرض عاد المتوكل مع وزيره، وقد أعطَوا الإذن للناس بالركوب، فقدّمت للإمام برذوناً فركبه وعاد إلىٰ البيت وهو

---

(١) الكسب ـ بالضم ـ: عصارة الدهن. قال أبو منصور: الكسب: معرّب، وأصله بالفارسية «كشب»، فقلبت الشين سيناً. لسان العرب ١: ٧١٧ ـ كسب.

(٢) الخرائج والجرائح ٢: ٦٧٧، بحار الأنوار ٥٠: ١٩٨.

(٣) هود: ٦٥.

يتصبب عرقاً، ورجعت إلىٰ البيت.

وكان عندي مؤدب لأولادي يتشيع، فأقبلت إليه وقلت له: سمعت اليوم من إمامك شيئاً. قال: ما هو؟ فرويت له الحادثة، فقال: بالله عليك، أنت سمعت ذلك؟ قلت: نعم. قال: إذن هيِّئ نفسك، واجمع مالك وولدك، فسيحدث شيء بعد ثلاثة أيام. فقلت: من أين لك ذلك؟ قال: لا عليك.

فنهرته وأغلظت له القول، ولكن وقع في نفسي من قوله شيء، فأصلحت شأني، وخبأت ما كان عندي من أموال نفيسة. وفي اليوم الثالث أصبحنا علىٰ أصوات الناس، وإذا ابنه المنتصر ومعه القواد الأتراك: وصيف وبغا وباغر وقد دخلوا عليه وبعجوه بسيوفهم هو ووزيره الفتح بن خاقان، وقطعوهم إرباً إرباً حتىٰ اختلط لحمهما مع الخمرة، وتناثر في الكؤوس [1].

والواقع أن هذه الحادثة لها نظير، فالذي يظهر أن بعد العرض قد أُخذ الإمام عليه السلام إلى السجن؛ ذلك أن هناك رواية يرويها ابن أرومة حيث يقول: خرجت أيّام المتوكّل إلى سامرّاء، فدخلت على سعيد الحاجب وقد دفع المتوكل إليه الإمام علياً الهادي عليه السلام ليقتله، فلمّا دخلت عليه قال: أتحبّ أن تنظر إلى إلهك؟ فقلت: سبحان الله، لا تدركه الأبصار. قال: هذا الذي تزعمون أنه إمامكم. قلت: ما أكره ذلك، قال: إني أُمرت بقتله، وأنا فاعل ذلك غداً، وعنده صاحب البريد، فإذا خرج فادخل إليه.

فلم يلبث أن خرج، فقال لي: ادخل. فدخلت الدار التي هو فيها محبوس، فإذا بحياله قبر قد حفر، فدخلت وسلمت عليه، وبكيت بكاء شديداً، فقال عليه السلام لي:

---

(١) بحار الأنوار ٩٢: ٢٣٥.

« ما يبكيك؟ ». فقلت: لما أرى. فقال: **« لا تبكِ، فلا يتمّ لهم ذلك »**. فسكن ما كان بي، فقال عليه السلام: **« إنه لا يلبث أكثر من يومين حتى يسفك الله دمه ودم صاحبه الذي رأيته »**. قال: فوالله ما مضى غير يومين حتى قتلا[1].

وفعلاً فإن الحادثة المشار إليها ـ وهي حادثة قتل المتوكل ووزيره ابن خاقان ـ قد وقعت بعد يومين، كما أنبأ الإمام عليه السلام.

علم الغيب علم بالذات وعلم بالوحي والإلهام

وطبعاً نودّ أن ننوّه هنا بأنه ليس هناك من يعلم الغيب لذاته إلّا الله تبارك وتعالى، فإنه عزّ وجلّ يعلم الغيب لذاته وبذاته دون أن يعلمه أحد ذلك، وما سواه من مخلوقاته ممّن أنعم عليهم كالأنبياء وأوصيائهم عليهم السلام فإنهم إنما يعلمون الغيب بواسطة الوحي منه تعالى أو بواسطة إلهام منه لهم. وهذا الكلام لا نقاش فيه، ولا أحد يقول بخلافه، فلا يعلم الغيب بالذات إلّا الله تبارك وتعالى، وهو بهذه الكيفيّة مختصّ به وحده جلّ شأنه، أما النبي أو الإمام عليهما السلام فإنهما إنما يعلمان الغيب بواسطة إخبار من الله تبارك وتعالى به، وليسا يعلمانه بذاتيهما؛ لأن هذا الأمر كما قلنا مختصّ به تبارك وتعالى.

الاستنتاج الرابع: في الفرق بين الوعد والوعيد

إن الآية الكريمة إذ تقول: ﴿**فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ**﴾ فإنها تستخدم كلمة ﴿**وَعْدٌ**﴾، ومعلوم أن هناك فرقاً بين الوعد والوعيد؛ فإذا كانت المسألة مبتنية على نعمة، فإنهم يقولون: قد وعد، وإن كانت

---

(١) كشف الغمّة ٣: ١٨٨.

مبتنية على تهديد أو شر أو عقاب، فإنهم يقولون: أوعده. وبهذا فإننا نقول: إن عند علماء اللغة أن هناك فرقاً بين الوعد والوعيد.

وللحقيقة نقول: إن هذه المسألة لم تقتصر على علماء اللغة، بل إنها تمتد إلى متناول علماء الكلام عند المسلمين أيضاً، فهم يفرّعون على ذلك بسؤال هو: هل يجب على الله تبارك وتعالى الوفاء بالوعد والوعيد؟ بمعنى أنه تبارك وتعالى لو هدّد أحداً بالنار، فهل يجب عليه أن يدخله إليها، بحيث إنه جلّ وعلا إن لم يدخله النار كان في البين كذب، أم لا يجب عليه ذلك؟ وكذلك إذا وعد أحداً بالجنة فهل يجب عليه تبارك وتعالى أن يدخله الجنّة بحيث إنه إذا لم يدخله إليها كان في البين كذب أم لا؟ إن العلماء إزاء هذين التساؤلين ينقسمون إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: القائلون بوجوب الوفاء بالوعد والوعيد

فهذا القسم من العلماء يرى أنه يجب على الله تبارك وتعالى أن يفي بوعده ووعيده كليهما؛ فإذا هدّد أحداً بنار جهنم وجب عليه أن يدخل إليها من هدده، وإذا هدّد شخصاً بالعذاب وجب أن يعذبه به. وفي مقابله إذا وعد أحداً بالجنة فإنه يجب أن ينفذ وعده ويدخله الجنة.

القسم الثاني: القائلون بالتفصيل

وهؤلاء العلماء يرون أن في المسألة تفصيلاً؛ ذلك أنه إذا كانت المسألة متعلّقة بالوعد فإنه تبارك وتعالى ينبغي أن ينفّذ ذلك الوعد، أما إذا كانت المسألة متعلّقة بالوعيد فإنه لا يجب عليه تبارك وتعالى أن يفي بذلك الوعيد أو التهديد؛ لأنه عزّ وجلّ إنما يتنازل عن حقّه بخلاف الحالة الأُولى. وعلى هذا الرأي الإمامية؛ ذلك

أنهم يرون أن إخلاف الوعد شيء معيب، أما إخلاف الوعيد فهو ليس فيه عيب أبداً، بمعنى أنه لو هدد إنسان ما شخصاً وهو قادر على إنفاذ ذلك التهديد فإنه يستطيع أن ينفذ تهديده له، ويوقع عليه ما توعّده به، كما أنه يستطيع أن يعفو عنه مع قدرته على إيقاع ما هدّده ووعده به، بل إنه في حال عفوه عنه فإنه يكون قد فعل فضيلة؛ ذلك أنه تكرّمٌ منه على ذلك الإنسان إذ لم ينزل عليه عقوبته التي توعده بها.

وهذا هو الشأن الذي نحن بصدده مع الله تبارك وتعالى؛ لأنه حينما يعفو عمّن توعّده فإنه يعفو عن قدرة على تنفيذ ذلك التهديد[1]. وهناك حالات لا يريد الله عزّ وجل فيها أن يقابل العبد بما هدّده به، فهو تبارك وتعالى قد يهدّده للتربية والتأديب، وللتخويف. ولذا فإن هناك البعض من الحالات التي لم ينفّذ فيها أئمتنا﵈ ، بل وكثير من العظماء الكرماء موارد تهديدهم لبعض من أعدائهم؛ لأنهم يترفّعون في تلك الحالات عن تنفيذ الوعيد، وهو كما قلنا ليس أمراً معيباً أبداً.

وهذه الظاهرة يتناولها الإمام زين العابدين﵇ في أدعيته فيقول: «**ما أنا؟ وما خطري؟**»[2]، أي إنك يا ربي بارئ الكون الذي لا حدود لعظمته؛ فلا يمكن أن تقابل عبدك الضعيف المسكين المستكين هذا بأن تعذبه بالنار. وبهذا الاعتبار فإننا نقول قاطعين بأنه ليس هناك من عيب أبداً في إخلاف الوعيد، بل على

---

(١) انظر الميزان في تفسير القرآن ٦: ٣٦١، ١١: ٣٥، وقد عبّر عن ذلك بأنه قاعدة عقلية مسلّمة، حيث إنه﵀ قال: «لأن الذي تعلّق به الوعد حق للموعود له وعدم الوفاء به إضاعة لحق الغير، وهو من الظلم. وأمّا الوعيد فهو جعل حق للموعِد علىٰ التخلف الذي يوعد به له، وليس من الواجب لصاحب الحق أن يستوفي حقه، بل له أن يستوفي وله أن يترك».

(٢) مصباح المتهجّد: ٥٨٤.

العكس من ذلك فإننا نرى فيه تكرماً؛ لأنه تبارك وتعالى هو ربّ الرحمة وربّ العطاء وربّ الكرم. ولهذه العلّة نفسها فإننا نرى أنه يجب عليه تبارك وتعالى أن ينفذ وعده؛ لأن ربّ العطاء والرحمة والكرم لابدّ أن يعطي ما وعد من عطاء ورحمة وكرم، وعليه فإذا وعد أحداً الجنة، أو بنعمة منه كان من العيب والنقص عدم تنفيذ هذا الوعد.

القسم الثالث: القائلون بعدم وجوب الوفاء بالوعد والوعيد

وهؤلاء هم الذين يقولون بأنه تبارك وتعالى لا يجب عليه الوفاء بشيء من ذلك أبداً، فلا يجب عليه تنفيذ الوعد ولا يجب عليه تنفيذ الوعيد؛ لأنه تبارك وتعالى: ﴿**لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ**﴾[1]. فهو تبارك وتعالى فاعل مختار، يعمل ما يريد وما يشاء دون أن يكون عليه إلزام من شخص أو من أحد آخر غيره أبداً.

الاستنتاج الخامس: لماذا الوعد وليس الوعيد

إن الآية الكريمة هنا تهدّد الظالمين والكافرين بالعذاب، فلماذا إذن عبّرت عن هذا التهديد بأنه ﴿وَعْدٌ﴾، ولم تعبر عنه بأنه وعيد؟ وفي واقع الأمر فإن في اختيار هذه المفردة مع كونها ظاهراً في العذاب والعقاب -أي في غير موردها المعروف- نكتة ينبغي الالتفات إليها، وهي أن إزالة المعارضين للنبوّات من الأرض، وتخليص طريق الرسالات منهم هو في حدّ ذاته نعمة؛ فهؤلاء المعارضون هم فاسقون وفجّار ينبغي التخلّص منهم كيلا يقفوا عائقاً أو حاجزاً دون وصول نعمة الإسلام أو دين السماء إلى الناس. وهذا الأمر بنفسه نعمة؛ لأن

---

(١) الأنبياء: ٢٣.

فيه فسح المجال للدين حتى يتغلغل في نفوس الناس دون أن يكون هنالك عائق منهم يقف دونه.

فمن أجل هذه النكتة عبّر القرآن الكريم عنها بأنها ﴿وَعْدٌ﴾، وإلّا ففي واقع الأمر كان الذي ينبغي هو التعبير عنها بالوعيد فقط. إن البارئ عز وجل حينما يستخدم مفردة أو معنى معيّناً، فإنه إنما يستعمله لخاصّية فيه، ولنكتة ربما ندركها أو ربما لا ندركها. وعليه فهو تبارك وتعالى إذ عبر عن المسألة بالـ﴿وَعْدٌ﴾ هنا فلأن إزاحة الكفّار ومعارضي الرسالات عن طريق هذه الرسالات، وطريق تغلغل الأديان في نفوس الناس وانتشارها بينهم لهو من أعظم النعم التي يمكن أن يمتنّ الله تبارك وتعالى بها على خلقه؛ ولهذا فإن الله تبارك وتعالى قد عجّل بالانتقام لنبيه ﵇.

وهذا ما نجده واضحاً في كتب السيرة والتاريخ حول قتلة الأنبياء ﵈ وأولادهم، فهؤلاء منهم من عجّل الله تعالى له العذاب فوراً، ومنهم من أمهله فترة يسيرة ثم أوقع عليه العذاب والعقاب؛ لأن الأنبياء ﵈ وأولادهم لهم منزلة خاصّة عند الله تبارك وتعالى ينبغي المحافظة عليها، وبخلافه فانه تبارك وتعالى سيأخذ بحقّهم ممّن ظلمهم وقتلهم [١].

---

(١) كما وعد قتلة النبي زكريا والنبي يحيى ﵉، قال تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً * فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاَهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلاَلَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْداً مَفْعُولاً * ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً﴾ الإسراء: ٤ ـ ٦. فقد جاء في كتب الحديث والتفسير أن الأولى قتل النبي زكريا ﵇، والثانية قتل النبي يحيى ﵇. مجمع البيان ٦: ٢٢١، كنز العمّال ٢: ٤٥٢ ـ ٤٤٧٧.

المبحث الخامس: الإمام الحسين‏ عليه السلام والآية الكريمة

ولهذا فإننا نجد إن الإمام الحسين‏ عليه السلام في ليلة اليوم العاشر من المحرم الحرام قد نادى أصحابه وطلب منهم أن يحفروا خندقاً حول المخيم، وأن يرموا فيه الحطب كي يوقدوه صباح اليوم العاشر؛ لأنه‏ عليه السلام كان يعرف أن من يقف قبالته من الجيش لم يكن عنده نبل أبداً، وكان يعرف أنهم سوف يهجمون على مخيّم العائلة، وسوف يروّعونهم ويروّعون الأطفال. وحينما اصطفّ أصحاب الإمام الحسين‏ عليه السلام للقتال انفصل فارس من معسكر ابن سعد ووقف إزاء أصحاب الإمام‏ عليه السلام وصاح: عجّلت يا حسين بنار الدنيا قبل نار الآخرة. فقال له الإمام الحسين‏ عليه السلام: «**تعيرني بالنار وأبي قاسمها، وربي غفور رحيم؟**». ثم قال لأصحابه: أتعرفون هذا الرجل؟ فقالوا: هو جبيرة الكلبي. فقال الإمام‏ عليه السلام: «**اللهم أحرقه بالنار في الدنيا قبل نار الآخرة**». فما استتمّ كلامه حتى جمحت به فرسه، فطرحته مكبّاً على رأسه في وسط النار، فتناولته فاحترق، فكبّروا، ونادى منادٍ من السماء: «**هنيت بالإجابة سريعاً يابن رسول الله**»[1].

كما أننا نذكر أن بعض الدعوات ربما تؤجل استجابتها قليلاً، يقول المنهال: حججت سنة أيام أن استولى المختار على الكوفة، فلمّا فرغت من الحجّ مررت بالمدينة لأزور سيّدي ومولاي عليّ بن الحسين‏ عليه السلام، فلمّا دخلت عليه سلّمت، فردّ عليّ السلام، وقال: «**يا منهال، ما فعل حرملة بن كاهل الأسدي؟**».

وحرملة هذا قد ملأ قلب الإمام‏ عليه السلام خاصّة وقلوب أهل البيت‏ عليهم السلام عامّة ألماً ولوعة؛ فالإمام‏ عليه السلام قد رأى طفلاً مثل البرعم له ستّة أشهر مذبوحاً من الوريد إلى

---

(١) ينابيع المودّة ٣: ٧٠.

الوريد، يتلوّى على يد والده عليه السلام وقد عاد به، والدماء تغرقه، وقد ملأت كفّ أبيه عليه السلام ثم رمى به إلى السماء وقال: «**اللهم لا يكن أهون عليك من فصيل ناقة صالح**»[1]، ورأى السهم وقد أخذ مأخذه من هذا الطفل الرضيع وقد حزّ جيده من الوريد إلى الوريد.

إذن فحرملة هذا قد أحرق قلوب أهل البيت عليهم السلام؛ فليس عبد الله ابن الإمام الحسين عليه السلام سوى طفل في شهره السادس، ومع ذلك يرجعه أبوه عليه السلام وهو على صدره مذبوحاً من الوريد إلى الوريد، يرفرف كالطير، بعد أن ذبح بسهمه، يقول الإمام الصادق عليه السلام: «**لقد كان طفل جدي الحسين في قماطه لما أحسّ بحرارة السهم، فانتزع يديه من القماط واعتنق رقبة والده وجعل يرفرف كالطير المذبوح**».

يقول المنهال: فقلت له: يا مولاي تركته حيّاً بالكوفة. فرفع يده إلىٰ السماء، وقال: «**اللهم أذقه حرّ الحديد، اللهم أذقه حرّ الحديد، اللهم أذقه حرّ النار**».

يقول: وقد بقيت عند الإمام عليه السلام فترة ثمّ رجعت أهلي، فلمّا دخلت الكوفة، سمعت جلبة، فسألت عنها، فقيل: هذا المختار قد ظهر، وقتل من قتل، وهذا موكبه. وكان بيني وبينه صداقة، فلمّا استرحت من سفري، وانقطع الناس عنّي ركبت وخرجت في طلبه، فلقيته خارجاً من باب داره، فسلمت عليه، فردّ عليّ السلام، وقال لي: يا منهال ما أتيتنا، ولا هنّأتنا بما فتح الله علىٰ أيدينا، ونصرنا علىٰ أعداء الله وأعداء رسوله صلى الله عليه وآله وأهل بيت رسوله عليهم السلام! فقلت: يا مولاي إني

(١) سبق أن ذكرنا بأننا لم نعثر عليه عند مصرع الطفل الرضيع، وأن هذا الدعاء الشريف قد ورد عند مصرعه عليه السلام؛ حيث إنه عليه السلام جعل يأخذ الدم من نحره فيرميه إلى السماء، ولا يرجع منه شيء. مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٥٧.

كنت بمكّة، وقد جئت الآن.

ثم سايرته حتّىٰ أتينا كناسة، فوقف كأنه ينتظر شيئاً، وكان واشٍ قد أخبر بحرملة؛ فبعث قوماً يفتّشون عنه، فلم تكن إلّا ساعة حتّىٰ جاء القوم يركضون، ويقولون: يا أمير، البشارة، فقد جئنا بحرملة.

فلمّا أُحضر بين يديه مكتوفاً، نظر إليه، وقال: الحمد لله الّذي مكّنني منك يا عدوّ الله. ثمّ قال: أين الجزّار؟ فجيء به إليه، فقال له: اقطع يديه ورجليه. فقطعها وهو يستغيث، ثمّ قال: عليَّ بالنار. فأُحضرت بين يديه، فأخذ قضيباً من حديد، وجعله في النار حتّىٰ احمرّ، فوضعه علىٰ رقبته، فصارت رقبته تجوش من النار، وهو يستغيث حتّىٰ قطعت النار رقبته.

قال المنهال: فعند ذلك قلت: سبحان الله. فقال المختار: التسبيح حسن في كلّ حال، ولكن فيم سبّحت؟ فقلت: أيها الأمير، دخلت في سفرتي هذه عند منصرفي من مكّة على علي بن الحسين عليهما السلام فقال لي: «**يا منهال، ما فعل حرملة بن كاهل الأسدي؟**». فقلت: تركته حياً بالكوفة؟ فرفع يديه جميعاً فقال: «**اللهم أذقه حرّ الحديد، اللهم أذقه حرّ الحديد، اللهم أذقه حرّ النار**».

فقال: بالله عليك، سمعته يقول هذا؟ فقلت: نعم والله. فنزل من دابّته، وصلّىٰ ركعتين ثمّ حمِد الله كثيراً، ثمّ ركب وسرنا راجعين، فلمّا قربنا من داري، قلت: أيها الأمير، أُحبّ أن تشرّفني، وتكرمني وتتملّح بطعامي. فقال: يا منهال، أنت تعرف أن مولاي دعا بدعوات، وقد استجابها الله علىٰ يدي، ثمّ تأمرني أن آكل وأشرب؟ لا والله، بل أصوم هذا اليوم؛ شكراً لله علىٰ توفيقه[1].

---

(١) الأمالي: ٢٣٩ / ٤٢٣، مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٧٦، كشف الغمّة ٢: ٣٢٤، ذوب النضار: ١٢١.

وأقول: هل يمكن لهذا أن يعدل لحظة واحدة من لحظات حرقة قلب الإمام الحسين عليه السلام على ولده؟ ولم يتوقّف الأمر عند هذا الحدّ، فالإمام الحسين عليه السلام كان قد احتفر لرضيعه بجفن سيفه وواراه التراب، لكن حينما جاؤوا لقطع الرؤوس، قال لهم عمر بن سعد: إن الحسين قد قُتل له طفل اسمه عبد الله الرضيع، فأين رأسه؟ قالوا: بلغنا أن أباه احتفر له بجفن السيف، وواراه في أرض المعركة. فقال: انبشوا الأرض برماحكم، وأخرجوه واحتزّوا رأسه وجيئوني به:

ولو تراه حاملاً طفله ... رأيت بدراً يحمل الفرقدا
مُخضّباً من فيض أوداجه ... ألبسه سهم الردى مجسدا

* * *

ادورن على ايميني وشمالي ... اهز بالمهد والمهد خالي
يلچنت بالظلمة تلالي ... عگبك بگت وحشة الليالي

* * *

فلا بلغ الفطام لكم رضيع ... وطفل السبط يُفطم بالسهام

﴿٢٢٦﴾

الاستثمار في الإسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

تتضمن هذه الآية الكريمة مجموعة من المباحث سوف نعرض لها تباعاً إن شاء الله تعالى:

المبحث الأول: في معنى المنّ

المنّ هو ذكر النعمة بما يكدّر صفوها، أي حينما ينعم أحد على آخر بنعمة، فإن عليه ألّا يذكرها بشكل متكرر، وبصورة تسيء إلى من أنعم عليه؛ بحيث إنه يصل الأمر إلى حد رفع حقّ الشكر؛ لأن هذا التكرار في ذكر النعمة ربما يؤدي إلى إحراج من أُنعم عليه، و إلى إشعاره بأنه يستجدي الآخرين، وبالتالي فإنه يصبح غير مستعد ليشكر تلك النعمة، أو يشكر صاحبها عليها. والمن بهذا المعنى هو المقصود بآية المقام الشريفة. وإنما قلنا: هذا المعنى هو المقصود؛ لأن المن له معانٍ مختلفة أُخرى غير هذا المعنى الذي أشرنا إليه. ولمذموميّة المنّ فقد ورد عن

---

(١) المدثر: ٦.

الرسول الأكرمﷺ: «**خلق اللّه الجنة، والجنة تراح من خمسمئة عام، وثلاثة لا يشمّون ريحها: المنّان بعطائه، ومدمن الخمر، وعاقّ والديه**»(١). وكذلك فإننا نجد في حضارتنا من يقول:

زاد معروفك عندي عظما ... إنه عنديَ مستور حقيز

تتناساه كأن لم تأتِه ... وهو في العالم مشهور كثيز(٢)

فالحقيقة أن الإنسان إذا تناسى ما أعطى، وشعر بضآلة ما قدّم فلا شك أن ما يعطيه سوف يكون سائغاً وهنياً؛ ذلك أن العطاء حينما يخلو من المن فهو إنما يخلو من الشوائب التي تكدر صفوه، وبالتالي فإنه يؤخذ عن طريقه الطبيعي. يروى أنه جاء سائل إلى أمير المؤمنينعليه السلام، فنظر إليه وقد تغيّر وجهه من الحياء، فقال له أمير المؤمنينعليه السلام: «**اكتب حاجتك على الأرض؛ حتى لا أرى ذلّ المسألة في وجهك**». فكتب:

لم يبقَ لي شي يباع بدرهم ... تغنيك حالة منظري عن مخبري

إلّا بقية ماء وجه صنته ... ألّا يباع ونعم أنت المشتري

فقال لهعليه السلام بعد أن أعطاه ما أعطاه:

---

(١) المعجم الصغير ١: ١٤٥، الجامع الصغير ١: ٥٤٨ / ٣٥٤٢، كنز العمّال ١٦: ٥٣ / ٤٣٩٠٣.

(٢) روضة الواعظين: ٣٧٢، التفسير الكبير ٧: ٤٩، الجامع لأحكام القرآن ٣: ٣٣٤، ٥: ٣٨٤، تاريخ مدينة دمشق ٢٧: ٢٧٧ . والمخاطب بها عبد الله بن جعفر كما في الأخير، حيث إن رجلاً كتب إليه رقعة، فجعلها في ثني الوسادة التي يتكئ عليها، فقلب عبد الله الوسادة، فبصر بالرقعة فقرأها، فردّها في موضعها ووضع معها كيساً فيه خمسة آلاف دينار، فجاء الرجل، فدخل عليه، فقال: اقلب المرفقة فانظر ما تحتها فخذه. فأخذ الرجل الكيس وخرج وأنشأ هذين البيتسن.

عـــاجلتنا فـأتاك عـاجل بـرّنا　　　قـــلاً ولو أمـــهلتنا لم نـــقترِ

فـخذ القـليل وكـن كـأنك لم تـبع　　　مـا صـنته وكـأننا لم نشـترِ[١]

وهكذا نجد أن الإمام عليه السلام قد أعطاه هذا العطاء الكبير، ولم يظهر لعطائه أثراً بالمن أبداً. فالذي ينبغي هو أن يعرف الإنسان أن العطاء لا يكون هنيئاً حتى يخلو من الشوائب التي تكدّر صفوه، فالمن يربك الشخص المعطى، ويحرجه أمام الناس؛ لكثرة ما يردّد من أعطاه من معروف إليه.

المبحث الثاني: في مورد المن

تقول الآية الكريمة: ﴿وَلَا تَمْنُنْ﴾، وللمفسرين في بيان مورد المن هنا آراء منها:

الرأي الأول: أنه البعثة

تميل شريحة من المفسرين إلى الاعتقاد بأن مورد المن في آية المقام الكريمة هو البعثة، وهذا يعني أن الله تبارك وتعالى يقول لنبيه الكريم: لا تمنن على الناس ببعثتك، ولا تمنن عليهم بأن الله قد أرسلك إليهم، وبالتالي فإنك أصبحت سبب إنقاذهم من الضلالة وحيرة الجهالة؛ لأن هذه البعثة ليست منك، وإنما هي من الله تبارك وتعالى وقد أجراها على يديك. وبهذا فإن الخطاب القرآني يبيّن للرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم بأن عليه ألّا يجعل لنفسه طرفاً في العطاء هذا؛ لأنه إنما حمل الرسالة بتكليف من الله تبارك وتعالى إلى الناس، وأنه عزّ وجلّ قد أجراها على يديه؛ لطفاً منه تبارك وتعالى به وبهم. وعليه فإن الذي ينبغي هنا هو ألّا يمن على الناس بهذه الرسالة أو هذه البعثة.

---

(١) شرح إحقاق الحقّ ٨: ٥٨٢، عن وسيلة المآل: ٢٤٠.

إذن فالله تبارك وتعالى هو الذي يمن عليهم، فقد منَّ عليهم في مواطن كثيرة منها موطن البعثة، قال تعالى: **﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾**[1]. وقوله تعالى هنا: **﴿مَنَّ﴾** هو بمعنى أنعم، وليس بمعنى ذكر النعمة بما يكدّرها، فالله تبارك وتعالى لا يمكن أن يذكر النعمة التي أنعم بها على عباده بصيغة المن، وأن يشوبها بما يكدّرها، وبما يعكر نقاءها وحقيقتها. أما آية المقام فإنها تريد من النبي ﷺ ألّا يذكر الناس دائماً بأنه قد أنقذهم من الضلال، وأنه قد هداهم إلى طريق الحقّ، وأن له بهذا عليهم حقوقاً يجب أن يؤدوها؛ لأن إنقاذهم من الظلام والتأخّر، ورفعهم إلى هذا المستوى من الرقي الذي أوصلهم إليه بفضل هذه الرسالة هو عطاء عظيم يجب أن يشكر.

الثمرة في عدم المن

والذي نفهمه من هذا المعنى أن أي قسم من أقسام العطاء يريده الله عز وجل أن يكون هنيئاً غير مشوب بشوائب تعكر ذلك الصفو الذي ينبغي أن يكون عليه؛ لأن الإنسان مادام يعطي فلأي شيء يعطي ويفعل مع ذلك العطاء ما يفقده ثوابه ويؤول به إلى ألّا يحصل معه على الأجر المترتب عليه من الله تبارك وتعالى؟ فهذا العطاء سواء كان عطاء مادياً أو عطاء علمياً وفكرياً ينبغي على المعطي أن يترك لمن يعطيه فرصة إلى أن يتنبه إلى شكره، دون أن يحول هو نفسه بين الإنسان المعطى وبين أداء حق الشكر له بما أسلفنا ممّا يمكن أن يكون سبباً إلى امتناع ذلك الإنسان عن الشكر والى رفع حقّه بالنسبة له.

---

(١) آل عمران: ١٦٤.

من هو الشاكر؟

ونودّ أن ننوّه هنا إلى أن الإنسان الذي يشكر هو الإنسان السويّ ـ أي صاحب الفطرة السليمة ـ أما ذلك الإنسان المصاب نفسياً أو المريض، فإنه كلّما كثر عليه العطاء أصبح مثل العقرب لا يزداد إلّا سمّاً ربما ينفثه على الناس، وحتى على من أعطاه وأنعم عليه. وفي الواقع فإن هذا هو حقيقة بعض الناس الذين إذا أعطاهم الإنسان فإنه سوف لن ينتظر منهم إلا أن يلدغوه؛ لأنهم مخلوقات غير طبيعية، بل هم مرضى نفسيّاً وروحيّاً، يظلون يحقدون على من أنعم عليهم وأعطاهم؛ متصوّرين أنهم بهذا إنما يأخذون حقّهم منه؛ لأنه إنما أصبح بهذه المرتبة التي تخوّله بأن يعطي ويمنح ويتصدّق ووصل إلى كل ذلك بعد أن أخذ حقوقهم واستولى على ماهو لهم.

وهكذا فإن مثل هذا سوف تنتابه مشاعر الحقد، وتستعمره أحاسيس الكراهية لذلك الشخص، ويصور المسألة على النمط الذي يتماشى مع مرضه النفسي، وهو: لماذا يجب أن يكون هو المعطي وأنا الآخذ؟ وهكذا يبدأ يشعر بالنقص، وفي محاولة لتعويض ذلك النقص الذي يستشعره يلجأ إلى هذه الطريقة، لكن بتعويض مفرط كما يعبر عنه علماء النفس أو علماء الاجتماع. وهذا التعويض المفرط هو الذي يلجئه إلى أن يفعل ما يفعل من إلحاق الضرر بالشخص الذي أنعم عليه. وبهذا فإنه بدلاً من أن يشكر تلك النعمة يروح يشتم صاحبها ويعتدي عليه بغير الحق، أو أن يغمطه حقه الذي ينبغي له، وهو في أدنى مراتبه أن يشكره باللسان أو بالفعل، لكنه يمتنع عن ذلك فيغمطه حقه.

تطبيقات على كفران النعم

ولو أننا رجعنا إلى تاريخ الإنسانية بشكل عام وتاريخنا بشكل خاص لوجدنا

أن هناك نماذج كثيرة وتطبيقات عديدة لهذا المفهوم، وأنا أُؤكّد أن الأُمة الإسلامية تعيش هذا المعنى، مع أنه يعزّ عليّ كثيراً أن أُصرّح بهذا. فالمسلمون يعلمون كما نعلم نحن كم أعطاهم رسول الله ﷺ، فقد أعطاهم عطاء لا حدود له دون منّ منه عليهم، وقد تحمل ﷺ من أجل هذا العطاء العظيم المشاقّ والآلام، وبذل التضحيات التي بلغت حدّاً لا يمكن تصوّره أبداً؛ فقد ضحّى ﷺ بنفسه وبراحته وبكل ما تملك زوجته خديجة (رضي الله عنها) من أجل هذا الهدف، ومن أجل إيصال هذا العطاء صافياً قراحاً ومعيناً سلسبيلاً إلى هؤلاء الذين كانوا يعيشون معه. ولكننا مع ذلك نجد أن هذه العطاء لم يحفظ له ﷺ بأهله أبداً.

وربما يقول قائل: إن المسلمين لم يقصروا عن أداء الحق المفروض عليهم.

لكن نقول: إنما يحفظ المرء في ولده، وإذا كانت القاعدة كذلك فنحن نقول بصريح العبارة: إن أهل البيت عليهم السلام لم يأخذوا ما يستحقّونه، ولم يوضعوا في المكانة التي ينبغي أن يكونوا عليها مما أعطاهم الله تبارك وتعالى، وبوأهم نبيه الكريم ﷺ. إن أهل البيت عليهم السلام قد اغتصب حقهم، وأُزيح عنهم إلى غيرهم بعد أن أُبعدوا عنه، وهذا خلاف ما أراده الله تبارك وتعالى، وأراده لهم رسوله الكريم الذي صرّح في مواطن كثيرة على وجوب إعطائهم حقّهم، وعلى محبّتهم له ﷺ. إن إبعادهم عن حقهم، واغتصاب ذلك الحق منهم لا يدل أبداً على حب لهم، مع أن الرسول ﷺ يصرح دائماً كما قلنا بضرورة محبتهم، ومن هذا قوله ﷺ: **«أحبّوا أهل بيتي لحبّي»**[1].

---

(١) تاريخ بغداد ٤: ٣٨١، المستدرك على الصحيحين ٣: ١٥٠، المعجم الكبير ٣: ٤٦ / ٩، ١٠: ٢٨١ / ٤، تهذيب الكمال ١٥: ٦٤ ـ ٦٥ / ٣٣٢٠، سير أعلام النبلاء ٩: ٥٨٢ / ٢٢١، عن الترمذي في مناقبه برقم (٣٧٨٩)، ميزان الاعتدال ٢: ٤٣٢ / ٤٣٦٧، تاريخ الإسلام

أي أنكم يجب أن تحبّوا أهل بيتي كما أنكم تحبونني؛ فهؤلاء أهلي وريحانتي ورهطي، لكن الذي حدث هو غير هذا كما هو واضح لكل إنسان، فنحن ببالغ الأسف حينما نتصفّح واقعنا العملي فإننا نجد أن أهل البيت عليهم السلام الذين طهرهم القرآن قد غمطوا حقهم، وقد استلبوا ما هو لهم بتشريع وأمر من الله تبارك وتعالى، مع أن المفروض على المسلم هو أن يبحث عن العطاء الإسلامي الصافي. والمسلم الواقعي والعملي هو الذي لا فرق عنده بين أن يأخذ عطاء الإسلام عن طريق صحابي جليل مخلص مؤمن، أو عن طريق أحد أهل البيت عليهم السلام، ما دام عطاء سليماً صافياً خالياً مما يخدش صحته وسلامته. ولذا فإن عليه أن يأخذ من هذا العطاء، وأن يفتخر به ما دام قد أخذه عن أهل البيت عليهم السلام، أو من الصحابة الأجلّاء الأتقياء الذين صحبوا الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وأعطوا تلك الصحبة حقّها من عرفان الجميل، ومن الطاعة وعدم الالتواء على الحق.

وبهذا فإن هذا العطاء هو موضع اعتزاز كل مسلم؛ لأنه عطاء صافٍ ومأخوذ عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم بواسطة قناة صافية غير كدرة، وعليه فهذا يجب أن يكون موضع اعتزاز كل من يعتزّ بعقيدته، ويكن لها الاحترام والحب، ويخضع لها خضوعاً تاماً، لكن الذي حدث، والذي نراه من خلال استقراء الواقع هو غير هذا أبداً؛ فهناك تجاهل كبير ومتعمّد لأهل البيت عليهم السلام، أي أن الكثير من المسلمين حاول أن

٨: ٢٢٤، ١٠: ٢٩٦، ١٧: ٤٠٦، الدر المنثور ٦: ٧، الجامع الصغير ١: ٣٩ / ٢٢٤ كنز العمّال ١٢: ٩٥ / ٣٤١٥٠، تفسير السمعاني ٢: ٤٥٣، الكامل ٧: ١١٢، تاريخ مدينة دمشق ٥٤: ٣٦٣ / ١١٥٢٦، الأربعين البلدانية (ابن عساكر): ٧٦، نظم درر السمطين: ٢٣١، ٢٣٣. وقد مرّت الإشارة إليه وسرد أمثاله في محاضرة (**وحدة العامل والهدف**) من هذا المجلّد.

يسدل عليهم ستاراً سميكاً يحول دونهم ودون المسلمين أن يأخذوا منهم؛ حتى يصلوا عبر قناتهم النظيفة الطاهرة إلى ذلك النبع الإسلامي المقدّس، وهو النبع الرسالي الذي جاء به الرسول الأكرم ﷺ.

إننا هنا نعاتب إخواننا المسلمين على هذا الإجحاف بحقّ أهل البيت ﷺ، ومحاولة تغييبهم عن أداء دورهم، وسدل الستار دونهم ودون المسلمين. وليس في العتاب عيب؛ بل إن المرء حينما يعاتب فإنما يعاتب أهله وإخوته وليس أعداءه [1]. ومن هذا التغييب المتعمد لأهل البيت ﷺ، ومحاولات تحجيم دورهم ما يفعله بعض الكتاب الذي يكتبون موسوعات كبيرة، لكننا لا نجد فيها رأياً لآل محمد ﷺ، ومن هم آل محمد ﷺ؟ إننا إذا جئنا من منطلق قومي فهم سادة الجزيرة العربية؛ لأنهم لبّ قريش، وقريش سادة العرب. وإذا جئنا من منطلق إسلامي فهم حملة الإسلام وعدل الكتاب [2]. وإذا جئنا من منطلق إنساني فهم نبع الإنسانية بما اتّصفوا به من صفات حميدة وخلال كريمة [3].

إذن من هذا المنطلق فإنه لا يصح لمسلم أن يمرّ بهذا العطاء الضخم الصافي مرور الكرام: ثم يتركه ويتناساه وكأنه لم يكن عطاء له أو عطاء من أجل إعلاء

---

(١) قال الشاعر:

أُعاتب ذا المودة من صديق ... إذا ما رابني منه اجتنابُ
إذا ذهب العتاب فليس ودّ ... ويبقى الود ما بقي العتابُ

العين ٢: ٧٦ ـ عتب، الجامع لأحكام القرآن ١٨، ٥٤.

(٢) كما في حديث الثقلين الآتي بعد قليل.

(٣) يمكن الرجوع في هذا الأمر إلى كتب التراجم عند أهل السنة أنفسهم؛ ففيها الكثير ممّا لا يتّسع المقام لذكره، وتضيق عنه صفحات هذا الكتاب ممّا يذكر فيها من صفاتهم ﷺ الحميدة ومناقبهم الكريمة.

كلمة الله ومن أجل رفعة الإسلام، في حين أنه يتمسّك بعطاء بسيط لغيرهم، ويجعل منه موضع فخر وإشادة. حينما كنت في القاهرة أيام الدراسة هناك أرسلت إلى بعض الجهات كتباً من مدونات المذهب؛ لأنني التقيت ببعض من الكتاب الذين لم يأتوا على ذكر لآل محمدﷺ في مؤلفاتهم الفقهية وغيرها، وقد سألتهم عن السبب الذي من أجله قد أغفلوا ذكر أهل البيتﷺ في مدوناتهم، وعن السبب الذي من أجله تجاهلوا نظرياتهم في الفقه والتفسير وغيرهما، وتساءلت عن السبب الذي من أجله لم يضعوها في مدوّناتهم ولو بشكل مقارن، أي تذكر هذه النظريات إلى جانب نظريات علماء آخرين كربيعة الرأي مثلاً أو غيره من سائر الفقهاء.

وأجابوني بأنهم ليس عندهم مصادر عن المذهب الإمامي، فقلت لهم: سوف آتيكم بتلك المصادر، وسوف تصلكم إن شاء الله تعالى. وفعلاً حصلت على تلك المصادر ووفرتها لهم، ثم أرسلتها إليهم، لكن بعد فترة من هذا الحديث ومن إرسال الكتب، ذهبت إليهم، فوجدت أن تلك الكتب قد ركنت في المخزن، وأغلق عليها، ولم يحاول أحد أن يطّلع عليها. وهذا في واقع الأمر موضع استغراب وتعجب؛ وإلّا ما هي هذه العقدة من آل محمد (صلوات الله عليه وعليهم)؟ لماذا لا يحاول أحد أن يقرأ هذا الفكر، وأن يطلع عليه ولو من باب المقارنة بين النظريات الفقهية، أو من باب الإطلاع على آثار الآخرين؟

وإني لأقسم من على هذا المنبر إن الله تبارك وتعالى غداً سوف يسألنا عن كل هذا؛ فكل مسلم حينما يمسك القرآن الكريم يجد فيه قوله تعالى: **﴿قُل لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً إِنَّ اللهَ غَفُورٌ**

شَكُورٌ﴾[١]. وهذه ليست ألفاظاً مسطورة في القرآن الكريم وكفى، بل إنها أوامر من الله تبارك وتعالى تلزم المسلمين بضرورة تطبيقها والامتثال لها؛ فليس في القرآن شيء عبث ولا في غير مورده. والكل يعلم أن مودّة ذوي القربى ليست بمجرد ذكرهم، بل بموالاتهم وبأخذ آرائهم وباتّباعهم. فهؤلاء هم الذين يعبر عنهم النبي الأكرم ﷺ، وعن القرآن الكريم بقوله: «**إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي، ما إن تمسّكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً، ولقد نبأني اللطيف الخبير أنهما لن يفترقا حتىٰ يردا عليّ الحوض**»[٢].

ولهذا فإننا نقول: إن على كل مسلم ألّا يمتنع عن امتثال أوامر الله تبارك وتعالى وأوامر الرسول الأكرم ﷺ من أجل حاجة في نفسه.

عطاء الرسول الأكرم ﷺ

إذن فالآية الكريمة بناء على هذا الرأي الذي تميل إليه شريحة من المفسرين هو أن على النبي الأكرم ﷺ ألّا يستكثر على المسلمين إرساله إليهم، وبالتالي فهو ﷺ يمنّ عليهم بهذا العطاء الضخم الجزيل، وعليه ألّا يقول لهم: إني قد جئتكم بهذا العطاء بعد أن كنتم أُناساً لا تجدون ما تأكلون، وليس عندكم ماتكونون به أعزّاء، وحينما جئت إليكم ذلّلت لكم الصعاب، ووطّأتُ لكم العروش، وجعلت النعم تسبغ عليكم إسباغاً إلى حد وصلت معه إلى درجة أنكم

---

(١) الشورى: ٢٣، ويلاحظ أن الآية الكريمة تعبّر عن مودّة أهل البيت ﵈ بأنها حسنة يزيد الله تبارك وتعالى صاحبها عليها.

(٢) انظر: فضائل الصحابة (أحمد بن حنبل): ١٥، ٢٢، مسند أحمد ٣: ١٤ وغيرها، سنن الدارمي ٢: ٤٣٢، وغيرها كثير.

صرتم لا تدرون أين تضعون تلك الأموال، ولا أين تضعون تلك النعم.

وهذا المعنى صحيح، وقد وصل الأمر ببعض الخلفاء أنه كان حينما يـريد أن يسافر لحج أو لغيره يأخذ معه حمل ستمئة جمل من الملابس والثياب، ولمن أراد أن يطلع على هذا فإن عليه أن ينظر كتاب (حياة الحيوان) للدميري في ترجمته لبعض الخلفاء الأُمويين. فهؤلاء كانوا يأخذون من اللباس الموشّى، ومن الحلي والحلل ما تعجز عنه أو عن حمله الجـمال الكـثيرة، وكـل هـذا بـنعمة وجـود النبي ﷺ بينهم، ومن عطائه وتفضله عليهم. ولكنهم مع كل هذا قد وقفوا موقفاً مشيناً إزاء النبي الأكرم ﷺ، وإزاء أهل بيته ﷺ وإزاء مقدسات الإسلام[1].

فمقابل هذا العطاء الذي أغدقه الإسلام عليهم لم يكن هناك منهم ما يدل على

---

(١) فقد أحرقوا بيت الله كما في سنن ابن مـاجة ١: ٦٢٣/١٩٣٦، الأخـبار الطـوال: ٣١٤، تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٥١ ـ ٢٥٢، ٢٦٦، تاريخ الطبري ٥: ٣٠، تهذيب الكمال ٦: ٥٤٨ / ١٣٧٦، الكامل في التاريخ ٢: ١٣٥، البـدايـة والنـهاية ٨: ٣٦٣، سـبل الهـدىٰ والرشـاد (الشامي) ٦: ٢١٤، تاريخ مدينة دمشق ٤١: ٣٨٥، تهذيب التهذيب ٢: ١٨٤ / ٣٨٨، ١٨٧ / ٣٣٨، ١٠: ١٤١/٢٩٧، ١١: ٣١٦ / ٦٠٠، سير أعلام النبلاء ٣: ٣٧٤، فتح الباري ٨: ٢٤٥، ينابيع المودّة ٣: ٣٦.

وهتكوا حرمة المدينة حتى أوصلوا الدماء إلى قبر رسول الله ﷺ، مع ما صاحبه من اعتداء على أعراض المسلمين، حتى روي أن بعض أهلها كان إذا جاءه أحدهم خاطباً قال ابـنته: أُزوّجكها، لكن لا أضمن لك عذريّتها. انظر: تاريخ الإسلام ٥: ٢٦، تاريخ مـدينة دمشـق ٥٤: ١٨١ ـ ١٨٢، البداية والنهاية ٦: ٢٦٢، ٨: ٢٤١، وفيات الأعيان ٦: ٢٧٦، .

وفي الغدير ١٠: ٣٥ عن الإتحاف: ٢٢، وفاء الوفاء ١: ٨٨، وفي معالم المدرستين ٣: ١٨٨ ـ ١٨٩ عن تاريخ الخلفاء: ٢٠٩، تاريخ الخميس ٢: ٣٠٢ مثل ذلك.

وكان الحجاج والي الأُمويين على الكوفة يدخل إلىٰ الكوفة فيقول: إن المسلمين مخدوعون حين يطوفون بقبر محمد ﷺ، وقد تحوّل صاحب القبر إلى عظام بالية، ألا يطوفون بقصر عبد الملك؟ الكامل في الأدب ١: ٢٢٢، وقال المبرد فيه: إن ذلك ممّا كـفّرت بـه الفـقهاء الحجّاج، شرح نهج البلاغة ١٥: ٢٤٢.

شكرهم لهذا العطاء أبداً، بل على العكس من هذا كانت كلّ تصرفاتهم إساءة إلى الإسلام وكفراً لنعمة رسول الله ﷺ عليهم؛ لأنهم لولا هذا العطاء لما وصلوا إلى ما وصلوا إليه، وكانوا كما عيّرهم حسان بن ثابت بالأمس:

زعمت سخينة أن ستغلب ربها   وليُغلبنّ مغالبُ الغلّابِ[1]

فهو يقول لهم: إنكم كنتم بالأمس لا تجدون إلا العصيدة لتأكلوها، وتملؤوا بطونكم منها، واليوم بعد أن جاء الإسلام وأصبحتم بواسطته خلفاء وملوكاً رحتم تكيلون النعم، وتأكلون وتشربون وتلبسون. وكل ذلك بفضل الإسلام ونبي الإسلام ﷺ دون أن يشكروا له نعمة واحدة من هذه النعم في أهل بيته عليهم السلام، بل إنهم على العكس من هذا قد وقفوا موقفاً سلبياً شائناً منهم، فحاربوا الرسول ﷺ في أهل بيته. ومع كل هذا فإننا وفق هذا الرأي نجد أن الآية الكريمة تقول للنبي ﷺ، لا تمنن على هؤلاء، بل تواضع وإن كنت صاحب هذا العطاء الضخم الجزل، وهذه النعمة العظيمة.

آية المقام الكريمة والتواضع

وفي هذا أبلغ درس في التواضع، فالقرآن الكريم يريد من كل مسلم أن يتواضع في تصرّفه وتعامله، وفي كلامه وألّا يذكر معروفه وصنيعه الذي يتقدّم به لغيره؛ فأفضل أنواع المعروف هو المعروف الذي يخفيه صاحبه عن الناس، بل حتى عن صاحبه الذي يسديه إليه[2]. فالمعروف الذي يسديه إنسان لإنسان غيره

---

(١) الأمالي (الصدوق): ٤٥٩، الاستيعاب ٣: ١٣٢٥.

(٢) وقد مر بنا أن الإمام السجاد عليه السلام كان يتصدق ليلا دون أن يعرف أحد من الذي يتصدق عليهم حتى توفي (سلام الله عليه) وانقطعت تلك الصدقة فعرفوا حينها إنه هو الذي كان يتصدق عليهم، ولهذا قال ابن عائشة: سمعت أهل المدينة يقولون: ما فقدنا صدقة السرّ حتى

يجب عليه أن يكتمه وألا يمنّ به عليه؛ كيلا يكون معروفاً مكدراً بالمن. وفي هذه المرتبة من العطاء والستر تحقيق لإنكار الذات، والإنسان حينما ينكر ذاته ولا يذكر ما يفعل فإنه إنسان ناضج حتماً كما يقال؛ لأن الإنسان كلما ازداد نضجه كلما ازداد تواضعاً وأخلاقاً وتعاملاً حسناً مع الآخرين.

والإنسان المتواضع إنما ينم تواضعه عن نفس سليمة وعن فطرة قويمة وعن أخلاق عالية ورتبة سامية في سلم الكمال الإنساني، وبعكسه التكبر الذي يكشف عن نفس مريضة وضيعة. ثم ليعلم أن من أسباب التكبر وأقسامه هو التكبر الناشئ عن الشعور بالنقص، فالإنسان حينما يشعر بالنقص فإنه يحاول أن يعوضه وأن يكمله. وبما أنه ذو نفس مريضة فإنه يلجأ إلى تعويض ذلك النقص عن طريق التكبّر؛ لأنه لا يملك شيئاً طبيعياً يسد به ذلك النقص أو يرتقي به على سلم الإنسانية، فيبدأ بالادّعاء، ويروح يصعّر خده للناس، وتصبح مشيته غير طبيعية، وجلسته كذلك، وتكثر ادّعاءاته؛ مما يدل على فقر نفسي عنده، وبالنتيجة المرض النفسي. هذا في حين أن الإنسان الناضج كلما ازداد نضوجاً كما ذكرنا ازداد تواضعاً وحسن تعامل مع الآخرين وأخلاقاً معهم.

إذن فمن هذا المفهوم نجد أن الآية الكريمة تضع لنا درساً من الدروس الأخلاقية، وهو أنه مع هذا العطاء الضخم الجزيل الذي تقدم به النبي الأكرمﷺ إلى الناس، وهو العطاء الذي جعل الجزيرة العربية قبلة يؤمّها الناس جميعاً بعد أن صيّرهاﷺ موطئ الأقدام، وبعد أن جعلها موضعاً يلتجئ إليه كل مسلم

مات علي بن الحسين. مطالب السؤول: ٤١٥، وانظر: مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٩٤. وكانعليه السلام يقول: «صدقة السر تطفئ غضب الرب». الكافي ٤: ٧ / ١، ٨ / ٣، تأويل مختلف الحديث: ١٩٠.

بجسده وعقله ومشاعره، فيستذكر صوت بلال على ظهر الكعبة وهو ينادي: «**أشهد أن لا إله إلّا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله**»، ومع كل ذلك فهي تقول له ﷺ: إن عليه ألّا يمنّ على الناس ذلك العطاء. إذن فالعطاء الأقل منه والأدنى من باب أولى أنه يجب ألّا يذكر. وهذا درس عظيم للإنسانية في التواضع وعدم التكبّر على الآخرين.

إننا لو أردنا أن نقيس عطاء الرسول الأكرم ﷺ الذي تفضّل به على أهل الجزيرة وعلى المسلمين جميعاً لما استطعنا أن نضعه بميزان؛ لأنه لا يمكن لميزان أن يتسع لكل ذلك العطاء، فقد أنقذ الناس من الجهل والضلالة والحيرة، ومن الفقر والتشرذم والتفرق، وجعلهم أُمة واحدة قوية غزت العالم كله، وأصبحوا بفضل الإسلام أثرياء كما ذكرنا. وكل ذلك بفضل تلك الكلمة التي أمر ﷺ بلالاً بأن يرفعها على ظهر الكعبة وهي كلمة «**أشهد أن لا إله إلّا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله**» كما ذكرنا قبل قليل. ومع كل هذا فإن هؤلاء لم يقدّروا هذا الأمر الذي أوصلهم إلى كل هذا، بل ولم يتفاعلوا معه حتى منذ بواكيره؛ ذلك أنهم حينما سمعوا بلالاً يؤذّن على ظهر الكعبة حمد الله خالد بن أُسيد أن أباه توفّي ولم يشهد هذا اليوم.. يوم يقوم ابن أُم بلال ينهق فوق الكعبة. قال عكرمة: أكره أن أسمع صوت ابن رباح ينهق على الكعبة[1].

---

(١) الخرائج والجرائح ١: ٩٧ ـ ٩٨، تاريخ اليعقوبي ٢: ٦٠، إمتاع الأسماع ١: ٣٩٦، ٣٣٣: ١٣: ٣٨٦٥ ـ ٣٨٦، السيرة الحلبية ٢: ٧٨٤.

وقال أبو سفيان يوم الفتح وقد رأى ذلك: لقد أسعد الله عتبة بن ربيعة إذ لم يشهد هذا المشهد. شرح نهج البلاغة ١٥: ١٧٥.

وقال الحارث بن هشام: وا ثكلاه، ليتني متّ قبل هذا اليوم قبل أن أسمع بلالاً ينهق فوق الكعبة. إمتاع الأسماع ١: ٣٩٦، شرح نهج البلاغة ١٧: ٢٨٤.

وهذا دليل على ضحالتهم؛ لأنهم عرفوا أن بلالاً إنما يـرفع صـوت السـماء، ويمتثل لأمرها حينما أذّن على ظهر الكعبة:

وصـوت بـلال عـلى لابـتيك وأكرم بدعوة داعـي السـماء

هذا الصوت الذي أصبى مشاعر الدنيا كلها إلى هذا البيت الكريم، فهو عطاء غير مجذوذ، وثروة لا حدود لها مادياً ومعنوياً. وهكذا جعلهم هذا الصوت مراكز الخلافة وقبلة تجبى إليها الأموال، فتغدق عليهم ومع ذلك نجد القرآن الكريم يقول له: تواضع؛ فإنك أهل لأن تكون كذلك: ﴿وَلَا تَمْنُنْ﴾.

الرأي الثاني: أنه في خصوص الربا

ويذهب إلى هذا الرأي أبو مسلم وجماعة من المفسرين، وبهذا فـإنها ـ آيـة المقام الكريمة ـ تكون خطاباً لكل مسلم، أي أنكم حينما تـعطون قـروضاً فـلا تعطوها مشروطة بالزيادة.

البنوك ودورها في تفعيل الأزمات المالية وحلها

إن البنوك في واقع الأمر لم تعد مجرد صناديق توضع فيها الأموال، فكما أنها مكان أمين لحفظ المال من التلف والضياع والسرقة، هي من ناحية أُخرى وأمام تشعب التجارات والتعاملات المالية في العالم أصبحت وسيلة لنقل الأموال مـن البلد وإليه، بحسب حاجة الإنسان وما يوائم عمله أو تـجارته. فـحينما يـضطر إنسان ما إلى أن يرسل أمواله إلى الخارج لإجراء صفقة تجارية، أو عـملية بـيع أو ما شاكل، فإن البنك نفسه يقوم بهذه المهمة، ويتولى هذا الأمـر دون حـاجة إلى نقل هذه الأموال عبر الطرق التقليدية، وذلك بأن يـقوم البـنك نـفسه بـدور المحوِّل والمحوَّل إليه. وهذا هو حقيقة دور التبادل في الأموال أو العملة، الذي

يقوم فيه البنك.

ودور البنوك هذه دور ضخم جداً تتطلّبه التجارة المعاصرة، إضافة إلى أن هناك أُموراً أُخرى تقوم بها هذه البنوك؛ بأن تنجز أعمالاً معينة لأصحاب الأموال مقابل عمولة معينة. وهكذا أصبحت هذه البنوك ضرورة من ضرورات العصر، وحاجة ملحة من حاجاته، حتى إن الإنسان لا يستطيع في هذا الوقت أن يجري أي معاملة تجارية أو مالية بعيداً عنها.

البنوك اللاربويّة

وفي مسألة كون الإنسان يريد أن يستخدم البنك وسيلة لتعاملاته المالية وتداولاته التجارية؛ سواء كانت إيداعاً أو غير ذلك من أنواع المضاربات المالية فإن الفقه الإسلامي والمشرّع الإسلامي لابدّ أن يعطيا أبعاد العملية هذه، وأن يحددا مفهومها؛ كي تدخل في إطار العمليات المشروعة. فكل عملية تتّصل بالبنك لابدّ من أن تحصل على غطاء شرعي كي يدخل الإنسان المسلم فيها دون أن تختلط أمواله الحلال بأموال حرام. وفي مثل هذه الحالة لابدّ من وجود بنوك إسلامية مع أن البنوك الإسلامية الموجودة حالياً هي عبارة عن مؤسّسات متواضعة لم تصل بعد إلى دور تستطيع معه أن تزاحم البنوك الدولية الأُخرى وهي بنوك ضخمة، أو أن تعد طرفاً مقابلاً أمام هذه البنوك التي تحكمها القوانين والنظم الوضعية.

وكحل لمسألة إعادة توسيع هذه البنوك المتواضعة في قدراتها وطاقاتها الاستيعابية فإنه لابد من الالتفات إلى أنه حينما يكون دين الدولة الرسمي هو الإسلام فإن على هذه الدولة أن تسعى إلى بناء مؤسسات إسلامية تسير على النهج الإسلامي، مدعومة منها، كما أنها ـ الدولة التي تعتمد الإسلام ديناً لها ـ إذ تقيم

مؤسّسات للمعارف، ومؤسسات صحية، وأُخرى اجتماعية وغيرها، فإن عليها بناء مؤسّسات اقتصادية في البلد الذي ينتهج الشريعة الإسلامية قانوناً ودستوراً له؛ لأنها مؤسّسات لا تقلّ أهمية عن المؤسسات الأُخرى التي تقوم الدولة ببنائها مما ذكرنا. وعليه فلابدّ من بناء هذه المؤسسات الاقتصادية التي تعتمد الإسلام وتشريعاته ونظمه؛ كي تحل مشكلة الأموال هذه بعيداً عن دائرة الممنوع.

وكنمط من أنماط الحلول التي يطرحها الإسلام في مسألة البنوك هذه قضية المضاربة، فهذه البنوك حينما يكون أساس التعامل فيها على المضاربة فإنها حينئذٍ تصبح بعيدة عن الربا القرضي، وبالتالي فإنها تبتعد عن المحذور، وتدخل ضمن حياطة التشريع. ومسألة البنك اللاربوي قد عالجها السيد الشهيد الصدر (رضي الله تعالى عنه وأرضاه) في أُطروحته (البنك اللارِبوي في الإسلام)، كما أنها قد عالجها أيضا بعض فقهائنا في مسائل متفرّقة. فالبنك اللارِبوي يتعامل أساساً مع الفرد المسلم، وليس من الضروري أن يكون الربح هو المحصلة دائماً، فباب المضاربة ضخم جداً، والأُمور التي يمكن أن يضارب بها تعتبر موارد ضخمة تشمل جميع الطاقات المعدّة للاستثمار؛ كالمياه والأراضي وغيرها. وهذه الأموال لو قدر لها أن توظف على النمط الذي رسمه الشارع المقدس باستعمال باب المضاربة فإنها من الممكن أن تدرّ أرباحاً طائلة على الفرد المسلم وعلى الدولة نفسها.

مفهوم المضاربة

ومفهوم المضاربة هو أن يعمد شخص يملك مالاً معيّناً إلى تسليمه إلى شخص آخر لا يملك مالاً، غير أنه يملك طاقات بدنية أو عضلية أو عقلية يستطيع عبرها ومن خلالها استثمار هذه الأموال وتشغيلها، وجنْي الربح منها، فيتفقان على أن

يقوم الطرف الثاني بالعمل بهذه الأموال مستعملاً طاقاته التي منحه الله إياها على أن يكون الربح بينهما بنسبة معينة كأن يكون مناصفة، أو أقل من ذلك، أو أكثر حسب الاتفاق الذي يبرمانه.

هذا على أن يبقى الربح هو مدار التعامل بينهما، وهذا يعني أن المضاربة حينما تمنى بالخسران فإن الخسارة تقع على رأس المال كذلك؛ لأن العامل أيضا يكون قد خسر عمله وجهده وطاقته وتعبه، فكما أن العامل قد خسر كل ذلك فإن صاحب رأس المال عليه أن يتحمّل أيضا الخسارة، فلا يطالب العامل بإرجاع رأس ماله إليه كاملاً؛ لأنهما حينئذٍ قد تساويا في مجمل الخسارة؛ لأن عملية المضاربة قد تمت على أساس استعمال رأس المال هذا، وعلى الطاقات التي يمتلكها العامل.

وهذا هو الميدان الطبيعي للحياة، فليس من الضروري أن يكون الحصول على الربح هو المنظور دائماً، وبخلاف ذلك فإن المعاملة تصبح محرمة؛ إما من جهة الربا وقد حدثتنا السنة أن «من أكل لقمة من الربا فكأنما زنى بأُمّه في جوف الكعبة»، أو من جهة أُخرى تكون منظورة في حال حرمة تلك المعاملة. والمؤمن حينما يتنبّه إلى عاقبة الربا المذكورة في الحديث الشريف المارّ، ويعرف طبيعة العقاب التي تتوجّب عليه، فعليه ألّا يقرب الربا، وأن يدعو نفسه إلى أن تأكل من الحلال وليس من السحت الحرام.

ماذا لو لم تكن هناك بنوك إسلامية

وفي حال عدم توفّر البنوك الإسلامية فهناك طرق أُخرى يمكن اللجوء إليها لحلّ هذه المشاكل كحلّ مرحلي، ومن هذه الطرق التغطية الشرعية، وهي

أن يأتي إنسان إلى البنك المعاصر الذي لا ينتهج النظام الإسلامي فيودع فيه أمواله على ألّا يشترط الربح عليه، وعلى أن يلزم نفسه بأنه سوف لن يطالب البنك بالربح مادام قد أودع ذلك المال عنده، وما دام يريدها معاملة تتماشى مع الدستور الإسلامي وقوانينه.

وربما يناقش البعض هذا الأمر، ويعترضون بأن هذا الذي أودع أمواله بالبنك إنما جاء بدافع الربح، والمعروف عرفاً كالمشروط شرطاً.

والجواب هو النفي؛ لأن هذا القول إنما يكون فيما لو لم تكن لدينا قاعدة، أي أننا لا نملك أمارة أو دليلاً. إننا نعرف أن الربا له شرطان أو عنصران هما: اشتراط الزيادة والأجل، فإذا كانت هناك زيادة غير مشروطة فإن العملية حينئذٍ لا تعتبر ربا بل إنها تحمل كما لو أنها عملية في البيع والشراء، فإن المبايعة تتمّ بين المتبايعين مع الربح لكن دون شرط ذلك. فالربا منوط بشرط الزيادة، فإذا انتفى هذا الشرط فإن المشروط يصبح منتفياً كذلك.

هذا من ناحية، ومن ناحية أُخرى فإن كل إنسان يدخل إلى السوق فإنه يدخل بدافع الربح دون أن يكون ذلك موجباً لبطلان تعاملاته التجارية، وهنا في حالتنا مع البنوك التي لا تتعامل بالنظام الإسلامي الشيء عينه؛ فإن الإنسان الذي يدخل وهو يريد الربح لكن دون أن يشترطه؛ فحينئذ تكون معاملته شرعية؛ لانتفاء الشرط كما قدمنا.

وهكذا فإننا حينما نعلم بأن الشارع المقدس قد حدد لنا الربا، وبين لنا أنه متقوم بالأمرين المارّين معاً، فإننا نعرف أنه ما لم يكن هناك شرط فإن أحد عنصري الربا يكون قد انخرم، وبانخرامه فإنه لا يصبح ربا ولم يعد كذلك. وهذا الذي عليه جميع المذاهب الإسلامية وإن كانت هناك شريحة خاصة تناقش حول

هذا، وإلّا فإن أبناء المذاهب الأربعة من علمائهم يقولون بهذا، ولمن أراد الدليل الرجوع إلى كتب الفقه عندهم في باب القرض؛ فكلهم يتعرضون إلى هذه المسألة، ويستدلّون لها بجملة من الأدلة.

إذن فالقصد من هذا هو أنه ليس من الصعب أن نستلّ من هذا المجموع الضخم من الفقه الإسلامي ما نرسم به أحكاماً لنا ذات علاقة بالتنظيم المالي، وتقعيد النظام الاقتصادي، وبلورة معالم البنوك خاصّة. إننا في واقع الأمر في مسيس الحاجة إلى مثل هذا التنظيم، وإلى النقاش العلمي الحرّ لتثبيت دعائم هذا الأمر دون اللجوء إلى تضيع الجهود عبر فتح باب التراشق الذي تتبعه شريحة كبيرة. وهم بهذا إنما يضيعون حقوق الآخرين ويغبطونها بنسبة أشياء إليهم لم تكن منهم وإن قال بها أحد المخرفين ممن يدعي الانتساب إليهم.

وهكذا فإننا نجد أن البعض يبحث في كتاب لأحد المخرفين وينعته بأنه من علماء الطائفة الفلانية، مع أن على هؤلاء أن يعوا حقيقة هي أنه ليس كل من لبس العمامة هو عالم، وعليهم أن يعرفوا كذلك أنهم حينما يريدون أن يناقشوا نظرية ينسبونها إلى طائفة معينة فعليهم أن يقرؤوها بالرجوع إلى مدونات أساطين ذلك المذهب ومؤلفاتهم حتى يمكن أن يقال حينئذٍ: إن هذه النسبة صحيحة وليست مغلوطة، وإن هذه النظرية التي تقول بأنها موجودة عند الطائفة الفلانية هي موجودة فعلاً وليست ادعاءات.

ونحن حينما نقول: إن النظرية الكذائية نظرية يقول بها الأشاعرة مثلاً، فإن علينا أن نتبع المنهج العلمي الصحيح في تحقيق نسبتها إليهم، فنتبع الطريق الموصل إليهم من عندهم، وهو عبارة عن آراء علمائهم من مؤلفاتهم أنفسهم، أقصد مؤلفات الأشاعرة في مثالنا كالغزالي أو ابن قيم الجوزية، أو غيره من أبناء

المذاهب الإسلامية كهمام الحنفي أو ممن اشتهر من أساطين هذه الطائفة وعلمائهم أو تلك؛ لنتأكد من صحة هذه النظرية عندهم من عدمها؛ حتى تكون النسبة حينئذٍ صحيحة وليست مجرد دعوى باطلة. أما أن يأتي إنسان إلى شخص بزاوية من الزوايا، ويأخذ برأيه دون أن يكون ذلك الإنسان يمثل شيئاً بالنسبة للطائفة أو المذهب، ونقول: إن هذا هو رأي المذهب الفلاني، فهذا غير مقبول قطعاً. وأي نقد هو؟ وأية نظريات تنسب؟

وهكذا حينما نجد شخصاً مثل ابن الجبهان يقف ويشتم الإمام الصادق عليه السلام، فهل أستطيع أن أقول: إن أهل السنة جميعاً يشتمون الإمام الصادق؟ والجواب النفي مطلقاً، إننا غاية ما يمكن أن نقوله هو أننا نعتبر هذا الرجل شاذاً لا يحترم نفسه ولا رأيه ولا لسانه ولا دينه. مع أن هناك بعض الموارد التي ينبغي أن تنتقد وأن يوقف ضدّها وإزاءها، ومن هذه الموارد ما يروى من أن أمير المؤمنين عليه السلام كان ينام مع السيدة عائشة زوج النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم. فألا يخجل قائل هذا الكلام من هذا الكلام نفسه؟ وألا يخجل من نفسه هو؟ فكيف يمكن للرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم أن يرى زوجته على هذه الحال ثم يسكت؟ إن هذه هي زوجة النبي صلى الله عليه وآله وسلم التي طهرها القرآن وبرّأها من حادثة الإفك. ثم إن كل ذرة من ذرات جسم الإمام علي عليه السلام تمثّل العفّة والوفاء والتقوى والإيمان والإخلاص، فكيف يمكن أن يقدم على مثل هذا اللون من التصرف؟

إذن علينا أن نتأمل هذا النمط من البشر، وأن ننتبه إلى ما يقولونه، وأن نعرف أن هذا الكلام وراءه براميل من النفط، ووراءه أصابع البنتاغون، والسعي إلى تمزيق وحدة المسلمين وتفريقهم وطمس معالم أحكامهم. وهذا شيء لايمكن أن يقبل بحال من الأحوال.

رجع

وعلى أية حال فالغرض الذي نحن بصدده هو أننا كمسلمين نملك موسوعات فقهية ضخمة، وعليه فليس من العسير أن نستل منها الأحكام ذات العلاقة لنضع قانوناً يحكم تعاملاتنا المالية، كأن يكون قانوناً إسلامياً مباشراً بإنشاء مؤسسات إسلامية، أو بإضفاء الغطاء الشرعي على العمليات المالية، أو التبادلات التجارية؛ حتى لا يخرج الإنسان في حركاته وفي مبايعاته وتعاملاته كلها عن نطاق التشريع الإسلامي. ثم إننا نعرف أن نظام الاجتهاد يمكن أن يطور تلك الأفكار ذات العلاقة بموضوعنا ضمن حدود القواعد والأُصول العامّة التي رسمتها الشريعة، فيستخلص منها هيكلاً كاملاً للتشريع الاقتصادي الذي يحل جميع مشاكل المسلمين بدلاً من تضييع الجهود بهذا التراشق.

وهكذا فإن على هذه الجهود أن تنصبّ على هذا المعنى، وأن تكرّس لتعالج مشكلة من أعقد المشاكل التي يتعرّض لها الفرد المسلم كل يوم في حياته العملية بحكم التطور الذي يحكم عالمنا هذه الأيام. وكنتيجة طبيعية لهذا التطور فإن هناك ضريبة يدفعها الإنسان المسلم تتمثّل بما يعيشه يومياً من مشاكل عقيدية، أو اقتصادية، أو أخلاقية نحن في مسيس الحاجة إلى وضع حلول لها على ضوء النظام الإلهي وتشريعاته المقدّسة. وهكذا فعلى علماء المسلمين أن يعوا خطورة إهمال هذه الحاجات الملحّة للفرد المسلم، وأن يدعوا التراشق الذي لا يسمن ولا يغني من جوع، بل إنه يعود بنتيجة سلبية على الكيان الإسلامي ككل.

إذن فالآية الكريمة حينما تقول: ﴿وَلَا تَمْنُنْ﴾، فهذا يعني أنها تخاطب المسلمين، وتقول لهم: لا تعطوا قروضاً وأنتم تشترطون الزيادة، وفي حالة البنوك فإن عليكم أن تودعوا أموالكم دون أن تشترطوا تلك الزيادة التي يعطيها البنك،

فإذا أودعت في البنك شيئاً من المال ثم جاءك عليه شيء من الربح أو من خير، فعليك أن تشكر الله عليه، وإذا لم يأتك شيء فعليك ألّا تعترض وألّا تطالب البنك بأن يعطيك؛ لأنك حينئذٍ تكون قد اشترطت الزيادة في المعاملة من حيث لا تشعر، فإن لم يعطك البنك زيادة، فهذه رؤوس أموالك موجودة، لك أن تستعيدها كاملة غير منقوصة.

الرأي الثالث: أنها خطاب للنبيﷺ في خصوص العطاء

ويذهب أصحاب هذا الرأي إلى أن الآية الكريمة تخاطب النبي الأكرمﷺ بصورة خاصة، وتقول له: لا تعطِ الآخرين بانتظار أن يعطوك أكثر. وفي الحقيقة فإن هذا ما نراه في هذه الأيام بل إن هذا الأمر أصبح ميزة لها، ذلك أن بعض الناس يعملون الجميل ويحسنون إلى الآخرين؛ لكي يردّوا لهم ذلك الجميل بما هو أكثر منه. وهذا يعني أن عملية الإحسان قد أصبحت عملية معاوضة، أو عملية تجارية، وحينما تصبح بهذا النمط فإنها حينئذٍ لم تعد إحساناً، ولم تعد امتثالاً لأمر الآية الكريمة. وهكذا فإن آية المقام تخاطب النبيﷺ وتقول له: إنّه ليس من مكارم الأخلاق أن يعطي الإنسان شيئاً لكي يرجعه المعطى إليه بما هو أكثر منه، فهذا يتنافى مع مكارم الأخلاق التي يريد الإسلام أن يربي الناس عليها.

وهذه كما ذكرنا قد أصبحت معاوضة، ومكارم الأخلاق تأبى ذلك على الإنسان، وتوجب عليه أنه حينما يعطي فعليه ألّا ينتظر عوضاً على عطائه، بل إنه يعطي لوجه الله تبارك وتعالى، أو لوجه الإنسانية إذا كان المعطي ممّن لا يؤمن بالله تعالى. وهكذا فإن على الإنسان أن يفعل الجميل لأجل الجميل نفسه، ولرضا الله، وليس لأجل عوض ينتظره من ذلك الإنسان الذي تقدّم إليه بالإحسان.

إذن فالآية الكريمة توجه النبيﷺ بأن يعطي ولا ينتظر شيئاً ممن يعطيهم،

ولا ينتظر أن يأخذ عوضاً عمّا قدم. ولهذا فإننا نجد أن الرواة يقولون: إن الرسول الأكرم ﷺ كان هذا ديدنه أبداً، فهو ﷺ كان يعطي ولا يأخذ. وأي عطاء كان يعطيه ﷺ؟ كان يعطي كل ما عنده دون أن يترك شيئاً، تقول زوجته عائشة: كان عندنا سبعة أصوع من طعام، فتزوّج أحد أبناء الأنصار، فأمر رسول الله ﷺ بحملها كلّها إليه.

وكان ﷺ يقول لهم: « ما لي مما أفاء الله عليكم إلّا الخمس، والخمس مردود عليكم »[1].

وقفة مع القرطبي في قوله بأن نبيّنا الأكرم ﷺ لم يورّث

وأكثر من هذا أنه ﷺ كان يدفع إلى بيت المال كل طعام يفضل من طعام أهله، يقول القرطبي معقباً على ذلك: « ما كان ﷺ يجمع الدنيا، وكان ما يفضل من نفقة عياله مصروفاً إلى مصالح المسلمين؛ ولهذا لم يورّث؛ لأنه كان لا يملك لنفسه الادّخار والاقتناء، وقد عصمه الله تعالى عن الرغبة في شيء من الدنيا. ولذلك حرمت عليه الصدقة وأُبيحت له الهدية، فكان ﷺ يقبلها ويثيب عليها »[2].

الموارد الشرعية التي طالبت فيها الزهراء ﵍ بفدك

المورد الأول: الميراث

وقوله هذا لنا معه موقف، ويمكن أن يحصر هذا الموقف في جنبتين:

الجنبة الأولى: فيما يورّث

فالنبي الأكرم ﷺ قد ورّث، لكنه كان شيئاً بسيطاً؛ لأنه ﷺ لم يكن يملك

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٩: ٦٨. (٢) المصدر نفسه.

شيئاً من حطام الدنيا، أما أنه ﷺ لم يورّث مطلقاً فهذا كلام غير صحيح وغير دقيق. ونحن حينما نقول هذا فإننا لا ندعي ادعاءات جوفاء أو فارغة، بل إننا نرجع إلى الأدلّة القرآنية وأدلّة السنة، فنستدل بها على مدّعانا هذا. ولهذا فإننا نقول بأن آيات الميراث آيات عامة تشمل كل مسلم؛ النبي ﷺ وغيره. وبما أننا مررنا بهذا الموضوع فلنلقِ عليه شيئاً من الضوء، كي نوضّح بعض أبعاد هذه المسألة فنقول: إن أنبياء الله تبارك وتعالى على ملاك واحد، وما داموا علىٰ ملاك واحد فإنهم يجري عليهم جميعاً الشيء نفسه، فما يجري على واحد منهم يجري عليهم جميعاً[1]، وهكذا فما داموا عليهم السلام جميعاً على ملاك واحد فإننا حينما نأخذ القرآن الكريم فإننا نجده يحدّثنا عن بعض الأنبياء عليهم السلام بأنهم قد ورِثوا وورّثوا، وإذا كانوا كذلك، فإن هذا الأمر ينطبق حتى على النبي الأكرم ﷺ، ومن هذه الآيات قوله تعالى: **﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً﴾**[2]، وقوله تعالى: **﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾**[3]، وقوله تعالى: **﴿وَأُوْلُو الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾**[4]. وهكذا فإننا بالرجوع إلى آيات الميراث التي يحدثنا القرآن الكريم فيها عن الأنبياء عليهم السلام نجد أنها آيات عامة.

العلم ليس ميراثاً

وعليه فالميراث إذا أُطلق فإنه يفهم منه الأُمور المادية، أما أن يعبّر عن العلم

---

(١) وفي خصوص مسألتنا هذه فإنهم حينما يستندون بحديث «لا نورث»، فإنهم ينسبون إليه ﷺ قوله: «نحن معاشر الأنبياء»، وفيه دلالة على أن هذا الشيء عامّ لجميع الأنبياء عليهم السلام، وليس لنبي دون نبي.

(٢) مريم: ٥ ـ ٦.

(٣) النمل: ١٦.

(٤) الأنفال: ٧٥.

بأنه ميراث فلا؛ وذلك يرجع إلى أُمور منها:

الأول: أن العلم لا يمكن أن يورث مطلقاً؛ فكم من إنسان عالم يموت دون أن يكون ابنه كذلك.

الثاني: إباء اللغة ذلك، فالعلم لا يمكن أن يعبّر عنه بأنه إرث، لأن لغة العرب أمامنا، وهي اللغة التي نزل فيها القرآن الكريم، وهي تأبى ذلك، وتنص على ما قلنا[1]. إذن فالعلم لا يمكن أن يعبّر عنه بأنه إرث وفق لغة العرب.

الجنبة الثانية: حول حديث «لا نورث»

ثم إن الرواية التي استند إليها القائلون بأن النبي ﷺ لا يورث، والتي رواها الخليفة الأول بصيغة: «**نحن معاشر الأنبياء لا نورّث**»[2] هي في الواقع رواية قد انفرد بها الخليفة نفسه، واستدلّ بها على قوله محتجاً بها على الزهراء ؈. ولو أن الزهراء ؈ كانت تعرف أن هذه الرواية موجودة فعلاً، لما طالبت الخليفة الأول بفدك بعنوان أنه ميراث.

احتجاج عثمان على عائشة وحفصة بخصوص الميراث

ثم إن هذه الرواية نفسها قد انتقدها الخليفة الثالث نفسه عندما دخلت عليه عائشة وحفصة أيام التشنّج الذي وقع بين الخليفة الثالث وبينهما، حيث إنهما دخلتا عليه تطلبان منه ميراثهما من النبي ﷺ، تقول الرواية: فاستوى جالساً بعد أن كان متّكئاً، فقال: ستعلم فاطمة أي ابن عم أنا لها اليوم. ثم قال لمن حوله: أي ميراث؟ قيل له: إن النبي ﷺ توفّي عن تسع نساء، وهن يشتركن في الثُّمن من

---

(١) انظر مادة «ورث» في كل من العين والصحاح ولسان العرب وغريب الحديث وغيرها.

(٢) انظر: المسترشد: ٥٠٧ / ١٧٠، بحار الأنوار ٢٩: ١٣٤، صحيح البخاري ٨: ٣، ٥، مسند أحمد ١: ٤٧، ٤٨، ٦: ١٤٥، السنن الكبرىٰ (النسائي) ٤: ٦٤ / ٦٣٠٨، وغيرها.

الميراث، فقال عثمان: والنبي ﷺ يورّث؟ إذا كان يورّث فلمَ مُنعت الزهراء الميراث؟ وإذا كان لا يورّث فأي حقّ تطالبان به؟ أولستِ أنت (يعني عائشة)، وهذه الجالسة جئتما معكما بأعرابي يتطهّر ببوله، وشهدتم عند أبيك أن رسول الله ﷺ قال: «**نحن معاشر الأنبياء لا نورث**»؟ قالت: بلى. قال: فأي ميراث تطالبين به؟[1].

وهنا يجب التنبّه إلى حقيقة هي أن علينا ألّا ننسى أنه إذا دخل عنصر خارج إطار الفقه، ولعب دوراً فيه بأمثال هذه الروايات فإن علينا ألّا نحكّمه ونحكّم رواياته بالفقه الإسلامي، وهذا الذي ينبغي أن يكون دون غيره[2]. ثم إنه كما ذكرنا لو كانت الزهراء عليها السلام تعلم بأن الأنبياء عليهم السلام لا يورّثون لم تكن لتطالب بميراث؛ فإن هذا الأمر غير معقول بحقّ الزهراء عليها السلام التي يخصّها الأمر، فكيف يمكن لها أن تطالب بميراث وهي تعرف أن النبي الأكرم ﷺ لا يمكن أن يورّث، وأنه لن يرثه أحد؟ وما هو الدافع وراء ذلك؟ إنها (سلام الله عليها) حينما تأتي تطالب بحقّها من الخليفة، فهذا يعني أنه ليس هناك حكم أو حديث ورد عن الرسول ﷺ بهذا الخصوص؛ لأنها لا يمكن أن تكذب أبداً، وقد شهد القرآن الكريم بنزاهتها بقوله تبارك وتعالى: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً**﴾[3]، فعلى أقل التقادير أنها (سلام الله عليها) كانت أحد هؤلاء الذين أذهب الله سبحانه الرجس عنهم.

---

(١) الإيضاح: ٢٥٧ ـ ٢٥٨، المسترشد في الإمامة: ٥٠٨، بحار الأنوار ٣١: ٢٩٥.

(٢) هذا فضلاً عن أن هذه العمومات لا يمكن ولا يصحّ تخصيصها بخبر الواحد، وهو حديث «لا نورث»؛ لأنها عمومات قرآنيّة، ورأي المذاهب الإسلامية الأربعة أن القرآن لا يخصَّصُ بخبر الواحد. انظر: الإبهاج في شرح المنهاج ٢: ١٧١ ـ ١٧٢، نهاية السؤل ٢: ٤٥٩ ـ ٤٦٠، البحر المحيط ٣: ٣٦٥.

(٣) الأحزاب: ٣٣.

الزهراء عليها السلام منزّهة عن الكذب

إذن فالقرآن الكريم يشهد لها بالطهارة والنزاهة، وعليه فلا يمكن أن تدعي ما ليس لها؛ لأن هذا لا يعني إلّا أمرين هما السرقة (تنزهت عليها السلام عن ذلك)، أو تجاهل أوامر النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأحكام الإسلام، وهي (سلام الله عليها) منزهة عن ذلك أيضاً بشهادة القرآن الكريم، وليس بعد شهادته شهادة. وما دامت مطهرة، فلا يمكن أن تأتي وتفتري وتطلب ما ليس لها بحق. وهذا المعنى هو الذي يشير إليه الشاعر في أبياته حيث يقول:

بضعةٌ من محمدٍ خالفت ما	قال حاشا مولاتنا حاشاها
سمعته يقولُ ذاك وجاءت	تطلب الإرث ضلّة وسَفاها!
هي كانت لله أتقى وكانت	أفضلَ الخلق عِفّةً ونَزاها
ولكان الجميلُ أن يُقطِعاها	فدكاً ما الجميلُ أن يَقطَعاها
كان إكرامَ خاتمِ الرسِل الها	دي البشيرِ النذير لو أكرماها
ثُم قالت فنِحلةٌ ليَ من وا	لديَ المصطفى فلم يُنحلاها[1]

هل الزهراء عليها السلام تجهل حكماً يخصّها؟

ثم إنها عليها السلام بنت الرسالة، وليس من المعقول أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم يشرع حكماً ثم لا يطلع ابنته عليها السلام عليه أو لا تسمع هي عليها السلام به، بل إننا نقول حينئذٍ: إن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لو كان فعلا قد قال ذلك الحديث لكان الذي ينبغي حينئذٍ هو أن يطلعها (سلام الله عليها) على ذلك الحديث؛ ليجنبها العناء من بعده، وليجنب المسلمين هذه المشاكل التي حدثت بعد ذلك وسببت الاختلاف؛ كون الأمر مختصّاً بها عليها السلام.

---

(١) الأبيات تنسب للجذوعي. بيت الأحزان (القمي): ١٦٢.

إذن فالنبي ﷺ ترك ميراثاً بسيطاً، وفاطمة عليها السلام جاءت تطالب بالميراث بناء على علمها بأن العمومات الموجودة في القرآن الكريم تشمل أباها وغيره دون أن يكون هناك مخصص يخرج أباها ﷺ من عمومات القرآن الكريم. وهكذا فكون الزهراء عليها السلام تقدم على المطالبة بالميراث، وأن نخصص عمومات القرآن برواية هو خبر الواحد، فهذا يعني أن هذا التخصيص غير صحيح، وعليه فلابدّ من اللجوء إلى عمومات القرآن الكريم.

وهكذا فإننا نجد أن التأريخ يحدثنا بأن السيدة الزهراء عليها السلام قد اختلفت مع الخلافة حول هذا الموضوع، وطالبت بالميراث دون أن تحصل على ما طالبت به.

الأمر الثاني: النحلة

وحينما احتجّ عليها أبو بكر بهذا الخبر وهو: «**نحن معاشر الأنبياء لا نورّث**»، فإن الزهراء عليها السلام لجأت إلى طريق ثانٍ هو مطالبتها بنحلتها من أبيها، فقالت له: ﴿**وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ**﴾[1].

ثم بينت له بأن النبي ﷺ قد أنحلها فدكا وأشهد على ذلك شهوداً، وذلك حينما صالح أهل فدك النبي ﷺ على هذه القطعة، وهبط جبرئيل عليه السلام على النبي ﷺ يحمل قوله تعالىٰ: ﴿**وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ**﴾[2]، فإنه ﷺ سأل جبرائيل عليه السلام قائلاً: «**من هم ذوو القربى؟**». فقال جبرئيل: «**إن الله يأمرك أن تعطي فدكاً بُلغة لفاطمة، عوضاً عما أنفقته أُمها في سبيل الإسلام**».

وهكذا أنحلها النبي ﷺ فدكا بحضور أُمّ المؤمنين أُمّ أيمن (رضي الله عنها وأرضاها)، وبحضور أمير المؤمنين والحسن والحسين عليهم السلام[3]، وتصرفت فيها من

---

(١) الإسراء: ٢٦.
(٢) الإسراء: ٢٦.
(٣) تفسير القمي ٢: ١٥٥، بحار الأنوار ٢٩: ١٢٨.

السنة الخامسة للهجرة حتى وفاة النبي ﷺ أي ما يقارب الست سنين، وجعلت فيها فلاحين يعملون فيها، فكانوا يستثمرون الأرض.

واليد عند الفقهاء حجة، بمعنى أن الذي يدّعي خلاف ما يدعيه صاحب اليد فإن عليه هو أن يأتي بالبينة وليس صاحب اليد. فإذا ما وُجد شيء عند شخص كأن يكون داراً أو لباساً أو غيرهما فإنه يملكها بأمارة اليد؛ لأن يده عليها، واليد أمارة الملكية، فإذا جاء شخص وادّعى بأن هذه الدار أو هذا اللباس ليسا له فإن عليه هو أن يأتي بالبينة وليس على صاحب الدار أو صاحب اللباس أو من وضع يده عليهما. وكانت الزهراء عليها السلام تتصرف بفدك ست سنين، لكن الخليفة الأول مع هذا جاء ليطالبها بدليل على ملكيتها لها، وهي عليها السلام مع ذلك أتت بمن كان حاضراً في الواقعة وشهدها، وهم أمّ المؤمنين أمّ أيمن (رضي الله عنها) والإمام علي عليه السلام والحسنان عليهما السلام[1]، فرفض الشهود جميعهم، وقال: الحسن والحسين فرعان، وشهادة الفرع للأصل لا تجوز، وعلي زوجها؛ فهو ذو منفعة بها، وأما أمّ أيمن فهي امرأة أعجميّة لا تفقه ما تقول[2].

فرجعت فاطمة، ولم يكن أحد صادقاً برأيهم، لا علي ولا فاطمة ولا الحسن

---

(١) السقيفة وفدك (الجوهري): ١٠٤. وفيه: وروى هشام بن محمد عن أبيه قال: قالت فاطمة لأبي بكر: «إن أمّ أيمن تشهد لي أن رسول الله ﷺ أعطاني فدكاً». فقال لها: يا ابنة رسول الله، والله ما خلق الله خلقا أحبّ إلي من رسول الله ﷺ أبيك، ولوددت أن السماء وقعت على الأرض يوم مات أبوك، والله لأن تفتقر عائشة أحبّ إلي من أن تفتقري، أتراني أعطي الأحمر والأبيض حقّه وأظلمك حقك، وأنت بنت رسول الله ﷺ؟ إن هذا المال لم يكن للنبي ﷺ، وإنما كان مالاً من أموال المسلمين يحمل النبي به الرجال، وينفقه في سبيل الله، فلمّا توفّي رسول الله ﷺ وليته كما كان يليه.

(٢) انظر: كتاب سليم بن قيس: ٣٩١ / ٢، بحار الأنوار ٢٨: ٣٠٢، ٤٣: ١٩٨.

ولا الحسين عليه السلام ولا أُمّ أيمن (رضي الله عنها). وإلىٰ هنا انتهت دعوى النحلة وتوقّفت[١]. مع وجود دليل اليد ومع وجود الشهود على ذلك، مع أن إحضار الشهود هنا ليس واجباً شرعاً. وعلى فرض أن هذه الادعاءات كلها صحيحة، لكن الذي ينبغي أن يراعى في المقام هو أن الزهراء (سلام الله عليها) إنما هي ابنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وريحانته، وهي التي كان صلى الله عليه وآله يقف على بابها ستة أشهر يطرق الباب وينادي: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً**﴾، وهو الذي يقول فيها: «**أشمّ منها رائحة الجنّة**»[٢]، ثم يقبلها في جبهتها ويستأذن في الدخول عليها. ويروي بعض الصحابة أن فاطمة عليها السلام إذا دخلت على أبيها صلى الله عليه وآله وسلم ينتفض لها ويقوم، ويقول: «**رضاها رضا الله، وسخطها سخط الله**»، ويقول: «**فاطمة بضعة مني يؤذيني ما يؤذيها**»[٣]. ويقول: «**فاطمة بضعة مني، من آذاها فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله**»[٤].

---

(١) السقيفة وفدك (الجوهري): ١٠٣. وقد سبق أن نقلنا جواب بعض المحققين والمحدثين على كلامه، بالقول: إن هذا مردود؛ لأن جميع مفاهيم الإسلام والسنة المحمديّة ظهرت واضحة على عهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فكيف لم يظهر هذا القول إلّا بعد وفاته، والناقل له هو وحده. وهل إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ـ لا سمح الله ـ أتى بخلاف ما جاء به القرآن كما قالت واستشهدت به السيّدة فاطمة الزهراء عليها السلام من الآيات؟ وكيف أخرج أبو بكر وبأي دليل وسنّة آلة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ودابّته وحذاءه من ضمن الإرث ودفعها إلى علي عليه السلام. وعلى حدّ قول أبي بكر فإن فاطمة الزهراء عليها السلام ورثت إيمان النبي صلى الله عليه وآله وسلم وحكمته وعلمه وسنّته، وإنها وارثة في جميع ذلك، فهل يمكن أن تدّعي ما ليس لها بحق؟ كلّا وألف كلّا. وهل يجوز له أن يقول للصديقة الطاهرة: «**أغلظت فأهجرت، فغفر الله لنا ولك**»؟.

(٢) علل الشرائع ١: ١٨٣ / ١، بحار الأنوار ٤٣: ٥ / ٤.

(٣) مسند أحمد ٤: ٥، صحيح مسلم ٧: ١٤١، الشفا (القاضي عياض) ٢: ٢٣٠، أمالي أبي نعيم: ٤٥، ينابيع المودّة ٢: ٤٧٨ / ٣٤٠.

(٤) نظم درر السمطين: ١٧٦.

وعليه فنحن نقول: إن من باب الإكرام لرسول الله ﷺ ولها حيث كان يكرمها ﷺ أن تعطى ما طلبت، مع أننا نسلم يقينا أنها لم تطلب غير حقّ؛ لأنها أتقى وأورع من ذلك:

ولكان الجميلُ أن يُقطِعاها فدكاً ما الجميلُ أن يَقطَعاها

كان إكرامَ خاتمِ الرسلِ الهادي البشيرِ النذير لو أكرماها

وعلى أقل التقادير فيجب أن يراعى هنا أنها ابنة الذي أكرمنا وأخرجنا من الضلالة والجهالة إلى العلم والنور والإيمان، وأوصلنا إلى هذا المكان. وقد جاءت ﷺ تطلب بلغة لابنيها ﷺ، فأما كان قانون التكرّم يقتضي ان تمنح فدكاً؟ وهكذا أحست ﷺ بأن هناك دافعاً واضحاً للوقوف بوجهها، فرجعت كما يقول بعض المؤرخين تعثر بأذيال الخيبة، ولاذت بحزنها ودموعها، ثم قصدت قبر أبيها ﷺ، فعنّت لها الذكريات، وكيف أنها كانت على عهد أبيها ﷺ، وأين أصبحت الآن حيث ألجأها المسلمون بعد رحلة أبيها ﷺ إلى الرفيق الأعلى إلى أن تطالب ببلغة لأطفالها، فجلست عند القبر تفرغ هذا الألم على ثراه الشريف، وراحت تبلّ ذلك التراب الطاهر بدموع عينيها وهي تقول:

«نفسي على حسراتِها محبوسةٌ يا ليتها خرجت مع الحسراتِ

لا خيرَ بعدك بالحياةِ وإنما أبكي مخافةَ أن تطولَ حياتي»[1]

وهكذا كانت تجلس عند قبر أبيها وتطيل الجلوس، وتبكي ثم تعود إلى بيتها، ولما رأى أمير المؤمنين ﷺ كثرة بكائها، قرر أن يبني لها بيتاً يقيها من حرارة

---

(١) مناقب آل أبي طالب ١: ٢٠٧، بيت الأحزان: ١١٨، تنبيه الغافلين: ٤١، وفي الجميع نسب لأمير المؤمنين ﷺ.

لشمس، وسمّاه بيت الأحزان، فكانت عليها السلام تخرج وتأخذ بيد الحسنين عليهما السلام وتجلس بهذا البيت تندب أباها إلى أن يجنّها الليل، ثم ترجع إلى بيتها، وبقيت على هذه الحالة طريحة فراشها يغشى عليها من الألم ساعة بعد ساعة إلى أن شتدّت عليها العلّة، فأرسلت خلف أمير المؤمنين عليه السلام في لحظاتها الأخيرة وقالت له عليها السلام: «يا أبا الحسن، إني لاحقة بربي هذه الليلة وما أظن إني أبقى معكم». ثم قالت له عليها السلام: «في صدري وصايا تختلج، وأُريد أن أُوصيك بها». قال عليه السلام: «بلىٰ، عزّ والله عليَّ فراقك يا بنت رسول الله». قالت: «يا أبا الحسن، إن أنا قضيت نحبي فغسّلني بثيابي ولا تكشف عني فإني طاهرة مطهّرة. يا علي، لا بدّ للرجال من النساء، فإن أردت أن تتزوّج بعدي فعليك بابنة أُختي أُمامة فإنها تكون لولدي مثلي، ومع ذلك اجعل لها يوماً وليلة وللحسنين يوماً وليلة، ولا تصِح في وجهيهما، ولا تنهرهما فإنهما يصبحان يتيمين منكسرين؛ بالأمس فقدا جدّهما واليوم يفقدان أُمّهما». إلىٰ آخر وصيّتها (سلام الله عليها). ثم قالت: «فادفني ليلاً إذا نامت العيون وهدأت الأصوات»[1].

ولأي الأمـور تـدفن ليـلاً   بضعة المصطفى ويعفى ثراها

بنت من أم من حليلة من ويـ   ـل لمن سن ظلمها وأذاها

وبالفعل راح أمير المؤمنين عليه السلام ينفذ وصاياها واحدة تلو الأخرى وكان أن حملها ليلاً، وأقبل بها حتى أنزلها في قبرها، وجلس على شفير ذلك القبر:

شـيعها الگـبرها بليل   حنىٰ عليها وبچه بـهداي

يگـلها يا وليـف الروح   عگـبچ من يـظل ويـاي

(١) معاني الأخبار: ١/٣٥٦، السقيفة وفدك: ١٤٧، شرح الأخبار ٢: ٤٩٢/١٦٠.

چـنتي صـحوة ايـامي   وعگـبج غـيّمت دنـياي
وشريج الروح لو سافر   ما نـدري الوجـه لا ويـن

* * *

ما لي وقفت على القبورِ مسلماً   قـبرَ الحـبيبِ فـلم يـردَّ جـوابـي
أحـبيبُ مـالك لا تـردّ جـوابَـنا   أنسـيت بـعدي خلّة الأحبابِ[1]

(١) ديوان الإمام علي ﵇ : ٤٠، بحار الأنوار ٤٣: ٢١٧.

﴿٢٢٧﴾

من مشاهد القيامة في القرآن الكريم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ * فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ﴾[1].

مباحث النصّ الشريف

توطئة: طرق تحصيل معالم القيامة في القرآن الكريم

إن القرآن الكريم على حدّ التعبيرات المعاصرة يرسم لنا أحياناً لوحات رائعة مفصّلة عن مشاهد القيامة أو مشاهد ما وراء هذا العالم بشكل يجعلنا وكأننا نعيش في ذلك العالم. والقرآن الكريم ككتاب سماوي يعطي أدقّ التفاصيل عن كل ما له علاقة بما وراء هذا العالم المنظور الذي لا نستطيع أن نحكّم به مقاييسنا، أو أن نخضعه لها؛ لأن مقاييسنا ماهي إلّا مقاييس محدودة تصلح لهذا العالم المحدود الذي يختلف جملة وتفصيلاً عن ذلك العالم الذي ترسمه لنا النصوص القرآنية الكريمة. إن وسيلتنا الوحيدة للاتّصال بالعالم الآخر هي النصوص الواردة عن طريق الشريعة المقدّسة، والتي تصوّر لنا كل جزئياته بالمقدار الذي تنقله هي، وكل ما في الأمر أن وظيفتنا هي أن نتحرّى النصوص الصحيحة الواردة عن المعصوم عليه السلام بهذا الخصوص، وفي الموارد التشريعية الأُخرى كذلك؛ فنحن

---

(١) الدخان: ٥١ ـ ٥٣.

لا نستطيع أن نأخذ بكل نص أو رواية بحجة أنها وارده عن المعصوم ما لم تكن ثابتة فعلاً وفق القواعد الشرعية والضوابط المرعية في المقام، والتي تثبت صحة صدورها عن المعصومعليه السلام.

وهكذا فليس كل نص أو كل رواية يؤخذ بها أو يعمل ما لم تكن صحيحة السند والصدور عن المعصومعليه السلام، واضحة الدلالة سليمتها. وهذا الصورة التي يرسمها لنا القرآن الكريم في واقع الأمر هي صورة غاية في الإمتاع والدقّة، وسوف نعرف هذا من خلال استعراضنا لها إن شاء الله تبارك وتعالى قدر الإمكان من خلال المباحث القادمة:

المبحث الأول: المراد من التقوى

تقول الآية الكريمة: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾، وفي هذا المقطع الشريف منها تحديد لصفة المتقين وما سيكونون عليه يوم القيامة.

من أساليب التوكيد عند العرب

إن من المعلوم في اللغة العربية أن الجملة إذا صدّرت بـ(إنَّ) فهذا يعني أن الجملة مؤكدة، ومما لا شك فيه ولا يمكن النقاش حوله أن ما يصدر من الله تبارك وتعالى هو مؤكد دون أن يكون بحاجة للتأكيد، لكنه الله تبارك وتعالى مع ذلك استعمل هذه الأداة المؤكدة لأنه الله تبارك وتعالى يعلم طبيعة النفس الإنسانية؛ فلذا فهو عز وجل سعياً وراء اطمئنان العبد إلى أن هذه الحقيقة ثابتة لا ريب فيها استعمل أُسلوب التوكيد هذا. وكأنه جلّ وعلا باستخدام هذه الصيغة المؤكدة يريد أن يقول لعبده: إن هذا الذي وعدتك به شيء مفروغ منه، وهو أن للمتقين منزلة خاصة يتميزون بها عند ربهم.

ماهية التقوى

التقوى مشتقة من الاتّقاء، وهي الخشية والخوف من الله تبارك وتعالى، وتجنب معصيته. فالإنسان حينما يتّقي المحذور أو الممنوع الشرعي فهذا يعني

أنه ينتهي عن النواهي التي نهى الله تبارك وتعالى عنها، وعن عصيان الأوامر؛ فهو في موضع طاعة له سبحانه. والتقوى تشمل الجانبين؛ أي الأوامر والنواهي، فالتقوى في الأوامر هي تطبيقها وعدم عصيان الله تبارك وتعالى بتركها، والتقوى في النواهي هي الامتناع عنها وعدم عصيان الله تبارك وتعالى بإتيانها. وهذا التقرير بناء على أن على الإنسان ينبغي ألّا يترك أمراً من أوامر الله عز وجل، وألّا يرتكب شيئاً مما نهى عنه، فإذا فعل هذه الأمور وخشي ربّه فإننا حينئذٍ نعبّر عنه بأنه إنسان تقي أو متّقي.

إشكال حول التقوى العدمية

وهنا ربما ينشأ في أذهان البعض إشكال أو يرد على ألسنتهم، وهو أن التقوى إنما تكون فيما إذا كانت في جنبة الانتهاء عن المعاصي، وحينئذٍ تكون تقوى عدمية؛ لأنها ترك، والترك ليس بفعل، وما ليس بفعل فهو عدمي، وما كان كذلك فكيف يمكن للإنسان أن يستحقّ عليه الجزاء، مع أن المفروض أنه إنما يستحقّ الجزاء على الفعل نفسه لا على ترك الفعل؟ وإذا كان هذا التقرير صحيحاً وأن الإنسان يستحقّ الجزاء والثواب على الترك، فهل هذا يعني أننا نستحق جزاء على كل التروك؟

والجواب عن هذا الإشكال يتمّ ببيان أمرين:

الأول: أن الترك فعل نفسي

إن التقوى في حقيقة الأمر حتى لو كانت بالمعنى الذي ذكره هذا الإشكال، لكنها تنطوي في واقع الأمر على فعل نفسي. والمراد بالفعل النفسي: الكف عن استعمال وسائل الحرام، أو الموصلة إليه. بمعنى أنه لو إن إنساناً يملك مالاً يستطيع أن يستعمله كوسيلة إلى الحرام، وكان شابّاً يستطيع أن يستعمل طاقة الشباب التي

يمتلكها وسيلة إلى الحرام أيضاً، فيصل بهما إلى اللذّة المحرمة، لكنه مع ذلك يترك هذه اللذّة المحرمة، ويمتنع عن الولوج فيها؛ خوفاً من الله تبارك وتعالى، فإنه بهذا يستحقّ المدح. وهذا لا يعني أن النفس هي عبارة عن شيء جامد لا يتحرّك، بل العكس هو الصحيح؛ ذلك إن في الإنسان نبضاً وروحاً، ومن الممكن أن تلتذّ نفسه بالأشياء؛ حرامها، وحلالها، لكن ما يمنع من ولوج ذلك هو الخوف من الله تبارك وتعالى، وهذا الخوف هو التقوى والإيمان.

إذن فالإنسان حينما يتّقي ويمتنع عن إتيان المحرّم فإنما هو في واقع الأمر يكون قد قام بعملية كفّ نفسية لنفسه هو عن الولوج في طريق معصيته سبحانه وتعالى، وهذه العملية هي عبارة عن إلجام النفس ومنعها عن السقوط في الحرام والتورط فيه، وهذا العمل هو الذي يستحقّ عليه الإنسان الجزاء. غاية مافي الأمر أنه عمل نفسي.

الثاني: دلالة الروايات على كونها فعلاً

فعندنا روايات تنصّ على أن التقوى ليست عبارة عن تروك فقط، بل إنها عبارة عن أفعال، أو عن طاعات يخضع فيها العبد لله تبارك وتعالى؛ ولذا فقد ورد في الروايات أن التقوى هي أن «**يطاع الله عزّ وجلّ ولا يعصى، ويذكر ولا ينسى، ويشكر ولا يكفر**»[1].

شرح مفردات الرواية

وسوف نحاول هنا مناقشة هذه المفردات الثلاث التي وردت في هذه الرواية الشريفة:

(١) مشكاة الأنوار: ٩٣.

الأولى: أن «يطاع الله عز وجل ولا يعصى»

ينبغي أن يعلم أن كل معصية يقع فيها الإنسان مهما كانت هي معادلة ذات طرفين: الطرف الأول هو الله تبارك وتعالى، والطرف الثاني إما أن يكون إنسان أو رغبة من رغبات النفس. وكمثال لتوضيح هذا نقول: إن هذه المعادلة يمكن أن تُتصوّر على نمطين:

الأول: ما كان طرفا المعادلة فيه الله والنفس

فالله تبارك وتعالى حينما أمرنا أن ننفق في سبيله؛ فإن هنا في البين معادلة طرفها الأول أمر الله عز وجل بالإنفاق، وطرفها الثاني منع النفس صاحبَها عن أن يقدم على ذلك، فهي تأمره بالإمساك، وتوسوس له بأن هذه الأموال قد جد واجتهد وتعب من أجلها ومن أجل جمعها، فلماذا عليه أن ينفقها على غيره دون مقابل؟ إذن عليه أن يحتفظ بها وألّا يفرّط فيها؛ لأنه لم يجدَّ أحد في تحصيلها وجمعها غيره، ولم يتعب فيها ذلك التعب كله سواه. وهكذا نجد أننا إزاء كل أمر أو نهي نخوض في معادلة طرفاها الآمر أو الناهي وهو الحقّ تبارك وتعالى، والرغبة النفسية التي تحاول عرقلة الامتثال لتلك الأوامر بطاعتها، وللنواهي بالامتناع عنها.

والإنسان حينما يطيع طرفاً من هذين الطرفين فإنه يكون قد عبده؛ ذلك أن العبادة ليست إلّا إطاعة للأوامر؛ فإن أطاع الله فقد عبده، وإن أطاع نفسه وهواه فقد عبدهما[1].

---

(١) قال عزّ من قائل: ﴿أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ الجاثية: ٢٣.

الثاني: ما كان طرفا المعادلة فيه الله وصديق السوء

أي أن الطرف الثاني هو إنسان يدعو صاحبه إلى أن يبتعد عن الله تبارك وتعالى وألّا يمتثل أوامره، وألّا ينتهي عن نواهيه، بل إنه فوق ذلك كله يدعوه إلى ارتكاب كلّ أمر محرم ينهى الله تبارك وتعالى عن ارتكابه. والإنسان حاله هنا حاله في النمط الأول من المعادلة، فإنه إن أطاع الله فقد عبده وإن أطاع ذلك الإنسان فقد عبده دون الله جلّ وعلا.

وليعلم بأن الله تبارك وتعالى إذا ما أُطيع طاعة خالصة ناصحة تأخذ بمجامع قلب صاحبها ووجوده، وبأطراف تصرّفاته وتفكيره فإنها سوف تقضي على حالة الطاعة لرغبات النفس، أو لإنسان يدعوه إلى المعصية قضاء كاملاً؛ لأنها حينئذٍ سوف تخلي قلب هذا الإنسان إلّا من التفكير بطاعة الله تبارك وتعالى. ولهذا فإن الطاعة عادة تنظف الإنسان وتطهّر باطنه، وفي مثل ذلك الوقت يستطيع أن يقف أمام الله تبارك وتعالى ويقول له: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾[1]، دون أن يكون قد عبد غريزة، ولا قول رفيق سوء يدعوه إلى معصية الله، ولا إلى عبادة مؤثّر خارجي آخر كالمؤثرات الاجتماعية أو غيرها، والتي تنأى به عن الطاعة الحقيقية والمرادة لله تبارك وتعالى.

إن الإنسان حينما يقف في المحراب ويصلي ويقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، فإنه في واقع الأمر ربما يكون يعبد كثيراً من رغباته، وكثيراً من المؤثّرات الاجتماعية أو السياسيّة التي تحيط به، وكذلك كثيراً من رفقاء السوء الذي يدعونه إلى التخلّي عن تلك الطاعة وإلى الانسياق وراء أهوائه ولذائذه. ومع كل هذا نجده يقف في

---

(١) الفاتحة: ٥.

ذلك المحراب المقدّس ويتجاسر على الله تبارك وتعالى ويقول له: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، مع أنه لا يعبده تبارك وتعالى، بل يعبد الدنيا بما فيها. إن الله تبارك وتعالى من حقه أن يطاع طاعة خالصة كاملة دون أن يعصى، ونحن نقول: إن هذا من حقه؛ لأنه ليس هناك من شيء يستحق أن يعصى الله تبارك وتعالى من أجله، وليس هناك من رفيق سوء أو أي إنسان هو أهل لأن يعصى الله تبارك وتعالى من أجله، وكذلك الحال مع الغرائز والرغبات. فمن عنده دين ووعي يعرف أن طاعة الله عز وجل سوف تخلصه من كل أنماط العبوديات الأُخرى التي تبتعد به عن العبودية الخالصة لله تبارك وتعالى.

الثانية: «ويذكر ولا ينسى»

إن الله عز وجل يقول في كتابه الحكيم: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَاتَكْفُرُونِ﴾[1]، فإذا كان الإنسان في حالة من حالات الذكر الخالصة لله تبارك وتعالى، فإن الله حتماً سوف يذكره ولا ينساه. وهل ذكر الله إلّا رحمته ورضوانه؟

أمير المؤمنين عليه السلام ومحاولات التغييب

وكمثال على هذا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام؛ فليس هنالك في التاريخ شخص تعرّض إلى التعتيم وإلى التغييب، وإلى محاولة أن ينسى هو وكل ما له علاقة به مثله، فهو عليه السلام منذ أن خرج إلى الوجود وحتى الساعة يتعرّض كل لحظة إلى محاولات لا حصر لها للتعتيم على شخصيته. وهذا واضح للعيان، فهناك إصرار واضح من البعض على أن يغيّب عن الساحة وعلى أن يبعد عنها وعلى أن ينسى ويمحى وجوده وذكره من أذهان المسلمين.

---

(١) البقرة: ١٥٢.

وقد اتبعت في سبيل ذلك أشكال وأنماط عدّة كي يتمكّن أصحاب هذه المحاولات من أن يمحىعليه السلام من ذاكرة الإنسان المسلم، ومن ذاكرة التاريخ الإسلامي، ومن ذاكرة الوجود كلّه. ولكننا مع كلّ هذه المحاولات التي صُبّت عليه منذ أن خرج إلى الوجود نجده ذِكراً شامخاً سامياً لا يرقى مرتقاه أحد، ودون أن تنال منه تلك المحاولات شيئاً[1]. وليس هناك من سبب لهذا الذكر الخالد الذي شقّ الأجواء وملأ الخافقين سوى أنهعليه السلام لم ينسَ الله سبحانه وتعالى في لحظة من لحظات حياته طرفة عين، فقد كان كل وجوده وكيانه عطراً من ذكر الله تبارك وتعالى. إنهعليه السلام لم ينسَ الله تبارك وتعالى في حياته كلها، بل كان كل وجوده مخصّصاً للخضوع إلى الله جلّ وعلا، ولطاعته ولذكره وعبادته.

وقد عبر الإمام أبو عبد الله الصادقعليه السلام عن حالة أمير المؤمنينعليه السلام تلك في قوله الشريف: «**إنه ليعمل عمل رجل كان وجهه بين الجنة والنار، يرجو هذه ويخاف عقاب هذه**»[2].

وهكذا كانعليه السلام يقدم كل ما عنده لله تبارك وتعالى، وكان إذا تردّد عنده أمران قدّم الذي فيه رضا لله تبارك وتعالى على الذي في رضا لنفسه ولرغبته، وهذا يعني إنه كان يكبت رغباته من أجل أن يرضي الله تبارك وتعالى وأن يطيعه[3]. وهكذا فإنهعليه السلام تمر عليه حالات أقلّ ما فيها أنها تحرك الجماد نفسه، لكنهعليه السلام كان منشغلاً بذكر الله تبارك وتعالى ومشتغلاً به لا يتركه أبداً، فذكر الله عزّ وجلّ دائماً في ذهنه

---

(١) قال الأعشى:

كناطح صخرةً يوماً ليفلقَها   فلم يضرْها وأوهى قرنَه الوعلُ

ديوان الأعشى: ١٤٤.

(٢) شرح الأخبار ٣: ٢٧١ / ١٧٥، الإرشاد ٢: ١٤٢.

(٣) كما في قولهعليه السلام: «الجلسة في الجامع خير لي من الجلسة في الجنة؛ لأن الجنة فيها رضا نفسي، والجامع فيه رضا ربي». إرشاد القلوب: ٢١٨، وسائل الشيعة ٥: ١٩٩ / ٦٣٢٥.

وعلى لسانه، ولذلك كان يقدم ما لله على ما تشتهيه نفسه، يقول عليه السلام في كلمته: «**قد يرىٰ الحُوّل القُلّب[١] وجه الحيلة، ودونها مانع من أمر الله ونهيه، فيدعها رأي عين بعد القدرة عليها، وينتهز فرصتها من لا حريجة له في الدين**»[٢]. أي أنه عليه السلام كان بوسعه أن يبطش وينتقم ممن عارضه لكن لأن الله تبارك وتعالى أدبه بتأديبه فأحسن أدبه فإنه يترك ذلك مما هو فيه رضا لنفسه؛ تقديماً لما فيه رضا الله تبارك وتعالى. وقد أدبه الله تبارك وتعالى بقوله: ﴿**وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ**﴾[٣]، فآثر ما أمر الله تبارك وتعالى به على ما أمرته به نفسه، فالنفس عادة تدعو صاحبها لأن يتميز عن الآخرين باللباس أو بالطعام أو بالسكن، لكنه لم يلتفت إلى النفس بل التفت إلى أمر الله عزّ وجلّ، ونهى النفس عن الهوى فلم يلتجئ إلى تلبية رغباتها. ولهذا فإن التاريخ يحدثنا أن طعامه عليه السلام لم يكن سوى شعير قد وضعه في جراب فيأخذ منه كفّاً ليأكله ويشرب عليه شيئاً من الماء، ثم يقول: «**من أدخله بطنه النار فأبعده الله**»[٤].

وكان عليه السلام يرتدي قطيفة صورها في إحدى روائعه حيث قال: «**ولقد رقعت مدرعتي حتىٰ استحييت من راقعها، وحتىٰ قال لي قائل: ألا تنبذها عنك؟ فقلت اعزب عني، فعند الصباح يحمد القوم السرىٰ**»[٥]. فلله أنت أبا تراب؛ فأنت

---

(١) القلّب: البصير بتحويل الأُمور وتقليبها. مختار الصحاح: ١٦٤ ـ حول.

(٢) نهج البلاغة / الخطبة: ٤١. وقال عليه السلام: «والله لو شئت لاهتديت الطريق إلىٰ مصفىٰ هذا العسل ولباب هذا القمح، ونسائج هذا القز، ولكن هيهات أن يقودني هواي، أو يغلبني جشعي إلى تخير الأطعمة». نهج البلاغة / الكتاب: ٤٥.

(٣) فصلت: ٣٤.

(٤) الدعوات: ١٣٨ / ٣٤٠، مناقب أمير المؤمنين عليه السلام (محمد بن سليمان) ٢: ٨٢ / ٥٦٧، كنز العمّال ٣: ٧٨٢ / ٨٧٤١، تاريخ مدينة دمشق ٤٨: ٢٣٠.

(٥) نهج البلاغة / الخطبة: ١٦٠، عيون المواعظ والحكم: ٤٠٥.

إذ خلعت عنك ثوب الدنيا، فقد ألبسك الله تبارك وتعالى ثوباً طاهراً نقيّاً من الذكر الخالد لا يبلى، وستبقى خالداً وأنت تلبس عناية الله عز وجل التي سوف لن تفارقك لحظة من اللحظات:

وما مِدحتي تُوليك فخراً وإنما ... أردّ بإطرائي عليك الطَّواريا

إذا الملأ الأعلى تحدّرَ بالثَّنا ... عليك فما شأني وشأن ثنائيا

وهكذا فإن العبد كلما كان في ذكر الله كان الله تبارك وتعالى في ذكره دون أن ينساه، فالله جلّ شأنه لا ينسى من يذكره أبداً.

وهكذا نجد أن من التقوى أن يذكر الله تبارك وتعالى ولا ينسى، والإنسان إذا استحضر وجود الله عز وجل في كل لحظة من لحظات حياته، وعند كل تصرف من تصرفاته، وعند كل عمل يريد أن يقوم به فإن هذا الاستحضار يصوغه على النمط الذي تريده السماء.

الثالثة: «ويشكر ولا يكفر»

وقبل أن ألج في هذا المقطع الشريف أريد أن أُبيّن أن بعض الناس يتصوّر الشكر بمعنى بسيط جداً هو أنه عبارة عن الاعتراف باللسان بنعمة الله تبارك وتعالى، أو هو عبارة عن ترديد عبارات معيّنة من الثناء عليه جلّ شأنه وتحميده.

الضرائب الماليّة شكر عملي

إن الشكر في الحقيقة لم يكن كذلك فقط أبداً، أي أنه قلبي أو لساني، وإنما هو عبارة عن الإسهام بما أنعم الله تبارك وتعالى على عبده بالشكل الذي أراده سبحانه له، فالله تعالى أراد للإنسان أن يكون شاكراً بشكل عملي، ولهذا فإن أنماط الضرائب التي فرضت على العبد هي مظهر من مظاهر الشكر لله تبارك

وتعالى. فالله عز وجل قد أمر الإنسان بإعطاء بعض الحقوق في سبيله على شكل نفقات واجبة، وهي في واقع الأمر هو مظهر من مظاهر الشكر.

وكذلك من مظاهر الشكر أن الله تبارك وتعالى أراد أن يظهر على العبد أثر نعمته عليه[1]. ولذلك فإنه يقال: إن الإنسان إذا أراد أن يلبس لباساً أنيقاً راقياً بقصد إظهار نعمة الله عليه، فهذا اللون من التصرف مستحب شرعاً؛ وذلك أنه يريد أن يعرف الناس بأن الله عز وجل قد أنعم عليه.

حقيقة الشكر

وحقيقة الشكر هو أن ننسب ما حصلنا عليه من نعمة إلى عطاء الله سبحانه وتعالى، وليس إلى ملكاتنا النفسية، أو قدراتنا وطاقاتنا الشخصية؛ فكثير من الناس يظنّ أنه بعبقريته وقوّته وطاقاته وبما يملك من علم ولياقة وقابليات ومهارات يتمكن من أن يكسب ما كسب تبعاً لظروفه الخاصة التي هو عليها. وهكذا فهؤلاء يرون أنهم إنما كونوا أنفسهم، وبلغوا ما بلغوا من مرتبات عالية ليس إلّا بمجهودهم الشخصي، وبخبراتهم وطاقاتهم ومهاراتهم. وهذا غير صحيح مطلقاً؛ فالوسائل جميعها تكبو ما لم تكن هناك عناية إلهية تراقب وتتدخّل لتوجيه تلك الوسائل والخطوات، ودفعها إلى الأمام، كي يحصل الإنسان على مبتغاه.

وهنا فإننا نقول: إن واقع الأمر يفرض علينا أن نعتقد بأن الله تبارك وتعالى قد منح بعض الناس وسدّدهم، وأُلئك هم الذين يكون عندهم أساساً توجّه إلى الله تبارك وتعالى، وإلّا فإن الإنسان إذا ما كان بعيداً عن عطاء الله سبحانه فإنه سوف

---

(١) يقول الرسول الأكرم ﷺ: «إن الله يحب إذا أنعم علىٰ عبد أن يرىٰ أثر نعمته عليه». تحف العقول: ٥٦، بحار الأنوار ٧٤: ١٥٩ / ١٥٨.

لن يحصل على شيء ولو ملك عبقريات الدنيا بأجمعها؛ بل إنه حينئذٍ لا يستطيع أن يحصل على رغيف من الخبز.

إذن فمعنى شكر الله تبارك وتعالى هو أن يتخلّى العبد عن تصوّره بأنه بما عنده من مواهب وقابليات ومهارات قد حصل على ما حصل عليه من رزق ومن نعمة، وأنه قد وصل بها إلى ما وصل إليه. ثم عليه أن يعترف ويقرّ بأن جميع ما عنده هو من منن الله تبارك وتعالى، وتفضّله عليه، وإحسانه به إليه، وعطفه ورعايته، وعنايته به.

دور السبب الطبيعي في تحصيل الرزق

وأنا هنا لا أُريد أن أُنكر السبب الطبيعي في هذه العملية وما له من أثر؛ فنحن حتماً نقرّ بأن طلب العلم له أثر في تحصيل الرزق، كما أن خدمة الناس لها أثر كبير في تحصيل هذا، ولكن كما يقال: فإن هذا جزء العلّة، وليس هو العلّة التامّة له، فالعلة التامّة هي أن الله تبارك وتعالى إذا أراد أن يعطي عبده وأن يمنحه هيّأ له مقدّمات ذلك، فيحصل العبد على ما يريد؛ لأن الله هو الذي يمنح ويمنع؛ فهو الذي بيده العطاء، وبيده المنع.

إذن بعد هذا التوضيح كلّه نقول: إن التقوى في حقيقتها عمل وإن كانت عملاً نفسياً.

المبحث الثاني: المراد من المقام الأمين في الآية الكريمة

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾، والمقام تارة يُقرأ بضم الميم، وهو حينئذٍ يعني مكان الإقامة، وتارة يقرأ بفتحها، وهو حينئذٍ يعني مكان القيام والقعود. وفي هذا المورد نجد أن القرآن الكريم يعبّر عن المكان الذي

يتحرك المؤمنون فيه بأنه أمين. ولنا أن نسأل عن أنه ﴿أَمِين﴾ من أي شيء؟ إن أهم شيء يهدّد وجود الإنسان، ويقلق راحته، ويسلبه استقراره وطمأنينته، ويجعله في حالة من عدم الاستقرار الدائم هو شعوره بأنه سيموت، أو بأنه سوف يُسلب كلّ ما عنده، والقرآن الكريم في هذا المقام يريد أن يطمئن الإنسان بأنه في الجنة ليس هنالك من أثر أو وجود للموت، بل ولا حتى للشعور به: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾[1]. وهكذا من يدخل الجنة فسوف يعرف بأنه لن يترك ما عنده وما هو فيه من النعيم أبداً، فليس هناك من شبح يهدّده بأنه سوف يموت، أو سوف يسلبه عطاءه ونعمته.

زوال الدنيا ونعيم الآخرة

وبهذا فإن الإنسان سوف يستعمره شعور بالخلود، وباستمرار تلك الحياة والنعمة التي هو فيها، والعطاء الذي أغدقه الله تبارك وتعالى عليه، وهو عطاء لا ينفد ولا ينقطع أبداً: ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾[2]. وغير خفي أن هذا الشعور سوف يطرد عن صاحبه أعظم نوع من أنواع الرعب الذي ربما يستعمر ذهنه أو تفكيره أو إحساساته، وهو الشعور بالموت وسلب النعمة وما إلى ذلك.

إذن فأي أمان أعظم من هذا الأمان الذي يكون في الجنة؟ فالإنسان حينما يشعر بأنه أمام حكَم عدل، أو أنه سيقف في يوم من الأيام بين يدي حاكم عدل يحاكمه بعدله وبرحمته فإنه سوف لن يرتعب. وهو بخلاف ما لو أنه سيقف بين يدي حاكم ظالم يخضع لعواطفه ولرغباته ولهوى نفسه. وبهذا فإنه تحت حكم هذا الحاكم من الممكن أن يظلم، أما بين يدي الله تبارك وتعالى فسوف لن يظلم أبداً؛

---

(١) الدخان: ٥٦. (٢) الرعد: ٣٥.

لأن الله قد سبقت رحمته غضبه؛ ولهذا فإنه يحاكم الناس برحمته وبعدله. يروى أن يحيى بن خالد البرمكي قد سئل: كيف حالكم بعد هذه النكبة التي نكبتم بها؟ فقال: إن الزمان أعطانا وأنصف، ثم مال علينا وأجحف.

وهذا صحيح؛ فإن الزمان قد أعطاهم عطاء لا حدود له، ثم مال عليهم ميلة عظيمة لم يكن لها حدّ. فهذا ما حصل فعلاً، يقول المؤرّخون: كان الرشيد بالأنبار ومعه جعفر، وكان جعفر بمنزله، وقد دعا أبا زكّار وجواريه، ونصب الستائر وأبو زكّار يغنّيه:

ما يريد الناس منّا ... ما ينام الناس عنّا
إنـما هـمهُمُ أن ... يظهروا ما قد دفنّا

فطُرق الباب، فلما فُتح دخل مسرور غلام الرشيد، وأبو زكّار يغني:

فلا تبعد فكلّ فتى سيأتي ... عليه الموت يطرق أو يغادي
وكلّ ذخيرة لابدّ يوماً ... وإن بقيت تصير إلى نفادِ
ولو فوديت من حدث الليالي ... فديتك بالطريف وبالتلادِ

فقال له: الرشيد يدعوك. وأقبل به إلى أن وصل به إلى باب قصر الرشيد، فلما وصلوا عنده قال له: قد أمرني الرشيد أن أقتلك، فقد قال لي: اذهب إلى جعفر بن يحيى وجئني برأسه الساعة، ولم أشأ أن أُروّع عيالك فأُخبرك بالأمر بحضورهم. فأقبل جعفر يتوسّل إليه وقال: فارجع وأعلمه بقتلي؛ فإن ندم كانت حياتي على يدك، وإلّا أنفذت أمره فيَّ؛ فربما كان ثملاً. قال لا أقدر، وقد كنت عنده قبل قليل، وكان في لحظة صفاء، بل في أروع لحظاته. قال فأسير معك إلى مضربه وأسمع كلامه ومراجعتك، فإن أصر فعلت. قال: أما هذا فنعم. وسار إلى مضرب الرشيد،

فلما سمع حسّه قال له ما وراءك. قال: جئتك برأسه. قال: عجّل يابن الفاعلة. فالتفت إلى جعفر وقال له: أسمعت؟ قال: نعم. قال: مدّ عنقك. فمدّ عنقه فقطعه. ثم جاءه به، فأقبل عليه، وأنشأ يقول:

إن سهامنا إذا وقعت ... لتقدّ ما تعلو به رتبُ

وإذا بدا للنمل أجنحة ... حتى يطير فقد دنا عطبُ[1]

وهكذا بين لحظة وأُخرى انهارت دنياهم بأجمعها، وتحولت إلى حالة من حالات الانتقام التي مرّت بنفس الرشيد، فغيرّت كل شيء عنده. ومعلوم أن حالات الانتقام العارمة التي تنتاب الإنسان وهو يحكم على غيره تتدخّل فتجعله يصوّر الحقّ باطلاً، والباطل حقّاً، فيحكم على الآخرين بتأثير من رغبات نفسه ووحي من هواه بغير العدل؛ ممّا يؤدي إلى حصول حالات من الظلم كثيرة. وهكذا فإن الإنسان إذا ما حوكم على يد إنسان مثله فإنه قد يتعرّض إلى شتّى ألوان التعسّف، وهذا الأمر إنما يكون ممّن لا يبالي بشيء؛ لأنه ليس إلّا كائناً أسيراً لرغباته النفسية، ولمشتهياته ولهواه.

هذا في الدنيا، أما في الآخرة فإن الإنسان إنمايقف بين يدي حكم عدل، يحكم برحمته قبل عدله؛ ولذا فإن الأمان متوفّر هناك؛ لأن البارئ عزّ وجلّ لا يمكن أن يخرج من نطاق العدل أبداً؛ لأنه تبارك وتعالى ينعم على من يحاكمهم يوم القيامة بنعمة العدل. ولهذا فإننا نقول: إن الإنسان يجب أن يطمئن إلى أنه سوف يكون آمناً من هذه الناحية في ذلك اليوم. ثم إذا ما دخل الجنة فهو آمن من ناحية المرض، وآمن من ناحية أذى الناس، وآمن من ناحية سلب النعمة، وآمن

---

(١) وفيات الأعيان ١: ٣٣٨ ـ ٣٣٩.

من ناحية الموت.

إن الإنسان يعلم بأنه ما من شيء في الدنيا إلّا وهو يسلبه أمنه ذلك، ولا شيء في الآخرة إلّا وهو يوفّر له أمنه ذلك.

فالدنيا ليس فيها جانب من الجوانب أمين أو يمكن أن يأمن له الإنسان، أما الآخرة فهي على العكس من الدنيا تماماً؛ ولهذا فإن الآية الكريمة قد عبّرت عن هذا بقولها: ﴿**فِي مَقَامٍ أَمِينٍ**﴾.

وممّا له علاقة بهذا المعنى الذي نحن بصدده أن محمد بن عبد الله بن طاهر كان في قصره ببغداد على دجلة، فإذا بحشيش على وجه الماء في وسطه قصبة على رأسها ورقة، فأمر بأن يأتوه بها، فلمّا جاؤوه بها وفتحها وجد فيها هذه الأبيات من الشعر:

تاه الأعيرج واستولى به البطرُ ... فقل له خير ما استعملته الحذرُ

أحسنت ظنّك بالأيام إذ حسنت ... ولم تخف سوء ما يأتي به القدرُ

وسالمتك الليالي فاغتررت بها ... وعند صفو الليالي يحدث الكدرُ

فلم ينتفع بنفسه أياماً؛ فقد أحسّ بأن هذه الورقة قد نغّصت عليه حياته، وأذهبت برونق ليلته ومجلسه[1].

في حين أن هذا المعنى غير موجود في الآخرة، وهذا ما يؤكّده القرآن حيث يقول إن المتقين في حرز من كل هذه الأحاسيس والمشاعر التي يمكن أن تخطر على بال الإنسان وهو في الحياة الدنيا.

---

(١) شرح نهج البلاغة ١١: ١٧١، ١٩: ١٧٨.

المبحث الثالث: التبشير بالجنة

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾، وحول هذا المقطع الشريف ينبغي أن نذكر جملة أُمور هي:

الأول: تبشير القرآن بالجنة ورأي علماء الاجتماع به

إن هناك رأياً لبعض علماء الاجتماع يقولون فيه: إن قرآن المسلمين يبشر دائماً بالجنات، والجنات تعنيْ البساتين الخضراء والعيون ومنابع المياه والأنهار، فلماذا كلّ هذا التأكيد على هذه النقطة؟ يقول هؤلاء: إن هذا ما هو إلّا مساوقة للبيئة التي كان يعيش فيها نبي المسلمين والعرب والمسلمون؛ يعنون بهذا أن النبي ﷺ قد بعث في صحراء قاحلة في الجزيرة العربية.. صحراء تعمرها الرمال المحرقة، والشمس التي تصهر الوجوه؛ ولهذا فإن أهل تلك المناطق وسكانها كانوا يتوقون إلى البساتين المخضرّة والمياه المتدفّقة؛ وهذا ما دعا القرآن الكريم إلى استمالتهم عبره؛ كونه شيئاً ينزعون إليه ويريدونه، ويصبون إلى الحصول عليه وامتلاكه.

نقد هذا الرأي

وهذا الكلام طبعاً لا يصمد أمام النقد أبداً، وبالتالي فهو لا قيمة له، ذلك أننا نقول: إن المسلمين موجودون في كل مكان وفي كل بقعة من بقاع العالم، ومعلوم أن الموجودين منهم في العالم الغربي ـ حيث الجنان الخضراء والمياه المتدفقة وحيث إن بعض تلك البلاد جنة من جنان الله تبارك وتعالى ـ ينعمون بكل هذه الجنات، وبالتالي لا ينطبق عليهم رأي علماء الاجتماع ذاك، فهل إن هؤلاء المسلمين يعدهم الله تبارك وتعالى بنوع آخر من النعيم، أو أنهم لا نصيب لهم في

جنة الآخرة؟ وهل هم محرومون كما هم أهل الجزيرة العربية حتى يرغّبهم الله بما تتوق إليه أنفسهم، ممّا جعله جزاء للصالح منهم؟

إننا في الواقع والحقيقة نقول: إن مما جبلت عليه النفس هو حبّ المناظر الخضراء والمياه الجارية أو المتدفقة، فالإنسان يشعر بارتياح كبير حينما يتطلّع إلى نهر جارٍ، أو إلى ماء متدفّق، أو شلّال منهمر، وكذلك يشعر بالشعور عينه حينما ينظر إلى بستان أخضر أو إلى جنينة تحوي كل ما يمكن أن يخطر على بال الإنسان وفي ذهنه. ولذا فإن هذه الأُمور تعدّ من أعظم النعم على الإنسان؛ لأنها من أهم الأشياء التي تتوق إليها نفسه وتتناغم معها، فهي مناظر تبعث البهجة ولهذا فإن أول شيء يعمد إليه الظالمون في محاربة من يناوئهم ويكن لهم العداء هو استلابهم دورهم وضياعهم، ومصادرة بساتينهم وحقولهم وأراضيهم الزراعية. وهذا هو ديدن الظلمة على مرّ التاريخ، حينما جاء عمر بن عبد العزيز إلى الحكم قرّر أن يأخذ الأموال من بني أُميّة ويرجعها إلى أصحابها الذين سلبت منهم؛ فقد جاءته عرائض كثيرة تطلب منه إرجاع ما استلبه الخلفاء الذين سبقوه، فتدخل عليه عمّته، وتقول له: ألا تخشى منهم؟ قال لها: «كل يوم دون يوم القيامة لا أخشاه»[1]. فدسّوا له السم وقتلوه.

وظاهرة مصادرة الضياع والبساتين والأراضي الزراعية كانت مألوفة وتمارس على نطاق واسع أيام الدولتين الأُموية والعباسية؛ لأنها كانت أثمن ما عند الإنسان، وهم يدركون أنها أثمن ما عنده. وهذا بخلاف ما هو معروف عن الصلحاء من خلال تتبّع سيرتهم، فهم يضحّون بأثمن ما لديهم، ومن هذا ما حدث من أبي طلحة الأنصاري، فحينما نزل قوله تعالى: **﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا**

---

(١) انظر الطبقات الكبرى ٥: ٣٩٨.

تُحِبُّونَ ﴾[١]، قام فقال له: يا رسول الله، لدي أحسن ضيعة، وهي بيرحاء[٢] كنت ادّخرتها لنفسي، وأنا أُشهدك أنها صدقة في سبيل الله؛ لأن هذه ممّا أُحبّ والقرآن الكريم يقول: ﴿لَنْ تَنَالُوا البِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾، وأنا أُريد أن أنال البرّ. فقال النبي ﷺ: «بخٍ بخٍ، ذلك مال رابح»[٣].

وأبو طلحة الأنصاري رضي الله عنه أُنموذج مشرف رائع، وقد كان رجلاً عظيماً وعندما يرجع الباحث إلى ترجمته فإنه سوف يهتزّ لها من أعماقه بما له من مواقف مشرفة كثيرة، فقد كان من خيرة الأنصار والمؤمنين الصادقين.

ومثل هذه المسألة كانت هناك مسألة للإمام الحسين عليه السلام، فعن الحسن البصري قال: كان الحسين عليه السلام سيداً زاهداً، ورعاً صالحاً ناصحاً، حسن الخلق، فذهب ذات يوم مع أصحابه إلى بستان له، وكان في ذلك البستان غلام يقال له: صافي، فلما قرب عليه السلام من البستان رأى الغلام يأكل، وكان طعامه خبزاً ولحماً، فجاء كلب، فرفع الرغيف فرمى بنصفه إلى الكلب وأكل نصفه، وفعل كذلك مع اللحم، فتعجّب الحسين عليه السلام من فعل الغلام، فلما فرغ من الأكل قال: الحمد لله رب العالمين، اللهم اغفر لي ولسيدي، وبارك له كما باركت لأبويه يا أرحم الراحمين. ثم قام فناداه الحسين عليه السلام: «يا صافي». فقام الغلام فزعاً وقال: يا سيدي، إني ما رأيتك فاعفُ عني. فقال الحسين: «اجعلني في حلّ يا صافي؛ دخلت بستانك بغير

---

(١) آل عمران: ٩٢.

(٢) بيرحا ـ بفتح أوله والراء، على وزن خَيزَلىٰ ـ ويقال: بئرحاء ـ مضاف إليه ممدود ـ ويقال: بيرحاء، وفي رواية مسلم: بريحا، وفي رواية أبي داود: باريحا. وهذا كله يدل على أنها ليست ببئر، وقيل: هي أرض لأبي طلحة، وقيل: هي موضع بقرب المسجد بالمدينة يعرف بقصر بني جديلة. معجم البلدان ١: ٥٢٤ ـ بيرحا.

(٣) مسند أحمد ٣: ١٤١، صحيح ابن حبّان ٨: ١٢٩ ـ ١٣٠، ١٦: ١٤٩ ـ ١٥١، تفسير القرآن العظيم ١: ٣٨٩.

إذنك». فقال صافي: بفضلك وكرمك تقول هذا. فقال الحسين عليه السلام: **«إني رأيتك ترمي بنصف الرغيف إلى الكلب، وتأكل نصفه، فما معنى ذلك؟»**. فقال الغلام: يا سيدي، إن الكلب ينظر إليّ حين آكل، فإني أستحيي منه لنظره إلي، وهذا كلبك يحرس بستانك من الأعداء، وأنا عبدك، نأكل من رزقك معاً.

فكأنه يريد أن يقول له: إنني أستطيع أن أُعبّر عمّا في نفسي من حاجات وانفعالات، أمّا الكلب فلا يستطيع ذلك.

فبكى الحسين عليه السلام، ثم قال: **«إن كان كذلك، فأنت عتيق لله»**. ووهب له ألف دينار، فقال الغلام: إن أعتقتني فإني أُريد القيام ببستانك، فقال الحسين عليه السلام: **«إن الكريم إذا تكلّم بكلام ينبغي أن يصدقه بالفعل، البستان أيضاً وهبته لك، وإني لما دخلت البستان، قلت: اجعلني في حلّ؛ فإني قد دخلت بستانك بغير إذنك، وكنت قد وهبت البستان بما فيه»**[1].

فالمهم الذي نود أن نشير إليه هو أن خير ما يمنح الله تبارك وتعالى عباده، وما يجلب البهجة والراحة لنفوسهم هو هذه الجنان التي تطيب فيها نفس الإنسان وتحسّ بالدعة والأمن والاستقرار. وكان المؤمنون الأخيار يداومون على التصدّق بهذه الأشياء في سبيل الله عزّ وجلّ؛ تقديماً لرضا الله تبارك وتعالى على رضاهم. والعيون هي عيون الماء النابعة التي تبعث البهجة في النفوس شأنها في ذلك شأن البساتين الخضراء؛ لأن الماء مصدر الحياة والاخضرار، وهو دليل على نمو الحياة وكل ما في الوجود؛ ولهذا فإن القرآن الكريم يصرح في هذه الآية بأن مسببات البهجة عند الإنسان هذه لا تفارقهم أبداً، وأن هذه المناظر التي تستأنس بها نفوسهم وتأنس لها لا تنقطع عنهم أبداً.

---

(١) مستدرك وسائل الشيعة ٧: ١٩٢ ـ ١٩٣ / ٨٠٠٦.

المبحث الرابع: في لباس أهل الجنة

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ﴾، وهنا يرد سؤال هو: ما قيمة اللباس بالنسبة للإنسان المؤمن الذي قد منَّ الله تبارك وتعالى عليه بالجنة فيها؟ إن الثوب في حقيقة الأمر لا يغير من الواقع شيئاً، ولا يرفع صاحبه ولا يخفضه. ومما يناسب المقام ما يروى من أن أحد الأعراب دخل على المأمون وأخذ يكلّمه، فراح المأمون ينظر إلى ثيابه وكانت خلقة، فقال له: أصلحك الله، أنا الذي يكلمك، وليس ثوبي.

ويقول أحد الأُدباء:

علي ثياب فوق قيمتها الفلس ... وفيهن نفس دون قيمتها الإنسُ

فثوبك مثل الشمس من تحتها الدجى ... وثوبي مثل الغيم من تحته الشمسُ[1]

إذن فالثوب لا يغيّر من الواقع شيئاً، ولا دور له في رفع الإنسان وخفضه كما ذكرنا[2]. وما دام الأمر كذلك فما الداعي لأن يكون الثوب من السندس أو الحرير، أو من أنواع الأقمشة الأخرى؟ وما دام الشخص مغموراً في رضوان الله تبارك وتعالى فما أثر هذا الثوب عليه؟ وللإجابة عن هذا التساؤل فإننا نقول: إننا نمتلك مقاييس اعتبارية، فنحن الآن نقيس الإنسان بملابسه وبمظهره الخارجي، فإذا ما رأى أحدنا إنساناً ذا ملابس فاخرة فإنه يقدم له فروض الاحترام، وبخلافه ما لو رأى إنساناً يلبس ملابس بالية أو مرقعة. وهذا في واقع الأمر قياس للإنسان لا بخلقه أو بعطائه بل بمظهره الخارجي، وهو أمر غير صحيح

---

(١) قرى الضيف ٤: ٤٤٢.

(٢) والدليل على هذا أن أمير المؤمنين عليه السلام قد فاق صيته الوجود كله، وقد أحيا الله ذكره، وجعله خالداً خلود الدهر، ومع ذلك كان يلبس تلك المدرعة التي مرّ الحديث عنها.

وخارج عن نطاق تعاليم الشريعة السماوية.

لكننا مع ذلك نقول: هل إن هذا يلعب دوراً بارزاً في الجنة، أي أن الذي يلبس الحرير والإستبرق في الجنة هل هو غير ذلك الذي يلبس ثوباً عادياً؟ الحقيقة أن هذا لا يمكن أن يتصوّر شيئاً هامّاً هو أن القرآن الكريم يريد أن يخاطب الغرائز عند الناس؛ فالبعض ممن عاصر الرسالة كانت مداركهم وعقولهم بدائية لا تقوى على إدراك ماهو وراء الحس؛ ولذا فإن القرآن الكريم أراد أن يخاطب غرائز هؤلاء، وأن يقرب لهم معنى النعيم، وأن يوضحه ويدخله في أذهانهم؛ حتى يتمكنوا من أن يستوعبوه؛ لأنهم نشؤوا في أماكن كلها شظف عيش وشقاء وخشونة؛ ولذا فإنهم يتصورون أن هذا اللباس، وهذا اللون من الحياة هما مرتبة من مراتب الكرامة.

فهؤلاء عندهم أن الإنسان حينما يلبس لباساً من الدمقس أو الحرير فإنما هو في موطن تكريم وكرامة؛ ولهذا السبب فإن القرآن الكريم كان يتناغم مع غرائز هؤلاء ومع مشتهياتهم في خطاباته لهم.

وغير هذا فإنه ليس هناك من شيء؛ لأن هذا اللباس في حقيقة الأمر لا يغيّر من الواقع شيئاً؛ ولذا فإننا نجد أن النبي الأكرمﷺ يقول: «**موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها**»[1]. وهكذا فإنه لا فرق بين أن يلبس الإنسان ثوباً من سندس أو ثوباً عادياً مادام بين يدي الله، تغمره رحمته ونعمته ويجلببه رضوانه فيدخله جنته. وهكذا فإن المسألة لاتعدو أن تكون مسألة خطاب لتلك الطبقة التي كان مستواها لا يرتفع عن هذا الحد من التفكير والتصور.

وكما هو معلوم فإن الإسلام حينما جاء فإنما جاء ليخاطب الجماعات

---

(١) مسند أحمد ٣: ٤٣٣ ـ ٤٣٤، صحيح البخاري ٤: ٨٧، ٧: ١٧٠.

الموجودة آنذاك في المجتمعات خطاباً غاية في البساطة[1]. وبما أن قسماً كبيراً من أُولئك الذين عاصروا الرسالة كانوا متوسطي الذكاء فإن الله تبارك وتعالى أراد أن يبيّن لهم معنى النعيم، وأن يقرّبه إلى نفوسهم جرياً على ما كانوا يعتقدونه ويظنونه مرتبة من مراتب التكريم. وإلّا فإن لبس مثل هذه الثياب لا يغير من الواقع شيئاً؛ فسواء كان لباس أهل الجنة دمقساً أو ثياباً عادية فإن ذلك لا فضل فيه ولا تكريم ما دام هنالك رضوان الله تبارك وتعالى[2]. ونحن لا ننكر أن هناك جماعات عاصرت الرسالة كانوا على وعي تام، لكن القرآن بما أنه جاء للناس كافّة فإنه يخاطبهم على أدنى مستويات تلك الجماعات، وإلّا فإن شارة الإكرام والاحترام والتكريم هي قوله تبارك وتعالى: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾[3].

المبحث الخامس: في بعض من صفات أهل الجنة

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿مُتَقَابِلِينَ﴾، وصفة متقابلين هنا توحي بأن أهل الجنة لا يمكن أن يتدابروا أو يتقاطعوا، فهذه المفردة فيها إيحائية بأن من يمن الله تبارك وتعالى عليهم بالجنة فإنهم يتواصلون ما بينهم أبداً، وهذا بخلاف أهل الدنيا الذين يتدابرون ويتقاطعون، فيجعل الإنسان أخاه الإنسان وراء ظهره، وهو تعبير فيه كناية واضحة عن التقاطع والتهاجر. ولهذا فإن التقابل لا يعني بالضرورة

---

(١) ولذا فقد قال رسول الله ﷺ: «إنا معاشر الأنبياء نكلم الناس على قدر عقولهم». المحاسن ١: ١٩٥ الكافي ١: ٢٣ / ٥، ٨: ٢٦٨ / ٣٩٤، كنز العمّال ١٠: ٢٤٢ / ٢٩٢٨٢.

(٢) قال عزّ من قائل: ﴿وَعَدَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ التوبة: ٧٢.

(٣) القمر: ٥٥.

قرب المسافة المكانية، بل إنه يعني قرب التفكير والسلوك والمشاعر والاشتراك في كل ذلك. وهذا التقارب هو الذي يعطي الناس صفة التقابل؛ ولهذا فإننا نجد أن شخصين تفصل بينهما آلاف الكيلومترات لكنهما مع هذا متوادّان ويحب أحدهما الآخر، وبخلافه فإنه ربما نجد شخصين قريبين من بعض في المسافة المكانية لكنهما تفصل بينهما آلاف الكيلو مترات من حيث مشاعرهما وأحاسيسهما وتفكيرهما. فهذان متقاطعان وإن تقاربا مكاناً، وأولئك متوادّان متقاربان وإن تباعدا بمسافات شاسعة مكاناً.

إذن الأساس في مسألة القرب والبعد هو التناغم والاندماج الفكريان، أما المسافة المادية فلا شأن لها قلّة وكثرة؛ ولهذا فإن من لا يتفق مع إنسان فإنه ربما يبغضه ويكرهه، مع أنهما ربما يعيشان في مكان واحد وربما تحت سقف واحد. وما ذلك إلّا لأن النفوس غير متلائمة وغير متقاربة. ومما يتفق مع الحال الذي نحن فيه ما يروى من أن السيد مهدي بحر العلوم كان في النجف الأشرف، فكتب إليه النراقي صاحب (جامع السعادات)، وكان في طهران متشوقاً إلى أرض النجف:

ألا قُل لسكان أرضِ الغري لقد فُزتمُ بجنانِ الخلودْ
أفيضُوا علينا من الماء أو فنحنُ عُطاشى وأنتم ورودْ

فأجابه السيد ﷺ بقوله:

ألا قل لمولى يرى من بعيد ديار الحبيب بعين الشهودِ
لك الفضل من شاهد غائب على شاهد غائب بالصدودِ

فـنحن عـلى القـرب نشكـو الظـما وفـزتم عـلى بـعدكم بـالورودِ[1]

فهو ﷺ يقول له: إن القرب والبعد هما أمران نفسيان، وليسا بدنيّين؛ ولهذا فإن الإنسان حينما يبتعد عن مكان وهو يحمله في مشاعره وذهنه وقلبه كالوطن مثلاً، فإنه دائماً يكون قريباً منه؛ لأنه يعيش كل جزئيات ذلك المكان أو الوطن، وكل تفاصيله، أما من تفصله المسافة الفكرية أو مسافة العاطفة مع الاقتراب الزمـاني فإن هؤلاء ربما يقتل بعضهم بعضاً كل يوم قتلة مع أنهم يعيشون مع بعض، وربما كما ذكرنا تحت سقف واحد.

إذن فالمسألة لا علاقة لها بالبعد والقرب المكانيين أبداً، وإنما تنحصر علاقتها بالود والانسجام والتمازج والاشتراك في المشاعر والروح والعاطفة. وهذا هـو المعنى الذي يريده القرآن الكريم حينما يعبّر بقوله: ﴿مُتَقَابِلِينَ﴾، يعني أن هؤلاء ليس بينهم تدابر أبداً وإن اتسعت الجنة وترامت أطرافها؛ ذلك أن أسباب التدابر والتنافر غير موجودة هناك، والتقاطع ليس من شيم وعادات وأخلاقيات أهـل الجنة.

والدليل على هذا أن التقاطع عادة والتباغض والكره وابتعاد البعض عن البعض الآخر لا يكون إلا عن مسببات دنيوية؛ كأن تكون طمعاً أو مصلحة شخصية أو ما إلى ذلك مما يدور في هذا الفلك. فكل شخص في الدنيا يحاول أن يستولي على ما يملكه الآخرون، وبهذا فإنهم يتباغضون ويتنافرون، ويبتعد بعضهم عن بعض من أجل حطام زائف زائل. فهذه هي أسباب التباغض والتناحر، لكن هل إن هذه المسبّبات موجودة في الجنة؟ والجواب طبعاً هو النفي دون أي تردّد؛ لأن القرآن

---

(١) الفوائد الرجالية ١: ٧٤ / مقدمة المحقق.

الكريم يقول: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ﴾[١]؛ فلا حقد هناك، ولا موجبات له، ولا سبب للغلّ والبغض والكراهية.

ولهذا فإنني أقول: إن الصورة التي ترسمها لنا السماء عن الجنة تخضع لمقاييس بعيدة جداً عن مقاييسنا الدنيوية.. مقاييس هي لما وراء الطبيعة وما وراء الوجود. فهؤلاء الذين امتنّ الله عليهم بالجنة لا حقد بينهم ولا تباغض ولا تدابر ولا ضغينة أبداً. ومما يروى في المقام أن أحد الصحابة كان هذا المعنى يتردّد في نفسه، فدخل على النبي ﷺ وقال له: يا رسول الله، إذا متَّ ومتنا، واختار الله تبارك وتعالى لك لقاءه، وذهبت إلى الجنة، كنت في علّيّين لا نراك ولا نجتمع بك، لأننا إذا قدر لنا أن ندخل الجنة فإن درجتنا حتماً أقل من درجتك؛ لأنك ستكون مع الأنبياء والصديقين، ونحن لا نقدر على فراقك ساعة، فكسف سيكون أمرنا ومصيرنا؟ وذكر حزنه على ذلك[٢]؟

فيطمئنه النبي ﷺ مبيناً له أن علو المقام في الجنة لا يمنع من التزاور والتجاور، وتبادل العاطفة والسلام أبداً، فلا غلّ ولا حقد ولا غيظ و لا بغض. أي أن هؤلاء كلهم متقابلون، وسيظلّون ﴿مُتَقَابِلِينَ﴾، وكلهم في كنف الإله وتحت رعايته ورحمته. وهذا هو الواقع الذي لا نكران له، والذي لايمكن إلّا أن يكون لأن أهل الجنة قد أخلصهم الله تبارك وتعالى وخلّصهم من شوائب الدنيا وانفعالاتها، وما تنطوي عليه تلك الانفعالات من أحقاد وظغائن وعواطف تجيش بالبغضاء والكره والحسد والحقد وما إلى ذلك. فكل ما في الجنة هو أُخوّة في الله، ولهذا فإنه إذا ابتُدئت من هنا فهي تنتهي إلى تلك النتائج المشرقة.. النتائج

---

(١) الأعراف: ٤٣.

(٢) تفسير السمعاني ١: ٤٤٦، تفسير الثعالبي ٢: ٢٥٩ ـ ٢٦٠.

التي تنص عليها هذه الآية.

إننا غالباً ما نجد أُناساً يتآخون في الله تبارك وتعالى، وليس لأجل دوافع دنيوية أُخرى، وهؤلاء حتما هم الذين سوف يسكنون الجنة على سرر متقابلين فيما أسلفوا من عمل صالح هنا، وسوف يلتقون هنالك في الجنة؛ لأنها ستكون مآلهم:

ورفاق هذي الدار فيما أسلفوا للكاتبين رفاق تلك الدار

والآية الكريمة دلّت على إن الإنسان لا يمكن له أن يستغني عن الإخوان حتى في الجنة، فلو كانت الجنة بغير إخوان تنعم معهم نفس الإنسان وتشعر بالراحة والاطمئنان والاستقرار، فإنها حينئذٍ لم تعد جنة. إن أهم شيء هناك هو أن يجد الإنسان من يتناغم معه نفسياً. وعادة الإنسان إذا ما فقد إخوانه وأحباءه فإنه يعيش في غربة لا حدود له، يقول أحد الأدباء وكان يخرج ليزور قبر صديق له:

أخ طالما سرّني ذكره وأصبحت أشجى لدى ذكرِهِ

وقد كنت أغدو إلى قصره فأصبحت أغدو إلى قبرِهِ

وكنت أراني غنيّاً به عن الناس لو مدّ في عمرِهِ

إذا جئتُه طالباً حاجة فأمري يجوز على أمرِهِ[1]

وهذا هو الواقع فعلاً؛ لأن الإنسان إذا ما فقد أخاه أو عزيزاً عليه فإنه سوف يشعر بالفراغ. وهذا أيضا هو السبب في أن الإنسان حينما يمتد فيه العمر وتطول فيه الأيام وقد استل الموت أحباءه وأصدقاءه وأترابه ورفقاءه، فإنه يظل يتلفّت يميناً وشمالاً باحثاً عنهم، وهو يعلم أنهم قد أخذهم التراب. وحينما يعي هذه

(١) شرح نهج البلاغة ٨: ١١٤.

الحقيقة فإنه سوف يعيش في فراغ قاتل عجيب؛ لأنه حينئذٍ يعيش الماضي بكل تفاصيله دون أن يعيش الحاضر؛ إذ أنه ينفصل عنه تماماً فيعيش ذكريات إخوانه الذين عاش معهم.

وهذه الحالة قد مرّ بها أمير المؤمنين ﵇، حينما كان يخرج إلى قبر خباب بن الأرتّ، وإلى قبور أحبائه ويصيح: «**أين إخواني الذي ركبوا الطريق ومضوا علىٰ الحق؟ أين عمار؟ وأين ابن التيهان؟ وأين ذو الشهادتين**»[1]. وهكذا يقف ﵇ طويلا على المقبرة لأن أحبّاءه كانوا في قعرها، وقد خلفوه وحيداً على وجه الأرض.. إن سعادته هنا في التراب حيث يجثم رفاقه وأصحابه، فكان ﵇ يجلس لينبش الثرى، وليستذكر طيوف أحبائه وأعزائه. وكانت له وقفات كثيرة على قبر السيدة البتول فاطمة الزهراء ﵍، فقد كان ﵇ يخرج إلى قبرها ويقف عليه؛ لأنها كانت تملأ الدنيا عليه، وتملأ حياته بكل تفاصيلها، فكان إذا دخل إلى البيت رأى في وجهها وجه رسول الله ﷺ، لكنه ﵇ بعد أن واراها الثرى افتقد ذلك الخيط، وافتقد عنصر تلك الذكرى، ولهذا فإنه كان يخرج إلى قبرها (سلام الله عليها) ليجلس عنده، فيخطّ الأرض بأنامله:

لكل اجتماع من خليلين فرقة	**وكل الذي دون الفراق قليلُ**
أرى علل الدنيا علي كثيرة	**وصاحبها حتى الممات عليلُ**
وإن افتقادي فاطماً بعد أحمد	**دليل على ألّا يدوم خليلُ**[2]

وهكذا كان ﵇ يسقي ذلك الثرى بدموع عينيه، وكان يطيل الجلوس هناك قبل أن يعود إلى البيت، وفي بيته كذلك، فلم يكن ليفارقه شبح تلك الذكريات، فكان

---

(١) نهج البلاغة / الخطبة: ١٨٢. (٢) ديوان الإمام علي ﵇: ٨٧.

إذا دخل حجرتها ورأى مكانها خالياً بدا عليه التأثّر واضحاً، وبدت على وجهه الشريف قسمات الألم والمعاناة. وكان ما يزيد تأثره أكثر أنه يرى ابنته زينب عليها السلام تجول وسط الدار تبكي أُمها وتندبها بشوق وألم ولهفة، فكان هذا المنظر يـزيده همّاً إلى همومه الكثيرة التي كانت تعتمل في صدره.. كان منظر ابنته الباحثة عن أُمها يؤلمه ويزيد في معاناته. ونحن نقول له: سيدي أمير المـؤمنين، لقـد رأيت ابنتك تجول في الدار بعد أن فقدت فيها شخصاً واحداً هو أُمها الزهراء عليها السلام، إذن كيف بك لو رأيتها تجول في ديار آل محمد عليهم السلام وهي خالية من أصحابها، وليس فيها إلّا الأرامل واليتامى؟

صـاحت صـوت يـا فگـد الاطـيـاب	واللّـه شـموحشه يـا دار الاحـباب
هناك وتسمع الصرخه علىٰ البـاب	أنــا ام عـباس جـيتج لا تـفترين
بـــچت زيـنب وصـاحت تـلگنها	بـــاللّه ويـاي گـومن سـاعدنها
هـــاي أُم البـــنين الراح مـــنها	أولاد اربـــعه خـوتي المـيامين

* * *

بـالأمس كـانوا مـعي واليـومَ قـد رحـلوا	وخـلّفوا فـي سـويدا القـلب نـيرانـا
نــذر عـلي لئـن عـادوا وإن رجـعوا	لأمـــلأن طـــريقَ الطــفّ ريـحانا[1]

(١) شجرة طوبىٰ ١: ٩١.



فهرس العناوين الرئيسة



المحتويات

